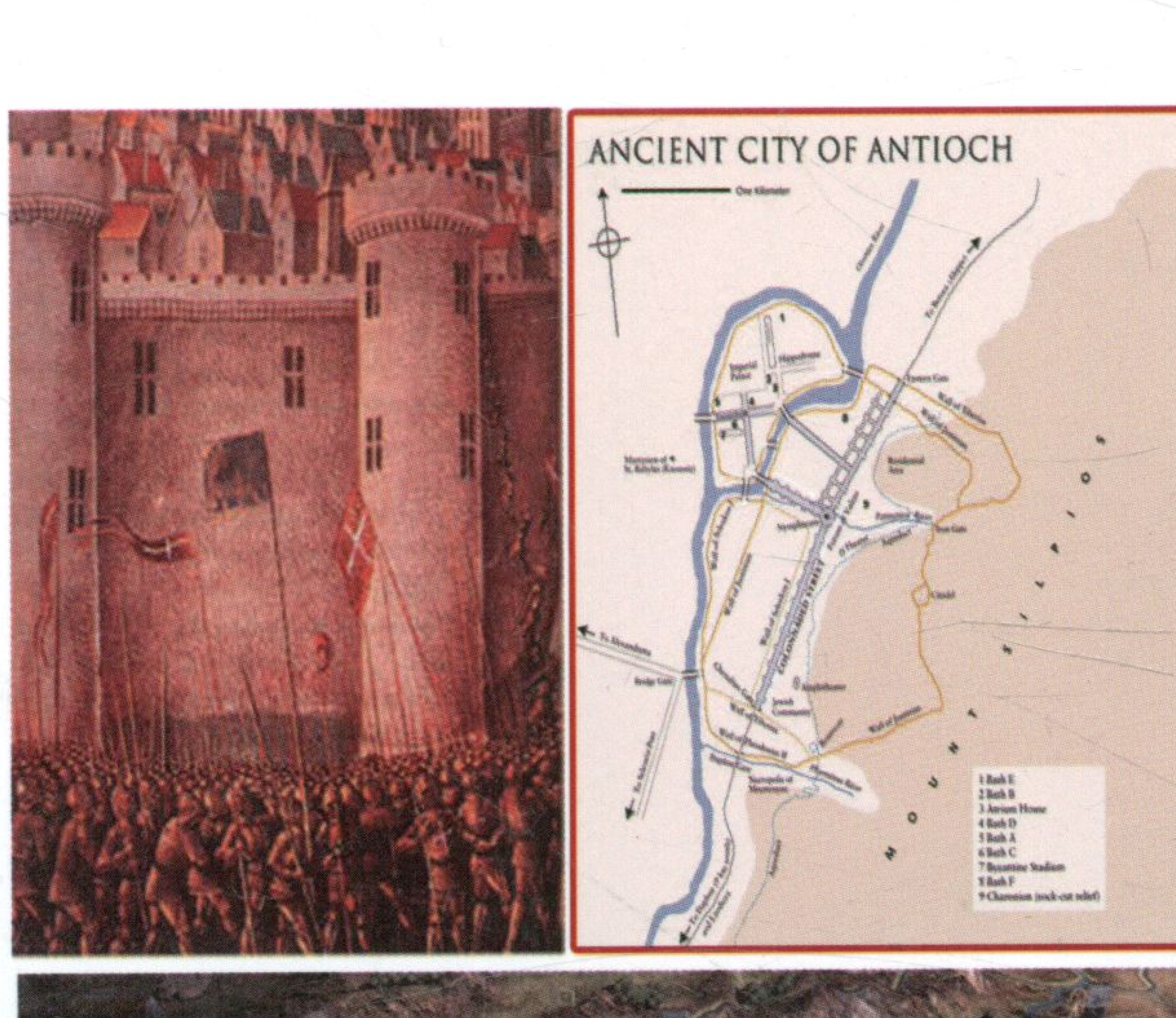
د. طلب صبّار الجنابي

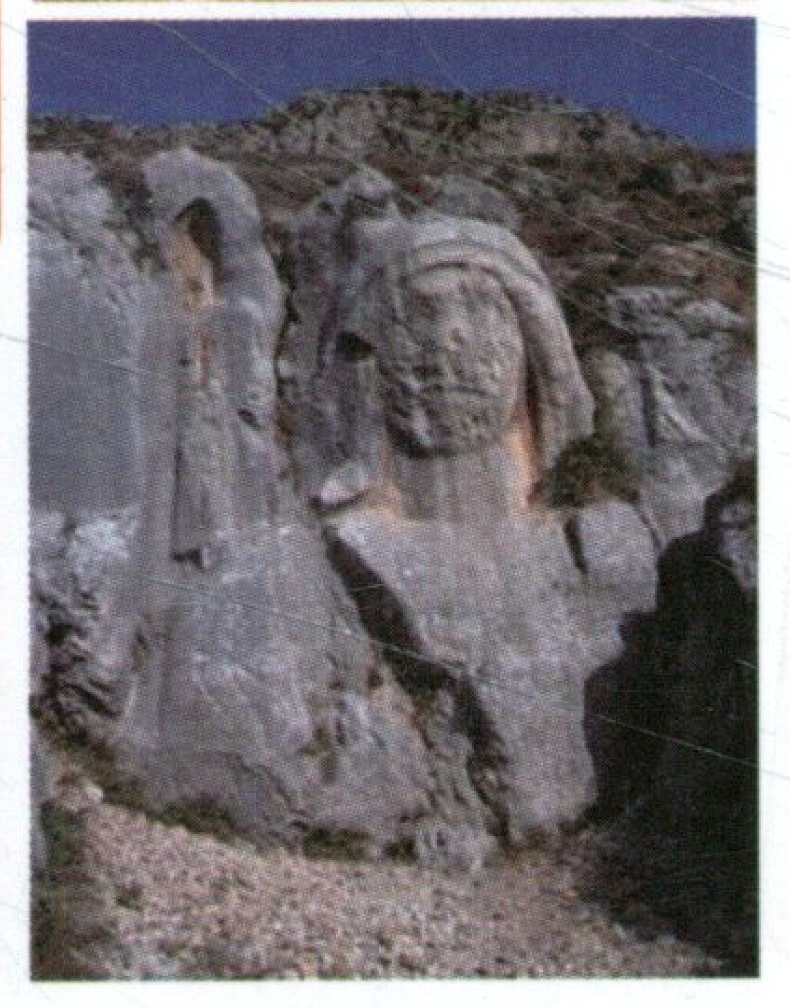
إمارة إنطاكية

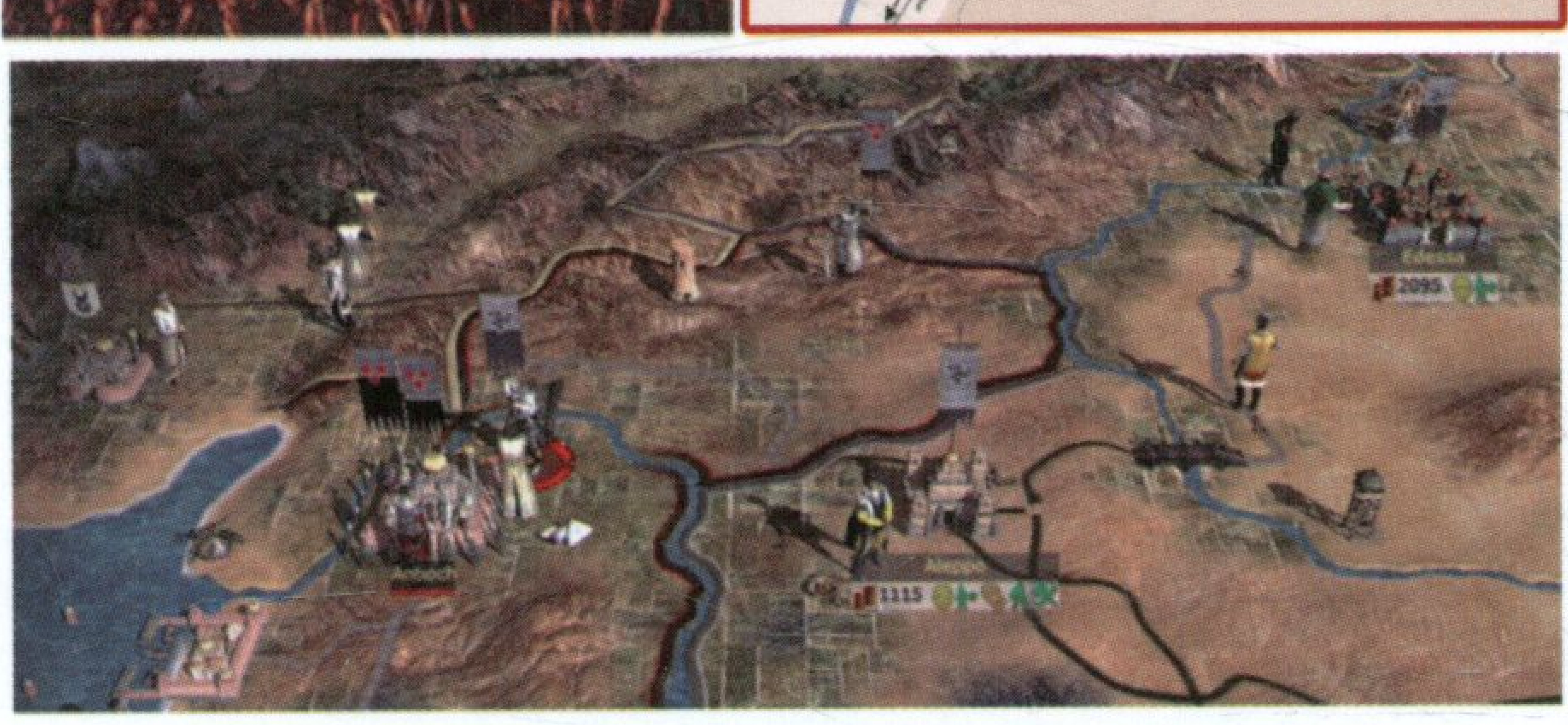
دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية
(٤٩١ - ٦٦٦هـ/١٠٩٨ - ١٢٦٨م)











دراسات تاريخية

٢٠١٣



إمارة أنطاكية

دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية

(491- 666 هـ/ 1098- 1268 م)

اسم الكتاب: إمارة أنطاكية

دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية

(491- 666 هـ/ 1098- 1268 م)

المؤلف: أ. د. طلب صبار الجنابي

عدد الصفحات: 328

القياس: 17.5 * 25

2014/1000م -1434هـ



Dar ninawa for publishing

Ayman Alghazaly

Syria-Damascus

p. o. Box 4650

mob: 00963 933 449734

mob: 00963 958680386

Tel: 00963 11 232 6985

Tel+fax: 00963 11 231 4511

www. ninawa. org

email: info@ninawa. org

ninawa@scs-net. org

facebook. darninawa

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

أ. د. طلب صبار الجنابي

إمارة أنطاكية

دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية

(491- 666 هـ/ 1098- 1268 م)

تصدير

بقلم الدكتور خاشع المعاضيدي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين، وبعد ...

يسرني أن أقدم إلى القراء الكرام كتاباً جديدا عنوانه (إمارة أنطاكية الصليبية، دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الاسلامية) للفترة (491-666 هـ) (1098-1268 م) وهي واحدة من اربع امارات انشأها الصليبيون في بلاد الشام، إبان الغزو الصليبي على المشرق الاسلامي، والكتاب اطروحة دكتوراه للباحث حصلت على درجة الامتياز في التأريخ الاسلامي من جامعة بغداد.

والباحث مؤرخ متنور عالج موضوعه حقبة تاريخية معقدة، تشابكت فيها المصالح، وتصادمت الافكار والديانات والحضارات على أرض مقدسة لدى جميع الاطراف المتنازعة، لكونها موطن الأنبياء والرسل ومهبط الاديان السماوية كلها، والتي كانت وما تزال وستبقى مركز اهتمام جميع حكومات ودول وشعوب العالم.

يتكون الكتاب من ستة فصول، مهد لها الباحث بالحديث عن الظروف الداخلية والخارجية التي سبقت إقامة هذه الإمارة مع تحليل للمصادر التي اعتمدها في بحثه، ومقدمة موجزة تناول في الفصل الاول جغرافية إمارة أنطاكية على الساحل الشمالي لبلاد الشام، الموقع، الحدود، المدن المهمة، وطبيعة أرضها وأنهارها وجبالها وموانئها.

وفي الفصل الثاني تحدث عن مقدمات الغزو الصليبي الأوربي للمشرق الاسلامي موضحا الواقع العربي الاسلامي المجزأ قبل الغزو، ودوافع الغزو الاوربي الصليبي والحشد الشعبي والعسكري لهذا الغزو تحت شعار الصليب لتحرير القدس على حد زعمهم، مع بيان علاقة الغزاة بالإمبراطور البيزنطي وزحفهم عبر آسيا الصغرى وصولا إلى أطراف بلاد الشام ومحاصرة أنطاكية ودخولها بعد أشهر عديدة بخيانة احد حراسها، وتمكنوا من اقامة هذه الإمارة سنة 491 هـ بعد إقامة إمارة الرها شمال حلب.

وتحدث في الفصل الثالث عن علاقة هذه الإمارة بالقوة الإسلامية في بلاد الشام منها: إمارة حلب، وإمارة دمشق، وإمارة حمص، وشيزر، وبني عمار في طرابلس.

وفي الفصل الرابع تحدث عن علاقة إمارة أنطاكية مع الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر، وكذلك مع الزنكيين والأيوبيين في بلاد الشام ومصر.

وعالج الباحث في الفصل الخامس سقوط إمارة أنطاكية الصليبية، موضحا الاسباب الخارجية المتعلقة بالغرب الأوربي المسيحي وما شابه من تفكك، فضلاً عن الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية على النفوذ في المنطقة، كما عالج الأسباب المحلية الخاصة بمشاكل هذه الإمارة مع الإمارات الصليبية الأخرى في الرها والقدس وطرابلس، فضلاً عن صراعها مع الأرمن وظهور دويلات المماليك في هذه البلاد، فضلاً عن المشاكل الداخلية الخاصة بالعرش فيها، والصراعات المذهبية ودور الكنيسة في ذلك.

أما الفصل السادس، فقد خُصص لدراسة الجانب الحضاري لهذه الإمارة، فقد تحدث الباحث عن نظام الحكم والإدارة في جوانبها السياسية والقضائية والعسكرية، كما أفرد جانبا للحياة الاجتماعية مبينا أهم الطبقات الاجتماعية كالنبلاء والفرسان، والنصارى والشركس والمسلمين، وكذلك الطبقات الدنيا كالرقيق والاقنان، ولم يهمل الاشارة إلى الحركة العلمية فيها، مبيناً التأثير المتبادل بين حضارتي المجتمع الاسلامي والحضارة الاوربية.

وتضمن الكتاب عدداً من الخرائط الجغرافية والصور المناسبة لموضوع البحث وألحقه بالخاتمة الملاحق والمراجع والمصادر الوفيرة العدد والنوع.

ومما يذكر للباحث ما بذله من جهد متميز في معالجة الكثير من الاشكاليات المعقدة لفترة البحث، في ظروف معقدة من تاريخ المنطقة محليا وإقليميا ودوليا.

وقام بهذه الدراسة وفق منهج علمي سليم واستقصاء دقيق للمعلومات من مصادرها الأصلية التي تجاوزت المئات، عربية وأجنبية ورسائل الماجستير وأطاريح دكتوراه عديدة ودوريات كثيرة، وصياغة معلوماتها بأسلوب انماز بالدقة والوضوح.

أملي ان يأخذ هذا الكتاب المتميز لهذا الباحث الصاعد مكانة في صدارة المكتبة العربية والإسلامية والأجنبية الأخرى، إضافة لبحوث اخرى كثيرة لهذا الباحث المتوازن، متمنيا له المزيد من التقدم والنجاح في مشواره العلمي الرصين.

ومن الله التوفيق...

الاستاذ الدكتور خاشع عيادة المعاضيدي

استاذ متمرس / جامعة بغداد

بغداد / 5 رجب 1334 هـ

الموافق 15 مايس 2013 م

مُقدّمة

نطاق البحث وتحليل المصادر

أ- نطاق البحث

حظي موضوع الحروب الصليبية بأهمية كبيرة من قبل الباحثين الشرقيين والغربيين على السواء، الذين تناولوا دراسة العصور الوسطى بصورة عامة وتاريخ تلك الحروب بصورة خاصة.

ويستشف من خلال الكثير من تلك الدراسات ولاسيما الغربية منها بروز وجهات النظر الخاصة، فضلاً عن التركيز على الجوانب التي تخص الجانب الغربي من تلك الحروب، وفي الاجمال ان اغلب هذه الدراسات تفتقر إلى وجود البحوث القائمة بذاتها والمختصة في معالجة شؤون إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقتها بالعالمين الاسلامي والمسيحي بشقية الغربي والشرقي واثر ذلك على تطور الأحداث في تلك الإمارة، فقد يرد في تلك الدراسات الغربية والشرقية تناول بعض شؤون هذه الإمارة ولكن بصورة عرضية وضمن الاطار العام للبحوث التي تتناول مجمل الوضع الصليبي.

ورغم أن بعض الباحثين مثل كلود كاهين ورنسيمان وسعيد عاشور وغيرهم* من الذين بذلوا جهوداً واضحة في دراسة تأريخ سوريا الشمالية في فترة الحروب الصليبية وأغنوا بعض مفرداته ولاسيما كاهين، الذي سلط الاضواء على العديد من الجوانب المهمة في تأريخ إمارة أنطاكية، إلا أن تلك الدراسات التي تعد بعيدة من الناحية الزمنية قد استجد بعدها الكثير في هذا الميدان ومن هنا كان هذا الامر سبباً في اختيارنا لهذا الموضوع بدافع الشعور بالحاجة المتزايدة إلى وجود بحث مستقل بذاته في تسليط الاضواء على تأريخ إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها بالعالم الأسلامي، فضلاً عن بعض الوشائج التي ربطتها بالعالم المسيحي.

لذا فقد تم تقسيم هذه الدراسة على تمهيد وستة فصول وخاتمة، اختص كل فصل منها بجانب من جوانب تأريخ هذه الإمارة وبالشكل الاتي:

تناول الفصل الأول ابراز النواحي الجغرافية لإمارة أنطاكية إذ تم الوقوف على أهمية الموقع والحدود مع التعريف بأهم المدن وأبرز ما يميزها، ثم تطرق البحث إلى تناول النواحي الطبيعية للإمارة، كالتضاريس من سهول وجبال وأنهار وبحيرات وبذلك يكون هذا الفصل عبارة عن كشف للأرضية التي قام عليها تأريخ أنطاكية الصليبية منذ قيامها حتى سقوطها.

أما الفصل الثاني فقد كان دراسة لأهم مقدمات الغزو وقيام الإمارة، وتضمن دراسة أولية لواقع الحال لأبرز الظروف السياسية والاقتصادية التي سادت العالمين الأسلامي والغربي ابان الحروب الصليبية، وما يمكن استخلاصه من خلالها لأهم الدوافع التي حدت بالعالم الغربي إلى شن تلك الحروب ضد المشرق العربي الاسلامي تحت راية الصليب، ثم وقفت الدراسة على بدايات تكوين الجموع الأوربية وسيرها عبر أوربا وآسيا، وما صادفها من أحداث بارزة، كالموقف البيزنطي من الغزو الصليبي، ثم تتبع سيرها حتى أصبحت على مشارفها إمارة أنطاكية حيث مكث الصليبيون أشهراً عديدة قبل أن يتسنى لهم دخول المدينة عن طريق الخيانة، كما أوضحت الدراسة أبرز وجوه الصراع السياسي بين القادة الصليبيين للاستئثار بعرش أنطاكية.

وكان الفصل الثالث مختصاً بدراسة ميدان العلاقات الإسلامية الأنطاكية في بلاد الشام في فترة الحكم السلجوقي، إذ ضم هذا الفصل دراسة مستفيضة لعلاقات أنطاكية الصليبية بجيرانها المسلمين في إمارتي حلب ودمشق ثم تسليط الأضواء على بعض القوى المحلية الأخرى.

وجاء الفصل الرابع مكملاً لما ورد في الفصل الثالث، إذ تناول هذا الفصل الإطار الخارجي لتلك العلاقات فيما يتعلق بالخلافتين العباسية والفاطمية وموقف كل مفهما من أحداث الغزو واستجلاء ردة الفعل لكل منهما إزاء الغزو وما ارتبط بذلك من الأحداث التي كان لها الأثر الكبير على مستقبل الإمارة في شمال الشام، كما تتبع الفصل مسيرة العلاقات بين إمارة أنطاكية والقوى الأسلامية في الشام في العهدين الزنكي والأيوبي.

أما الفصل الخامس فقد تناول أهم الأسباب التي أدت إلى زوال إمارة أنطاكية الصليبية، وتم التحري عن تلك الأسباب في الجانب الأوربي وتطور الموقف الغربي من موضوع الحركة الصليبية عبر تأريخها في الشرق الأسلامي، ثم الكشف عن هذه الأسباب في ميدان آخر هو العلاقات العدائية التي ربطت الإمبراطورية البيزنطية بإمارة أنطاكية الصليبية، وما نجم عن هذه العلاقة من إرباك وضع الصليبيين في أنطاكية وماجره التحدي المستمر والمحاولات البيزنطية للإطاحة بإمارة أنطاكية وضمها إلى الإمبراطورية البيزنطية، كما عرض الفصل أهم أسباب انهيار وسقوط هذه الإمارة ضمن الإطار المحلي لها ممثلاً في

علاقاتها بجيرانها الصليبيين والأرمن، وما جره ذلك من متاعب على مستقبل وجودها في المنطقة الذاتي، فضلاً عن الأسباب الذاتية في ضعف الإمارة وهذا يتمثل في مشاكل العرش وتدخل النساء، فضلاً عن الصراع الطائفي والمذهبي بين طبقات السكان.

واشتمل الفصل السادس على دراسة لأهم المعطيات الحضارية الإمارة، إذ تناول نظم الإدارة والحياة الدستورية في الإمارة ثم الوقوف على أهم النظم العسكرية، ودراسة أهم الشرائح الاجتماعية والمذهبية في الإمارة وما يميز حياتها من العادات والتقاليد الموروثة والمكتسبة، ومدى تأثر الكيان الاجتماعي للصليبيين في أنطاكية بالحياة الشرقية من جهة، ومن جهة أخرى تناول هذا الفصل النشاط الاقتصادي للسكان في مجال الزراعة والتجارة والصناعة، ومن ثم الوقوف عند أبرز سمات الحياة العلمية في هذه الإمارة في ميدان الآداب والعلوم.

ولابد لي في أطار هذه المقدمة من ذكر شيء من المصاعب البالغة التي واجهتني في اعداد هذا البحث ولا اقول ذلك التماسا للأعذار لكنها الحقيقة التي تمت بصلة وثيقة إلى طبيعة هذا البحث، فإن المصادر الإسلامية الأساسية التي تناولت العلاقة السياسية لإمارة أنطاكية في المحيط الإسلامي، كانت على جانب من الوفرة، مثل ابن القلانسي وابن الأثير وابن واصل وابن شداد وابن العديم وغيرهم كثير، إلا أن هذه المصادر لم تتناول مجريات أحداث الإمارة من الداخل لذلك اتسمت معظم تلك الروايات بكونها أحادية الجانب، واذا ما اريد مقارنة الحدث عند كلا الطرفين، فلا بد من الرجوع الى الروايات الغربية التي يجب على الباحث ان يضع في حسابه توخي الدقة والحذر الكبير في قبول ما جاء فيها، ويكون الوضع أكثر صعوبة لو أريد البحث عن الجوانب الحضارية للإمارة إذ أغفل المؤرخون المسلمون تماماً هذا الجانب ولم يصفوا لنا شيئاً من أحوال هذه الإمارة من الداخل في مختلف الجوانب الأساسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية، سوى ما أورده أسامة بن منقذ من شذرات عن بعض أحوال الفرنج وعاداتهم، أو ما ورد من نزر يسير بين السطور مما أورده البعض، ومن المصاعب الاخرى الجدية أن الكثير من تلك المصادر الغربية لازالت مدونة باللغة اللاتينية أو الفرنسية القديمة أو الإغريقية، وقد يصعب فهمها وترجمتها مما يشكل عبئاً إضافيا على الباحث إذ كان عليه مواجهته للانتفاع مما في ثنايا تلك النصوص من أخبار تغني هذا الجانب أو ذاك.

وفي الختام أرى وجوب الاعتذار لما يكون قد بدر خطأ أو سهواً في ثنايا هذا البحث، وأرجو أن تدرأ السيئة بالحسنة، عما قد حدث من زلة أو هفوة، ولست أزعم أن بحثي هذا قد برئ من الهنات ولكنني بذلتُ فيه قصارى جهدي فما اصبت فيه فبتوفيق من الله تعالى

وما لم أصب فيه فمما يقع فيه الباحث عادة، ولا سيما وهو يطرق موضوعاً جديداً، وإني لأطمع من القارئ أن يثمن الجهد المبذول، ويصفح عما ظهر من تقصير.

ب- تحليل مصادر البحث

اندفعت الجموع الصليبية من وسط وغرب أوربا وأخذت طريقها عبر الإمبراطورية البيزنطية نحو الشرق، حيث دارت أحداث ذلك الغزو الذي امتد زهاء قرنين، وهذا يعني أن البحث في نطاق الحركة الصليبية يستوجب الوقوف على أهم المصادر من غربية وشرقية التي عاصرت ذلك الغزو أو تناولت أحداثه بالبحث في فترات لاحقة، وبذلك تعددت اصول تلك المصادر من لاتينية وفرنسية قديمة، إلى اغريقية وأرمنية، فضلاً عن السريانية والفارسية، ثم المصادر العربية الإسلامية التي تغطي أوسع مساحة من الأحداث السياسية للغزو الصليبي وما دار من أحداث على أرض المشرق العربي الاسلامي.

وتتقدم هذه المصادر مجموعة من الرسائل والوثائق* المتبادلة بين أطراف عدة، إذ تتضمن البعض منها معلومات تندر في سواها من التواريخ والحوليات وقد رفدت هذه المصادر البحث بمعلومات مهمة على صعيد العلاقات بين الاطراف المتنازعة حين يتعلق الامر ببعض القرارات أو الاتفاقات فضلاً عن التقاط بعض المعلومات الواردة فيها والتي تخدم الجانب الحضاري في هذا البحث.

ومن مثل تلك المراسلات ما حصل بين البيزنطيين وصلاح الدين الايوبي سنة 581هـ/ 1185م، حول مشروع التعاون بينهما، في معاولة للتصدي لنوايا الصليبيين في الشرق.

ومن تلك الرسائل ايضاً الخطاب الذي توجه به البابا هنريوس الثالث في 16 جمادي الأول 618هـ/ تموز 1221 م إلى مندوبه بيلاجيوس الذي صحب الحملة الصليبية الخامسة فقد أوصاه في ذلك الخطاب بحسن التعامل مع بوهمند الرابع أمير أنطاكية كي لا يدفعه إلى النفور والارتماء بأحضان المسلمين.

وفي الإجمال يمكن ان تصنف المصادر الأساسية من عربية وأجنبية على الشكل الاتي:

أولاً: المصادر العربية

إذا كانت المصادر الأجنبية على اختلاف أصنافها قد قدمت معلومات مهمة وأساسية عن دور الحروب الصليبية وتناولت العلاقات التي سادت بين الطرفين، فإن المصادر العربية الإسلامية تعد الأهم في هذا الميدان لسببين أساسيين: أولهما، إن المصادر العربية أغزر

انتاجا فيما يتعلق بموضوع الحروب الصليبية وتفسير ذلك يكمن في تطور الوعي التاريخي لدى العرب المسلمين الذي بلغ درجة رفيعة في تلك المدة.

وثانيهما: إن المؤلفات الإسلامية تعد أكثر حيدة في معالجتها للأحداث والعلاقات بين الطرفين، وهذا ينبع من المواقف المبدئية لدى المؤرخين المسلمين التي تستند اساساً على الموقف الإسلامي من الملل الاخرى.

وفي نطاق المصادر التاريخية يتقدم أبن القلانسي[1]، في كتابه، ذيل تأريخ دمشق على سواه، والكاتب عبارة عن حوليات دمشقية، وينفرد ابن القلانسي بتناوله لتأريخ بلاد الشام في الحقبة التي اشتملت على الغزو الصليبي وعهد نور الدين محمود، ويكاد يكون المؤرخ العربي الوحيد الذي عالج الحقبة المبكرة في تأريخ الغزو الصليبي، وقد امتازت معلوماته بالدقة الكبيرة في معالجة الأمور. وتبرز أهمية ابن القلانسي في هذا البحث في أنه أمدنا بمعلومات قيمة عن علاقة النورمان في أنطاكية بعموم القوى الاسلامية بصورة عامة ومسلمي دمشق وحلب بصورة خاصة، وقد عُد كتابه الاساس الذي اعتمده كل من ابن الاثير، وسبط ابن الجوزي وأبي شامة، ومعظم من جاء من بعده.

ويلي ابن القلانسي، ابن الاثير الجزري* وله مؤلفات عدة، وقد أفادت الدراسة من مصدرين منها، هما التأريخ الباهر (تأريخ الدولة الاتابكية، ملوك الموصل). وكتاب الكامل في التأريخ.

وفيما يخص كتاب الباهر فهو مختص لتدوين جهود الأسرة الزنكية والدور البارز الذي قامت به تلك الاسرة في تكوين جبهة المقاومة الاسلامية، ثم امتداد سلطان الأسرة إلى الشام، ثم جهود الزنكيين في بناء صرح الوحدة بين مصر والشام، وبذلك سلط ابن الاثير الكثير من الاضواء على العلاقة بين المسلمين والصليبيين من خلال تناوله نشاط الزنكيين ضد الغزو الصليبي[2].

وأما الكتاب الأهم، هو الكتاب الكامل في التأريخ، وهو على نمط التواريخ العامة، وقد أمدنا ابن الاثير من خلال الكامل بمعلومات وفيرة عن علاقة المسلمين بالصليبيين في إمارة أنطاكية، كما إننا لم نجد بعض ما أورده عند سلفه ابن القلانسي، وهو يعتمد في الكثير مما يرويه على الروايات الشفوية التي سمعها من أبيه وقد اتصفت معلوماته بالثقة والاصالة، مع ما يعرف عن ميل ابن الاثير للزنكيين.

ورغم الصفة العمومية لكتاب الكامل إلا أن المؤلف قد خصَّ الشام والصراع الإسلامي- الصليبي بمساحة واسعة من مؤلفه، ويبدو أن ابن الاثير- فيما يتعلق بأخبار بلاد الشام - قد افاد مما أورده العماد الكاتب الاصفهاني وابن شداد فضلا عن ابن القلانسي[3]،

ولابد من القول ان ما كتبه ابن الاثير قد تجلت أهميته اكثر فأكثر بأنه قد غطى مدة زمنية واسعة من تأريخ الصراع الإسلامي الصليبي.

ويمثل ابن العديم* في كتابه زبدة الحلب في تأريخ حلب أهمية خاصة لأن هذا الكتاب حوليات لهذه المدينة في زمن الحروب الصليبية، حتى توقفه عن الكتابة سنة 641هـ، وللمؤلف كتاب آخر هو (بغية الطلب في تاريخ حلب) وتكمن أهمية كتابه الأول في تناوله لدراسة العلاقات بين المسلمين والصليبيين عبر محور حلب- أنطاكية وهو الموضوع الذي يشكل مساحة كبيرة في حيز هذه الدراسة نظراً للخصوصية التي ميزت علاقة حلب بإمارة أنطاكية الصليبية.

ومع أن الكتاب يخرج عن الاطار الذي يوحي به العنوان إذ يتناول أبرز أحداث العالم الاسلامي ليس في عموم بلاد الشام فحسب بل في العراق ومصر وبلاد سلاجقة الروم، وعلاقة هذه الأطراف بحلب، ومن الواضح ان ابن العديم قد أخذ عمن سبقه مثل ابن القلانسي وابن الاثير وابن شداد وغيرهم.

ويُعد مؤلف ابن العديم بحق من أبرز المصادر الاسلامية التي عنيت بمعالجة العلاقة بين إمارتي أنطاكية الصليبية وحلب بصورة خاصة، وقد أمدنا بمعلومات لا نجدها عند سواه، كالصراع الأنطاكي الأرمني.

وممن أرخ لصلاح الدين، ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (539-632هـ/ 1145- 1239م) صاحب كتاب النوادر السلطانية أو سيرة سيده صلاح الدين، وقد أخذ ابن شداد في الحقبة التي سبقت وجوده عمن سبقه.

أما أحداث زمانه فقد برع وأخلص في تدوينها فهو شاهد عيان على ما جرى من الحروب والفتوح في زمان صلاح الدين، وتعد معلوماته مهمة في بابها؛ لأن راويها يتميز بثقة كبيرة، وقد تضافرت معلومات ابن شداد مع الاصفهاني «الفتح القسي» لتسجيل أعمال صلاح الدين في معركة حطين وفتح القدس، ثم فتح ساحل الشام بما في ذلك اقليم إمارة أنطاكية الصليبية.

وممن يستحق قدراً كبيراً من العناية بين مؤرخي هذه المادة، هو جمال الدين عبد الله بن محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل قاضي حماة الذي كان مولده سنة 604هـ/ 1207م بحماة وتوفي بها سنة 697هـ/ 1298م وإلى جانب شهرة المؤلف فقد اشتهر كتابه (مفرج الكروب) ومما يزيد من أهمية الكتاب أن مؤلفه عاش في خضم الأحداث، كما أن ابن واصل سكن في مصر في فترة ازدحمت بالأحداث، حيث شهد تفكك الدولة الأيوبية ووصول جيوش المغول إلى الشام، ثم زوال الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك، كما عاصر المؤلف حملة لويس

التاسع ملك فرنسا إلى الشرق ووصف لنا آثار تلك الحملة على العلاقات بين الصليبيين وجيرانهم المسلمين، والذي يدقق في روايات من جاء بعد ابن واصل من المؤرخين يجد أن الكثير منهم قد أخذوا عنه، مثل اليونيني والذهبي والعيني وأبي الفداء وغيرهم.

ومن مؤرخي هذه الفترة أبو شامة* (599 هـ/ 1203- 665 هـ/ 1267م) ومن أهم مؤلفاته التاريخية كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) وكتاب (عيون الروضتين في الدولتين)، وله ايضاً كتاب (الذيل على الروضتين) وهو تراجم لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين.

وكتاب الروضتين هو مختصر لكتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر[4]، إلا أنه أضاف إليه الكثير من الأحداث المحلية الخاصة ببلده دمشق وقد كرس الجزء الاعظم من كتاب الروضتين لأخبار دولتي نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي.

ثم عاد واختصر كتاب الروضتين في (عيون الروضتين) ويتضمن ذلك أخبار الحقبة الممتدة من سنة (521 هـ/ 1227 م) إلى (590 هـ/ 1194 م تقريباً) وهي ذات المدة التي تضمنها كتاب الروضتين، ومما يزيد مؤلفاته أهمية أنه اخذ من غيره الكثير مثل ابن القلانسي والعماد الكاتب وابن أبي طي وابن الاثير وغيرهم[5].

ومن المؤلفات الاخرى التي افاد منها البحث، ولاسيما في الفصل الحضاري كتاب (الاعتبار الشهر) للأمير أسامة بن منقذ (ت: 584هـ/ 1178 م) ويكاد أن يكونُ المصدر الاسلامي الوحيد الذي عنيَ بالحديث عن شيء من عادات الفرنج وتقاليدهم وانتبه لما يدور في أروقة الحياة الاجتماعية في عصره، فضلاً عن تعرضه للروايات التاريخية ذات الطابع السياسي والحربي التي تخص العلاقات السياسية بالصليبيين في فترات الحرب والسلم، وهناك مصادر اخرى قد أفاد منها البحث ولكن لا يتسع المجال لذكرها جميعاً، وقد أوردنا عنها بعض الأخبار في ثنايا دراستنا.

هذا عن المصادر التاريخية، اما كتب البلدانيين والرحالة العرب المسلمين وغيرهم فقد اغنت البحث بمعلومات مهمة، ولاسيما الفصل الأول الذي تناولنا فيه النواحي الجغرافية لإمارة أنطاكية، ومن هذه الكتب: (المسالك والممالك) للاصطخري، والمقدسي في (احسن التقاسيم)، ثم كتاب ياقوت: (معجم البلدان)، وأبو الفداء، في كتابه (تقويم البلدان)، وابن الشحنة، في كتابه (الدر المنتخب من تاريخ حلب)، وقد أورد في ثناياه معلومات جغرافية مهمة، ومن كتب الرحلات، رحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن جبير، ورحلة بنيامين التطيلي الذي زار المنطقة في مطلع القرن السابع وترك لنا معلومات قيمة عن مدينة أنطاكية وما تشتهر به من صناعات.

ثانياً: المصادر الأجنبية

اما المصادر الأجنبية الاصلية فيمكن تناولها تحت الأبواب التالية: -

أ- المصادر اللاتينية:

ويأتي في مقدمة هذه المصادر ما كتبه شهود العيان الذين رافقوا الحملة الصليبية الأولى، ويتقدم هؤلاء جميعاً المؤلف المجهول[6]، صاحب كتاب اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس.

Gest Francorumet Aliorum Hierosolimitorum

والذي يقرأ هذا الكتاب يلاحظ بوضوح كره المؤلف للإمبراطور البيزنطي الكسيوس، بينما كان يكيل المدح والثناء لسيده بوهمند.

ويرى بعض الباحثين أن هذا الكتاب تم استغلاله للحط من شأن الإمبراطور الكسيوس كما إن بعض فصوله قد أضيفت فيما بعد- ولا سيما- الفصل الرابع والعشرون وأن بعضه قد كتبه أثناء الدعاية لبوهمند ضد الإمبراطور في الغرب[7].

وقد تجلت أهمية الكتاب فيما أورده من معلومات أثناء سير الصليبيين نحو الشرق مروراً بالإمبراطور ية البيزنطية، ثم كرس الجزء الاكبر من الكتاب لتناول مجريات الأحداث أثناء حصار أنطاكية.

والمؤرخ الآخر «Ramond D'Algiles» وهو مؤلف كتاب الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس Historia Francoum Quiceperunt Jerusalem

وقد اعتمدت الدراسة على ما أخذته الدراسة من نقول مهمة عن هذا الكتاب الذي تم نشره في مجموعة الحرب الصليبية (المؤرخون الغربيون ج 3).

والمصدر الآخر المهم، هو فوشية دي شارتر. Foucher de charteres وعنوان الكاتب باللاتينية. Gesta Francoram Jerusalem وقد اعتمدت الدراسة على الترجمة الانكليزية.

Fulcher of charters: A History of the expeditions to Jerusalem trans by France Rita Ryan – 1909).

جاء الشارتري مع الحملة الصليبية الأولى وانضم إلى بلدوين عند سيطرته على الرها ثم انتقل معه إلى بيت المقدس فامدنا هذا المؤرخ بمعلومات هامة عن الفترة الصليبية الأولى وامتاز بما أورده من معلومات موضوعية وعدم التحيز، وقد غطى الكتاب الفترة حتى سنة 521 هـ/ 1127 م، ويمكن اعتباره تاريخاً عاماً لكل الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

ومن المؤرخين الآخرين البرت ديكس Alber D'Axi وكان كتابه بعنوان تأريخ بيت المقدس

Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatioret Restitione Restitione Sanctae Hierosoly mitanae Ecclesiae

وقد نشر هذا الكتاب في مجموعة مؤرخي الحرب الصليبية، واخذنا عنه نقولا من خلال وليم الصوري الذي اعتمد على شارتر وألبرت في الفترة المبكرة من تأريخه بصورة كاملة.

وأهم ما يميز روايات ألبرت هو الاعتدال والابتعاد عن التحيز، فقد أبرز المساعدات التي قدمها الإمبراطور البيزنطي للصليبيين، رغم أن بوهمند حاول إسدال الستار عليها، ونجد ان المعلومات التي أوردها البرت صارت مصدراً للباحثين عن العلاقة بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية.

ومن المؤرخين الأخرين راؤول دي كان Raoul de Cana إذ وضع كتاباً باسم (أعمال تنكرد)

Gesta Tancred in e xpeditione Hierosolymitana

وقد نشر الكتاب في مجموعة الحرب الصليبية.

والمهم في كتاب راؤول أنه جعل منه سجلاً لأعمال تنكرد صاحب أنطاكية، ومما يؤخذ على المؤرخ هو تحيزه إلى جانب سيده تنكرد ضد الإمبراطور البيزنطي، وبذلك يكون نهجه مشابها لنهج كتاب اعمال الفرنجة للمؤلف المجهول، وأهم ما في محتوى الكتاب أنه مكرس للحديث عن شؤون إمارة أنطاكية.

ومن المؤلفات الأخرى المهمة ما كتبه وليم الصوري[8] Wiliam of tyre في كتابه «تأريخ ما جرى وراء البحار» وقد ألف كتابه باللغة اللاتينية، وقد اعتمدنا على الترجمة الانكليزية لهذا الكتاب.

وقد درس وليم في مؤلفة الحقبة الكائنة بين سنتي (1095– 1184 م) ومما يميز كتاباته أنه أخذ عمن سبقه، ألبرت دي اكس وريموند دي اجيل وفوشيه دي شارتر وقد حاول التنسيق بين ما نقله عن هؤلاء وبين ما أضافه من جهوده الخاصة.

ومما يؤخذ عليه تحيزه ضد البيزنطيين وتحزبه لابناء جلدته اللاتين إذ شاد ببوهمند وتنكرد.

إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة المعلومات التي أوردها وليم ولا سيما أنه قد تبوء المناصب المهمة في مملكة بيت المقدس، لما كان مستشاراً ثم مربياً للملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، وقد أفاد البحث كثيراً مما أورده وليم نظراً لما قدمه من مادة وفيرة غطت الفترة الأولى من الغزو الصليبي، كما أنه اغنى الجانب الذي يتعلق بعلاقات الكيانات الصليبية بالمسلمين منذ بدء الغزو حتى زوال الخلافة العباسية، وقد أوضح تدهور أحوال الصليبيين

في الفترة التي عاصرها، كما أنه كان ينظر بروية إلى تنامي قوة المسلمين التي تجسدت في قيادة صلاح الدين الايوبي.

ومن المؤلفات اللاتينية الاخرى ما كتبه جوانفيل Joiuville (J) ومؤلفه الشهير تأريخ القديس لويس (ملك فرنسا) Stoire de Saint Louis والكتاب عبارة عن مذكرات يومية عن سيرة الملك لويس، وأهم ما يميز معلومات ذلك الكتاب أن صاحبه كان شاهد عيان على أحداث حملة لويس، وفيما يخص ما أفاده البحث من ذلك الكتاب هو أن مؤلفه سلط الأضواء على علاقة الملك لويس بأمير أنطاكية بوهمند السادس، من ذلك مثلاً الدور الذي قام به الملك في مساعدة بوهمند على تسلم مقاليد الإمارة والتخلص من وصاية والدته كما نوه المؤلف عن علاقة الملك لويس ببوهمند أمير أنطاكية وأهمية العلاقة التي تسببت في دخول أنطاكية في الاحلاف المغولية – الأرمنية.

ب- المصادر البيزنطية:

لقد أسهمت المصادر البيزنطية في تقديم معلومات مهمة عن العلاقات البيزنطية – الصليبية والتي يمكن من خلالها استقراء الكثير مما يخص الجانب الاسلامي في تلك المعلومات، ويأتي في مقدمتها كتاب (الاليكسياد) الذي كتبته الأميرة (أنه) ابنة الإمبراطور كومنين The Alexiad of Anna Comena (The penguin Glassics1969) والكتاب عبارة عن المذكرات التي كتبتها الأميرة عن سياسة والدها، ويعد كتاب (الالكسياد) مصدراً أساسياً عن الحملة الصليبية الأولى وعلاقة الأمراء الصليبيين بالإمبراطور البيزنطي ولا سيما بوهمند وتنكرد، ومما يميز كتاب أنه هو الاعتدال، رغم ميلها الواضح إلى جانب والدها في موقفه من النورمان ومع ذلك فقد اغنت (أنه) العلاقات البيزنطية – الانطاكية بمعلومات قيمة لا توجد عند غيرها، وهذا ما ترك اثراً واضحاً على العلاقات الاسلامية – الصليبية، كما تعرضت أنه لأهم المراسلات بين الإمبراطور وأمراء أنطاكية النورمان، ثم عرضت أهم شروط اتفاقية (ديفول) بين الإمبراطور وبوهمند الذي هزم في معركة (دورازو)، وقد انعكس بعض ما جاء في تلك المراسلات على العلاقات الاسلامية الصليبية، واعتمدت الدراسة على الترجمة الانكليزية لهذا الكتاب.

ج- المصادر الارمينية والسريانية:

ويتقدم هذه المصادر جميعاً المؤرخ متي الرهاوي[9] d Edesse . Matthieu في كتابه Extrait de la Chronique، والكتاب عبارة عن حوليات لأحداث الشام بين سنتي (952- 1136

م) وقد اشتمل هذا الكتاب على معلومات مهمة عن أحوال الأرمن ودورهم في الأحداث التي دارت أثناء الغزو الصليبي في البلاد العربية وتميز بكرهه الشديد للبيزنطيين كما سجل لنا سياسة أمراء أنطاكية النورمان تجاه الأرمن؛ لذلك يعد كتابه من الأهمية بمكان في مجال هذه الدراسة.

وفي نطاق المصادر السريانية يجب الوقوف عند كتاب ميخائيل السرياني، Michel le syrie، وكان ميخائيل يشغل منصب البطريرك اليعقوبي لأنطاكية من (562- 596هـ/ 1166- 1199 م) وقد أورد معلومات ذات شأن عن النزاع المذهبي بين اللاتين والمسيحيين الشرقيين، ولاسيما في عهد روجر الأنطاكي.

وهناك مؤلف آخر يتبوأ مكان الصدارة بين المؤرخين السريان ويحتل مكانة مرموقة لدى مؤرخي العرب المسلمين، هو جريجور (غريغورس)، الذي عرفه العرب باسم أبو الفرج الملطي أو ابن العبري[10]. وكتابه الشهير (تاريخ مختصر الدول) وهو من كتب التاريخ العام.

ومن الواضح أن ابن العبري قد سلط الأضواء على ابناء طائفته من خلال الأحداث وأورد معلومات مهمة عن العلاقات بين الصليبيين والأرمن من جهة والتتار من جهة اخرى، واستمرت تلك الحوليات حتى شارفت الدويلات الصليبية على الانتهاء في الشرق.

وفي إطار المراجع الثانوية من كتب المحدثين من عربية واجنبية التي تناولت موضوع الحروب الصليبية، وهي كثيرة يمكن الوقوف على بعضها، فقد أفاد البحث مما كتبه سعيد عبد الفتاح عاشور والسيد الباز العريني وجوزيف نسيم يوسف وقاسم عبده وغيرهم كثير.

اما الباحثون الأجانب فقد أفاد البحث مما كتبه رنسيمان في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية)، وفي هذا الكتاب مادة غزيرة بالنظر للجهود الكبيرة التي بذلها الباحث بالرجوع إلى العديد من المصادر الأساسية عن الحروب الصليبية وبلغات مختلفة ولاسيما القديمة منها، لذا كانت دراسته جديرة بالاهتمام.

ومن المحدثين الأجانب ايضاً، باركر، وكذلك ستن (Setton في كتابه (AHistory of the crusades) وقد جمع في أجزاء كتابه العديد من الدراسات الرصينة في موضوع الحروب الصليبية لباحثين مشهود لهم في هذا المجال، وكذلك ما كتبه كلود كاهن في كتابه الذي سبقت الإشارة اليه (سوريا الشمالية) وهو باللغة الفرنسية، وكذلك كتابه (الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية)، وإلى جانب ما ذكره فهناك الكثير من المراجع الأجنبية التي أفاد منها البحث.

الهوامش

❖عن هذه الرسائل والوثائق انظر على سبيل المثال

Anna Comnena: The Alexiad of Anna Comena (Trans by Sewter, E.R. A penguin classics- 1969) P. 375- 358;

المقريزي، تقي الدين أبو العباس (ت845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة، (القاهرة 1939) ج1، ص89، 104؛ كذلك انظر ملحق رقم (1، 2، 3) ص 333، 334.

1- ابو يعلى حمزة بن اسد التميمي الاسدي ينتمي الى اسرة دمشقية شهيرة، ولد سنة 456هـ/ 1073م، وقد برع بدراسة العلوم، وتولى الكثير من المناصب بينها ديوان الانشاء ووظائف اخرى، وقد مضى في التأليف حتى اخر ايام حياته سنة555هـ/ 1160م. وقد وصلنا ما كتبه ابن القلانسي كاملاً: انظر: العريني، السيد الباز (الدكتور): مؤرخو الحروب الصليبية (القاهرة 1962) ص 192.

❖وهو اشهر من ان يترجم له بأسطر قليلة.

2- للمزيد عن أهمية الكتاب، انظر: كتاب، الباهر، مقدمة المحقق، عبد القادر احمد طليمات، ص 15- 19.

3- العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، ص 206.

❖كمال الدين عمر بن هبة الله بن العديم: كان ميلاده بحلب سنة 588هـ/ 1192م تقلد ابوه المناصب العديدة في الدولة الزنكية اخرها قضاء حلب واعمالها، حتى عزله صلاح الدين، وقد شارك ابن العديم والده كثيراً في اسفاره فزار البيت المقدس ودمشق ثم اخذ يتقلد المناصب السياسية والقضائية، فقد اسفر للأيوبيين من قبل الملك الناصر يوسف الثاني الى الخليفة العباسي المستعصم سنة 654هـ/ 1256م وغيرها من السفارات ومات بمصر سنة 660هـ/ 1262م، للمزيد انظر: زبدة الحلب، مقدمة المققق سامي الدهان ص13 وما بعدها.

❖عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ولد بدمشق وعاش فيها، للمزيد عن حياة هذا المؤرخ انظر: كتاب الروضتين، تحقيق الدكتور حلمي محمد حلمي (القاهرة 1956) مقدمة المحقق ص (1) وما بعدها، كذلك السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن ابي الحسن (ت: 5771 هـ) طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص 61-62.

4- انظر: عيون الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق احمد البسيوني (دمشق 1992)، ق1، ص114.

5-المصدر السابق، ص 119- 120; العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، ص260.

6- كان المؤلف المجهول من اتباع بوهمندالنورماني وكان لهذا الكتاب عدة طبعات وقد اعتمدنا

الترجمة العربية التي قام بها الدكتور حسن حبشي، وللمزيد انظر: اعمال الفرنجة للمؤلف المجهول، مقدمة المترجم د.حسين حبشي، ص 3 وما بعدها.

7- Krey(A): Aneglected passage in Dana Munro- Ney York 1968) P.P. 96-70.

8- عاش وليم الصوري في مملكة بيت المقدس، ويرجح انه ولد هناك، وكان مولده سنة (524هـ/1130م) والمعلومات التي تخص حياته واسرته قليلة عدا ما ذكره هو في بعض فصول كتابه، وقد امضى ردحا من حياته في الغرب طلباً للعلم، ثم شغل منصب رئيس اساقفة صور، للمزيد انظر: الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية (القاهرة 1962) ص99 وما بعدها.

9- متي الرهاوي: ارمني الاصل، ولد في مدينة الرها، وكان رئيساً لاحد الاديرة في مدينة الرها والكتاب منشور في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (الوثائق الارمنية، الجزء الاول)

ومات في كسيوم سنة 539هـ/ 1144م، انظر: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص477-478; كذلك Chan: La syrie du nord, p. 98.

10- ابن العبري: ولد في مالطية قاعدة ارمينية الصغرى سنة 1221م وتوفي سنة 1286م في مراغة من اعمال اذربيجان، وكان والده طبيباً يهودياً اعتنق النصرانية لذلك سمي بابن العبري.

وقد شغل ابن العبري المناصب الدينية ووصل الى رئاسة الكنائس اليعقوبية في الشرق سنة 1264م، للمزيد انظر: تاريخ مختصر الدول لابن العبري، مقدمة الناشر. وكذلك

Chan: La syrie du nord, p. 97



تعد مدينة أنطاكية احدى المدن القديمة المهمة التي تم إنشاؤها في العصر الهيلينستي* في عهد الإسكندر الكبير وقواده العظام، وتجمع الروايات التاريخية على أن القائد الكبير سلوقس الملقب بالمنتصر (نيكيتار)[1]، هو الذي أنشأها سنة 300 ق. م ضمن مجموعة من المدن التي أرادها أن تكون ركائز للحضارة الهيلينستية في الشرق[2].

ويبدو أن سلوقس قد اخذ بنظر الاعتبار مجموعة من المعطيات الستراتيجية عند بناء مدينته في الطرف الجنوبي الغربي من سهل العمق* على ضفاف نهر العاصي الذي يتابع مجراه من هناك ليصب في البحر المتوسط[3].

وقد أسهب المؤرخون في وصف جمال وروعة المدينة بعد ان اكتمل بناؤها نتيجة لما اشتملت عليه من الدور الفخمة وقنوات المياه والأسوار العملاقة التي تجل عن الوصف.

وهذا ما جسده الشعار الذي اتخذه سلوقس أجمل تجسيد من خلال التناغم بين سمات تلك البيئة والموقع التي هي فيه، والشعار عبارة عن تمثال يصور الالهه (توخي) الذي يرمز الى الحظ السعيد الذي حظيت به انطاكية التي ارتدت ثوباً طويلاً وجلست على صخرة تمثل جبل اللكام (حبيب النجار) ومعتمدة بيدها على الصخرة وتمسك بيدها اليمنى حزمة رمزية من القمح دلالة على الرخاء المادي، وعلى رأسها تاج برجي الشكل يمثل سور المدينة، وتحت قدميها تمثال لشاب عار يمد ذراعه كأنه يسبح، وهو يرمز بذلك الى نهر العاصي[4].

ورغم أن سلوقس أراد في البدء أن تكون مدينته الثانية (سلوقية) هي عاصمته وحاضره ملكه، إلا أن خلفاءه عدلوا عن رأيه متخذين من أنطاكية عاصمة لبلادهم بدلاً من سلوقية؛ لأنهم وجدوا فيها المركز الاهم الذي يكفل لهم الزعامة في إطار الحضارة الهيلينستية التي وضع أسسها الأسكندر الأكبر[5].

ولا شك أن هذه المكانة المتميزة لموقع أنطاكية قد اجتذبت أنظار الرومان منذ وقت مبكر، إذ كانوا يسعون منذ مطلع القرن الأول قبل الميلاد الى تحقيق السيادة على هذه

المنطقة، وهذا ما تحقق فعلاً بالاستيلاء على انطاكية سنة 64هـ ق. م[6]، وبذلك دخلت أنطاكية في الحقبة الرومانية من تأريخها، وأعلنت عاصمة للدولة السورية الرومانية[7].

وقد تجلت مكانة أنطاكية المنيعة وارتباطها بالعالم المحيط بها عن طريق مواصلاتها المهمة، بل حظيت باهتمام المسيحيين الاوائل، فكان القديس بطرس أول من زارها من الحواريين، ثم تبعه الاخرون[8]، وبذلك حققت تلك الحقبة مستقبل ارتباط الدين الجديد بمدينة أنطاكية فغدت العاصمة الوحيدة للعالم المسيحي بعد ان دمر الرومان مدينة القدس سنة 70م التي كانت تضارع أنطاكية في تلك الحقبة من تاريخ المسيحية[9].

وكان على مدينة أنطاكية أن تتحمل عبئاً كبيراً بسبب الأطماع الساسانية في ممتلكات الامبراطورية الرومانية، إذ كانت أنطاكية محوراً لذلك الصراع، فقد ركّز الفرس على مدينة أنطاكية التي تمثل أهم مراكز الإمبراطورية الحربية والاقتصادية والحضارية، إذ يمثل الاستيلاء عليها إلحاق الضرر الجسيم بالإمبراطورية الرومانية، من الناحيتين السياسية والاقتصادية[10].

لذا انبرى الأباطرة الرومان لمواجهة الخطر الفارسي حتى عهد الامبراطور (دقلديانوس 284- 305 م) الذي زار مدينة أنطاكية وزاد من وسائل دفاعاتها، وأنشأ فيها دوراً لصناعة السلاح، ثم أقام فيها مدة يصلح أحوالها بموجب النظام الذي وضعه لعموم الإمبراطورية[11].

وتعدُّ سنة 333م نقطة تحول كبير في تاريخ مدينة أنطاكية، وقد تجلى ذلك عندما انتقل الامبراطور قسطنطين رسمياً من روما الى بيزنطة على البسفور[12] فأتخذ منها عاصمة جديدة لملكه[13].

ويمكن أن نطلق على تلك الحقبة من تاريخ أنطاكية حتى الفتح الإسلامي بالعصر البيزنطي الاول، ويرى المؤرخون أن الامبراطور قد أسدل بهذه الخطوة الستار على العصور القديمة ليفتح صفحة جديدة في تاريخ العصور الوسطى الأوربية[14].

ويلاحظ أن العاصمة الجديدة (القسطنطينية) قد أولت أنطاكية أهمية مميزة، لأن الإمبراطورية قد اعتمدت الى حد بعيد على الأقاليم الشرقية التي تسيطر على انطاكية، إذ تمثل تلك الاقاليم عصب الحياة للإمبراطورية ومحور سلطانها وقوتها المادية والحضارية[15].

ومما يشير الى اهتمام الامبراطور الخاص بأنطاكية هو إرسال بعض أبنائه للإقامة فيها، مما يدل على سمو مكانتها في حياة الإمبراطور، وتم بعد ذلك استحداث منصب كونت الشرق[16] الذي يعد من المناصب الإمبراطورية الرفيعة، واختيرت انطاكية لتكون مقراً لأصحاب هذا المنصب[17]، الذين تعاقبوا على اشغاله حتى سقوط المدينة بيد الصليبيين.

وكان لأنطاكية دور مهم في الصراع العقائدي الذي احتدم بين معتنقي المسيحية، إذ

انقسم المجتمع المسيحي رسمياً على مذهبين مميزين هما : الكاثولوكية والارثوذكسية، وتجلى دور انطاكية في تبنيها للحركة النسطورية التي أكدت الطبيعة البشرية للسيد المسيح[18].

وهكذا تابعت أنطاكية مكانتها السياسية والحضارية في ظل الإمبراطورية البيزنطية حتى الفتح الإسلامي، حين فتحتها القوات الإسلامية المتوجهة لفتوح الشام سنة 17هـ/ 638م[19].

وقد حظيت بأهمية كبيرة لدى المسلمين في صدر الاسلام والعصرين الأموي والعباسي، اذ كانت من مدن الثغور الشامية أيام الخلافتين الراشدة والأموية، ثم سميت بمدن العواصم في زمن الخلافة العباسية، والى ذلك اشار البلاذري بقوله: (حيث كانت ثغور المسلمين المعروفة بالشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك، أنطاكية وغيرها من المدن المدعوة بالعواصم) [20].

وكان العرب والروم يحرصون على تعزيز تلك الحصون وشحنها بالمقاتلة والسلاح حفاظاً على تلك الأقاليم ومسالكها، وقد كتب الخليفة عمر (رض) الى أبي عبيدة (أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء) [21].

ثم أسكنها معاوية جماعة من الشام والجزيرة وأمرهم بالوقوف عندها [22] ثم نقل اليها سنة 42هـ/ 626م جماعة من أهل بعلبك وحمص[23].

ويبدو أن أهمية أنطاكية قد ازدادت الى حد كبير في العصر العباسي، اذ أصبحت قصبة العواصم الشامية، وهذا ما أشار اليه الاصطخري بقوله[24]: (قصبة العواصم أنطاكية).

وصارت أنطاكية أيام العباسيين، نتيجة لاندفاع الناس نحوها، حافلة بمظاهر النشاط الفكري الى جانب النشاط الحربي، وبذلك كانت البداية المشرقة لنشوء مجتمع جديد اتسم بالتسامح والتعايش السلمي، وقد احترم المسلمون أبناء الطوائف الاخرى العديدة، وحافظوا على عهودهم ومواثيقهم معهم وأماكن عباداتهم فضلاً عن احترامهم لرجال الدين المشرفين عليها [25].

ثم عادت أنطاكية الى سيطرة البيزنطيين سنة (359هـ/ 969م- 477هـ/ 1084) إثر اختلال التوازن الاسلامي البيزنطي نتيجة لقيام الأسرة المقدونية على العرش الإمبراطوري سنة (253هـ/ 867 م) إذ شهدت الامبراطورية في عهد هذه الأسرة صحوة كبيرة، من نتائجها محاولة استرداد الأراضي البيزنطية التي استولى عليها المسلمون في شمال الشام[26].

وقد تمكن الامبراطور (نقفور فوقاس) من الاستيلاء على انطاكية سنة 358هـ/ 968م بعد حيلة دبرها أحد قادته[27]، فوضع السيف في اهلها دون رحمة[28].

وبذلك استأنفت أنطاكية دورها كما كانت في الفترة البيزنطية الأولى، وأصبحت عاصمة لإقليم إداري واسع تولى شؤونه حاكم يحمل نفس اللقب القديم (دوق) وهو (القبطان) كما صار يعرف عند المسلمين[29].

وحظيت أنطاكية باهتمام كبير من لدن الأباطرة البيزنطيين في هذه المدة إذ دعموا

حصونها وقووا اسوارها؛ حتى تستطيع القيام بأداء دورها الدفاعي، وشيد الإمبراطور نقفور قلعتها، كما تابع خلفاؤه ترميم أسوارها وتدعيمها وتوسيع نطاقها [30].

وقد سجل لنا ابن بطلان - الذي زار انطاكية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري- وصفاً رائعاً لهذه المدنية، ينسجم مع الأوصاف التي نعت المدينة بها من سبقه من الرحالة والمؤرخين[31].

وبعد ان استولى الفاطميون على مصر سنة 358هـ/ 969م، وبسطوا سلطانهم الى جنوب بلاد الشام سنة 360هـ/971م، بعثوا قوات للاستيلاء على حلب وانطاكية[32].

واتضح من خلال تلك المحاولات، أهمية أنطاكية في الدفاع عن الوجود البيزنطي في شمال الشام، وذلك حين قصد الفاطميون مدينة حلب للاستيلاء عليها سنة 384هـ/ 995م فاستنجد صاحب حلب (سعيد الدولة أبو الفضائل*) بدوق أنطاكية وبالإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، فقد كتب للإمبراطور قائلاً: (متى أُخذت حلب أُخذت انطاكية، ومتى أُخذت انطاكية أُخذت القسطنطينية) [33].

ثم حضر الامبراطور شخصياً الى الشام سنة 385هـ/ 995م لصد الزحف الفاطمي على شمال الشام [34].

وبعد عودة الإمبراطور الى بلاده، عاودت الجيوش الفاطمية تصديها لدوق أنطاكية، وأُنزلت الهزيمة، تأديباً له على مؤامراته بالتعاون مع القوى الاسلامية المناوئة للفاطميين[35]، الأمر الذي استدعى عودة الامبراطور البيزنطي (باسيل الثاني) مرة أخرى الى بلاد الشام سنة 389هـ/ 996م[36]، غير انه فضل هذه المرة ان يعقد صلحاً مع الفاطميين سنة 392هـ/ 1001م، بعدما رأى تزايد قوتهم في جنوب وشمال بلاد الشام[37].

وقد استهدف الإمبراطور من وراء ذلك، المحافظة على الوجود البيزنطي في أنطاكية، ولاسيما بعد أن تمكن الفاطميين من الاستيلاء على حلب سنة 408هـ/ 1015م، وجاء ذلك الصلح بما يشبه اقتسام النفوذ في شمال بلاد الشام بين الفاطميين والبيزنطيين، إذ صار للبيزنطيين أنطاكية وما يجاورها من أقليم قيليقية، في حين صار للفاطميين باقي البلاد الشامية[38].

ومن الجدير بالذكر أن استعادة الروم لبعض الأقاليم والمدن المهمة في شمال الشام، قد أدى إلى إشكالات ومناقشات قانونية كثيرة حين نشب النزاع بين البيزنطيين والصليبيين حول ملكية المدن الكبرى من شمال الشام[39].

وإذا كان النزاع الفاطمي -البيزنطي قد خف نتيجة لارتباط الطرفين ببعض المعاهدات، وتقاسم مناطق النفوذ، فإن المتغيرات الجديدة في الشرق قد قلبت موازين القوى، وتمثل ذلك بظهور قوة إسلامية جديدة وفتية هم السلاجقة الذين اكتسحوا مساحات واسعة

من أراضي الامبراطورية البيزنطية، وتوجوا زحفهم بالانتصار الكبير الذي حققوه على الروم في معركة مانزكرت (ملاذكرد) الشهيرة سنة 463هـ/ 1071 م [40].

وبذلك رجحت كفة المسلمين مجدداً، ليس في شمال الشام حسب، وإنما في اسيا الصغرى كذلك، بعد الهزيمة الكبيرة للروم وأسر امبراطورهم في تلك المعركة الفاصلة، فضلاً عن فقدانهم للمصادر الأساسية التي كانت تعتمد عليها الإمبراطورية في بناء سلطانها السياسي والحربي [41].

ثم تعرضت الامبراطورية، بعد هزيمة (مانزكرت) الى حركة توسعية أخرى من قبل سلاجقة الروم على يد سلطانهم (سليمان بن قتلمش) *، الذي كان يعمل لحسابه الخاص، ويطمح الى الاستيلاء على مدينة انطاكية التي كانت تخضع لحاكم أرمني من قبل البيزنطيين، هو (فيلاريتوس) [42].

وكان هدف سلاجقة الروم من الاستيلاء على أنطاكية هو أن يجعلوها قاعدة مهمة لدعم سلطانهم وسيادتهم على شمال الشام والتصدي للمؤامرات التي كان يحكيها حاكم دمشق السلجوقي (تُتش اخو السلطان ملكشاه) لذا انتهز سليمان وقوع الخلاف العائلي بين فيلاريتوس الأرمني صاحب أنطاكية وابنه [43] وباغت أنطاكية فبسط سلطانه عليها سنة 477هـ/ 1085م [44].

غير أن التوسع من قبل سليمان بن قتلمش قد أثار حاكم دمشق السلجوقي الذي بادر بالتصدي لقوات سليمان تحت ستار مساعدة أهل حلب ومنع سليمان من الاستيلاء عليها، وعند ذلك دارت معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بمقتل (سليمان بن قتلمش) سنة 479هـ/ 1086م [45].

ويبدو أن تلك النزاعات الدموية بين أبناء الأسرة السلجوقية في الشام قد أثارت سلطانهم الاعظم ملك شاه، الذي خرج بنفسه الى بلاد الشام، فوضع يده على حلب، ثم توجه نحو انطاكية، وتسلمها من وزير سليمان بن قتلمش ورتب بها الامير مؤيد الدولة ياغي سيان [46]، ثم توجه نحو السويدية ميناء أنطاكية (وصلى على البحر وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب) [47].

ومما تجدر الإشارة إليه أن المدة بين استعادة المسلمين لأنطاكية سنة 477هـ/ 1085م وبين سقوطها بيد الصليبيين سنة 491هـ/ 1098م، لم تكن كافية لإزالة بقايا معالم الادارة البيزنطية في مدن شمال الشام [48]، الأمر الذي جعل الإمبراطورية البيزنطية تتمسك بمزاعمها بمشروعية عودة تلك المدن الى سلطانها ولاسيما انطاكية، وتصر على ذلك منذ البداية المبكرة لقيام إمارة أنطاكية الصليبية [49].

الهوامش

❖تطلق تسمية الحضارة الهلينستية Hellenism من الناحية النظرية على القرون الثلاث الممتدة من وفاة الاسكندر الكبير في عام 323ق.م الى قيام الامبراطورية الرومانية على يد اوغسطس في عام 31 ق.م ويقصد بالهلينستية في اطارها العام، النمط الحضاري الجديد الناجم عن الامتزاج بين الحضارة اليونانية والحضارات الشرقية..

للمزيد انظر: تارن، السير وليم وود ثورب: الحضارة الهلينستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، مكتبة الانجلو المصرية (القاهرة، 1966) ص 3-9.

1-Archer (T.A): The crusades, The story of The Latin kingdom of Jerusalem (London 1894) P. 64.

2-Cambridge Ancient History (1928) Vol, 7. P. 155.

❖سهل العمق: ينظر ص،

3-Downcy, A History of Antioch in Syria (paris 1927), P. 581; C. A. H Vol, 7. P. 158.

4-Bouchier(E.S): A short history of Ancient Antioch (Oxford 1921),P.P 8, 9.

5-C. A. H, Vol, 1, P. 158.

6-Ibid. Vol, 9, P. 350.

7-Harrer: Studies in the History of The Roman province of Syria (Princeton, 1915). P. 11; Chapot: La Frontier, L, Euphrate (paris 1980) pp. 334- 335,

8-Bouchier, op. cit, p. 133.

9-Hitti, (P. H): History of Syria (London 1951) P. 335.

10-C, A, H, Vol, 9. P. 390; Bouvhier, op. Cit, p. 119.

11-Rostovetzeff(M.): A History of the ancient world (oxford 1933) Vol, 2, P. 325.

12-Lot: The end of the ancient wold (London 1953) P. 55.

13-Bury (J.B): History of the later Roman Empire (2vols.London 1923),vol,2,p.325.

روستوفتزف: تاريخ الامبراطورية الرومانية الاقتصادي والاجتماعي، الجزء الاول، ترجمة د. زكي علي، د. سليم سالم، ص600، 604.

14-«Rostovtzeff» op. cit, vol, pp. 332, 333; lot: op. cit, pp, 87- 88.

15-روستوفتزف: تاريخ الامبراطورية ص639;

Bouchier: op. cit, p. 124.

16-انظر: ص30 من هذا البحث.

17-Bouchier: op. cit, p. 125.

18-Cambridge: Medieval History (1957) vol, 1, pp. 122- 123.

19- انظر البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر (ت: 279هـ/ 892 م)، فتوح البلدان، تحقيق انيس الطباع (بيروت، 1987)، ص 152.

20- المصدر نفسه: ص 153.

21- المصدر نفسه: ص 153.

22- قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة (بغداد 1981) ص 307.

23- البلاذري، فتوح، ص 153.

24- الاسطخري، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد (عاش في القرن4هـ): مسالك الممالك طبعة لايدن 1927، ص 62.

25- آدم متز: الحضار الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة، د. عبد الهادي ابو ريدة (القاهرة 1940/ 1941)، ج1، ص69، 70.

26- عمر كمال توفيق (دكتور) مقدمات العدوان الصليبي (1966) ص 16، 17.

27- ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص161، 162.

28- المصدر نفسه: ج1، ص 162.

29- الانطاكي، يحي بن سعيد (ت: 458هـ): التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (نشر شيخو- بيروت 1909) ص 247.

30- Bouchier: op. cit, pp, 11, 12.

31- ياقوت الحموي، ابو عبد الله (ت: 626هـ/ 1228م): معجم البلدان (دار صادر، دار بيروت 1955) مج1، ص 354، 355.

32- الانطاكي: المصدر السابق، ص 138، 139.

❖هو ابن سعد الدولة ابو المعالي الحمداني صاحب حلب تولى بعد ابيه، للمزيد انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق (بيروت 1908) ص 34- 39، ابن العديم: زبدة الحلب، ص 180- 187.

33- ابن تغرى بردى: النجوم الزهراء، (القاهرة 1935) ج4، ص 120.

34- ابو شجاع، الوزير محمد بن الحسين (ت: 488هـ): ذيل تجارب الامم (مصر 1916) ص، 22.

35- المصدر نفسه، ص 227.

36- ابن العديم: زبدة الحلب ج1، ص 192.

37- الانطاكي: التاريخ المجموع، ص 184، 185.

38- عامرة علي الحمد: العلاقات، ص 49.

39- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 67.

40- انظر: ص 80، من هذا البحث.

41-Ostrogorsk: History of the Byantine state Translated by Joan Hessy, (Oxford 1956) Vol, 1, p. 302.

❖سليمان بن قتلمش: هو صاحب سلاجقة الروم وقد لقي مصرعه على يد تاج الدولة تُتشابن الب ارسلان السلجوقي سنة تسع وسبعين واربعمائة. انظر: الذهبي، ابو عبد الله محمد (ت: 748هـ) العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد رشيد، (الكويت 1961) ج3، ص 92- 93.

42-Setton: A Histroy of the Crusades (London 1969) vol 1.p. 150.

43-Grousset: La Empire du Ievant (1949) pp. 108, 199.

44- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 117، ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 86.

45- ابن الاثير، علي بن محمد بن عبد الكريم (ت: 630هـ/ 1232م): الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت (بيروت 1965- 1966) مج 10، ص 147، ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 96، 97.

46- ابن العديم: زبدة الحلب ج2، ص 101.

47- المصدر نفسه، ج2، ص101.

48- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 101.

49-Grousset: Histore. Des crosdes, vol, 1, p. 43.

الفصل الاول:

جغرافية إمارة أنطاكية

تعد أنطاكية المدينة الأكثر شهرة من بين المدن الخمس عشرة أو الست عشرة التي بناها القائد اليوناني (سلوقس الفاتح)، أحد قواد الاسكندر الكبير سنة 300ق. م.

وقد اختلف مؤرخو العصور القديمة في أصل نسبة المدينة؛ إذ نسبها بعضهم إلى (أنطيخوس) والد (سلوقس)، وقال بعضهم الآخر أن المدينة نسبت إلى (أنطيوخوس الابن)، إذ أن (أنطيوخوس) هو والد (سلوقس) وكذلك اسم ولده. لذلك التبس الامر على مؤرخي العصور الوسطى من المسلمين والأوربيين، ونسب أكثرهم المدينة إلى (أنطيوخوس الابن) وعدوه مؤسس المدينة[1] والراجح أن نسبة المدينة إلى (أنطيوخوس الأب) وليس الابن، جرياً على عادة سلوقس في إطلاق أسماء عائلته ومنهم (أمه وزوجته) على أسماء المدن التي أنشأها في بلاد الشام[2].

وقد أيد عدد من المؤرخين المسلمين هذه الرواية، ومنهم المسعودي الذي ذكر أن «أنطيخش» هو بأني مدينة أنطاكية سنة 322 ق. م، فصار اسم (أنطاكية) على اسمه، وأنسجاماً مع هذه الرواية، يصح نسبة المدينة إلى (أنطيوخس الأب) وليس الحفيد استناداً إلى تحديد تاريخ البناء، إلاّ أن المسعودي يستدرك على ما ورد حول تفسير اسم أنطاكية، فيقول: أن (ذلك محوط بالحوائط.. فلما ورد المسلمون وافتتحوها حذفت الأحرف إلاّ الألف والنون والطاء) [3].

ومن الجدير بالملاحظة أن العرب عرفوا أنطاكية بهذا الاسم حتى قبل الاسلام، إذ ورد ذكرها في قصائدهم من ذلك قول امرئ القيس [4]:

علـــون بانطاكيـــة فـــوق عقمـــة	كجرمـــة نخـل او كجنـــة يثـــرب

وقول زهير [5]:

علـــون بانطاكيـــة فـــوق عقمـــة	وراد الحواشـي لونهـا لـون عنـدم

وقال ياقوت[6] (أنطاكية بالفتح ثم السكون والياء مخففة. ونقل عن الهيثم ابن عدي أن: اول من بنى أنطاكية أنطيخش، وهو الملك الثالث بعد الاسكندر).

ونسبها إلى الملك الثالث إشارة إلى أن (أنطيوخوس الابن) هو الذي بنى المدينة كما يفهم من ذلك.

أمّا ابن العديم فنسب المدينة إلى (أنطيوخوس الا بن)، ويستفاد مما أورده أن الاسكندر هو الذي شرع ببناء المدينة وقال أن سلوقس (أكمل بناء المدينة وزخرفها وسماها على اسم والده أنطيوخيوس)[7].

ويؤخذ مما تقدم أن المدينة بنيت سنة 300ق. م وأن بأنيها هو (سلوقس) أحد قادة الاسكندر، وقد أخذ اسمها عن اسم (أنطيوخوس) سواء كان الأب أو الحفيد، وسنتناول في الصفحات القادمة دراسة لعدد من النقاط المهمة الموضحة لجغرافية الإمارة من خلال التعرف على موقعها وحدودها، وأهم المدن المرتبطة بها، وأبرز الجوانب الطبيعية فيها، وكما يأتي:

أولاً: الموقع

تقع أنطاكية في الطرف الشمالي الغربي من سوريا على نهر العاصي، وتبعد نحو 12 ميلاً عن البحر المتوسط[8].

وقد تحدثت المصادر الإغريقية باسلوب اسطوري عن طريقة اختيار موقع المدينة حسب أرادة الالهة، أمّا حقيقة الأمر فأن الاغريق يولون عناية فائقة لدراسة موقع المدن التي ينوون اقامتها[9]، لأن صلاحية الموقع تمثل الأفق المستقبلي لازدهار المدينة بما يشتمل عليه من الامكانات المادية والبشرية[10].

وتضم هذه المنطقة سلاسل جبلية منيعة تقرب في حافاتها من البحر، فضلاً عن وقوعها على الطرف الجنوبي الغربي من سهل (العمق) في شمال سوريا، حيث يرتبط البر بالبحر عند مجرى نهر العاصي الذي ينحرف عند الحدود الجنوبية لهذا السهل ليواصل مجراه ماراً بوادٍ بين (جبل اللكام) و (الجبل الأقرع) ليصب في البحر المتوسط[11] ولضمان منفذ بحري لهذا الموقع أسس (سلوقس) ميناءه البحري سلوقية- نسبةً إليه إلى الشمال من مجرى نهر العاصي على خمسة أميال[12].

وبذلك وفّرَ لموقعه الجديد أساسا جغرفياً مزدوجاً بين البر والبحر[13] وكانت أنطاكية ملتقى الطرق الممتدة من الفرات إلى البحر المتوسط، ومن أواسط الشام إلى آسيا الصغرى[14].

فأصبحت المدينة تمثل قاعدة جديدة لسلوقس في الطرف الشمالي الغربي من سوريا الذي يضم معبراً مهماً دارت على أرضه معارك حاسمة في التاريخ حول التنازع على السيادة

بين الفرس واليونانيين، كما أراد أن يجعل من هذه المنطقة مركزاً حضارياً مهما بين الممالك التي تقاسمت ميراث الاسكندر الأكبر[15].

تميزت أنطاكية عن جاراتها من المدن بما اشتملت عليه من مزايا إقليمية، فكان موقعها يمثل رقعة مستطيلة يحف بها من الغرب الشاطئ الأيسر لنهر العاصي، حيث تطل على البحر المتوسط، ويحيط بها من الجنوب والشرق جبل (سيليبوس) (حبيب النجار) الذي يوفر لها الحماية والاطمئنان، فضلاً عن الأسوار الهائلة التي تحيط المدينة[16].

وبالنظر إلى أهمية هذا الموقع فقد ارتبطت أنطاكية بشبكة واسعة من الطرق المهمة على صعيد النشاط الحيوي للمدينة، فهناك طريق يسير إلى الشاطيء الأيمن للعاصي إلى سلوقية، ليرتبط بالطريق الممتد من مصر إلى جنوب الأناضول، ثم هناك الطريق المهم الذي يربط أنطاكية بجارتها حلب ملتقى الطرق السورية، وهناك الطريق الذي يأتي من ناحية (دفنة)** عبر الجبال إلى اللاذقية، إذ يلتقي بالطريق الساحلي، فضلاً عن طرق أخرى تتصل بالجهات الجنوبية والشرقية من سوريا [17].

أن المقومات الإقليمية والمحلية لموقع أنطاكية الممتاز جعلت منه موقعاً ستراتيجياً مهماً، فقد أنشأت أنطاكية على سفح جبل اللكام (امأنوس) لتتوسط شبكة ضخمة من السلاسل الجبلية التي احتضنت بامتدادها الواسع أقاليم شاسعة تعد في توجهها الجغرافي جزءاً من المجال الإقليمي لأنطاكية، فإلى الجنوب من أنطاكية امتدت سلاسل الجبال وصولاً إلى الجبل الأقرع* (كاسيوس) الذي يطل على الساحل السوري الأوسط، وفي مقابل تلك السلسة الجبلية الضخمة امتدت أرض سهلية خلف نهر العاصي شمالاً وغرباً حتى تنتهي في إطار دائري من التلال والجبال[18].

ومما زاد من أهمية هذه الشبكة الجبلية الستراتيجية أن جبالها لاتمثل مصدات حاجزة، فهناك الكثير من الثغرات التي تمثل منافذ لهذا الموقع فتربطه بما يجاوره من البلاد، ومن أشهر تلك الممرات الوادي الذي شقه نهر العاصي بين الطرف الجنوبي لجبال اللكام والجبل الأقرع، ومن خلال هذه الممرات أطلت أنطاكية على ساحل المتوسط بما يضمه من جزر عديدة تجاه الساحل السوري[19].

ويمكن القول أن أنطاكية قد استفادت من موقعها ومميزاتها الإقليمية عبر مراحل تطورها السياسي والحضاري حتى حقبة الحروب الصليبية، عندما دخلت تلك المدينة في مرحلة جديدة من تاريخها مع القوى المحيطة بها، وتجلت هذه الأهمية في أنها مثلت مركز الصدارة لدى اليونانين، إذ شغلت موقعاً يكفل لهم الزعامة في ميدان الحضارة (الهلينستيه) التي أرسى قواعدها الاسكندر الأكبر[20].

ولم يلبث أن اجتذب هذا المركز الحضاري الزاهر في أنطاكية أنظار القوى السياسية الناهضة في حوض البحر المتوسط، لاسيما الرومان الذين كانوا يتطلعون منذ بواكير القرن الأول قبل الميلاد إلى الاستئثار بالسيادة على هذا البحر[21].

تمكن الرومان من الاستيلاء على أنطاكية عام 64 ق. م، وأعلنت هذه المدينة عاصمة للبلاد السورية الرومانية [22].

وبالنظر لأهمية موقع أنطاكية فقد ازدادت مكانتها في العهد الروماني فأصبحت مركزاً تجارياً وحضارياً مهماً وارتبطت بشبكة واسعة من الطرق التجارية المؤدية إلى إقليم قيليقية، وبلاد الرافدين، وأصبحت نتيجةً لهذا الموقع مركزاً مهماً لرسم الخطط الرومانية للسيطرة على الشرق[23].

وبذلك ظلت أنطاكية الرومانية على اتصال دائم بجميع الأحداث الكبرى التي سادت الشرق في المجالات العقائدية والسياسية، فقد اتجه دعاة المسيحية الاوائل إلى أنطاكية بعد أن اضطهدهم اليهود في بيت المقدس سنة 40م، وكان القديس (بطرس) أول من زار أنطاكية من الحواريين الاثني عشر في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الديأنة المسيحية وأنتشارها، ثم تبعه الكثير من آباء المسيحية الأوائل[24].

وفي أنطاكية أطلق على اتباع هذه الديانة رجال السلطة الرومانية اسماً رسمياً لتمييزهم عن غيرهم وهو اسم (المسيحيين)[25].

وفي ميدان الأهمية السياسة كانت أنطاكية- لأهميتها الستراتيجية- محط مطامع القوى الكبرى أنذاك، فقد توالت الحملات الساسانية ضد الرومان في مدينة أنطاكية باعتبأرها أهم مراكز الامبراطورية الحربية والاقتصادية والحضارية، إذ كانت السيطرة عليها تتيح للفرس التحكم في مصير الدولة الرومانية سياسياً واقتصادياً[26].

ومما يشير إلى خطورة مكانة أنطاكية لدى الرومان أنها حظيت بنظام إداري مهم، وهو دليلٌ على حيوية مكانتها، وتمثل هذا النظام في ايجاد منصب (كونت الشرق*) الذي كان مقره في أنطاكية[27].

وظل هذا المنصب المرموق «كونت الشرق» من المناصب الخطيرة في الامبراطورية الرومانية حتى زمن الحروب الصليبية، وجدير بالذكر أن (بوهمند النورماني) كان قد عرض على الامبراطور البيزنطي حين التقاه في القسطنطينية سنة 491هـ/1097م أن يقلده هذا المنصب[28].

وبالنظر للمكانة المهمة التي احتلتها أنطاكية فقد حظيت باهتمام معظم المؤرخين لاسيما المسلمون منهم، وهذا ما أشار اليه المسعودي[29] بقوله (أن النصرأنية تسمي أنطاكية مدينة الله، ويسمونها مدينة الملك وأم المدن لأن بدء ظهور النصرأنية كان فيها).

وفي العصر الإسلامي ازدادت أهمية المدينة، بعد أن أنضوت تحت لواء الاسلام سنة 17هـ/638م، ويعزى ذلك إلى إدراك الخلفاء المسلمين لأهميتها منذ وقت مبكر لما تحتله من موقع ستراتيجي في الدفاع عن الديار الإسلامية ضد هجمات الروم البيزنطين، وإفساح المجال في ذات الوقت أمام الجيوش الإسلامية لمتابعة حركة الجهاد في سبيل الله، وقد أشار البلاذري[30] إلى ذلك بقوله (كانت أنطاكية عظيمة الذكر والأمر عند عمر وعثمأن، فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة واجعلهم مرابطة، ولاتحبس عنهم العطاء).

ومما يؤكد تعاظم مكانة أنطاكية وقيمتها الستراتيجية أن عمر (رض) جدد النصيحة لمعاوية بن أُبي سفيأن حين تولى أمر الشام، وسار على هذا النهج الخليفة الراشدي عثمأن بن عفأن (رض) الذي كتب إلى معاوية أن يلزمها (يعني أنطاكية) قوماً وأن يقطعهم قطائع ففعل[31].

كما أولى الخليفة الرشيد العباسي هذه المنطقة المزيد من الاهتمام عندما حدد منطقة إقليمية تبدأ من الساحل مروراً بأنطاكية، ثم شرقاً إلى حلب، واطلق عليها اسم إقليم العواصم والثغور[32].

ويبدو أن منطقة العواصم كانت إقليماً وليس موقعاً بعينه، وإلى ذلك أشار الاصطخري[33] بقوله (وأمّا العواصم فاسم الناحية وليس لموضع بعينه وقصبتها أنطاكية).

ووظيفة هذا الإقليم الحدودي (منطقة العواصم) أنه يعتصم به العائدون من حرب الروم أو المتأهبون لها[34]، (وأنما سميت كل وأحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده في أوقات النفير، ثم ينفر إليه من أهل أنطاكية والجومة* والقورس**)[35].

أي إنها مناطق متقدمة على حدود الجبهة الإسلامية لحفظ ما دونها من ديار الإسلام، وهذا ما ذكره القلقشندي[36] بقوله (والذي يظهر أنها سميت بذلك لعصمتها ما دونها من بلاد الاسلام من العدو إذ كانت متآخمة لبلاد الكفر)

وخلاصة القول إن مدينة أنطاكية وما تمثله من موقع ممتاز قد تبوأت مركز الصدارة في الهيمنة على هذا الإقليم لاسيما وأنها تتحكم في أهم ممر في جنوب (جبل اللكام) الذي يؤدي إلى (قيليقية) إذ كان يخضع لسيطرتها ولا يبعد عنها إلاّ القليل، وقد عرف هذا الممر باسم (أبواب سوريام)[37]. وأطلقت عليه المصادر الإسلامية اسم «درب أنطاكية»[38].

وقد أشار إلى أهمية موقع أنطاكية أحد مؤرخي الحروب الصليبية وكان من بين الذين شهدوا ميلاد هذه الإمارة، وهو المؤلف المجهول[39] صاحب (أعمال الفرنجة) إذ قال عندما أصبح الصليبيون على مقربة من أنطاكية: (اخيراً بلغ فرساننا الوادي [وادي العاصي] الذي تقع به مدينة أنطاكية الملوكية عاصمة كل بلاد الشام قاطبة)، ثم يواصل وصفه للمدينة التي

أدهشته كما ادهشت غيره من الصليبيين قائلاً: (مدينة أنطاكية رائعة عظيمة إذ يوجد داخل أسوارها أربعة جبال ضخمة شاهقة الذرى، ويقوم على أعظمها ارتفاعاً حصن حصين قوي جيد البناء، وعلى السفح تمتد المدينة الرائعة المحبوبة، وقد ازدانت بكل ضروب الفتنة.. والمدينة محاطة بسورين أكبرهما شديد الارتفاع، عجيب البناء مشيد تشييداً عجيباً.. وهذه المدينة بالغة الشهرة فقد تولاها من مبدأ الامر خمسة وسبعون ملكاً أولهم (أنطيوخوس) الذي سميت باسمه) (40).

ويبدو أن أهمية موقع أنطاكية هو الذي جعلها الهدف الرئيس للحملة الصليبية الأولى، حين اتجه الصليبيون نحوها بعد عبورهم البسفور، وهم يرون فيها مفتاح سوريا وبوابة أرض الميعاد (41).

ثانياً: الحدود

انمازت حدود إمارة أنطاكية بعدم الاستقرار، وذلك لافتقارها إلى الحدود الآمنة، لأن أمر قيامها يعارض رغبة المسلمين والروم على السواء، بل إنها قامت رغم إرادة هؤلاء وأولئك(42).

فأصبح حال حدودها رهين بتوازن قوى الصراع بينها وبين تلك الأطراف الرافضة لوجودها، فتارة تمتد لتشمل مساحات واسعة من أراضي جيرأنها، وتارة تنحسر إلى الحد الذي هدد المدينة نفسها بالسقوط لأكثر من مرة بأيدي المسلمين والروم البيزنطيين.

اشتملت الإمارة عند بدء قيامها في عهد (بوهمند) سنة 492هـ /1098م على مساحة ليست بالكبيرة من الأرض، ضمت الوادي الأدنى لنهر العاصي وسهل أنطاكية وقسماً من مدن قيليقية الشرقية (اذنة والمصيصة وطرسوس) فضلاً عن مينائي الإسكندرونة والسويدية (43).

ويلحظ المتأمل لخريطة إمارة أنطاكية الناشئة أن هيئة رقعتها تشكل زاوية قائمة تضم بين ضلعيها أعظم أرجاء الشام اغراء بالمجد السياسي والحربي والاقتصادي، وقد اشتملت على سهل قيليقية الذي يحوي المجرى الأدنى لنهري سيحان وجيحان، بمدنه المهمة المصيصة، وإذنه، وما جاوره من الجبال المنيعة التي تضم طوروس الداخلية واللكام (امأنوس)*(44).

وتمثل مدينة (اذنة) القاعدة الرئيسة لإقليم قيليقية، والممرات الممتدة عبر هذا الإقليم إلى عموم النواحي المجاورة عبر جبال طوروس، يضاف إلى ذلك مدينة طوروس على نهر البردان التي تزيد من أهمية الأرجاء الشمالية لهذه الإمارة، فموقعها قرب مصب النهر في البحر المتوسط حيث تقترب المنطقة الجبلية من البحر فصارت تشرف على أبواب قيليقية المؤدية إلى قلب آسيا الصغرى(45).

لقد أدرك (بوهمند) أهمية هذه المنطقة منذ وقت مبكر، فلم يغفل أمرها حتى قبل

رحيل بقية الجيوش الصليبية نحو بيت المقدس، وإبان احتدام الصراع على زعامة أنطاكية، كما ظل بوهمند يقظاً لمراقبة حركات الامبراطور البيزنطي، وأخذ يعمل على تأمين حدود إمارته دون الاكتراث لحل مشكلة أنطاكية وأمر تبعتها، إذ توجه إلى إقليم (قيليقية) فعزز الحاميات التي سبق أن تركها (تنكرد) هناك في إذنه والمصيصة وطرسوس، وقرر ضم الإقليم نهائياً إلى امارته [46].

أمّا الضلع الرأسي لإمارة أنطاكية فأنه من الأهمية بمكان، إذ يضم سهل أنطاكية الخصيب ومنافذها العديدة مع إقليم الجزيرة في شمال العراق وما يتفرع عنه من الأودية في شمال الشام إلى قلب العراق وشبه الجزيرة العربية، فيُعد إقليم (البقاع) نقطة الالتقاء في هذا السهل، حيث تقع معظم منابع أنهار سوريا ومنها نهر العاصي الذي يتجه نحو الشمال فيصب في البحر المتوسط [47].

لقد حاول أمراء أنطاكية النورمان التوسع منذ البداية على حساب جيرأنهم المسلمين، ففي سنة 494هـ/1100م قام (بوهمند) بمحاولة للاستيلاء على قلعة (أفامية) في حوض نهر العاصي التابعة لابن ملاعب ولكنه فشل في ذلك [48]، ثم توجه لمهاجمة أعمال حلب، فعندما طرد رضوان صاحب حلب الصليبيين من اتباع بوهمند من (كلا) * شرق العاصي، خرجت الحاميات الصليبية من زردنا* وسرمين** وأنزلت الهزيمة برضوان، وتمكنوا من احتلال برج الحاضر*** قرب قنسرين، كما تمكنوا من احتلال كفر طاب في منتصف الطريق بين شيزر ومعرة النعمان [49].

ونتيجةً لتدهور الأوضاع في إمارة حلب إثر هزيمة رضوان أمام الصليبيين فقد استمر (بوهمند) يمارس ضغطه على الإمارة، فنزل بعسكره سنة 493هـ/1099م على نهر قويق**** ويذكر ابن العديم أن (بوهمند) كان ينوي تحويل الكثبأن القريبة من حلب- والتي كانت مدافن للمسلمين- إلى حصون تحيط بالمدينة للاستمرار في مباشرة حصارها حتى تسقط في يده [50].

وهكذا استمر (بوهمند) في محاولاته لتوسيع حدود امارته على حساب جيرانه حتى وقوعه أسيراً بيد غازي كمشتين ابن الدأنشمند***** سنة 493هـ/1100م [51].

استغل (تنكرد) الذي خلف خاله (بوهمند) في زعامة أنطاكية ضعف مركز الامبراطورية البيزنطية فسارع نحو (قيليقية) مستغلاً الفرصة في أواخر سنة 494هـ/1100م، واستطاع في مدة قصيرة احتلال مدن المصيصة، وإذنه، وطرسوس التي استعادها الروم، ثم توجه بعد ذلك لاحتلال اللاذقية [52]. فقد وضع يده عليها في أواخر عام 496هـ/1103م وأوائل عام 497هـ/1103 وبذلك أمّنَ (تنكرد) لأنطاكية جهة بحرية مهمة وميناءً بحرياً مهما للاتصال بالغرب [53].

بعد أن مكث (بوهمند) في أسره ثلاث سنوات، أُطلق سراحه في سنة 497هـ/ 1103م فعاد إلى امارته ثم قاد جيشه نحو الشمال الشرقي فتمكن من احتلال مدينة (الابلستين) البستان[54] التي تقع إلى الشمال من (مرعش) * عند جبل اللكام، وبذلك استطاع توسيع حدود امارته في تلك الأنحاء فضلاً عن تأمين هذه المنطقة التي تُعد ممراً حيوياً للهجوم البيزنطي المتوقع على إمارة أنطاكية، ثم أنقلب نحو إمارة حلب فأخذ يهاجم أعماله بشراسة كبيرة وفرض الأتاوة على (قنسرين) [55].

غير أن هزيمة الصليبيين الكبيرة في (حران) سنة 497هـ/1104 م وبضمنهم (بوهمند) أدت إلى ارتباك الأوضاع في إمارة أنطاكية، واستغل رضوان هذه الفرصة للاستيلاء على عدد من اعمال حلب التي أخذها الصليبيون مثل: معرة مصرين وسرمين، ولم تلبث الحاميات الصليبية الموجودة في البارة، ومعرة النعمان، وكفر طاب، ولطمين، أن لاذت بالفرار نحو أنطاكية، وبذلك أنكمشت حدود إمارة أنطاكية إلى نهر قويق وبحيرة العمق، بعد أن كانت على مشارف مدينة حلب نفسها [56].

ومما زاد من حراجة موقف إمارة أنطاكية أن رضوان تمكن من الاستيلاء على أرتاح، وهي من القلاع ذات الأهمية من حيث موقعها لإمارة أنطاكية [57].

يضاف إلى ذلك أن الامبراطرية البيزنطية شرعت في الضغط على حدود إمارة أنطاكية الشمالية في قليقية، وأرسل الامبراطور أسطولاً بيزنطيياً تمكن من الاستيلاء على ميناء اللاذقية، وتمكن من استرجاع عدة أماكن أخرى على الشاطئ بين اللاذقية وطرسوس، فضلاً عن قلعة المراقب[58].

وهكذا نجد أن تردي أوضاع الإمارة، وأنكماش حدودها قد دفع بأميرها (بوهمند) إلى البحث عن مخرج من المأزق الذي هو فيه، فرحل إلى الغرب تاركاً ابن اخته (تنكرد) وصياً على أنطاكية في سنة 498هـ/1104م في وضع لايحسد عليه [59]، ولكن الأخير تمكن في مدة وجيزة من ترميم أوضاع إمارته، وتهيئة مستلزمات الدفاع عنها، ثم بدأ بمحاولات التوسع، إذ تمكن من استرجاع (أرتاح) من يد (رضوان) [60] بل إن (تنكرد) أصبح يهدد حلب وما حولها تهديداً مباشراً [61]، وتمكن الصليبييون من استرجاع (سرمين) من المسلمين [62]، ثم استولى على (أفامية)، واسترد (كفرطاب) شرقي أفامية [63].

وفي سنة 503هـ/1109م تمكن (تنكرد) من أن يمتد بحدود إمارته جنوباً عندما استولى على (بانياس) التي تقع بين اللاذقية وأنطرسوس، واستولى على حصن (بكسرائيل) [64].

أمّا على الحدود الشرقية لإمارة أنطاكية فقد استطاع (تنكرد) سنة 504هـ/1110م أن يستولي على (النقرة) * قرب (منبج) [65].

وبذلك امتدت حدود الإمارة من جبال (طوروس) إلى الجزيرة ووسط بلاد الشام ثم مد (تنكرد) أملاكه إلى أقصى الجنوب فاستولى على جبلة وبياس، وقلعة المراقب[66].

أمّا (روجر الآنطاكي) فقد استطاع أن يفرض سيطرته على جميع الأجزاء التي تحيط بحلب من جهة الغرب والشمال، عندما حصروا عزاز وبزاعة وزرع (أعمال عزاز وقووا فلاحهم) [67].

ويعتقد عدد من الباحثين أن الصليبيين تمكنوا في سنة 511هـ/1117 او 512هـ/1118م من الاستيلاء على حصن المراقب، جنوب شرق بانياس، وبذاك استطاع (روجر الآنطاكي) أن يقوم بدور كبير في تدعيم سياسة الصليبيين[68].

ويمكن القول إن حدود إمارة أنطاكية خلال حكم امرائها الاوائل قد تطورت بسرعة حتى سنة 525هـ/1130م إذ كانت على أوسع ما يكون، فقد وصلت في اتجاه الشمال الغربي إلى قيليقية (Cilicia) وشملت مدن طرسوس، وإذنه، والمصيصة، غير أنها عندما فتحها (يوحنا كومونين) سنة 532هـ/1137م حددها بنهر جيحان، وفيما بعد توسعت أكثر بنمو واتساع مملكة أرمينية.

وفي الشمال الشرقي كانت تحد (الرها)، وفي الجنوب الشرقي تجاوزت نهر العاصي إلى مناطق البيرة، وأفامية، والمعرة حتى شارفت على حلب نفسها* وفي الغرب حدها البحر، وأمّا الجنوب فجبال طرابلس[69].

وعلى أية حال فأن حدود إمارة أنطاكية، بلغت أقصاها عند مطلع العقد الثالث من القرن الحادي عشر، ثم أخذت بالآنحسار تدريجياً إبان الوحدة الإسلامية التي حمل لواءَها (عماد الدين زنكي)، ثم ولده (نور الدين محمود) حتى مجيء (صلاح الدين الايوبي) الذي أنتزع من إمارة أنطاكية معظم أعمالها، وباتت المدينة آيلة للسّقوط لو لم تنقذها الأقدار بوفاة صلاح الدين، ثم ارتباك أوضاع أبناء البيت الايوبي بعده، وقدر لإمارة أنطاكية أن تستمر لمدة اخرى إلى أن زالت على أيدي المماليك سنة 666هـ/ 1268م.

ثالثاً: المدن المهمة:

ضمت إمارة أنطاكية الصليبية العديد من المدن، ذات الأهمية المختلفة من النواحي الجغرافية، والستراتيجية والاقتصادية، وقد ظل عدد من تلك المدن لمدة طويلة في حوزة أمراء أنطاكية الصليبيين بينما خضع عدد منها للسيطرة الإسلامية أو الصليبية، حسب ظروف النزاع، ونمط العلاقة السائدة بين الطرفين، وقد وقفنا عند عدد من هذه المدن المهمة نظراً للأهمية التي اتسمت بها من النواحٍ عديدة.

أ- مدينة أنطاكية:

تتصدر مدينة أنطاكية جميع مدن الإمارة من حيث الأهمية والمكانة، ويعود تاريخ هذه المدينة إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد، حين أنشأها (سلوقس الفاتح) أحد قادة الاسكندر الكبير[70].

وقد عرفت هذه المدينة بجمالها، وحسن مبانيها، فقد وصفها أحد البلدانيين المسلمين بقوله (ولابناء بالرخام أبهى من قسيان أنطاكية) [71](وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرة الفواكه وسعة الخير) [72].

واتسمت المدينة بسعة عمرانها، وفي ذلك يقول أبو الفداء [73](وهي بلد كبير ذات أعين، وسور عظيم داخله أجبل وقلعة، ويمر بظاهرها النهر العاصي والنهر الأسود مجموعين)

ومما يزيد من جمال هذه المدينة هو طريقة تصريف المياه فيها، فقد وصلت قنوات المياه إلى داخل الدور فيها ومع جوانب الطرقات[74]، تنحدر تلك المياه العذبة إلى مدينة أنطاكية من ناحية (دفنة Daphne) التي تبعد نحو خمسة أميال عنها- جنوب أنطاكية- حيث يوجد فيها بضعة ينابيع كبيرة دائمة الجريأن متقاربة فيما بينها، وبما أن هذه الضواحي في مستوى من الأرض أعلى من أنطاكية، فأن هذه المياه تجري بفعل الحركة الانسيابية عبر أنطاكية، مما يزيد من جمالها ووفرة مياهها [75].

كما إن المدينة ترقد على أقدام الجبال التي تلفها من الشرق والجنوب، إذ تشمخ قلعتها في إبط ذلك الجبل الشاهق الذي يسترعنها (الشمس فلا تطلع عليها إلا في الساعة الثانية) [76]، مما يوفر للمدينة حماية طبيعية [77].

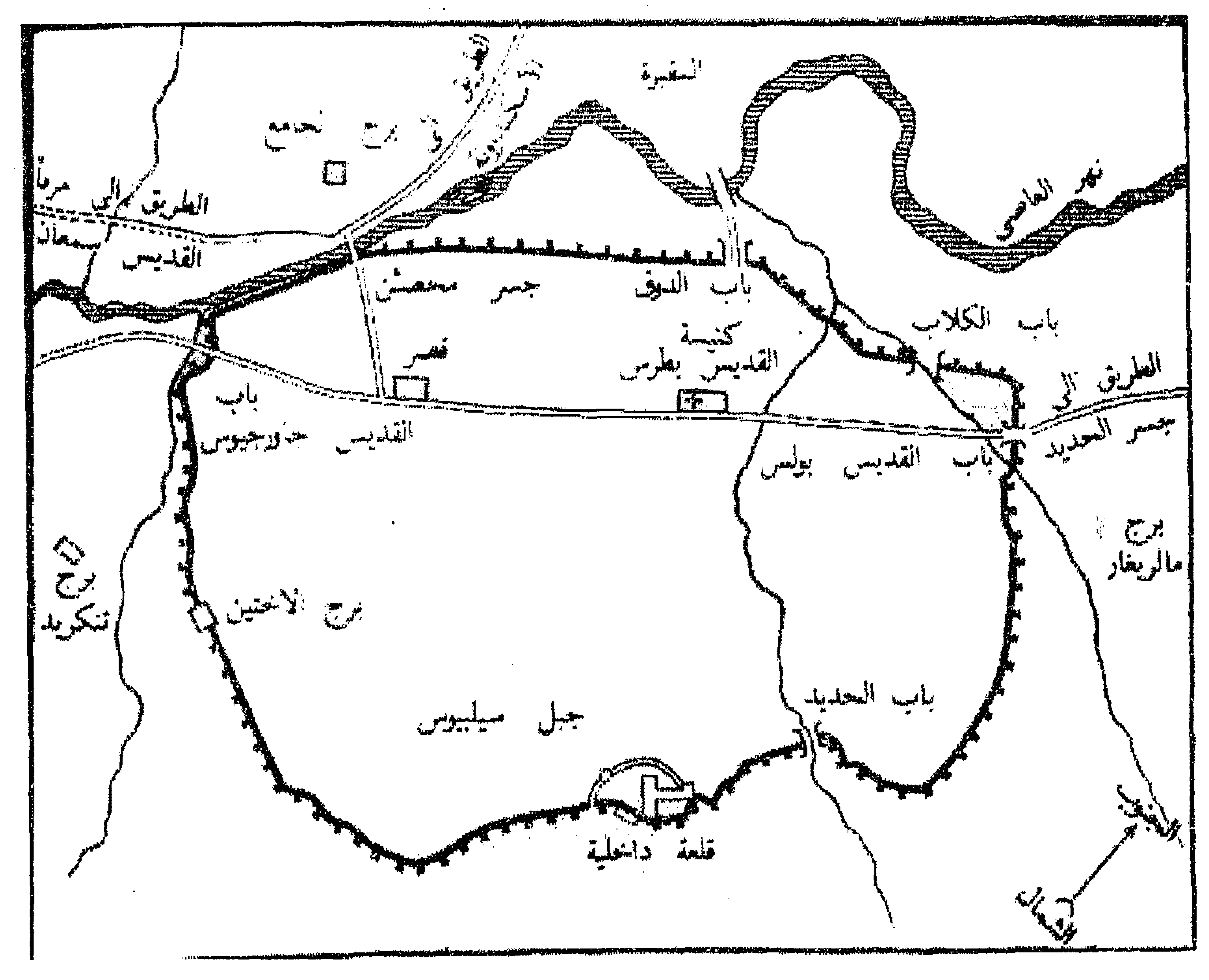
أمّا سورها فمن الراوائع العمرانية الكبيرة، ومن عجائب الدنيا [78]، التي تدل على أهمية المدينة من الناحية الستراتيجية والعسكرية، فقد احيطت المدينة بسلسلة طويلة من الأسوار التي ربما يحتاج الراكب إلى يومين للطواف حولها [79].

وقد اشتهرت هذه الأسوار بأبراجها العديدة التي تبلغ ثلثمائة وستين برجاً [80] وإلى ذلك أشار صاحب (أعمال الفرنجة) وهو أحد شهود العيأن الذين دخلوا المدينة لأول مرة عند الحملة الصليبية الأولى، غير أن المدينة مسورة بسورين (أكبرهما شديد الارتفاع عجيب البناء مشيد تشييداً عجيباً ففيه اربعمائة وخمسون برجاً) [81].

ويبدو أن أسوار أنطاكية وأبراجها كانت عرضة للكوارث الطبيعية المتمثلة في الزلازل التي تعرضت لها المدينة مرات عديدة في تاريخها، فقد ذكر الطبري ضمن أحداث سنة 245هـ أن أنطاكية تعرضت لزلزال مدمر (وسقط من دورها ألف وخمسمائة دار، وسقط من سورها نيف وتسعون برجاً) [82].

وتشير المصادر إلى أن روعة هيئة المدينة وجمالها قد سحر ملوك الفرس الذين حاولوا محاكاتها فعندما استولى كسرى أنوشروان على أنطاكية وسبى أهلها، آمر أن تبنى لهم مدينة قرب المدائن (طيسفون) على غرار مدينة أنطاكية بأسواقها وشوارعها ودورها، وسماها (زبر خسرو) وهي التي تسميها المصادر (رومية) [83] ويقول ابن العبري[84] (وتعرف اليوم بالماحوزة الجديدة).

ويبدو أن مدينة أنطاكية قد لعبت دوراً في الصراع القديم بين الشرق والغرب (الفرس والرومان) فقد كان يطوف بأبراجها أربعة آلاف حارس ((ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك فيضمنون حراسة البلد سنة، ويستبدل بهم في الثانية))[85].



الخارطة رقم (1)

مخطط أنطاكية (سنة 1098)

نقلاً عن ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق

ومما لا شك فيه أن هذه التحصينات المنيعة قد لعبت دوراً كبيراً في حماية المدينة إبان الغزو الصليبي، فقد أمضى الصليبيون أشهراً عديدةً أمام أسوار أنطاكية المنيعة عاجزين عن

اختراقها، ولم يتمكنوا من تسلقها إلا عن طريق الخيانة، عندما تواطئ أحد قادة (ياغي سيان) مع الامراء الصليبيين لاحتلال المدينة [86].

ثم إن هذه الأسوار، شكلت درعاً واقياً لإمارة أنطاكية الصليبية ضد حملات الجهاد التي خاضتها الجيوش الإسلامية ضد الوجود الصليبيي في هذه الإمارة.

ومن ضواحي هذه المدينة منطقة (دفنة Daphne) المشهورة التي تقع على مسافة بضعة أميال إلى جنوب مدينة أنطاكية، وكانت من أجمل المناطق في العالم القديم، ومصدر فخر وأنشراح لأهل أنطاكية [87]، وكانت ذات صلة تقليدية على الدوام بأنطاكية، وقد توفر لهذه المدينة من أسباب المتعة والجمال ماجذب الناس للإقامة فيها، وانشاء المساكن الفخمة، لاسيما وأنها لاتبعد كثيراً عن أنطاكية، فقد كانت مصيفاً لعدد من ملوك الاغريق والاباطرة الرومان للاستمتاع بالمياه العذبة والهواء العليل، فضلاً عن المناظر الخلابة [88].

فكانت بيئة الاعياد، ومرتع اللهو والملذات، وظلت (دفنة) رمزاً لاسطورة العذراء التي هام بحبها الإلة (ابولون) الذي ظل يطاردها حتى تحولت إلى شجرة غار مزهرة حسب ماجاء في تلك الاسطورة [89].

ب- مدن قيليقية (Cilicia)

تمثل (قيليقية) منطقة المرتفعات المنيعة التي تضم جبال طوروس الداخلية وجبال اللكام (امانوس)، وتضم المجرى الأدنى لنهري جيحان وسيحان بمدنه الهامة إذنه، والمصيصة، وطرسوس [90].

وقد تكون هذا السهل الخصيب بفعل ترسبات الأنهار التي تخترق هذا السهل كنهري جيحان وسيحان [91].

ولاشك أن انبساط الأرض وخصوبتها في هذا السهل فضلاً عن تدفق مياه الأنهار، قد ساعد على ازدهار الحياة في ربوعه منذ القدم، وقيام أهم المدن ((وامهاتها ثلاث: المصيصة واذنة وطرسوس)) [92].

1- اذنة*

تعد (اذنة) أحدى مدن الثغور المشهورة قرب المصيصة [93]، وذكر البلاذري أن (المهدي) حين أغزى ولده (الرشيد) سنة 165هـ/781م إلى بلاد الروم بنى القصر الذي عند جسر اذنة على نهر سيحان، وقد سبق أن بنى المنصور ذلك القصر، غير أن بناءه لم يكن محكماً فهدمه

الرشيد وبناه، فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائة* بنى أبو سليم فرج الخادم اذنة فاحكم بناءها وحصنها بأمر من محمد بن الرشيد [94].

وعلى أيه حال فإذنه مدينة رومية قديمة جددت عمارتها في العصر العباسي، وهي مدينة حصينة على نهر سيحان، ولها على النهر قنطرة عجيبة البناء، طويلة على طاق وأحد [95]، وقد سمي النهر باسمها (نهر اذنة) [96].

وتعد اذنة مدينة منيعة لاحاطتها بسور وخندق [97] وهي قاعدة ولاية تسمى باسمها، حيث تقع وسط سهل فسيح بالقرب من نهر سيحان، وبذلك تمثل القاعدة الرئيسة لإقليم قيليقية والممرات الممتدة عبر هذه الإقليم إلى النواحي المجاورة لها عبر طوروس، سواء في قيليقية الغربية أو آسيا أو ارمينية [98].

ومع أن هذه المدينة لم يطل أمر تبعيتها لإمارة أنطاكية إلا أنها كانت أحد الاهداف الستراتيجية المهمة التي ظل الامراء الصليبيون في أنطاكية يطمحون إلى فرض هيمنتهم عليها ضمن مساعيهم للسيطرة على إقليم (قيليقية)، الدرع الواقي لإمارة أنطاكية من جهة الشمال [99].

2- المصيصة Mamistrt

وهي أحدى مدن الثغور الشامية، تقع على شاطئ نهر جيحان بين أنطاكية وبلاد الروم، تقارب طرسوس وقد اشتهرت ببساتينها الكثيرة التي تسقى من نهر جيحان [100].

فتحها عبدالله بن عبد الملك بن مروان عند غزوه لبلاد الروم سنة 84هـ/703م [101].

ويبدو أن المصيصة من المدن القديمة، فقد ذكرت الاساطير اليونانية أن الذي بناها هو موبسوس ابن الاله ابولو على نهر جيحان [102].

وعلى أية حال فقد تهالك بناؤها نتيجةً لتقادم الزمن، لذا حظيت بالرعاية من لدن المسلمين، وقيل أن عبدالله بن عبد الملك ابتنى حصن المصيصة دون مدينتها [103].

ولسنا هنا بصدد تتبع الجوانب التاريخية لهذه المدينة، بقدر ما تعطينا أخبارها التاريخية شيئاً واضحاً عن تطورها الحضاري، بما في ذلك الجوانب الجغرافية.

وفي العصر العباسي، يبدو أن المصيصة حظيت باهتمام الخلفاء العباسين مثل غيرها من المدن الإسلامية ذات المواقع الستراتيجية، فقد ذكر البلاذري [104] أن الخليفة المنصور (لما دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة امر بعمران مدينة المصيصة، وكان حائطها متشعثاً من الزلزال، وأهلها قليل في داخل المدينة فبنى سور المدينة وأسكنها أهلها.. وسماها المعمورة) ثم توالى اهتمام الخلفاء العباسيين بهذه المدينة وتعميرها [105]، وذكرت المصادر أن

الخليفة المأمون أنشأ مدينة أخرى قبالتها عبر نهر جيحان هي مدينة (كفربيا)، وربطت المدينتان (المصيصة وكفربيا) بجسر عظيم معقود بالحجارة، مما زاد من جمال مدينة المصيصة التي أطلق عليها اسم بغداد الصغيرة[106]، لأنها تحاكي مدينة المنصور التي امتدت على جانبي دجلة.

وقد عرفت المصيصة بمروجها الواسعة الوارفة، مثل مرج الخليج ومرج الديباج[107].

وبعد أن تأرجحت هذه المدينة في خضوعها بين المسلمين والروم، أنتقلت بعد ذلك كسائر المدن المجاورة لها إلى سيطرة الأرمن، وذلك قبل وصول الغزو الصليبي إلى المشرق العربي[108].

ومن الواضح أن الصليبيين قد أدركوا الأهمية الكبيرة لموقع هذه المدينة، لذلك بذلوا ما في وسعهم للاحتفاظ بها ضمن مدن إقليم قيليقية الستراتيجي لحامية إمارة أنطاكية من جهة الشمال حيث يهددها الخطر البيزنطي بصورة دائمة.

3- طرسوس

وهي المدينة الواقعة على ثغور الشام على نهر البردان[109]، والمدينة محاطة بسورين من الحجارة، وقد عرفت هذه المدينة بخصبها[110]، وهي قديمة من بناء الروم وكانت قديماً تسمى (ايارسين) ثم سميت طرسوس فعربت[111].

وحين وصلها المسلمون كانت خراباً قد تشعث بناؤها فلما كانت سنة 171هـ/787م أمر الخليفة الرشيد هرثمة بن أعين بعمارة طرسوس حين أغزاه الصائفة ففعل، وأوكل أمر ذلك إلى فرج بن سليم الخادم فاستتم بناء طرسوس، وتحصينها، وبناء مساجدها[112].

وكانت المدينة قد أحيطت بسورين لكل سور خمسة أبواب من الحديد وعدد الشروفات في السور الأول الذي يلي المدينة نحو ثمانية آلاف شرافة، وفيه من الأبراج مائة برج[113].

وفيها دفن الخليفة المأمون بن الرشيد الذي وافاه الاجل وهو في بلاد الروم سنة 218هـ/833م[114].

وتعد هذه المدن الثلاث (اذنة، والمصيصة، وطرسوس) أمهات الثغور الشامية، ويدعى إقليمها بقيليقية[115].

وكانت تشكل بمجموعها مع أقاليمها العمق المهم لإمارة أنطاكية الصليبية، وكان الصليبيون قد فكروا بإحكام السيطرة عليها حتى قبل الوصول إلى مدينة أنطاكية، ثم حرص بوهمند وخلفاؤه من أمراء أنطاكية في تشديد قبضتهم على هذه المنطقة رغم ما جره عليهم ذلك من التعرض لمشيئة الامبراطورية البيزنطية، وعداء الأرمن من سكان هذه المنطقة.

ج- مدن متفرقة، وهي عديدة وقد تناولت الدراسة أهم تلك المدن:

1- بغراس **Baghras**

تقع هذه المدينة بالقرب من جبل اللكام، وتبعد عن أنطاكية نحو أربعة فراسخ على يمين القاصد من حلب إلى أنطاكية، وتطل على نواحي طرسوس[(116)].

ذكر أبو الفداء بأنها تقع إلى الجنوب من دربساك وبينهما بعض مرحلة[(117)].

وفي العهد الأموي كانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك فوقفها في سبل البر[(118)]، أمّا عن تاريخ بناء المدينة فحدثنا ابن العديم أن نقفور ملك الروم لمّا ملك بعض الثغور الشامية سنة 357هـ/967م ابتنى حصن بغراس ورتب فيه أحد رجاله، وأمر أصحاب الأطراف باطاعته[(119)].

وبعد الغزو الصليبي، أصبحت بغراس، ضمن حدود إمارة أنطاكية ولهذه القلعة أهمية كبيرة إذ أنها تتحكم في الطريق المؤدي من أنطاكية إلى قيليقية[(120)]، ووصفها أبو شامة بأنها جناح أنطاكية المهم[(121)].

وقد تمكن صلاح الدين الايوبي من أنتزاعها سنة 584هـ/1188م وقال ابن شداد [(122)] إنها كانت (كثيرة العدة والرجال).

وعند قدوم الحملة الصليبية الثالثة التي كان يتقدمها الالمأن وما شاع في الشرق الإسلامي عن عظم هذه الحملة وكثرة اتباعها، احتاط صلاح الدين الابوبي للأمر وأرسل المبعوثين إلى الامراء المسلمين، وأرسل وفداً إلى بغداد لطلب المعونة من الخليفة الناصر لدين الله العباسي[(123)].

وتم إخلاء حصن بغراس تحسباً من وقوعه في يد رجال الحملة الصليبية، وكان فتح صلاح الدين لهذا الحصن من الأعمال المهمة نظراً لأهمية موقعه الحربي، وتحكمه في الطريق المار من قيليقية إلى شمال الشام[(124)].

ثم دمر صلاح الدين هذا الحصن سنة 578هـ/1191م بعد أن أنتزعه من الفرسان الداوية*، غير أن ليو الأرمني سارع إلى الاستيلاء على الحصن بعد رحيل المسلمين، فطلب بوهمند الثالث أمير أنطاكية من ليو أن يرد الحصن إلى الداوية، ولكنه رفض ذلك، فتوجه بوهمند إلى صلاح الدين طالباً أن يسانده ضد ليو، غير أن صلاح الدين كان مشغولاً بأمور جسام أشغلته عن طلب أمير أنطاكية، وبذلك ظل حصن بغراس في حوزة ليو الأرمني[(125)].

2- دربساك **Darbsak**

قلعة منيعة بالقرب من أنطاكية[(126)]، شمالي حلب على نحو ثلاث أو أربع مراجل[(127)]، تمتاز بكثرة عيونها، وبساتينها، ولها من شرقيها مروج متسعة يمر فيها النهر الأسود، وهي

إلى الشمال الشرقي من بغراس على نحو عشرة أميال [128]، وتعد من الثغور الساحلية الجبلية [129].

قال عنها ابن الشحنة [130]، دربساك) حصن قاطع النهر الأسود على لحف جبل من جبال اللكم، وليس له ذكر في الفتوح، وأنما جدد في دولة الأرمن لما ملكوا الثغور).

وبعد قيام إمارة أنطاكية الصليبية أصبح ذلك الحصن ضمن أعمالها، ويبدو أن حصن دربساك مع حصن بغراس من الأهمية بمكان لإمارة أنطاكية، فقد وصفهما أبو شامة [131] بقوله: (وهذان الحصنان دربساك وبغراس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين).

وقد تمكن صلاح الدين الايوبي من انتزاع هذا الحصن من إمارة أنطاكية سنة 584هـ/1188م [132].

3- البستان (الابليستين) Ablastain

مدينة البستان إلى الشمال الشرقي من مدينة مرعش، على الدرب الذي يعرف بدرب الحدث، وهو من الدروب المهمة التي تربط بلاد الشام بآسيا الصغرى، من خلال ممرات جبال طوروس [133]، وكان هذا الدرب مسلكاً لعددٍ من صوائف المسلمين ضد الروم البيزنطيين [134].

وهذه المدينة (قريبة من ابسس، مدينة أصحاب الكهف) [135]، وبذلك تكون غير بعيدة عن منبع نهر جيحان، وموقعها هذا يمثل آخر المواقع مما يلي بلاد الشام من جهة الشمال الشرقي [136].

ويبدو أن اسم البستان هو اسم محدث ومعّرب عن الاسم القديم للمدينة فقد ذكرتها المصادر القديمة باسم (ابلستا Ablastha) وهي تسمية بيزنطية أمّا اليونان فقد أطلقوا عليها اسم (عربسوس Arabissus) [137]، وذكر ياقوت [138] أن عربسوس بلد من نواحي الثغور قرب المصيصة.

ومما يؤيد حداثة الاسم (البستان) أن عدداً المؤرخين والبلدانيين المسلمين قد أشاروا إليها باسم (ابلستين) [139]، ولم يرد في رواياتهم ذكر لمدينة البستان.

ويعتقد عدد منهم أن لفظة (البستان) كلمة فارسية مركبة من (الب) أي الشجاع و (ستان) أي مكان، ومن هنا جاءت تسمية البستان [140].

وقد أصبحت هذه المدينة تمثل الزاوية الشمالية الشرقية من حدود إمارة أنطاكية، وذلك عندما تمكن بوهمند من الاستيلاء عليها سنة 497هـ/1103م [141]، وبذلك ضمنت إمارة أنطاكية لنفسها تأمين أحد الممرات المهمة المؤدية إلى آسيا الصغرى عبر جبال طوروس،

ويعرف هذا الممر بدرب الحدث، وهو من الممرات التاريخية الهامة، من وإلى سوريا عبر جبال طوروس إلى بلاد الروم[142].

4- عزاز: Azaz

قال ياقوت عن عزاز (بفتح أوله وتكرار الزاي وربما قيلت بالألف في أولها، بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة، لايوجد بها عقرب، وإذا أخذ ترابها وترك على عقرب قتله فيما حكي، وليس بها شيء من الهوام) [143].

ووصفه أبو الفداء بأنه حصن مشهور بشمال غربي حلب، امتاز بالحسن، والطيبة، والخصب[144]، وهذا ما أكده القلقشندي بقوله[145] (ولعزاز جهات في نهاية الحسن، والطيبة، والخصب، وهي من أنزه الأماكن).

ووصفها ابن الشحنة[146] بأنها عظيمة، ولها كورة كبيرة تشمل الكثير من القرى، تناهز في عددها ثلثمائة قرية، ثم أشار إلى أهميتها الاقتصادية بقوله (وكان ارتفاع قصبتها خاصةماينوف على ثلثمائة ألف درهم).

وبالنظر إلى أهمية هذه المدينة وأعمالها حاول ايلغازي بن ارتق بعد دخوله حلب سنة 511هـ/1117م[147]، عبثا أن يصالح الصليبيين عليها بعد أن وقعت في قبضتهم ليرحلوا عنها، فصالحوه عن مناطق أخرى، واستمروا في دفع القطيعة المستقرة، وصار للصليبيين من حلب شمالاً وغربا (وزرعوا أعمال عزاز، وقووا فلاحها، وعادوا إلى أنطاكية وصار يدخل إلى حلب ما يتبلغون به من القوت) [148].

ويبدو أن ذلك كان في حدود سنة 513هـ/1118م لأن رنسيمان أشار إلى أن روجر الأنطاكي تمكن من الاستيلاء على عزاز سنة 513هـ/1118م وعزل بذلك حلب عن الفرات والشرق[149].

غير أن هذه المدينة التي تقع على الحدود الشرقية لإمارة أنطاكية – مع جارتها إمارة الرها – كانت في مدة من تأريخ الإمارتين مصدراً للمشاكل بينهما، وذلك عندما تزوج جوسلين صاحب الرها من ابنة روجر الأنطاكي، أمير أنطاكية[150].

وقد حصلت على وعد بأن تكون عزاز بائنة لها [151]، ونتيجةً لهذا الزواج فقد أضافت عزاز إلى أملاك إمارة الرها مساحات جديدة، إلا أن بوهمند الثاني الذي جاء لاستلام ارث أبيه بعد وفاة روجر لم يقر هذه المنحة وسوّغ ذلك بأن روجر لم يكن إلا قيماً على إمارة أنطاكية وليس من حقه أن يمنح شيئاً من أرضها وبعد ملابسات كثيرة بين الطرفين تمكن الملك بلدوين الذي توجه إلى شمال الشام في سنة 522هـ/1128م، عند

تصاعد الإزمة بين الطرفين، أن يهدئ الموقف، وتخلى جوسلين عن دعواه في عزاز، إثر مرض خطير ألــمّ به[152].

ومع ذلك استمرت عائدية المدينة لإمارة الرها، حتى تمكن نور الدين محمود من تصفية متعلقات الرها، إذ تقدم بقواته نحو عزاز فحاصرها وتمكن من الاستيلاء عليها في ربيع الأول سنة 545هـ/1150م، رغم مناعة حصونها، ثم رحل إلى حلب[153].

5-أرتاح: **Artsh**

ذكر ياقوت[154]أن أرتاح (اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب).

وعندما نزل الصليبيون أمام أنطاكية أشار صاحب أعمال الفرنجة إلى أن حصن حارم كان مكمناً لخيل المسلمين المغيرة على معسكر الصليبين[155].

وفي سنة 490هـ/1096م أخذ الصليبيون يعيثون فساداً في أعمال أنطاكية قبل دخولها عندما قتلوا من كان في الحصون المجاورة، فهرب أهل أرتاح[156].

وذكر ابن القلانسي[157]أن أهل حصن أرتاح من الأرمن سلموا الحصن سنة 498هـ/1104م، إلى رضوان صاحب حلب تخلصاً من جور الفرنج (فلما عرف طنكري ذلك خرج من أنطاكية لقصد أرتاح واستعادتها) وقد هزم المسلمون فتمكن بذلك من أخذ أرتاح.

وهكذا تأرجحت هذه المدينة بين سيطرة المسلمين والصليبيين، فتارةً هنا وتارةً هناك، حسب توازن القوى إلى أن حُررت نهائياً من سيطرة الصليبيين[158].

6- حارم: **Marim**

ذكر البلدانيون أن حارم (حصن حصين، وكورة جليلة تجاه أنطاكية.. وفيها أشجار كبيرة، ومياه، وهي لذلك وبئة) [159].

وهذه البلدة على مرحلتين من حلب في جهة الغرب، وبينها وبين أنطاكية مرحلة [160].

ويروى أن مدينة حارم، كانت قبل الفتح الإسلامي صغيرة، وهي عبارة عن الحظيرة التي تحيط بالمواشي، ودامت على هذه الحال إلى أن ملكت الروم أنطاكية سنة358هـ/968م فبنوها حصناً لتحمي مواشيهم من غارات العرب، ثم أُقطعت لأحد فرسان الروم، فبنى فيها قلعة، ثم أخذها المسلمون ولم تزل بأيديهم حتى أخذ الصليبيون أنطاكية سنة 491هـ/1079م [161]، ووصف ابن الأثير هذه القلعة بقوله[162](وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين) فهي تمثل البوابة التي كانت تحرس أنطاكية باتجاه حلب[163].

وذكر ابن الشحنة[164]أن حارم لها إقليم مهم (يشمل على قرى وبساتين فيها عيون

الطواحين، وهي بها تسمى دمشق الصغرى لكثرة ما فيها من سائر الفواكه.. وحد هذا العمل من القبلة جبل ارمناز، وجبل الاعلى وجبل باريشا، وكلها معمورة بالضياع والقرى، وتنتهي هذه الناحية إلى البير الطيب من الروج، ومن الشرق تنتهي إلى عم وتيزين* وجبل ليلون، وكل هذه الجبال يتفجر منها الأنهار.. وهي ملتفة الاشجار، ومن الشمال تنتهي إلى جسر قبار على عفرين وعلى أرحاء السمونية إلى بلد البلاط.. وتشتمل على قرى العمق، ومن الغرب تشتمل على ناحية يقال لها الإقليم تنتهي إلى نهر العاصي).

ويضم عمل حارم مجموعة من القلاع المهمة، مثل دركوش* ودُبين**، ومعظم سكان تلك النواحي وفلاحوها من الأرمن، وقد أُعيد إقليم حارم إلى إمارة أنطاكية الصليبية بعد أن استولى المغول على حلب إذ كافأ المغول بوهمند السادس أمير أنطاكية على وقوفه إلى جانبهم بارجاع عددٍ من الأراضي التي استعادها المسلمون من إمارة أنطاكية، مثل حارم[165].

وقد تمكن نور الدين محمود من استعادة هذه القلعة من الصليبيين سنة 559هـ/1163م، وبذلك أصبح الطريق سالكاً للوصول إلى أنطاكية[166].

7- الأثارب: Athareb

الأثارب قلعة مشهورة بين حلب وأنطاكية، تبعد عن حلب نحو ثلاثة فراسخ، وذكر ياقوت[167] أنها في زمنه كانت خراباً، ولها قرية أسفلها تعرف باسمها (الأثارب).

ووصفها بلداني آخر بقوله[168] (وبلد الأثارب وأرتاح إلى نحو جبل السماق*** مثل بلد فلسطين في كثرة الزيتون، ولها ارتفاع جليل من الزيت..)

وفي سنة 504هـ/1110م[169] تمكن أمير أنطاكية (تنكرد) من احتلال الأثارب، وملكها بعد حصار طويل لها [170].

ويبدو أن هذا الحصن أصبح شديد الضرر على المسلمين بعد أن امتلكه صاحب أنطاكية (وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية) [171].

وبالنظر إلى أهمية موقع هذا الحصن فقد حرص الطرفان - المسلمون والصليبيون - على فرض السيطرة عليه، لذلك تكرر أمر امتلاكه من قبل الطرفين مرات عديدة[172].

8- البارة AL-Bara

البارة ويسميها آخرون زاوية البارة، وهي بليدة، وكورة من نواحي حلب وبها حصن وهي ذات بساتين[173]، وكانت ضمن إقليم حمص فيما مضى[174].

وكانت طلائع الصليبيين قد وصلتها سنة 490هـ/1096م، فعاثوا فيها فساداً[175]، ثم

تمكن ريموند الصنجيلي من احتلالها سنة 491هـ/1098م، فمنح أهلها الأمان، غير أنه نكث عهده (وغدر بأهلها وعاقب الرجال والنساء واستصفى أموالهم، وسبى بعضاً وقتل بعضاً)[176]، وغصت البلد بالمسيحيين وتحول مسجدها إلى كنيسة[177].

وفي سنة 496هـ/1102م استعاد رضوان صاحب حلب البارة بعد أن تركها الصليبيون إثر الهزيمة التي حلت بهم على يد سكمان بن ارتق وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر[178].

ويمكن القول إن البارة كغيرها من المدن الإسلامية التي تأرجحت في تبعيتها بين القوتين المتصارعتين (المسلمين والصليبيين) حتى تم لها الخلاص نهائياً من النفوذ الصليبي بعد تحجيم إمارة أنطاكية، واجتثاث أعمالها على أيدي القوات الإسلامية[179].

9- كفر طاب: Capharca Capharda

ذكر ياقوت[180] أن كفر طاب (بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج).

وذكر بلداني آخر أنها من أعمال أفامية[181]، وقد وصفت بأنها بليدة صغيرة كالقرية، وهي على منتصف الطريق بين المعرة وشيزر، وقد شاعت عنها صناعة القدور من الخزف التي تجلب إلى غيرها من النواحي[182].

وبعد أن سقطت مدينة أنطاكية بيد الصليبيين، توجهوا نحو بيت المقدس فأنطلقوا من معرة النعمان جنوباً إلى كفر طاب التي تبعد عنها نحو عشرين كليومتراً، ومكثوا فيها مدة ثم واصلوا المسير[183].

وبذلك أصبحت كفر طاب ضمن حدود إمارة أنطاكية، وهي تمثل على وجه التقريب أقصى المناطق الحدودية لهذه الإمارة من جهة الجنوب الشرقي وراء نهر العاصي، لذلك كثيراً ما أنسحب منها الصليبييون عندما كانت تتعرض الإمارة إلى ضغط القوات الإسلامية، إذ كانت تعود كفر طاب إلى حوزة المسلمين.

10- أفامية Apamea

مدينة ذات تاريخ قديم، كما تقدم ذكره، قد أنشأها سلوقس الفاتح، في مطلع المائة الثالثة قبل الميلاد.

ووصفها أحد البلدانيين المسلمين بقوله[184] (أفامية مدينة حصينة من سواحل الشام، وكورة من كور حمص.. ويسميها بعضهم فامية بغير همزة).

وذكر ابن خرداذبة[185] أن ملعب فامية من عجائب الدنيا، ويبدو أن لهذا الحصن أهمية

كبيرة في حياة إمارة أنطاكية، وذلك لوقوعه بين إمارتي شيزر وحمص على تل عال؛ لذلك عدّه ابن الأثير من الحصون المنيعة ذات الأهمية[186].

وقد تمكن (تنكرد) أمير أنطاكية من السيطرة على هذا الحصن سنة 500هـ/1106م إثر مؤامرة دبرها الباطنية لاغتيال خلف بن ملاعب صاحب أفامية[187].

د- مدن الموانئ

وهي المدن التي تقع على ساحل البحر المتوسط وهي ذات أهمية متميزة لأنها تمثل موانئ لإمارة أنطاكية على شاطئ المتوسط، وأهم هذه المدن أربع، اللاذقية، والسويدية، والإسكندرونة، وجبلة، وقد قدمت هذه المدن لإمارة أنطاكية خدمة كبيرة زاد من أهمية موقعها، وذلك لأن تلك المنافذ البحرية قد سهلت مهمة اتصال الإمارة بالبحر فيسرت حركة التجارة والنقل عبر شواطىء المتوسط إلى المدن الساحلية في الشام ثم إلى أوربا .

1- اللاذقية: Laodicea

وهي ميناء ومدينة مشهورة على ساحل البحر المتوسط، ذكرها ياقوت[188] فقال: (مدينة على ساحل الشام.. وهي غربي جبلة بينهما ستة فراسخ.. مدينة عتيقة رومية فيها أبنية قيمة مكينة، وهو بلد حسن في وطاء من الأرض، وله مرفأ جد محكم، وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الربض، والبحر على غربيها، وهي على ضفته).

ووصفها أبو الفداء بأنها مدينة جليلة تبعد عن أنطاكية ثمانية وأربعين ميلا، وهي أجل مدينة بالساحل منعةً وعمارةً، ولها ميناء عظيم[189]، وكانت فيما مضى أحدى كور الساحل التابعة لإقليم حمص[190].

وتاريخ هذه المدينة قديم يعود إلى ماقبل ميلاد المسيح (ع) فبعد وفاة الاسكندر سنة (323ق. م) اقتسم قواده البلاد التي فتحها، وكانت سوريا من نصيب سلوقس (الذي اكسبته أنتصاراته لقب الفاتح، فشرع سلوقس في أنشاء المدن في الجزء الشمالي الغربي من سوريا الذي صار يعرف بالإقليم السلوقي، فقد أقام أربع مدن هي: أنطاكية، وسلوقية، وأفامية، واللاذقية[191].

وقد أنشأت هذه المدن على أساس مزدوج: بري، وبحري، فسلوقية هي ميناء لمدينة أنطاكية، واللاذقية ميناء لمدينة أفامية، وأطلق سلوقس على اللاذقية اسم (Laobicea) نسبةً إلى اسم أمه، أمّا المدينة البرية فأطلق عليها اسم أفامية (Abamea) نسبةً إلى زوجته[192].

والذي يهمنا من تاريخ هذه المدينة هو حالها عند تدفق الموجات الصليبية إلى الشرق.

ففي النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، كانت اللاذقية أقصى ما يقع في الطريق الجنوبي من الموانئ البيزنطية، ثم خضعت للسلاجقة حوالي سنة 477هـ/1084م[193].

وفي سنة 487هـ/1094م أقطعها تاج الدولة تُتش إلى ياغي سيان أمير أنطاكية[194].

وفي صيف سنة 491هـ/1097م تمكن أحد القراصنة ويدعى- ونمار البولوني- من الاستيلاء عليها من السلاجقة، ولم يلبث بعض البحارة الآنكليز أن أنتزعوها من السلاجقة بقيادة ايدجار اثلج الذي استولى عليها باسم الامبراطور البيزنطي[195].

وفي صيف سنة 492هـ/1098م استولى على المدينة، ريموند الصنجيلي الذي سلمها بدوره إلى البيزنطيين، غير أن بوهمند حاول السيطرة عليها سنة 493هـ/1099 م لتحقيق أطماعه التوسعية؛ وذلك لأن اللاذقية تهدد إمارة أنطاكية من جهة الجنوب، فتمكن بوهمند من فرض الحصار على اللاذقية بمساعدة البيازنة، ولكن ريموند الصنجيلي وعدداً من قادة الصليبيين تمكنوا - بعد الآنتهاء من حملتهم على بيت المقدس- من الاستيلاء عليها[196].

عندما أصبح (تنكرد) وصياً على أنطاكية بعد أسر بوهمند تمكن سنة 497هـ/1103م بمساعدة السفن الجنوية من الاستيلاء على اللاذقية[197]، وبذلك صار لأنطاكية منفذ طبيعي مهم على البحر المتوسط.

كان أنهيار خط الدفاع الشرقي لإمارة أنطاكية إثر هزيمة الصليبيين في حران وأنكماش حدود أنطاكية عاملاً مهماً في مراجعة الامبراطور البيزنطي لموقفه من إمارة أنطاكية وأطماعها التوسعية، لذا قرر البيزنطيون أنتزاع ما يمكن انتزاعه من ممتلكات أنطاكية، فقرر الامبراطور سنة 498هـ/1104م استرداد مدن قيليقية، وتطويق اللاذقية[198].

غير أن (تنكرد) تمكن من استعادتها 502هـ/1108م، [199]، وهكذا ظلت اللاذقية على حالها حتى تمكن صلاح الدين الايوبي من تحريرها سنة 584هـ/1188م[200].

2- السويدية: **Saint Symeon**

السويدية هي مدينة سلوقية القديمة أنشأها القائد اليوناني سلوقس سنة 300ق. م على شاطئ البحر المتوسط، على نحو خمسة أميال شمالي مصب نهر العاصي؛ لتكون نظيراً بحرياً لمدينة أنطاكية عاصمة ملكة في بلاد الشام، كما سلف ذكره[201].

اشتهرت السويدية بالزراعة وكثرة العمران فضلاً عن كثرة العيون العذبة والبساتين الوارفة[202].

وقد ذكرت المصادر القديمة هذه المدينة باسم (سلوقية) ولم تشر إلى اسم ثانٍ لها[203].

أمّا في المصادر اللاتينية فاسمها (Saint Symeon)، ولعل السويدية هو الاسم المحدث لتلك

المدينة، ويعلل ابن الشحنة سبب هذه فضلاً عن التسمية (السويدية) بأن جبل اللكام، كان يُدعى قديماً بالجبل الأسود، فضلاً عن وجود النهر الأسود الذي يصب في نهر العاصي بالقرب من مدينة أنطاكية ((ولأجل هذا سميت سلوقية السويدية لما غلب عليها اسم النهر والجبل))[204].

كانت سلوقية ميناءً مهماً لأنطاكية يؤمن لها المواصلات البحرية دون تعرض أهلها لمظاهر الحياة السيئة عند الموانئ، وقد بنيت هذه المدينة عند قلعة حصينة، وكان القصد من وراء ذلك أن تكون سلوقية عاصمة لدولة سلوقس قبل تأسيس أنطاكية إلا أن أنطاكية صارت عاصمة الملك[205].

ويبدو أن لهذا الميناء أهمية كبيرة في الدولة الإسلامية، فقد أقطع الوليد بن عبد الملك عدداً من جنده أرض سلوقية فعمروها، وبنوا حصن سلوقية[206].

ووصف المسعودي سلوقية[207] بقوله (مدينة عظيمة كثيرة العمران عجيبة البنيان كانت في ساحل أنطاكية، رسومها بينة إلى هذه الغاية).

ومع أن ياقوت الحموي[208] مَرَّ على ذكرها مسرعاً إلا أنه أشار إلى بعض ما اشتهرت به المدينة، وفي ذلك يقول (ولعل السيوف السلوقية* والكلاب السلوقية منسوب إليها).

وأصبح لهذا الميناء أهمية خاصة في حياة إمارة أنطاكية الصليبية، فقد بلغه الصليبيون في وقت مبكر منذ أن حطوا رحالهم أمام أسوار أنطاكية[209]، ثم أصبح منفذاً للأساطيل الايطالية التي تقدم العون لجيوش الغزو الصليبي[210].

وقد أشار (دوسو) إلى هذا الميناء، وذكر أنه كان مطموراً عند بداية الغزو الصليبي، ثم إن موقع ميناء السويدية هو ليس– تماماً– موقع سلوقية القديمة، وأنما أُقيم على منطقة تدعى (Eskele)[211]. وبالنظر لموقع هذا الميناء في ظهر إمارة أنطاكية من جهة البحر، وقربه من موقعها فقد انماز بميزتين مهمتين:

1- صعوبة وصول القوات الإسلامية إلى تلك الجهة من ناحية البر.
2- أصبح الميناء منفذاً طبيعياً لاتصال الإمارة عبر البحر، وذلك بحكم موقعه القريب منها، فجرت عن طريقه معظم اتصالات الإمارة بالغرب[212].

وهكذا استمرت أهمية ذلك الميناء حتى زوال الإمارة سنة 666هـ/1268م.

3- الإسكندرونة: Scadelion

الإسكندرونة من المدن اليونانية القديمة، ذكرها ياقوت[213] بقوله (هي مدينة في شرق أنطاكية على ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ وبينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ).

ولا ندري ماذا يقصد ياقوت بالاتجاه (شرقي إمارة أنطاكية) فالناظر إلى خارطة المنطقة يرى بأن الإسكندرونة تقع إلى الشمال الغربي من أنطاكية تماماً.

وذكرها ابن الشحنة[214] بقوله: (والإسكندرونة أو الاسكندرية الصغرى واسمها الإسكندرونة، وهو حصن بنته زبيدة أم جعفر، وجدّدَ بناءه أحمد بن أبي دؤاد في خلافة الواثق، وهوعلى ساحل البحر، وبه نخل).

وهذا ما ذكره أبو الفداء المتوفى في النصف الأول من القرن الثامن الهجري[215]، وقد استدرك ابن الشحنه على ما أورده بقوله[216] (رأينا في الكتب القديمة الرومية أن الأسكندر بنى مدينتي الاسكندرية الكبرى والاسكندرية الصغرى وهي اسكندرونة) وتتبع البلاذري[217] تاريخ هذه مدينة فذكر أنها كانت لمسلمة بن عبد الملك (ثم صارت لرجاء مولى المهدي اقطاعا يرثه منصور وإبرهيم ابنا المهدي ثم صارت لإبراهيم بن سعيد الجوهري، ثم لأحمد بن أبي دؤاد الايادي ابتياعاً).

ويلاحظ أن التاريخ السياسي لهذه المدينة يرتبط إلى حد كبير - بحكم موقعها الجغرافي - بتاريخ مدينة أنطاكية في خضوعها للقوى التي سيطرت على المنطقة.

ويبدو أن شقاً من الجيش الصليبي قد مال إليها للاحتماء بها إبان نزول الصليبيين أمام أسوار أنطاكية، ووصفها أحد مؤرخيهم بأنها مدينة حصينة[218].

رابعاً- النواحي الطبيعية

أ- السطح

1- السهول

يمكن تقسيم السهول التي ضمنتها امارة أنطاكية على نوعين:

أ- السهول الساحلية:

اشتملت هذه المنطقة السهلية على شريط ساحلي مهم، امتد على شواطيء البحر المتوسط، فقد امتد نفوذ الإمارة في ذروة قوتها من السواحل المواجهة لسهل قيليقية على البحر المتوسط حتى منطقة بانياس في الجنوب[219].

ويشمل سهل الإسكندرونة القسم الشمالي من ذلك السهل الساحلي الذي يمتد بين جبال اللكام (امانوس) وشواطئ البحر المتوسط، ويتراوح عرضه 5-10كيلو متر[220].

ولقد ساهمت أنهار سيحان وجيحان والبردان وغيرها من الأنهار والمجاري الصغيرة في تكوين ذلك السهل، نتيجةً لما تحمله من ترسبات غرينية، وتعرف هذه السهول تاريخياً باسم سهول قيليقية (Cilican) [221].

وتمثل الأطراف الجنوبية لجبال اللكام — التي تقرب كثيراًمن البحر- حداً فاصلا بين أجزاء هذا السهل، الامر الذي يضطر طرق المواصلات للسير شرقي الجبل ثم اختراقه من ممر (بيلان) للوصول إلى ميناء الإسكندرونة [222].

ويطلق على هذه المنطقة الجبلية التي تقطع سهل الإسكندرونة، بـ (منطقة رأس الخنزير) [223].

ويرتبط هذا السهل بداخلية هضبة الأناضول عن طريق الممر المشهور في جبال طوروس الذي يعرف باسم (بوابة قيليقية) [224].

ومن أجزاء هذا السهل المهمة السهل الواسع نسبياً على ساحل البحر المتوسط حول مدينة أنطاكية الذي كونته رواسب عددٍ من الأنهار الصغيرة [225].

ويمتد هذا السهل من خلف مدينة أنطاكية، حتى جبل اللكام شمالاً وهو عبارة عن سهل مستو فسيح [226].

وقد اشتهر سهل أنطاكية بخصوبته، وكثرة منافذه العديدة، مع إقليم الجزيرة بشمال العراق، ثم الأودية المتفرعة من شمال الشام نحو العراق والجزيرة العربية، وكان إقليم البقاع هو نقطة الالتقاء في هذا السهل، وهو مايعرف بسوريا المجوفة (coeIesyria) [227].

وإلى الجنوب من سهل الإسكندرونة يمتد باقي السهل الساحلي، إذ يكون أطول امتداداً، واكثر اتساعاً فيمده من الشمال الجبل الأقرع (كاسيوس) وفي الشرق جبال النصيرية، حيث تتكون مجموعة من السهول الصغيرة المتصلة كسهول اللاذقية وسهل جبلة- بانياس- طرطوس في الوسط والجنوب [228]. ويتراوح اتساع هذه السهول بين 5-15 كيلومتر [229].

ب- السهول الداخلية

أهمها سهل أومنخفض العمق الذي تحيط به مرتفعات الأكراد من الشرق ومرتفعات اللكام من الغرب، ويبلغ منسوب المنخفض نحو 490 قدماً فوق مستوى سطح البحر [230].

وتتوسط بحيرة أنطاكية سهل العمق حيث تحيط بها مستنقعات واسعة نتيجة لجريان الأنهار التي تصب فيها [231].

ويدخل نهر العاصي إلى هذا السهل بعد أن يترك منطقة دركوش ذات البساتين

المشهورة بانتاج العنب الذي يفوق الوصف[232]، ثم يمر تحت أسوار أنطاكية ليواصل مجراه إلى البحر المتوسط[233].

ويبدو أن لهذا السهل أهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية لإمارة أنطاكية، فقد أشار إلى ذلك ياقوت وذكر أن العمق (كورة بنواحي حلب الآن [في زمن ياقوت] وكان أولاً من نواحي أنطاكية ومنه أكثر ميرة أنطاكية) [234] ويمتد سهل العمق خلف نهر العاصي لمسافة عدة أميال شمالاً وغرباً حتى ينتهي عند اطار دائري من التلال والجبال[235].

ويصف ابن بطلان بعضاً من أجزاء هذا السهل في رحلته من حلب إلى أنطاكية بقوله (والمسافة التي بين حلب وأنطاكية أرض ما فيها خراب أصلاً، إلا أرض زرع للحنطة والشعير بجنب شجر الزيتون، قراها متصلة ورياضها مزهرية، ومياهها منفجرة) [236].

وخلاصة القول أن إمارة أنطاكية تنعم بأفضل وأبهى موقع في مقاطعة البقاع التي هي جزء من سوريا حيث الأراضي الخصبة، والحقول الغنية التي ترويها المياه من العيون، والأنهار الكثيرة[237].

2- الجبال

اشتملت إمارة أنطاكية في ذروة اتساعها على العديد من الجبال المهمة في الشام، ومنطقة قيليقية، وجبال أنطاكية، هي جزء من الجبال التي تمتد في كل من: سوريا، ولبنان، وفلسطين، والاردن في اتجاه عام من الشمال إلى الجنوب، فتكون محاذية للساحل الشرقي للبحر المتوسط، بدءاً من مرتفعات طوروس شمالاً إلى خليج العقبة جنوباً، وأن اختلف اتجاه بعض محاورها ليصبح شمالي شرقي/ جنوبي غربي، وهي في الأصل مرتفعات التوائية يكون انحدارها تدريجياً ناحية ساحل البحر المتوسط بينما يكون أنحدارها فجائياً صوب النطاق الاوسط المنخفض (الغور) [238].

ويبدو من خلال ملاحظة السلاسل الجبلية في هذه المنطقة أن عدداً من اسماء هذه الجبال كانت قد تغيرت بمرور الأزمان أو أُطلق عليها أسماء محلية حسب الأماكن التي تمر بها.

ويمكن لنا أن نذكر أبرز السلاسل الجبلية في هذه المنطقة بالشكل التالي:

أ- جبال اللكام (الامانوس)،

وهي عبارة عن السلسلة الجبلية التي تفصل بين ثغور الشام وثغور الجزيرة[239]، وقد تحدث ياقوت[240] عن هذه السلسة فقال: أن هذا الجبل (يجيء من العرج الذي بين مكة

والمدينة حتى يتصل بالشام، فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل، وما كان بالاردن فهو جبل الجليل، وبدمشق سنير، وبحلب وحمص وحماة لبنان، ويتصل بأنطاكية والمصيصة، ويسمى هناك اللكام، ثم يمتد إلى ملطية وسميساط، وقاليقلا إلى بحر الخزر فيسمى هناك القبق).

وبما أن ياقوت كان معاصراً للحقبة الصليبية في المشرق العربي فيبدو أن ما ذكره من تسميات لهذه السلاسل الجبلية كان شائعاً ومتداولاً في وقته، وقال المقدسي[241](وأمّا جبل لكام فأنه أعمر جبال الشام وأكبرها وأكثرها ثماراً، وطرسوس من ورائه، وأنطاكية دونه)، (فإذا تجاوز اللاذقية، ومر بالثغور سمي جبل اللكام يمتد بساحل بحر الروم والبحر الأسود، ويتصل بجبل القبق)[242].

وعلى أية حال فيمكن تحديد هذه السلسلة (اللكام) بأنها تبدأ من جبال طوروس، وتمتد صوب الجنوب الغربي حتى تنتهي إلى البحر المتوسط عندما يعرف برأس الخنزير، وبذلك تشكل قوساً طوله نحو 180كيلو متراً، ويتراوح عرضه 30-25 كم، ويقسم هذه السلسة الجبلية ممر بيلأن الذي يعد بوابة سوريا الشمالية، ويبلغ أعلى قمم هذه السلسلة الجبلية نحو 3270 م فوق مستوى سطح البحر[243].

ويقول ابن الشحنة[244](وجبل اللكام هو الجبل الأسود، اسمه اللكام في الكتب القديمة، ممتد من مرعش إلى البيلان إلى السويدية، ويسمونه الآن الجبل الاحمر، وهو شمال غرب أنطاكية).

ويحدد أبو الفداء جبل اللكام حينما يتحدث عن سلسلة جبال الشام السالفة الذكر فيقول (ثم يمر شمالاً، ويتجاوز سمت طرابلس إلى حصن الأكراد ويسامت حمص من غربيها على مسيرة يوم، ويمتد، ويتجاوز سمت حماة، ثم سمت شيزر، ثم سمت أفامية، ويسمى حينما يكون قبالة هذه البلاد جبل اللكام)[245].

ومن خلال هذا التحديد الذي أشار إليه البلدانيون المسلمون يبدو أن سلسلة اللكام تشكل امتداداً طويلاً شمال وجنوب إمارة أنطاكية، وقد علق (لسترنج) على هذا الموضوع، فقال: (أن جبل اللكام اسم اطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال (انتي طوروس)، فهذه السلسلة التي تحجز بلاد الروم عن غيرها تذكر غالبا (خطأ) باسم جبل اللكام)[246].

ويطلق على سلسلة جبل اللكام التي تشرف على مدينة أنطاكية ويتسلق سور المدينة بعضها اسم سيليبوس (حبيب النجار)[247].

ويبدو أن هذه السلسلة شديدة الارتفاع، إذ إنها تحجب الشمس فلا تطلع على قلعة أنطاكية حتى الساعة الثانية[248].

ويصف ابن بطلان جبل اللكام في هذه الناحية بقوله: (وفي هذا الجبل من الديارات،

والصوامع، والبساتين، والمياه المتفجرة، والأنهار الجارية، والزهاد، والسياح، وضرب النواقيس في الأسحار، وألحان الصلاوات ما يتصور معه الانسان (أنه في الجنة) [249].

أمّا النطاق الشرقي من هذه السلاسل الجبلية فيتمثل في جبل الكرد الذي ينحدر عن جبال طوروس [250]، ثم جبل سمعان الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من جبل الكرد، وبذلك تحصر هاتان السلسلتان بينهما مجرى نهرعفرين [251].

ب- الجبل الأقرع* (كاسيوس)

ويمكن عد هذه السلسلة امتداداً جنوبياً لمرتفعات اللكام حيث يفصل بينهما المجرى الأدنى لنهر العاصي [252].

وتنتهي هذه السلسلة في الجنوب بسهل اللاذقية، وتبلغ أعلى قمة نحو 2770م، وقد تركت السيول آثاراً بليغةً على جوانبه، وحفرت فيه أودية عميقة، وينبع من سفوح هذه السلسلة النهر الكبير الشمالي [253].

كما إن الهزات الأرضية العنيفة قد فعلت فعلها في هذه السلسلة الجبلية فقد ذكر الطبري في أحداث سنة 245هـ/859م (أنه كانت في هذه السنة بأنطاكية زلزلة ورجفة في شوال قتلت خلقاً كثيراً سقط منها ألف وخمسمائة دار، وسقط من سورها نيف وتسعون برجاً، وسمعوا أصواتاً هائلة.. وتقطع جبلها الأقرع وسقط في البحر) [254]، (فمات أهل اللاذقية في تلك الهدة) [255].

وقال المسعودي: [256] (إن من يكون في بحر الروم الذي هو بحر الشام ومصر يرى الجبل الأقرع وهو جبل عال لايدرك علوه مطل على بلاد أنطاكية، واللاذقية، وطرابلس، وجزيرة قبرص، وغيرها).

ج- جبال العلويين (النصيرية) *

تعرف هذه السلسلة أحياناً بجبال النصيرية، وتبدأ ضيقة في الشمال ثم تتسع في الجنوب، وتنتهي إلى منطقة انكسارية، تفصلها عن جبل عكار في الجنوب، ويصل امتدادها إلى نحو 120كم، ويتراوح اتساعها بين 30و35كم وتوجد فيها انكسارات ممتدة تجعلها شديدة الوعورة، من أبرز قممها النبي يونس، والقدموس [257].

وعرفت أيضا باسم جبل السماق الذي اشتهر بأشجار الزيتون والفستق، وغيرها من الثمار [258].

ذكر أبو الفداء [259] أن (جبل الثلج، وجبل لبنان، وجبل اللكام جميع هذه الجبال متصلة

ببعض حتى صارت جبلاً ممتداً من الجنوب إلى الشمال، فالطرف الجنوبي لهذا الجبل بالقرب من صور.. وهو يمتد إلى الشمال ويتجاوز دمشق، ويسمى الجبل المقابل لبعلبك جبل لبنان، وإذا تجاوز بعلبك، وصار شرق طرابلس الشام يسمى عكار..)

وإلى الشرق من هذه السلسلة وعبر نهر العاصي، تمتد سلسلة جبلية أخرى هي جبال الزاوية، وبالنظر إلى قلة ارتفاع هذه السلسلة فأنها أقرب إلى شكل الهضبة، إذ لايزيد ارتفاعها عن 900 متر في أعلى قممها [260].

وعن هذا الجبل قال أبو الفداء [261] (عند مدينة أفامية أوّل جبل آخر شرقي يقابل جبل اللكام، ويناوحه، ويسمى عند أفامية جبل شحشبو نسبةً إلى قرية اسمها شحشبو في طرفه الجنوبي، ويمتد جبل شحشبو من الجنوب إلى الشمال، فيمر على غربي المعرة، وسرمين، وحلب، ثم يأخذ غرباً ويتصل بجبال الروم).

ب- الأنهار المهمة والبحيرات

حفلت إمارة أنطاكية بمجموعة من الأنهار المهمة والبحيرات التي زادت من أهمية موقع تلك الإمارة، وساعدت على ازدهارها عبر القرون، عدد من هذه الأنهار يجري من الجنوب نحو الشمال، وعدد منها يجري من الشمال إلى الجنوب لتصب جميعاً في البحر المتوسط ضمن الساحل الذي تشغله الإمارة، وأهم تلك الأنهار هي: -

ا- الأنهار

أ- نهر العاصي: (Cronte)

يُعد نهر العاصي أطول الأنهار التي تصب في الساحل الشرقي للبحر المتوسط، إذ يبلغ طول مجراه حوالي 600كم تقريبا، إذ ينبع قريباً من منطقة بعلبك [262]، و (العاصي) هو الاسم الذي يطلق على نهر حماة وحمص، ومنبعه من أرض دمشق [263] أي من جبالها [264] من بحيرة قدس* إذ يتابع مجراه ليصب في البحر المتوسط إلى الجنوب الغربي من أنطاكية [265].

وتعقب عدد من البلدانيين هذا النهر من منبعه إلى مصبه، فقد ذكر أبو الفداء أن أول النهر مجرى صغير يخرج من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى الراس شمال بعلبك، ويسير من هذه الضيعة شمالاً حتى يصل إلى مكان يقال له: قائم الهرمل، ثم يكون مجراه في واد، وينبع من هناك معظم النهر من مكان يعرف بمغارة الراهب، ويواصل مجراه شمالاً حتى يتجاوز جوسية**، ويصب في بحيرة قدس غربي حمص، ويخرج من البحيرة ليمر بالرستن***، ثم

إلى حماة، وكل هذا المجرى شرقي جبل اللكام، فإذا وصل إلى جسر الحديد ينقطع الجبل المذكور لينحاز النهر نحو الجنوب الغربي ماراً بسور أنطاكية حتى يصب في البحر[266].

وللنهر أسماء عدة منها العاصي، والارنط، والمقلوب، والميّاس، وقد أشار البلدانيون إلى أسباب عديدة لهذه الاسماء المختلفة، ومن ذلك ما ذكره ياقوت عن تسمية النهر بالعاصي، لأن أكثر الأنهار تتجه ذات الجنوب، بينما يجري هذا النهر نحو الشمال[267].

ويرى عدد من المؤرخين أن اسم (العاصي) لحق بالنهر لأن غالب الأنهار تسقي الأراضي بغير دواليب ولانواعير، بينما العاصي ينتزع منه الماء بالنواعير والدواليب[268].

وإذا كان أبو الفداء يطلق على النهر اسم (الارنط) كأحد أسمائه[269]، نجد عند ياقوت أن اسم (الارنط) هو اسم النهر قرب أنطاكية[270]، في حين ذكر القلقشندي أن اسم النهر القديم هو (الارنط) [271].

أمّا عن سبب تسميته بالمقلوب فيعزى ذلك إلى معاكسته لاتجاه مجرى معظم الأنهار التي تسير من الشمال إلى الجنوب[272].

ومن أسماء النهر الأخرى (الميّاس) وفي ذلك قال ابن الشحنة (فأنه [أي النهر] له أسماء بحسب الأماكن التي يمر عليها، فيقال له في الأول من جهة بعلبك المياس، فإذا وصل إلى حماة قيل له العاصي، فإذا صار إلى أنطاكية قيل له الارنط) [273].

ويبدو أن العاصي صالح للملاحة إلى حد أنطاكية، وبذلك أصبحت أنطاكية المكان الذي يتم فيه تحويل مسيرة القوافل القادمة من الشرق، إذ كانت البضائع القادمة من بلاد فارس، والهند وحتى الصين تفرغ حمولتها على ظهور الجمال في أنطاكية، وتوضع في قوارب صغيرة إلى ميناء سلوقية، ثم تحمل بالسفن من هناك عبر البحر المتوسط إلى العالم الغربي[274].

ومن الناحية الستراتيجية يُعد نهر العاصي بغاية الأهمية لإمارة أنطاكية، إذ إن المدينة تقع بمنحنى هذا النهر بعد أن يغير اتجاهه الشمالي ليعود في مجراه نحو الجنوب الغربي، ورغم أن الإمارة قد سيطرت على الكثير من الأراضي شرق مجرى العاصي، إلا أنه يمثل مانعاً طبيعياً لأراضي الإمارة المحصورة بينه وبين البحر المتوسط.

ب- نهر جيحان*: Pyramus

هذا هو الاسم العربي لهذا النهر الذي ينبع من جبال طوروس في مكان غير بعيد من منطقة البستان، وسرعان ماتتصل به عدة روافد، ويلتقي نهر آق صو من جهة الشرق بالقرب من مرعش، ويخترق سهول قيليقية ماراً بمدينة المصيصة ليصب في البحر المتوسط، وقد غير النهر مجراه عند مصبه خلال الأزمان الماضية بسبب تراكم الغرين في دلتاه[275].

ويُعد من الأنهار المهمة في إقليم البحر المتوسط، إذ يبلغ طوله من منبعه (جبل نورصف) حتى مصبه في البحر المتوسط نحو 509كم[276]، وقد عده ابن الشحنة أكثر أهمية من نهري قيليقية الاخرين، سيحان والبردان[277].

ويبدو أن جيحان من الأنهار المهمة التي تروي المناطق التي يمر بها[278]، ويدخل هذا النهر حدود إمارة أنطاكية الصليبية شمال مدينة المصيصة، ومما يزيد من أهمية هذا النهر أنه يخترق أوسع مسافة من السهل الخصيب الممتد بين الساحل والسلاسل الجبلية، حيث يتسع هذا السهل بشكل واضح في هذه المنطقة ليشكل قوساً يحيط بخليج الإسكندرونة[279].

ونهر جيحان مع غيره من الأنهار الأخرى في المنطقة قد أسهم إلى حد كبير في تكوين المنطقة السهلية التي يمر بها[280].

ج- نهر سيحان **Sarus river**

ينبع نهر سيحان من مرتفعات هضبة أرمينية، شمال أرمينية الصغرى، وهو أقل حجماً من نهر جيحان[281].

وهذه الأنهار - سيحان والبردان - كما ذكر أحد البلدانيين، تنبع من بلاد الروم، وتصب في بحر الشام، أو كما أطلق عليه صاحب الاكليل (البحر المالح)[282].

ويتضح من النظر إلى الخارطة أن منبع سيحان غير بعيد عن مدينة ملطية، التي تقع إلى الشرق من منابع هذا النهر[283]، وذلك لأن (ابتداء جريأنه من ناحية ملطية من شقيف عليه كنيسة فيها صورة الجنة وأهلها، وهذا النهر يخرج منها طوله إلى أن يصب في البحر الرومي سبع مئة ميل وثلاثون ميلا)[284].

غير أن الدراسات الحديثة لمصادر المياه تشير إلى أن طول نهر سيحان أقل بكثير مما ذكره الأنصاري[285].

ويمر نهر سيحان في مجراه إلى الجنوب ليس بعيداً من مدينة سيس، التي تقع إلى الشرق من مجراه، ثم يمر بمدينة اذنة، إذ يحف بها من جهة الشرق، وتُعد اذنة أهم المدن الواقعة على هذا النهر، وكان سيحان يلتقى نهر جيحان تحت اذنة والمصيصة فيصيرأن نهراً وأحداً ليصبا في البحر المتوسط[286].

أمّا اليوم فإن سيحان غَيَّرَ مجراه، بعد مدينة المصيصة ليتجه نحو الجنوب الغربي حيث يصب في البحر المتوسط، ولكن آثار مجراه السابق لازالت واضحة[287].

ومن معالم نهر سيحان المهمة عند مدينة اذنة هي تلك القنطرة العجيبة البناء التي أقيمت على النهر، ويبدو أنها تمثل جسراً ضخماً ومحكماً للعبور، فهي طويلة جداً كما

وصفها عددٌ من البلدانيين[288]، فقد وصفها الأنصاري بقوله أن ذلك الجسر (طوله مئة ونيف وسبعين ذراعاً)[289].

د- نهر البردان (Cydus)

كودنس هو الاسم القديم لهذا النهر الذي ينبع من مرتفعات الجبل الأقرع شمالي مدينة طرسوس، ثم يواصل مجراه ليصب في البحر الأبيض المتوسط[290].

ومن المدن المهمة التي يمر بها خلال مجراه نحو البحر، مدينة طرسوس[291]، ويبدو أن نهر البردان قد حفل بأهمية تأريخية، منذ القدم إلى جانب وضعه الستراتيجي، والاقتصادي، وذلك عندما سلكه موكب كليوبترا الملكة الشهيرة عندما أبحرت لتلقي بانطيونيوس[292].

وحينما توجه بلدوين البولوني، و(تنكرد) النورماني صوب قيليقية قبيل الوصول إلى أنطاكية، وكاد بلدوين أن يخفق في تحقيق هدفه عندما ادى تعنته إلى ضياع الجنود النورمان، أصبح موقفه حرجاً للغاية لولا ظهور الأسطول المسيحي في مصب نهر البردان، الذي عزز من موقف بلدوين[293].

هـ- أنهار عفرين والأسود ويغرا

نهر عفرين: ينبع هذا النهر من الجهات الغربية للقسم الشرقي من هضبة الأناضول[294] أي هضبة عينتاب، التي تمثل منبعاً لروافده العليا[295].

وذكر أبو الفداء أن هذا النهر (يأتي من بلاد الروم ويمر على الرواندان* إلى الجومة ويمر في الجومة ويتجاوزها إلى العمق)[296].

وقال ياقوت: أن نهر عفرين يخرج من نواحي المصيصة إلى أعمال نواحي حلب[297].

النهر الأسود: تنحدر الروافد العليا لهذا النهر من السفوح الشرقية لجبال اللكام، وتتجه صوب الجنوب الغربي[298]، وقال ياقوت: أن النهر الأسود (في طرف بلاد المصيصة وطرسوس)[299].

ويبدو أن تسمية النهر الأسود تسمية قديمة، فهو من الترجمة لـ(Melanes) (Melanto) لذا كان يطلق عليه اسم ميلاند[300]، وهذا ما أشار إليه ابن الشحنة[301] بقوله (واسمه قديماً [أي النهر الأسود] للآن الملند وهو نهران ملند كبير وملند صغير في طريق السويدية) ويسمونه بالتركي (قرة جاي).

ويجري هذا النهر من الشمال فيمر تحت دربساك ليواصل مجراه حتى يصب في

بحيرة أنطاكية[302]، ويجري بين النهرين السابقين، نهر ثالث هو نهر يغرا، ويغرا بليدة يمر بها النهر قبل أن يصب في النهر الأسود [303].

ويُعد هذا النهر من الأنهار القصيرة الضيقة، وفيه نباتات، وحيوانات مائية كثيرة. مثل أسماك السلور (Sallour) الذي يعد من المصادر المهمة للغذاء في العصور الوسطى[304](وتجتمع هذه الأنهار الثلاثة في النهر الأسود ويغرا وعفرين وتصير نهراً وأحداً يصب في البحيرة [بحيرة أنطاكية] من شمالها، ويخرج من جنوبها نهر واحد، ويتصل نهر الارنط تحت جسر الحديد، وفوق أنطاكية على نحو ميل منها ...)[305] يضاف إلى ماتقدم أن هناك بعض الأنهار الفرعية الأخرى، إلا أنها أقل أهمية مما قدمناه، وقد أشار البلدانيون والمؤرخون إلى عدد منها[306].

2- البحيرات

أ- بحيرة أنطاكية

تتوسط هذه البحيرة حوض أو منخفض العمق، وربما أطلق عدد من البلدانيين على البحيرة (بحيرة العمق) و (العمق كل مرج حوله جبال) [307]، وقال القلقشندي عن هذه البحيرة (وهي بحيرة بين أنطاكية وبغراس وحارم في ارض تعرف بالعمق.. شمالي أنطاكية، وفيها مصب نهر عفرين، والنهر الأسود ونهر يغرا) [308].

وذكر أبو الفداء أن محيط هذه البحيرة نحو مسير يوم حولها، وقد حوت كثيراً من النباتات، والحيوانات المائية كالقصب، والطيور، والاسماك[309]، لا سيما أسماك السلور (Sallour) [310]، والسلور (هو السمك الجري بلغة أهل الشام) [311].

وترتبط هذه البحيرة بنهر العاصي عن طريق النهر الذي يخرج من طرفه الجنوبي ليصب في نهر العاصي[312].

ويبدو أن مقدار ما يصرفه ذلك النهر من مياه البحيرة إلى العاصي يتناسب مع ما تجلبه الأنهار الثلاثة التي تغذيها البحيرة، أي إن مياه البحيرة في حالة تبدل دائم، وقد يفسرلنا هذا ما ذكره ياقوت بأن (هذه البحيرة عذبة الماء) [313]، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فأن هذه الأنهار الثلاثة عفرين والأسود ويغرا تُعد من روافد نهر العاصي[314].

ب- بحيرة أفامية

تمثل هذه البحيرة مجموعة من البطائح التي تقع في الغرب بميلة إلى الشمال من أفامية[315]، وهذه البحيرة يشقها نهر العاصي من الجنوب إلى الشمال[316].

ويبدو أنها تكونت نتيجة لانبساط السهل في هذه المنطقة من جهة، ووجود النتوءات البركانية الأصل في مجرى النهر التي تحول دون انسياب مياه نهر العاصي من الجزء الممتد فيه في تلك المنطقة[317]، مما أدى إلى انسيابها لتغمر الجهات الجانبية من النهر مكونة تلك البحيرة العظيمة[318].

تنتشر تلك البطائح الكثيرة بين جمم من القصب، والبردي والصفصاف، الذي يحجب رؤيتها، وأكبر هذه البطائح بحيرتان، والبحيرة الجنوبية من البحيرتين هي بحيرة أفامية، وسعتها نحو نصف فرسخ، وهي ليست عميقة، إذ هي دون قامة الانسان، وأرضها موحلة لايمكن للانسان أن يقف عليها [319].

والبحيرة الشمالية تفوق مساحتها بحيرة أفامية بنحو أربع مرات[320]، وتعيش في هذه البطائح أنواع لايمكن حصرها من الطيور التي تتغذى بعضها على الاسماك، وفي موسم الربيع ينبت في بحيرة أفامية النيلوفر الاصفر الذي يغطي البحيرة بحيث يحجب سطحها بورقه وزهره[321].

ويذكر الأنصاري[322]أن هذه البحيرة فيها من الاسماك (الانكليس والسالور ما لابغيرها).

والبحيرة الشمالية تعرف ببحيرة النصارى (لأن صيادي السمك بها نصارى، ولهم بيوت على الخوازيق في شمال البحيرة المذكورة) [323].

وبين البحيرتين الشمالية والجنوبية زقاق تسير فيه المراكب من احداهما إلى الأخرى [324].

وإلى جانب ما ذكرنا هناك كثير من البحيرات الصغيرة التي تتكون بفعل جريان السيول والينابيع التي تنساب من مقادم الجبال نحو الأراضي المنخفضة[325].

أهم المزايا المناخية

امتدت امارة أنطاكية في أوج إتساعها على شواطيء البحر المتوسط من شمال غرب مدينة طرسوس، حتى مدينة البستان (ابلستين) في أقصى الشمال الشرقي، ثم جنوباً حتى مدينة بانياس، وبذلك يمكن تحديد موقعها، من دوائر العرض على وجه التقريب- بين دائرتي عرض 32-38 شمالاً[326].

وهذا يعني أنها ضمت شريطاً ساحلياً طويلاً، امتد بين شواطيء المتوسط والسلاسل الجبلية الموازنة له، وهو من السهول المهمة لتمييز موقعه[327]. فضلاً عن السهول الداخلية كسهلي أنطاكية والعمق.

ويبدو أن ذلك التباين في التضاريس قد أنعكس على طبيعة المناخ في إمارة أنطاكية، ولكن بصورة عامة، يمكن عدها ضمن نطاق المناخ المعتدل[328].

ومن ناحية كميات تساقط الأمطار، تعد أنطاكية ضمن نطاق الأمطار الشتوية الذي يشمل المناطق الساحلية المطلة على البحر المتوسط، إذ تتعرض هذه المنطقة لهبوب المنخفضات الجوية المطيرة الهابة من الغرب إلى الشرق[329].

ونظراً لهبوب الرياح العكسية، من الغرب إلى الشرق، لذا تسقط معظم الأمطار فوق السلاسل الجبلية الساحلية، الموجهة لهبوبها، ثم تتناقص كميات الأمطار الساقطة، كلما اتجهنا شرقا نحو الداخل، إلا إذا اصطدمت تلك الرياح بمرتفعات جبلية عالية[330].

وتتماز كميات الأمطار على العموم بالاعتدال والتفاوت في كميتها من سنة إلى أخرى[331]، وفي الوقت الحاضر يبلغ معدل سقوط الأمطار في أنطاكية نحو 46 بوصة[332].

أمَّا درجات الحرارة، فكما ذكرنا، إن الإمارة تقع ضمن المنطقة المعتدلة الدافئة، إذ ينماز البحر المتوسط بالدفء في الشتاء، إذ إن درجات الحرارة لاتنخفض في أبرد الشهور عن 10 درجات مئوية إلا نادراً، بينما تكون درجات الحرارة صيفاً معتدلة نسبياً[333].

غير أن درجات الحرارة تتباين في المناطق الجبلية، حسب مقدار الارتفاع، وموقع المنطقة من دوائر العرض، ويسود المناخ القاري المناطق الداخلية من الإمارة البعيدة عن التأثير الساحلي، وأهم مايتميز به أنخفاض درجات الحرارة في فصل الشتاء، وارتفاعها في فصل الصيف[334].

ومهما اختلفت مزايا المناخ في عموم الإمارة، فأن لمدينة أنطاكية صفات مناخية انمازت بها، فهناك فصل الصيف الطويل الحار، أمَّا الربيع والخريف فهما قصيرأن، والمعدل السنوي لدرجات الحرارة في منطقة أنطاكية في وقتنا هذا يتراوح بين 59-68 درجة من درجات (الفهرنهايت)[335].

ومما يميز مناخ المدينة ارتفاع نسبة الرطوبة في الهواء، وهذا ما جعل أجوءها توصف بالوخومة، فعندما أراذ الخليفة الرشيد أن يقيم فيها نصحه أحد مشايخها بأن لايفعل (لأن الطيب الفاخر يتغير فيها حتى لاينتفع منه بكثير شيء، والسلاح يصدأ فيها لو كان من قلعة الهند)[336].

ومن خواص مناخ هذه المدينة في العصور القديمة والوقت الحاضر، هبوب الرياح من البحر على وادي نهر العاصي منذ شهر أيار وحتى منتصف ايلول، وكان وقت هبوبها عند الظهر فتستمر بقية النهار وطوال الليل، فيؤدي هبوبها إلى خفض درجات الحرارة، وإزاحة الرطوبة، فيكون هبوبها مدعاة للرضا والارتياح؛ لأنها ذات أثر ملطف للجو[337].

هوامش الفصل الاول

1- للمزيد عن ذلك انظر:

William of Tyre: A History of Deeds done beyond The sea (Trans. by Babcock & Krey- New york 1943). Vol, 1, pp , 199-200; Downey: AHistory of Antioch in Syria – from. seleueas to the Arabrahconquest(priceton 1961) p. 581: Archer(T.A):The crasade (London) p, 63; Britannica(Encyclopedia) (london 1768) Vol,2, p, 70;

المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت: 346 هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تدقيق، يوسف اسعد داغر،ط3 (بيروت 1873) ج1، ص335، ج2، ص183، داوني، جلانفيل: انطاكية القديمة، ترجمة. ابراهيم نصحي، دار النهضة (القاهرة 1967)، ص48: رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، ط1، دار الثقافة، (بيروت 1967 – 1969) ج1، ص335.

2- Downey: A History of Antioch in Syria, p. 581;

جونز، أ.هـ. م: مدن بلاد الشام، ترجمة الدكتور احسان عباس، دار الشرق للنشر ط1، الاردن (عمان 1987)، ص 40-41.

3- مروج الذهب، ج1، ص335، ج2، ص183.

4- الديوان، ص43.

5- الديوان، ص9.

6- ياقوت: معجم البلدان مج1، ص266.

7- عمر بن احمد بن هبة الله (ت: 660هـ / 1262م): زبدة الحلب من تاريخ حلب. تحقيق سامي الدهان، 3 أجزاء، (دمشق 1954)، ج1، ص266.

8- Steven Runciman: The First crusade Antioch to Ascalon. (in setton A History of the crusades) Vol , 1,p, 308.

9- Wycharley: How the Greek bult cities (lodon, 1962) p. 4,5.

10- Cahen: la Grece et L, Hellenisation du mond Antique (paris 1948) p. 86 – 87.

11- Buchier: A History of Ancient of Antioch(Oxford 1921) p.3.

12- C. A. H. VOL,7 , p 763.

13- Doweny: A History of Ancient Antioch in Syria p. 54.

14- الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال ج1، ص245.

15- C. A. H. VOL, 7, p 155.

16- عن اسوار انطاكية، انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج1، ص335؛ ياقوت: معجم البلدان، مج1، ص267 القفطي، جمال الدين علي ابن يوسف (ت: 646هـ) تاريخ الحكماء، مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب: (اخبار العلماء بأخبار الحكماء)، (برلين لابيزج 1903)، ص296: البغدادي،

صفي الدين (ت: 739 هـ) مراصد الاطلاع، تحقيق علي محمد البجاوي، ط1(بيروت 1954) ج1، ص124-125.

❖❖ دفنة من اجل ضواحي انطاكية. انظر ص 38 من هذا البحث.

17- C. A. H. Vol ,7, p 174.

❖ وهو من السلاسل الجبلية المهمة. انظر تفاصيل ذلك على ص 55 من هذا البحث.

18- Dussaud(R.): Topographie, Historique de, la syrie Antique Et Medievale, (paris 1927). pp. 426-427.

19- Bouchier: op , cit. p. 3. 4.

20- C. A. H. VOL ,9, p350.

21- Ibid. op , cit VOL. 9. p.350.

22- انظر ما سلف ص17.

23- C. A. H. VOL. 9. p.350.

24- Bouchier: Syria as a Roman province(Oxford 1915) p.62.

25- Downey: A History of Antioch. P 273.

26- C.A.H. VOL.9. P390.

❖ كان ذلك الموظف يشغل منصبا مميزا عن سواه من الوظائف الادارية البيزنطية، اذ كان كونت الشرق حاكما مدنيا على راس وحدة الشرق الادارية هذه الوحدة تمثل اقليما جغرافيا يشمل على البلاد التابعة للإمبراطورية في اقليم الجزيرة وسوريا ومصر. انظر: Downey: op, cit, p.650.;

رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص174.

27- Bouchier. op, Cit , p 125.

28- Anna Comnena: The ALexiad(Trans from the greek by E.R. Sewter – penguin calssics – 1969)p.329.

29- مروج الذهب، ج2، ص182.

30- البلاذري: فتوح البلدان، ص187؛ النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت: 732هـ / 1331م): نهاية الارب في فنون الأدب (القاهرة، د: ت) ج 20، ص166.

31- البلاذري: فتوح البلدان، ص201.

32- الطبري، محمد بن جرير (ت: 310هـ): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة، 1960 – 1969) ج10،50.

33- الاصطخري: المسالك والممالك، ص33.

34- الطيباوي، عبد اللطيف (الدكتور): تاريخ العرب والاسلام، دار الاندلس، ط2، (1979)، ص58.

❖ الجومة: من نواحي حلب. ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص 189.

❖❖ القورس: مدينة قديمة وكورة من نواحي حلب. ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص412.

35- ابن خرداذبه، عبيد الله بن عبد الله (ت: في حدود 300هـ): المسالك والممالك، تحقيق دي غويا (ليدن 1889م)، ص253.

36- صبح الاعشى،: ج4، ص 130.

37- Cary(M.): The Geographic Backngound of Greek and Roman History. (Oxford 1949) pp.165 – 166.

38- البلاذري: فتوح البلدان، ص48؛ ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص329.

39- مجهول: اعمال الفرنجة، ص 48.

40- المصدر نفسه، 103.

41- Lamb(H.) The crusade. Iron men and saints(London 1930)p.131.
42- Brehier(L.): Vie Et Mort de By Zanc (paris 1948) , PP. 314-315.
43- cahen: La Syrie du nord(Paris 1940) p. 205. 225.

❖ الصفحات الاتية من هذا الفصل ستشتمل على تفاصيل اضافية لكل من هذه الجبال والانهار والمدن كل في محله.

44- Ibid: P.9.

45- ابن الشحنة، ابو الفضل محمد الحلبي(ت: 890 هـ / 1485م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب (بيروت 1909م)، ص180 – 181.

46- Yewdale(R.B): Bohemond, prnce of Antioch (Princeton) p. 325. Runciman (S.) The first crasades(in setton A History of the cradaes) VOL , 1, p.325.

47- حتي، فيليب (الدكتور) تاريخ العرب (مطول) مطابع الغندور ط4 (بيروت 1965) ص.

48- ابن الاثير: الكامل، مج 10، ص351.

❖ لم نهتد الى مكان بهذا الاسم، ولعله قد درس.

❖ زردنا: ذكرها ياقوت: بليدة من نواحي حلب الغربية. انظر: معجم البلدان: مج3، 136. .

❖❖ سرمين: هي بلدة مشهورة من نواحي حلب. ياقوت: معجم البلدان، مج3، ص215.

❖❖❖ برج الحاضر وصفها ياقوت بأنها محلة عظيمة بظاهر حلب، بينها وبين سور المدينة رميه سهم انظر معجم البلدان، مج 2، ص206.

❖❖❖❖ هو نهر حلب، ويدخل بعض منه في حلب في قناة تجري في الشوارع والاسواق ثم يمر الى مدينة قنسرين. انظر: الحميري: الروض المعطار، ص486.

❖❖❖❖❖ الدانشمند: قيل له ابن الدانشمند لان اباه كان معلما للتركمان ثم تقلبت به الاحوال– كما يقول ابن الاثير– حتى ملك وهو صاحب ملطية وسيواس. انظر: الكامل، مج1، ص300.

49- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص144.

50- المصدر نفسه، ج2، ص114.

51- المصدر نفسه، ج2، ص144؛

Albert, D, Aix, op, Cit. p.524.

52- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص59.

53- Rauol de cane: Gesta Tancredi, pp. 708 – 709.

نقلا عن، عامرة علي الحمد: العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وامارة انطاكية الصليبية في عهد الامبراطور الكيسوسكومونين (1098 – 1118م) رسالة ماجستير مطبوعة على الألة الكاتبة– جامعة كويت– ص160.

54- انظر: ص 43 – 44 من هذا البحث.

❖ مرعش: وهي من مدن الثغور بين الشام وبلاد الروم، وفي وسطها حصن بناه الخليفة الاموي مروان بن محمد : انظر: ياقوت، معجم البلدان، مج5، ص107 .

55- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص345.

56- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص149 .

57- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص148؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص 150 .

58- Grousset(R.): Histoire des croisades et du Royaume france de Jerusalem(Paris 1934) VOL,1, P.414.

59- انظر: ص213 من هذا البحث.

60- انظر الفصل الثالث، ص139 من هذا البحث.

61- انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص148 .

62- ابن الاثير: الكامل، مج 10، ص408.

63- المصدر نفسه، مج10، ص410.

64- انظر الفصل الثالث ص 141 من هذا البحث.

❖ النقرة: لم نهتد الى وصف لها .

65- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص155 .

66- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص91.

67- ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص186 .

68- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص434.

❖ ذكر ابن الاثير في حوادث سنة 524هـ ان الفرنج قاسموا حلب على جميع اعمالها الغربية(حتى على رحى لأهل حلب بظاهر باب الجنان بينها وبين البلد عرض الطريق) انظر الفصل الرابع من هذا البحث ص182 .

69- Archer(T.A) The crusade, P. 112, 113.

70- انظر: ص 26 من هذا البحث.

71- ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص 162 .

72- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص266.

73-عماد الدين اسماعيل بن محمد صاحب حماة (ت:732 هـ): كتاب تقويم البلدان(باريس:184)، ص257.

74-الاصطخري: كتاب الاقاليم ص33؛ ابو الفداء: تقويم البلدان ص257.

75- Downey. Pp. 8-9.

76- ابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص296: البغدادي، مراصد الاطلاع، ج1، ص125 .

77- Elisseeff(N.): NUR AD– DIN. Un Grand prince musulman de syrie Au Temps des croisades (511- 569/1118– 1174) Damas 1967, VOL 3, p.746.

78- ابن الفقيه، ابو بكر احمد بن محمد الهمداني (ت: اواخر ق 3هـ) مختصر كتاب البلدان) (ليدن 1302هـ) ص50.

79- الاصطخري: كتاب الاقاليم، ص 33.

80- ابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص 296؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، ج1، ص125.

81- مجهول: ص 103.

82- الطبري: تاريخ، ج9، ص213.

83- الدينوري، أبو حنيفة، احمد بن داود (ت:282هـ): الاخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة 1960) ط1، ص69؛ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص115 -116.

84- ابن العبري، غريغورسوس الملطي (ت:685هـ/ 1286م): تاريخ مختصر الدول وفق على تصحيحه وفهرسه، الاب انطوان صالحاني اليسوعي (بيروت 1403هـ/ 1983م)، ص87.

85- ابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص196.

86- انظر: ص 121 – 122 هذا البحث.

87- داوني: انطاكية في عهد تيودورسيوس الكبير، ص20.

88- المصدر نفسه، ص59.

89- نخلة ورد: حضارة انطاكية عبر العصور، منظمة جميل صفدي، بيروت، (د.ت) ص114-115.

90- Cahen(C-): La syrie du nord aL' Epoque des croisde et al principaute Franque D' Antioch(Paris 1940) p.226.

91- جودة حسنين جودة (الدكتور): جغرافية اسيا الاقليمية، ط1(الاسكندرية 1985) ص630.

92- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص178.

❖ سماها العرب اذنة واذنه، وفي التركية المكتوبة بالحروف العربية اطنة، دفعا للبس بينها وبين ادرنة، انظر: البستاني، فؤاد افرام: دائرة المعارف، مج8، ص234 – 235.

93- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص133.

❖ ذكر ياقوت ان تاريخ بنائها كان سنة احدى او اثنين واربعين ومائة، انظر معجم البلدان، ج1، ص133.

94- فتوح البلدان، 173.

95- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص 181.

96- ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص176؛ المسعودي: مروج الذهب ج1، ص375.

97- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص133.

98- البستاني: دائرة المعارف، مج8، ص234- 245.

99- انظر: الفصل الثاني من هذا البحث، ص، كذلك الفصل الثالث، ص.

100- ياقوت: معجم البلدان، ج5، ص145.

101- البلاذري: فتوح البلدان ص169؛ الطبري: تاريخ، ج7، ص385.

102- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص178 (حاشيه).

103- ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص112؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص179.

104- البلاذري: فتوح البلدان، ص170.

105- المسعودي: مروج الذهب، ج4، ص225.

106- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص178 – 179 .

107- ياقوت: معجم البلدان، ج5، ص101 .

108- لسترنج (جي): بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد، 1945)، ص163 .

109- ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص28.

110- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص239.

111- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص184 .

112- البلاذري: فتوح البلدان، ص174.

113- ابن الشحنة: الدار المنتخب، ص184 .

114- الطبري: تاريخ، ج9، ص650.

115- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص178 -180.

116- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص467.

117- تقويم البلدان، ص259.

118- البلاذري: فتوح البلدان، ص153؛ ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص467.

119- ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص159؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص208.

120- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص761.

121- ابو شامة: الروضتين، ق2، ص193 .

حلمي محمد (القاهرة 1956)، ق2، ص193 .

122- ابن شداد، بهاء الدين ابو المحاسن يوسف (ت: 632هـ/ 1239م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، سيرة صلاح الدين، تحقيق د جمال الدين الشيال، مؤسسة الخانجي، ط1(القاهرة 1962)، ص93، 49.

123- ابو شامة: الروضتين، ق2، ص157 – 158 .

124- Grusset: Histoire, des, croisdes. p. 61.

❖ انظر الفصل السادس من هذا البحث ص 284.

125- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص467.

126- ابن رشد : النوادر، ص93.

127- القلقشندي، احمد بن علي: صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة 1963) ج4 ص122 .

128- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص261.

129- الانصاري، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابي طالب الدمشقي المعروف بشيخ الربوة (ت 727هـ): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة لايبزك. سنة 1923، ص206.

130- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص222.

131- ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص193 .

132- ابن شداد : النوادر، ص93؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص386.

133- لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص154.

134- الطبري: تاريخ، ج7، ص500.

135- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص75.

136- الانصاري: نخبة الدهر، ص228.

137- لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص165، 166.

138- معجم البلدان، ج4، ص96.

139- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص75.؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص429، 467؛ الانصاري: نخبة الدهر، ص228.

140- الغزي، كامل حسين مصطفى (نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية) حلب (د. ت) ج1، ص585.

141- Anna Comnean, OP. Cit, PP 358, 359.

142- انظر: الطبري: تاريخ، ج7، ص500، ج8، ص58؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص54، 165.

143- معجم البلدان، ج4، ص118.

144- تقويم البلدان، ص231، 232.

145- صبح الاعشى، ج4، 127.

146- الدر المنتخب، ص168.

147- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص199.

148- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2 513.

149- تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص117.

150- Grusset: Histoire, des, croisdes, VOL, 2, P. 875.

151- علية الجنزوري: امارة الرها الصليبية، (القاهرة 1975) ص118؛
Setton, OP, Cit, P 201; Cahen. OP Cit, P. 291.

152- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص289.

153- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص310؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص361.

154- معجم البلدان، ج1، ص140.

155- مجهول 50، 51.

156- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص134؛ ابن العديم: زبدة الحلب ج2 ص131.

157- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص148؛ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت: 749هـ) تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية النجف الاشرف، ط1، (1389 هـ/ 1969)، ج2، ص23.

158- انظر: ص4 6 من هذا البحث.

159- ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص205؛ البغدادي: مراصد الاطلاع، ج2 ص371.

160- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص259.

161- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص165 – 166.

162- محمد عبد الكريم بن عبد الوهاب بن الشيباني، المعروف بابن الاثير الجزري(ت: 630 هـ) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق، عبد القادر طليمات، دار الكتاب الحديث (القاهرة)، ص19.

163- Stevenson. The crusades. P. 27.

164- الدر المنتخب، ص166 – 167.

❖ وهي قرية كبيرة من نواحي حلب وكانت تعد من العواصم. انظر: ياقوت: معجم البلدان، مج1، ص66.

❖ ذكر القلقشندي ان دركوش بلدة على نهر العاصي غربي حلب على نحو ثلاثة منها واكثر زرع ارضها العنب. صبح الاعشى، ج4، ص128.

❖❖ - دبين: قال ياقوت: وهي قرية صغيرة قرب انطاكية، ودبين قلعة كالربضي لها) انظر معجم البلدان، مج3، ص356.

165- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص167.

166- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت: 697 هـ): مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ج1، 2، 3، (تحقيق د. جمال الدين الشيال) دار القلم (القاهرة 1957) ج1، ص145؛ ابن كثير، ابو الفداء، الحافظ الدمشقي (ت: 774هـ): البداية والنهاية، تحقيق د. احمد ابو ملحم واخرون، دار الكتاب العلمية، بيروت 1987م، ط3 ج12، ص266.

167- معجم البلدان، ج1، ص89.

168- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص149.

❖❖❖ وهو من الجبال المهمة، ويعد من اعمال حلب الغربية، اشتهر بكثرة بساتينه ومزارعه، وقيل انه سمي كذلك لكثرة ما ينبت فيه من السماق. ياقوت معجم البلدان ج2. ص102.

169- ذكر ابن العديم ذلك في الحوادث سنة 504هـ. انظر زبدة الحلب، ج2، ص155 – 156.

170- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص170.

171- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص662.

172- انظر: على سبيل المثال. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص170، 270؛ ابن الاثير: الكامل، مج80، ص610، 662، 663؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص269؛ ابن الوردي: تاريخه. ج2، ص50.

173- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص320.

174- ابن خرداذبة: الممالك والمسالك: ج76.

175- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص134.

176- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص141.

177- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص366.

178- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص148 - 149.

179- انظر مثلا: الباهر، ص103؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص197 – 212.

180- ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص470.

181- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص99.

182- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص263.

183- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص136.

184- ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص227؛ ابو الفداء: تقويم البلدان، ص263.

185- المسالك والممالك، ص161.

186- الكامل، مج9، ص27.

187- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص149، 150.

188- معجم البلدان، ج5، ص5 -6؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص232.

189- تقويم البلدان، ص257.

190- ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص76.

191- جلانفيل دواني: انطاكية القديمة، ص45.

192- C. A, H, VOL, P.158.

193- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص362.

194- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص118.

195- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص363.

196- Albert, D, Aix, PP. 501 -504.

197- Raoul de Can: Gesta Tancred, P. 36;

نقلا عن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص61.

198- Albert, D, Aix, P.365.

199- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص90.

200- ابن شداد: النوادر، ص89؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، 386.

201- انظر: ص 50، من هذا البحث.

202- انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص153؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص108، 117؛ الطبري تاريخ، ج9، ص57، 141، 143 وغيرها؛ المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص138، 170، 291.

203- الغزي: نهر الذهب، ج1، ص406.

204- الدر المنتخب، ص221.

205- داوني: انطاكية في عهد تيودسيوس، ص27.

206- البلاذري: فتوح البلدان، ص153.

207- مروج الذهب، ج1، ص291.

❖ يعتقد الهمذاني: ان الكلاب السلوقية منسوبة الى طائفة من الهنود يدعون بالسلوقيين ويقال ان هذه الكلاب وقعت في بلادهم: انظر الاعلاق النفيسة، ص135.

208- معجم البلدان، ج3، ص242.

209- اعمال الفرنجة: مجهول، ص60.

210- رنسيمان: الحروب الصليبية ج1 ص310 – 311.

211- Dussaud(R.) To pographie, Histori Que de, al syrie Antique Et me'die' vale (Paris 1927) P. 431.

212- انظر مثلا: ص 51 من هذا البحث.

213- معجم البلدان، ج1، ص182.

214- الدر منتخب، ص187.

215- تقويم البلدان، ص255.

216- الدر المنتخب، ص188.

217- فتوح البلدان، ص153.

218- مجهول: اعمال الفرنجة، ص86، 87.

219- انظر: ص52 من هذا البحث.

220- الصياد، محمد محمود (دكتور): معالم جغرافية الوطن العربي (بيروت 1972) طبعة اولى مج10، ص105.

221- جودة، حسنين جودة (دكتور): جغرافية آسيا الاقليمية، ط1(الاسكندرية 1985) ص630.

222- الصياد: المرجع السابق، مج 1، ص105.

223- Dussaud(R.)OP. Cit. P.440 .

224- لسترنج (جي): بلدان الخلافة الشرقية: ص166. جودة: جغرافية اسيا، ص631.

225- جودة: المرجع السابق، ص631.

226- Archer(T.A) The crusades, P. 64.

227- ابو العينين، حسن سيد احمد (دكتور): دراسات في جغرافية لبنان (بيروت 1968) ص110.

228- الصياد: المرجع السابق، مج1، ص105، 106.

229- الزوكة، محمد خميس (دكتور): في جغرافية العالم العربي، ط1، دار المعرفة الجامعية (الاسكندرية – 1989) ص88.

230- المصدر نفسه، ص75.

231- القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص84، 85.

232- المصدر نفسه، ج4، ص128.

233- العمري، شهاب الدين احمد بن فضل الله(ت: 748هـ): مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق الاستاذ احمد زكي باشا، القاهرة، 1342 هـ / 1923م)، ج1، 81.

234- معجم البلدان، ج4، ص156.

235- داوني، جلانفيل: انطاكية في عهد تيوروسيوس الكبير، ص25.

236- ابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص296.

237- William of Tyre, VOL, P. 203.

238- الزوكة: في جغرافية العالم العربي، ص72.

239- الشمري، صالح حسن عبد عيسى: العلاقات العربية البيزنطية في العصر الاموي من 41 – 132 هـ. رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة باشراف الدكتور عبد الامير دكسن، جامعة بغداد 1988، ص99.

240- معجم البلدان، ج5، ص11؛ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص25.

241- احسن التقاسيم، ص188، 189.

242- الانصاري: نخبة الدهر، ص220.

243- الصياد: المرجع السابق، مج1، ص110.

244- الدر المنتخب، ص221.

245- تقويم البلدان، ص68؛ القلقشندي: صبح الاعشى ج4، ص85.

246- بلدان الخلافة الشرقية، ص38، 162.

247- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 306.

248- البغدادي: مراصد الاطلاع، ج1، ص125.

249- ابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص296.

250- الزوكة: المرجع السابق، ص74.

251- المرجع نفسه، ص47.

❖ يسمى هذا الجبل بالاقرع لان اعاليه جرداء خالية من الغطاء النباتي.

252- الزوكة: المرجع السابق ص75.

253- الصياد: المرجع السابق، مج1، ص110.

254- الطبري: تاريخ، ج9، ص213؛ القلقشندي: مآثر الانافة، ج1، ص233.

255- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص248.

256- مروج الذهب، ج1، ص108.

❖ النصيرية: نسبة الى طائفة النصيرية المعروفة. انظر: الانصاري: نخبة الدهر، ص202.

257- الصياد: المرجع السابق، ص112.

258- تقويم البلدان، ص68؛ القلقشندي: صبح الاعشى ج4، ص85.

259- تقويم البلدان ص69.

260- الصياد: المرجع السابق، ص121.

261- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص69.

262- ابو العينين، حسن سيد احمد (دكتور): دراسات في جغرافية لبنان، ص224.

263- ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص177.

264- ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر (ت:290هـ): كتاب الاعلاق النفيسة، ومعه كتاب البلدان لليعقوبي. مطابع بريل (ليدن 1891)، ص91.

❖ بحيرة قدس وتقع قرب حمص، طولها اثنا عشر ميلا وعرضها اميال وهي بين حمص وجبل لبنان تنساب اليها مياه تلك الجبال، ثم تخرج منها مكونة نهر العاصي. انظر: ياقوت: معجم البلدان، مج 1، ص352.

265- ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص67.

❖❖ جوسيه: قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها جهة دمشق بين جبل لبنان وجبل سنير، تمتاز بكثرة العيون: ياقوت معجم البلدان، مج1، ص185.

❖❖❖ الرستن: بليدة بين حمص وحماة على نهر العاصي، وهي قديمة بذكر ياقوت ان اثارها كانت باقية: انظر: معجم البلدان، مج3، ص43.

266- تقويم البلدان، ص49؛ العمري: مسالك الامصار، ج1، 81.

267- معجم البلدان، مج4، ص68؛ ابن بطوطة، ابو عبد الله محمد بن عبد الله(ت: 779هـ)، رحلة ابن بطوطة، المكتبة التجارية الكبرى (القاهرة 1357هـ/ 1938). ج1؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص 176.

268- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص49؛ القلقشندي: صبح الاعشى ج4، ص80، 81.

269- تقويم البلدان، ص49.

270- معجم البلدان، مج4، ص67.

271- صبح الاعشى، ج4، ص80، 81.

272- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص49؛ القلقشندي: صبح الاعشى ج4، ص80، 81.

273- الدر المنتخب: ص175، 176.

274- Downey, OP, Cit. P. 10.

❖ ذكر ابن الفداء ان العامية تسمية (جهان) اما ابن الشحنة فقال ان الارض تجعل (الحاء) (هاء) فيقولون جيهان والراجح ان ما ذكره ابن الشحنة هو الصحيح: انظر تقويم البلدان، ص 50، الدر المنتخب، ص 180.

275- خورشيد، ابراهيم زكي وآخرون: دائرة المعارف الاسلامية، مج 3، ص99، 100 الدر المنتخب، ص 180.

276- احمد، ابراهيم خليل (دكتور) تركيا المعاصرة، ص15.

277- الدر المنتخب،ص180.

278- احمد، ابراهيم خليل (دكتور): خط انابيب السلام والامن المائي العربي، بحث مقدم الى ندوة المياه والسدود في مركز الدراسات التركية بجامعة الموصل في 1988/1/10، بحث مطبوع، ص 19.

279- الزوكة: المرجع السابق، ص88.

280- جودة: المرجع السابق، ص 630.

281- لسترنج: المرجع السابق، ص 164.

282- ابن خرد اذبة: المسالك والممالك، ص176؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص180، 181.

283- المسعودي: مروج الدهر، ج1، ص376؛ الحميري: الروض المعطار، ص333.

284- الانصاري: نخبة الدهر، ص 107.

285- انظر على سبيل المثال: د. خليل ابراهيم احمد: تركية المعاصرة، ص15.

286- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص50.

287- لسترنج: المرجع السابق، ص164.

288- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 249؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص 181.

289- الانصاري: نخبة الدهر، ص 214.

290- لسترنج: المرجع السابق، ص 165.

291- الانصاري: نخبة الدهر، ص 214؛ ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص183.

292- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 167.

293- المصدر نفسه: ج1، ص 282.

294- جودة: المرجع السابق، ص 630.

295- الزوكة: المرجع السابق، ص 74.

❖ الروائد: قلعة حصينة وكورة امتازت بكثرة الاشجار وهي من نواحي حلب، انظر ياقوت: معجم البلدان، مج3، ص19.

296- تقويم البلدان، ص50.

297- معجم البلدان، ج4، ص132.

298- الزوكة: المرجع السابق، ص 75.

299- معجم البلدان، مج5، ص317.

300- Dussaud(R.) OP. Cit. P. 432.

301- الدر المنتخب، ص 221.

302- القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص81.

303- المصدر نفسه، ج4، ص 81.

304- Dussaud(R.) OP. Cit. P. 133.

305- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص42.

306- الطبري: تاريخ، ج9، ص57؛ الانصاري: نخبة الدهر، ص114؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص80 – 81.

307- ابن خرد اذبة: المسالك والممالك، ص97.

308- صبح الاعشى، ج4، ص 84، 85.

309- تقويم البلدان، ص 41.

310- cahen: OP. Cit. P 313.

311- ياقوت: المشترك، ص 39.

312- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 41.

313- معجم البلدان، ج1، ص351.

314- الصياد: المرجع السابق، ص116.

315- القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص84.

316- الانصاري: نخبة الدهر، ص122.

317- الزوكة: المرجع السابق، ص76.

318- اليعقوبي: كتاب البلدان، مع المجلد السابع من الاعلاق النفسية، لابن رستة(ليدن 1891) ص 324.

319- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص40، 41.

320- القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص84.

321- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص 41؛ ذكر القلقشندي ذلك النبات باسم (اللينوفر) انظر صبح الاعشى، ج4، ص84.

322- نخبة الدهر، ص 122.

323- ابو الفداء: تقويم البلدان، ص41.

324- القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص84.

325- انظر مثلا: ياقوت المشترك، ص 38.

326- Rand Mcnall: The International Atlas New york 1977 PP. 120-121

327- الزوكة: المرجع السابق، ص93.

328- المصدر نفسه، ص115، 116.

329- ابو العينين: المرجع السابق، ص 165.

330- الصياد: المرجع السابق، ص 39.

331- داوني: انطاكية القديمة، ص28.

332- جودة: المرجع السابق، ص 63.

333- ابو العينين: المرجع السابق، ص 184.

334- المصدر نفسه، ص 184.

335- داوني: انطاكية القديمة، ص 28.

336- ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص 116.

337- داوني: المرجع السابق، ص29.

الفصل الثاني:

مقدمات الغزو وقيام الإمارة

يمثل العقد الأخير من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بدايةً حقيقيةً لأستئناف الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وقد اتخذ هذا الصراع طابعاً جديداً عندما وجهت أوربا الكاثوليكية عدوانها صوب الوطن العربي، تحت راية الصليب، متخذةً من ستار الدين صيحتها السياسية لحشد الحشود المنسابة إلى الشرق (لإنقاذ!) القبر المقدس من أيدي المسلمين، والتمتع بخيرات الشرق الذي يفيض عسلاً ولبناً [1].

وبذلك تجدد– وعلى نطاق واسع– العداء القديم بين الشرق والغرب، وهو العداء الذي لم يخمد عبر العصور [2].

وربما لم يعرف التاريخ الإنساني ظاهرةً تاريخيةً حملت مصطلحاً مناقضاً لحقيقتها مثل (الحركة الصليبية*)، هذا التاريخ المضلل المريك نتاج عدد من التطوارات التاريخية والمفارقات المدهشة في التأريخ الاوربي، وفي التأريخ الإسلامي على حد سواء [3].

فالحركة الصليبية واحدة من العوامل الكبرى التي شغلت تاريخ الغرب الأوربي زهاء قرنين من الزمان بصورة شاملة، ونادراً ما نجد كاتباً معاصراً لم يشر في كتاباته إلى شيء من موضوع الحروب الصليبية، وقد ظلت لهذه الحروب جاذبيتها في الغرب حتى القرن الثامن عشر إذ شارك فيها مئات الألوف من أبناء أوربا، فمنهم من ساهم في تمويلها، إن لم يستطع المشاركة بنفسه.

إنّ هذه الحروب قد شغلت بال الكثيرين ممن لم يشاركوا فيها بالنفس أو بالمال [4].

ومن الناحية التأريخية، يعد الغزو الصليبي من أبرز النتائج لنمط العلاقات السائدة بين الشرق والغرب، من جهة، ونتيجة لواقع الأوضاع الداخلية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، عند كلا الطرفين من جهة ثانية، وبذلك لايمكن القول، فقط إنّ أسباب ودوافع هذا الغزو، كانت أسباباً غربية خالصة، بقدر ماتنبع هذه الأسباب والدوافع من الشروخ

العميقة التي أصابت واقع الحال في الشرق الإسلامي، نتيجةً لسيادة روح التناقض والفرقة بين الأطراف المتنازعة على النفوذ أولاً، وهيمنة العناصر الدخيلة على مقدرات السيادة ثانياً، مما أدى إلى حالة من الضعف والانهيار كاد أن يكون تاماً عندما أصبح الغزاة على مشارف الوطن العربي.

اولاً: الشرق العربي الإسلامي قبيل الغزو الصليبي

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) كان العالم الإسلامي في المنطقة العربية موزعاً في ولائه السياسي بين محورين أساسين هما: الخلافة العباسية، في بغداد، والدولة الفاطمية في القاهرة، وفضلاً عن حالة الخصام والتنازع بين السلطتين، فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذي جعل بلاد الشام- وهي المجال الحيوي الذي تنازعت الدولتان السيادة عليه- موزعاً بين عدة إمارات صغيرة، فكانت كل مدينة كبيرة في بلاد الشام- تقريباً- إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربي أو من الأتراك السلاجقة[5].

تقابل هاتان القوتان الإسلاميتان، قوة ثالثة، هي الإمبراطورية البيزنطية التي منيت بهزيمة ساحقة أمام السلاجقة في موقعة مانزكرت (ملازكرد) سنة 436هـ/ 1071م وفقدت مساحات شاسعة من ممتلكاتها في الطرف الآسيوي فكانت تسعى جاهدة لاستعادة مكانتها الضائعة[6].

أمّا الخلافة العباسية في بغداد التي أرهقها التسلط البويهي لمدة طويلة، فيبدو- ولو ظاهرياً- أن الحال فيها قد تغير بقدوم الأتراك السلاجقة، الذين بثوا في العالم الإسلامي روحاً جديدة[7]، إذ صارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع للخليفة العباسي ولو اسمياً، ولكنها تدين بالخضوع الفعلي لسلاطين السلاجقة العظام (طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه)[8].

ومع ذلك فقد أصبح السلاجقة جند الخلافة العباسية، وأداتها الحربية في التصدي لأعدائها البيزنطيين والفاطميين ومهاجمتهم والاستيلاء على جزء كبير من ممتلكاتهم[9].

وقد استطاع السلاجقة في أقل من خمسين سنة بناء دولة كبيرة[10]، امتد نفوذها أيام السلطان ملكشاه من حدود الصين والهند وكشغر في الشرق إلى سواحل البحر المتوسط (أي أنطاكية) في الغرب فشمل ايران بأسرها، وبلاد ماوراء النهر وآسيا الصغرى، والفرات وبلاد الشام، وأصبحت الدولة السلجوقية مصدر رعب يهدد العالم المسيحي ويخيفه[11].

لكن هذه الدولة الفتية، هي الأخرى، لم تلبث أن أصابها الوهن والتقهقر اثر وفاة

سلطانها الكبير ملكشاه (470هـ-1077م/485هـ-1092م) إذ احتدم الصراع بين أقطاب البيت السلجوقي للاستئثار بالسلطة، مما دفع الأطراف المتنازعة منهم إلى توجيه كل الجهود لانتزاع النصر بعضهم من البعض، ومما لاشك فيه أن هذا التمزق قد أصاب الدولة السلجوقية بضعف كبير، وأفقدها الجزء الأكبر من قدراتها، ولذلك لم يقدر للسلاجقة أن يقوموا بالدور الذي كان من الممكن أن يقوموا به في التصدي للغزو الصليبي[12].

وظهرت الزعامات السلجوقية المستقلة التي تعمل لحسابها الخاص[13]، ولا تدين بالطاعة لبعضها البعض، ويصح القول إن هذا الواقع الجديد للدولة السلجوقية قد ساعد الأعداء لتوجيه الضربات لهذه الدولة المفككة، وتحقيق أهدافهم، لأنّ السلاجقة بددوا جهودهم في الصراع على السلطة فيما بينهم[14].

وقد أشار ابن خلدون[15]، إلى حالة التصدع التي أصابت الدولة السلجوقية بقوله (وكان بركياروق بالري، والخطبة له بها، وبالجبل وطبرستان، وخوزستان، وفارس، وديار بكر، والجزيرة، والحرمين، وكان السلطان محمد بإذربيجان، والخطبة له بها وببلاد الران، وأرمينية، وأصبهان والعراق جمعيه إلاّ تكريت، وأمّا البطائح فبعضها لهذا وبعضها لهذا.. وأمّا خراسان من جرجان إلى ما وراء النهر، فكان يخطب فيها لسنجر بعد أخيه السلطان محمد).

وهكذا لم تحل سنة 490هـ/1096م إلاّ ودولة السلاجقة قد انقسمت على خمسة كيانات سياسية متنافسة هي: سلطنة فارس ويحكمها السلطان بركياروق، وكانت له السيطرة على بغداد، أمّا خراسان، وبلاد ما وراء النهر فكانت تحت سيطرة أبو الحارث سنجر، وكان رضوان ودقاق ولدي تتش في الشام، إذ حكم رضوان حلب، وحكم دقاق دمشق، وخضعت سلطنة سلاجقة الروم لقلج أرسلان إلى قتلمش، وتجدر الإشارة هنا إلى أن بيت الدنشماند التركمان في كبادوكيا، أفادوا من المدة التي قضاها قلج أرسلان في الأسر لتحقيق استقلالهم الذاتي[16]، مما زاد من حدة الانقسام في آسيا الصغرى، وخلاصة القول إن هذه القوة لم تلبث أن وهنت، وتفتت عند فجر الغزو الصليبي، مما كان له أعظم الاثر في نجاحه[17].

ويبدو أن مجافاة السلاجقة لمؤسسة الخلافة، وما تعرض له عدد من الخلفاء من العنت والإذلال، على أيديهم، قد ترك آثاراً واضحةً لدى الرأي العام. مما عمق الجراح في جسد الوحدة الإسلامية، وليس مستغرباً أن ذلك التصرف أشاع حالة من الإحباط في نفوس المسلمين وما كانوا ينظرون إليه من أمر السلاجقة.

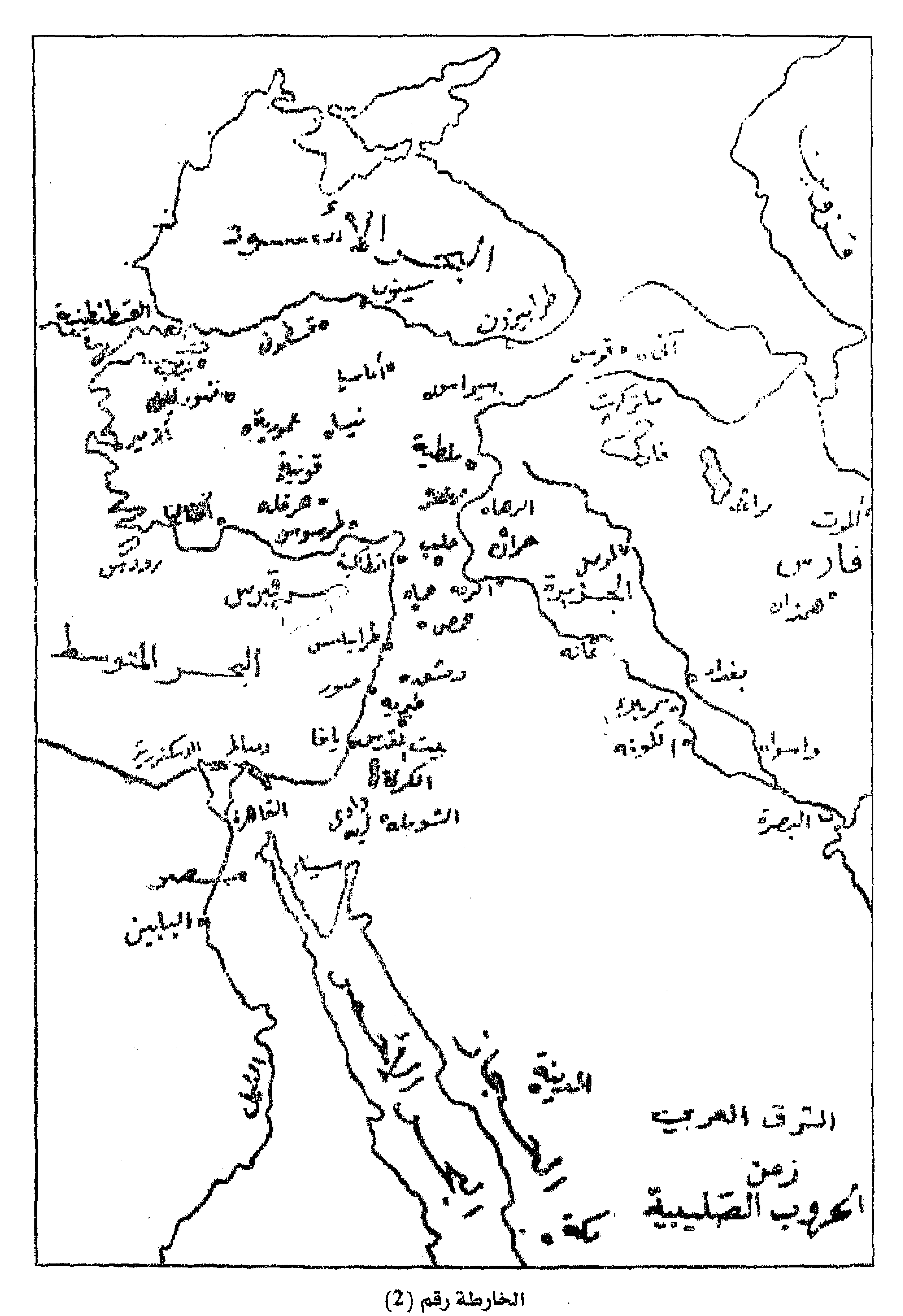
أمّا الدولة الفاطمية، فتعد ومنذ قيامها، كما هو معروف، المنافس التقليدي للخلافة

العباسية في أحقية الخلافة، ولم يأل الفاطميون جهداً، في التماس كل السبل لإضعاف خصومهم العباسيين والنيل منهم عندما أصبحت مصر خاضعة لسلطانهم سنة 358هـ/968م[18]، ومنذ ذلك الوقت أصبح الطرفان وجهاً لوجه في الصراع على زعامة العالم الإسلامي[19].

كان الفاطميون يركزون جل اهتمامهم للسيطرة على بلاد الشام ليتخذوا منها قاعدة لدعوتهم، وانتزاع ما يمكن انتزاعه من أملاك الخلافة العباسية، فتمكنوا من بسط سلطانهم بين (430هـ/1038م-450هـ/1058م) على بلاد الشام كلها ماعدا أنطاكية، التي كانت آنذاك تحت سيادة البيزنطيين واستطاعوا مدَّ نفوذهم إلى عاصمة الخلافة العباسية نفسها 450هـ/1058، إلاّ أنّ هذا النجاح الفاطمي لم يستمر طويلاً عندما أخذت قوتهم بالانهيار التدريجي، في العراق وبلاد الشام، نتيجة لسوء أوضاعها الداخلية والسياسية والاقتصادية، حتى قيل (ما بقي ثم شيء يرجى وقد فسدت الأحوال ونفذ المال)[20].

ورغم المحاولات التي قام بها الفاطميون لاستعادة مراكزهم في بلاد الشام، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من السيطرة إلاّ على المدن الساحلية حتى مدينة جبيل سنة 492هـ/1098م وظلت هذه المدن بأيديهم لحين قدوم الصليبيين[21].

أمّا القوة الثالثة في الشرق الأدنى إبان الغزو الصليبي فكانت تتمثل في الإمبراطورية البيزنطية، التي تعرضت قبيل الحروب الصليبية لأحداث على درجة من الأهمية في تطور أحوال الشرق الأدنى، ذلك أن خسارة الإمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجنيس في معركة مانزكرت سنة 463هـ/1071م على يد السلطان السلجوقي ألب أرسلان مَثَّلَ كارثة عظمى، [22] إذ فقد الروم خيرة مقاتليهم، واستولى السلاجقة بقيادة سليمان ابن قتلمش على آسيا الصغرى، وبذلك فقدت الإمبراطورية مصدراً مهماً لرفد جيوشها بالمقاتلين، بل إن السلاجقة أصبحوا على مشارف القسطنطينية، ولم يبق بيد الروم حين تولى الكسيوس كومونين سنة 474هـ/1081م غير سواحل البحر الأسود وعددٍ من المدن الداخلية التي لاتربطها صلة متينة بمركز الإمبراطورية، ثم إن عدداً من هذه المناطق أعلن خضوعه لسلطان السلاجقة، وتعرضت بعض هذه الأراضي والقرى لغارات التركمان والمهاجرين من اليونان والأرمن[23]، بحيث لم تعد الحدود بين ما تبقى بأيدي البيزنطيين وما استولى عليه السلاجقة واضحة[24]، يضاف إلى ذلك ماكان يفعله البشناق* من فساد في ولايات البلقان البيزنطية من جهة، والتهديد النورماني لوجود الإمبراطورية نفسها من جهة ثانية[25]، رغم الهزيمة التي مني بها الزعيم النورماني روبرت جويسكارد على يد الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومونين سنة 467هـ/1083م في شبه جزيرة البلقان[26].



الخارطة رقم (2)

نقلاً عن: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج1

وضمن الكلام عن القوى التي تشكل الخارطة السياسية للشرق الأدنى قبيل الغزو، لابد من الإشارة إلى الأرمن وما كانوا يمثلونه من أهمية على ساحة الأحداث، فقد استطاع الأمراء الأرمن، الذين جردهم البيزنطيون من أملاكهم الحصول على عدد من الضياع في كبادوكيا، ولاسيما تجاه الجنوب، صوب جبال طوروس[27] إلا أن تغلغل السلاجقة في المنطقة، دفعهم إلى المناطق الجبلية، وانتشروا في وادي الفرات، ثم ملطية، والرها، وأنطاكية فيما بعد، ومما سهل لهم عملية الانتشار أن الأقاليم الجنوبية والشرقية، من آسيا الصغرى- حول طوروس، وملطية، ثم الرها وأنطاكية- لم يتوجه إليها السلاجقة في بداية الأمر، [28] وقد شهدت المنطقة عملية إحياء أرمنية، التي كان لها أهمية في تاريخ الحروب الصليبية، وقد يفسر لنا ذلك سهولة وصول الصليبيين إلى الجزيرة والشام، والاستيلاء على الرها وأنطاكية[29].

ويبدو أن الأرمن قد أفادوا من حالة الصراع بين السلاجقة والروم في تعزيز إمارتهم التي أقاموها، إذ رفض الزعيم الأرمني (فيلاريتوس) الاعتراف بالإمبراطور (ميخائيل دوكاس)، بعد أن كان خاضعا لسلطة الإمبراطور (رومانوس ديوجين)، الذي فقد عرشه إثر خسارته في معركة (مانزكرت) كما تقدم، وفي نفس الوقت سعى الأرمن إلى إقامة علاقات ودية مع السلاجقة ومهادنتهم[30].

استطاع (فيلاريتوس) السيطرة على ثلاث مدن مهمة، في قيليقية، هي طرسوس، والمصيصة، وعين زربة، ثم ضم إلى سيطرته الرها وأنطاكية[31]، ومع ذلك ظلت الكيانات الأرمنية، تعيش حالة من القلق لوقوعها على ساحة الصراع بين السلاجقة والروم، وقد يفسر لنا ذلك استمرار إعلان زعماء الأرمن خضوعهم الاسمي للإمبراطور البيزنطي، لإضفاء طابع الشرعية على سيادتهم، رغم الخلاف المذهبي بين الكنيستين الشرقية والأرمنية، وقد أرسل أحد أمرائهم زوجته في سفارة إلى مقر الخلافة ببغداد لإقرار ما في يد زوجها، مما يشر إلى أن أوضاعهم كانت غير مستقرة[32].

وقد يفسر لنا ذلك اسراعهم في مؤازرة الصليبيين والاشتراك معهم في محاصرة مدنية أنطاكية[33].

وخلاصة القول إنَّ للأرمن في الشرق الأدنى أهمية كبيرة[34]، إذ سيطروا على كثير من المناطق التي تعد حيوية في وضع أقدام الصليبيين على أعتاب الوطن العربي.

وعند مجيء الصليبيين كان إقليم قيليقية في جنوب شرق آسيا الصغرى، وشمال الشام يضم عدداً من الإمارات الأرمنية، ومن أشهر حكام هذه الإمارات الأرمنية (كواسيل) (475هـ/ 1083م- 504هـ/1110م).

وقد تمكن من إقامة إمارة له بين مرعش ونهر الفرات، وفرض سيطرته على كيوس

(كيسوم) * ورعبان** وجبريل حاكم ملطية، واوشين ابن هيثوم (465هـ/1073م-504/1110) الذي سيطر على المنطقة الجبلية الواقعة إلى الغرب من أبواب قيلقية، ومنحه الإمبراطور لقب (نائب قيليقية) [35].

وتمكن أحد زعماء الأرمن، وهو روبان (473هـ/1080م-489هـ/1095م) من تأسيس إمارة مستقلة في قيليقية، توارثها من بعده أفراد أسرته، وكان مقرها على مقربة من سيس، ثم تطورت هذه الإمارة إلى نواة مملكة جديدة، عرفت باسم أرمينية الصغرى، تمييزاً لها عن أرمينية الكبرى، الوطن الأم للأرمن[36].

ويبدو أن هذه الإمارات الأرمينية الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية، في إقليم قيليقية كانت تمثل خطراً مباشراً على ممتلكات أنطاكية في إذن والمصيصة وطرطوس، وقد كان اهتمام الأمراء النورمان في أنطاكية كبيراً بهذه الإمارات، خوفاً من اعتماد القوات البيزنطية عليها في الإغارة على إمارة أنطاكية.

ثانيا: ـ الغرب الاوربي قبيل الغزو الصليبي

أ- الحالة العامة ودوافع الغزو

إنَّ الغزو الصليبي، في الاطار العام، يمثل استجابةً لردود الفعل في العالم الغربي، التي نجمت عن تراكم الأسباب الدافعة بهذا الغزو عبر حقبة تأريخية سابقة على قيامه، وقد تداخلت هذه الأسباب والدوافع، فمنها ما نتج عن عوامل ذاتية تتعلق بأنماط التركيب السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي لأوربا عبر بضع قرون، ومنها ما يتعلق فعلاً بنظرة الغرب تجاه العالم الإسلامي، وما تمثله تلك النظرة من الشعور العدائي تجاه الشرق الإسلامي، الذي اجتاح قسماً واسعاً من أوربا في مرحلة الفتوح، وقوة سلطان العرب المسلمين[37]، ومن المؤكد أن هذه الأسباب، وغيرها قد أصبحت أكثر حيوية لاتخاذ القرار فيما يوازيها في الجانب الإسلامي من حالة التداعي والانقسام، لذا كانت الدعوة التي أطلقها البابا أوربان الثاني في الثالث عشرمن شهر تشرين الثاني عام 488هـ/ 1095 م في مجمع كليرمونت تمثل اللحظة التأريخية لبدء انطلاق الغزو الصليبي[38].

وربما يكون مفيداً أن نلقي نظرة على أحوال أوربا الغربية عشية الحروب الصليبية لاستجلاء أبرز أسباب ودوافع هذا الغزو.

كانت أوربا حتى القرن الحادي عشر الميلادي لم يكتمل تشكيلها بعد على المستوى السياسي، إذ كان مركز السلطة- عند نهاية هذا القرن- يتمثل في إمبراطورية روما الألمانية،

التي عدت نفسها استمراراً لإمبراطورية روما القديمة وإمبراطورية الفرنج التي جددها شارل الكبير في عيد الميلاد من سنة 184هـ/800م في روما، وفي فرنسا كانت الدولة أقرب ما تكون إلى مجموعة من الإقطاعات الكبرى منها إلى الدولة (39)، وكانت مقسمة على مناطق اقطاعية، تقتصر فيها سلطات الملك فقط على باريس وأورلياس، ويلتقي حوله بقية الأمراء رغم استقلالهم الظاهري عن سيادته (40).

أمّا في انكلترا فكان الحكم تحت سيطرة النورمان، مما أدّى إلى تقوية الرابطة بينهم وبين فرنسا (41).

كانت أوربا مجرد أقاليم ريفية متخلفة قياساً إلى الحضارتين العربية الإسلامية والبيزنطنية، إذ وصلت كلا الحضارتين إلى مستوى رفيع من الرقي، رغم أن كلا منها تعاني من الضعف والتفكك الساسي الشيء الكثير.

وتجدر الإشارة إلى أن الطابع الريفي كان هو الغالب على الحياة الاجتماعية في أوربا ابان الغزو الصليبي (42)، ويمكن تشخيص نموذجين رئيسين للاستقرار هما البلدة (Hamlet) التي تمثل النموذج الأول للاستقرار، وتتجسد في عدد قليل من أكواخ الفلاحين الذين أنشأوا بيوتهم بالقرب من مساحة الأراضي التي يتولون زراعتها، وقد خلت البلدة من أية كنيسة، ويمكن أن نلمس هذا النمط من الاستقرار في كل من: اسكتلندة، وويلز، وإيرلندة، وبريتاني، وأقاليم فرنسا الجبلية (43)، وفيما عدا ذلك من أنحاء أوربا فيبدو أن القرية كانت تمثل النمط الثاني للاستقرار، حيث يقام بيت صاحب الإقطاع، ثم بيوت الفلاحين التي بنيت من الطين وأغصان الأشجار، ويحيط القرية عادةً نطاق من الأراضي الزراعية والمراعي، وكان سكانها يعانون الشيء الكثير من قسوة الطبيعة، والقانون الإقطاعي على حد سواء (44).

وبما أن القرية تُعد الوحدة الأساسية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً فقد فرض التقسيم الإقطاعي نوعاً من الاقتصاد الطبيعي الذي جعل الفلاحين في كل قرية يسعون إلى الاكتفاء الذاتي في حدود ما تنتجه القرية (45).

وأمّا الحياة الدينية في الريف، فكان قساوسة الأبرشيات الريفية الأميين يقدمون للفلاحين معلوماتهم المشوشة عن المسيحية، ويبثون أفكارهم الضيقة عن العالم، ولنا أن نتصور ما في نظرة هؤلاء من جهل وتعصب وتزمت، لذا كان القرويون يجمعون بين التدين العاطفي والإيمان بالخرافات والمعجزات، وكثيراً ما كانوا يظنون بأن منابع المياه والأشجار المحيطة بهم تضم عدداً من الأرواح والأشباح التي تستطيع عمل الخوارق (46).

أمّا عن الوضع القانوني للفلاحين وعلاقتهم بالأرض الزراعية فقد طرأ عليه اختلاف، فبينما كان في الربع الأخير من القرن الحادي عشر للميلاد، كل رجل يعمل في أرض زراعية

في انكلترا وفرنسا وغرب ألمانيا مقيداً بالتزامات اقطاعية تجاه أحد السادة الإقطاعيين، إمّا اقطاعاً وإمّا خدمةً[47]، نجد في عدد من مناطق ريف شرق ألمانيا وعدد من أقاليم فرنسا فلاحين أحراراً، ولكن كان هؤلاء في مرحلة التحول إلى حياة القنانة[48].

ولم تقف الكنيسة ضد هذا التحول الاجتماعي في حياة الفلاحين، بل أفادت منه باعتبارها أكبر مالك للأرض الزراعية في الغرب الأوربي حتى ذلك الحين[49].

كان القن مربوطاً إلى الأرض لايمكنه الرحيل عنها، ولايستطيع أن يستبدل سيده، إلاّ إذا ارتكب جريمة أو غامر بالهرب أو بشراء حريته بالمال- إذا وافق سيده على ذلك- وفي الأعم الأغلب كانت أحوال الفلاحين، سواء كانوا أحراراً أو أقناناً أو أرقاء، كانت حياة متدهورة قاتمة[50].

كان نظام الإقطاع ممثلاً في مجموعة من المؤسسات الإقطاعية، يرتكز على شريحتين اجتماعيتين هما: طبقة النبلاء، ورجال الدين، وهاتان الطبقتان كانتا تعيشان من ناتج عمل الفلاحين، ففي معظم المناطق الريفية كان الفلاحون الأقنان يجنون المحصول ليضعوه في مخازن سيدهم الإقطاعي، وباختصار كان الإقطاع يعتمد على الفلاحين في كل شيء[51]، بينما لايتمتع الفلاحون الأقنان بأي حقوق تجاه أسيادهم سوى أن السيد لايستطيع قتل القن مثلما كان يجري في العصور القديمة، أو أن ينتزع حصته من الأرض[52]، وقد أورد ريتشارد صاحب الملحمة (أنشودة أنطاكية) ما يشير إلى بخس حياة سواد الناس أمام حياة السادة الإقطاعيين، فهؤلاء الرعاع يشعرون أن الغرض من وجودهم هو خدمة سادتهم فقط[53].

وفي اطار الدين والكنيسة، اعتاد الكثير من المؤرخين ولاسيما الأوربيون منهم أن ينظروا إلى الحروب الصليبية كأنها حروب دينية خالصة، مما قادهم إلى معالجتها في ضوء العامل الديني وحده من دون أن يلتفتوا إلى ما اشتملت عليه هذه الحروب من بواعث سياسية، واقتصادية واجتماعية وحضارية[54].

وقد عَدَّ عدد منهم أن هذه الحروب ذروة الإحياء الديني، ووصفها عددٌ من معاصريها بأنها (حرب مقدسة)[55]، (مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار غالة فكان كل ذي قلب طاهر، وروح سليمة، صادق النية في اتباع السيد المسيح.. لايتوانى في المبادرة إلى الضريح المقدس)[56].

لقد بالغ عددٌ منهم في وصف أحوال المسيحيين في البلاد الإسلامية، وماكانوا يلاقونه على أيدي المسلمين من سوء المعاملة، والاضطهاد، وعانوا الكثير من التهم التي تكال للمسلمين جزافاً[57]. فضلاً عما يتعرض له حجاج بيت المقدس من العقبات، والمعاناة الكبيرة أثناء رحلات الحج التي يقومون بها، وإذا كان شيء من ذلك قد حصل، في ظروف شاذة، وعلى نطاق فردي، فإن القاعدة في تعامل المسلمين مع أهل الكتاب، تتمثل في روح التسامح التي

حظي بها المسيحيون من لدن اخوانهم المسلمين، عبر كل القرون، وهذا ما أشار إليه أحد بطارقة بيت المقدس بقوله: إنَّ المسلمين قومٌ عادلون، ونحن لانلقى منهم أي إذى أو تعنت[58].

ولما كانت أبعاد هذه الحرب أبعد كثيراً من الذرائع المعلنة، فقد توسل القائمون بها بكل السبل المؤثرة، ومن بينهما الدين لإثارة حماس مختلف طبقات الناس لزجهم في اتونها . ومهما بولغ في وصف اضطهاد المسيحين في الشرق الإسلامي فإنه لايعد شيئا أمام ما صحب انتشار المسيحية نفسها من اضطهاد ومجازر[59].

ومهما تكن الذرائع التي أشاعها دعاة الحرب الصليبية في غرب أوربا لحركتهم عن وصف أحوال المسيحين (السيئة) في آسيا الصغرى، وبلاد الشام تحت حكم السلاجقة، فإن هناك أكثر من مؤرخ مسيحي منصف قد أكد بصورة واضحة أن السلاجقة قد شملوا المسيحيين برعايتهم، وأن هؤلاء المسيحيين كانوا في حال أفضل من إخوانهم الذين عاشوا في كنف الإمبراطورية البيزنطية، وأن ما أصاب مسيحيي الشام وآسيا الصغرى من متاعب، انما نتج عن القتال بين السلاجقة والبيزنطيين، وليس هناك دليل على أن السلاجقة قاموا باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم[60].

وقد أشار إلى هذه الحقيقة المؤرخ الروسي زابوروف بقوله (إن هذا التفسير للأحداث لايتطابق البتة مع الوقائع التي قررها المؤرخون المسيحيون القروسطيون فإن السلاجقة لم يكونوا يتصفون اطلاقاً بالتعصب الديني الأعمى، حقاً إن فتوحاتهم رافقها .. كل ما يرافق أية حرب كانت ولكن هذا البتة لم يكن له أية علاقة بالدين المسيحي، فحيال ذوي الأديان الأخرى انتهج السلاجقة تلك السياسة الوفية التي استقرت منذ زمن الفتوحات العربية..) [61].

ليس المراد من ذلك اغفال أثر العامل الديني في تحريك الغزو الصليبي بقدر ماهو أحد العوامل، ولكن ليس أهمها، إذا ما أُخذ بنظر الاعتبار المعيار الحقيقي لأثر الدين في تلك الحرب، إلاّ أن دعاة الحرب وعلى رأسهم البابا أوربان الثاني نفسه، قد استغلوا فكرة الاضطهاد هذه للاستهلاك المحلي في الدعاية لمشروعهم في غرب أوربا [62].

وبالنظر لما كانت عليه الكنيسة من مكانة مهمة، في حياة المجتمع الغربي في هذه المرحلة فإن الجميع كانوا يسعون لارضائها كل حسب مبتغاه، فقد درج كبار رجال السياسة، ومنهم الملوك، إلى طلب رضا الكنيسة لإضفاء الصفة الشرعية على عروشهم، وكانوا يخشون التعرض لها خوفاً من صدور قرارات الحرمان بحقهم[63].

أمّا طبقة النبلاء فقد مهدت الكنيسة لاحتوائها ضمن صيغة فكرة الحرب المقدسة، لذا خص أوربان أبناء هذه الطبقة بخطابه في كلير مونت مؤكداً على سماتها الإقطاعية المشتركة ونظامها القيمي والأخلاقي الواحد، وظروفها الاجتماعية والاقتصادية المتشابهة في

سائر أنحاء الغرب الأوربي، ويبدو أن البابا كان مدركاً لخطورة الصراع بين أبناء هذه الطبقة، وقد أكد في خطابه على لفت أنظارها نحو الشرق (أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتطاحنون وتتنابذون فيما بينكم، ولكن تعالوا وحاربوا الكفار.. يامن تنابذتم اتحدوا، ويامن كنتم لصوصاً كونوا الآن جنوداً.. تقدموا إلى البيت المقدس وانتزعوا تلك الأراضي الطاهرة.. فهي تفيض سمناً وعسلاً، إنكم إذا انتصرتم على أعدائكم ورثتم ممالك الشرق) [64].

ووما يلفت الأنظار أن البابا وجه دعوته إلى الأمراء الإقطاعيين دون الملوك الذين كانوا في حالة خصام معهم، وأراد أن يكون النبلاء وسيلة البابوية في التصدي لأولئك الملوك[65].

كانت البابوية راغبة في توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب في خدمة أهدافها، بحيث يتحقق السمو البابوي على الأباطرة[66]، وقد أشار إلى ذلك القس (فوشية دي شارتر)، على أن البابا أوربان الثاني كان شديد الحرص على أن يسمو بالكنيسة[67]، إذ أخذت الكنيسة على عاتقها حماية ممتلكات المشتركين في الغزو أثناء تغيبهم إلى حين عودتهم، وينبغي على كل مشترك أن يحمل علامة الصليب رمز التضحية والوفاء، ثم تقرر أنه لابد من تعيين قائد للحملة إذ أراد البابا من ذلك أن تخضع الحملة لإشراف الكنيسة، فاتخذ المجمع قراراً بالاجماع بأن يكون (أسقف لي بوية) قائداً روحياً للحملة[68].

ويبدو أن النبلاء قد وجدوا ضالتهم المنشودة فيما تدعو إليه الكنيسة، فالأوضاع الاقتصادية المتدهورة مسّت مصالحهم على نحو مباشر، فالنظام الإقطاعي ارتبط بالأرض، وبقدر مايكون الإقطاع كبيراً بقدر ماتكون مكانة النبيل سامية في المجتمع، وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه النبيل، هي عدم وجود اقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ [69].

ومما زاد في تعقيد أحوال النبلاء عدد من التقاليد المتبعة في قوانين الوراثة الإقطاعية، ومنها قاعدة (حق البكورة Primeniture) أي انتقال الإقطاع إلى الابن الأكبر حفاظاً على الإقطاعية من التجزئة [70]. وبذلك لايرث بقية الأبناء سوى بعض الأموال المنقولة، فظهر عدد من الفرسان المحرومين من الإقطاع[71]، مما دفع الكثير منهم إلى أن يعيشوا في حالة من التشرد على شكل أفراد وعصابات تكسب عيشتها عن طريق النهب والسلب، وأصبحت مناظر ألسنة النيران وهي تلتهم العديد من القرى في فرنسا وألمانيا أمراً مألوفاً وشائعاً نتيجة لممارسات هؤلاء المتسكعين من الفرسان[72].

وبذلك فتح الغزو باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان المحرومين، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى المشاركة في تلك الحروب لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق تعوضهم عما فاتهم في الغرب[73].

هذا عن البابوية والكنيسة، أمَّا عن أفواج الصليبيين الذين استجابوا لندائها، وقصدوا الشرق الإسلامي فلم يكن الهدف الديني هو الباعث الرئيس الذي دفع الغالبية العظمى منهم إلى المشاركة في الحروب الصليبية (74).

لقد استجاب إلى دعوة الحرب خليط عجيب من الناس (75)، من طبقات مختلفة ومن مدن مختلفة (76)، وقد وصفهم أحد المؤرخين بقوله: (المؤمنون بثواب الآخرة، والخياليون والمغامرون طلباً للكسب والثراء، النبلاء والتجار الذين يبحثون عن مجال جديد للاستثمار، الشذاذ الذين وجدوا ضالتهم للتخلي عن مسؤولياتهم، والأقنان للتخلي عن عبودية الأرض، والمجرمون هرباً مما اقترفته أيديهم) (77).

ويرى آخر أن أفضل وصف لهم أنهم رعاع الغرب، وجرذان أرصفة تحميل السفن، وحثالات أوربا (78).

وفي ميدان دوافع الغزو وأسبابه لابد من ذكر الدور المهم الذي قامت به المدن الإيطالية في مساندة الغزو الصليبي، فقد تمكنت البندقية في حدود منتصف القرن الحادي عشر الميلادي من بناء أسطول قوي، وفي نفس المدة كانت جنوة، وبيزة، قد بدأتا التجارة على طول شواطئ البحر المتوسط، ولم تلبث هذه المدن أن تحولت إلى جمهوريات مستقلة تطمح إلى الفوز بالثروة الطائلة التي ينعم بها العالم الإسلامي (79).

ومما ساعد في توسيع النفوذ التجاري لهذه المدن، انحسار الوجود الإسلامي عن الاندلس، ومحاولات النورمان للاستيلاء على صقلية، فتغلغلت هذه المدن في حوض البحر المتوسط، وأخذت تسعى إلى إقامة أسواق في الشرق لبضائع غرب أوربا (80)، لذا فإن مشاركة المدن الايطالية في الغزو الصليبي لتحقيق مآربها الخاصة يعد أمراً طبيعياً (81).

ويبدو أن الأساطيل الإيطالية لعبت دوراً سياسياً مزدوجاً، فبينما كان الإيطاليون يرتبطون مع مصر اقتصادياً، نجدهم يسهمون بصورة فعالة في مساندة الغزو الصليبي منذ حملته الأولى، فقد تمكن الصليبيون بمساعدة الإيطاليين من السيطرة على سواحل الشام بمدنه المهمة، مقابل ما حصلوا عليه من الامتيازات والتسهيلات الكثيرة (82).

ب- تكوين الحشود الصليبية والزحف الصليبي نحو الشرق

على الرغم من طلب المساعدة الذي توجه به الإمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع إلى البابا كريكوري السابع، واستماع البابا لهذا الطلب غير أنه لم يقترح – كما تردد دائماً – القيام بالدعوة إلى حرب صليبية، بل إنه وعد بإرسال حملة كبيرة لاسترداد آسيا الصغرى من يد المسلمين، غير أن ذلك لم يؤدِ إلى نتيجة بالنظر لتطور الأوضاع الداخلية، والحصيلة

الوحيدة التي ترتبت على ذلك أن ماحصل من تطورات سنة488هـ/1095م كان سابقة، وإيحاء لما تقدم، حين كرر الإمبراطور الكسسيوس كومونين رجاء ميخائيل السابع [83].

كانت البداية الفعلية للغزو الصليبي في 26 ذي القعدة 488هـ/ تشرين ثاني 1095م، إثر الخطبة التي ألقاها البابا أوربان الثاني (1088/1099م) على حشود المجتمعين وسط حقل فسيح في افريني (Auvergne) بكليرمونت في جنوب فرنسا بمثابة البداية الفعلية للمشروع الصليبي الكبير [84]، إذ استهل خطابه بالقول إنه يتوجب على المسيحيين بذل المساعدة لإخوانهم في الشرق، لأنَّ الأتراك يواصلون زحفهم في جوف البلاد المسيحية، وأكد ما لبيت المقدس من مكانة خاصة، فلينطلق المسيحيون في الغرب لنجدة إخوانهم في الشرق [85].

بعد انتهاء مجمع كليرمونت كلف البابا الأساقفة بالدعوة للحرب الصليبية [86]، وظهرت طائفة من الوعاظ الذين انتشروا في مناطق واسعة، لاسيما فرنسا، يدعون لمشروع الحرب المقدسة، وكان من أبرزهم بطرس الناسك* وولتر المفلس [87].

ويمكن القول إنَّ بذور الحروب الصليبية نمت في تربة فرنسية منذ بشّر بها بابا من أصل فرنسي، وأنها بدأت واستمرت في جوهرها مشروعاً فرنسياً [88]، فقد اشار أحد المؤرخين إلى ذلك بقوله: (وأهمية ذلك هنا أن فرنسا قامت في الحروب الصليبية مقام الروح من الجسد بالقياس إلى غيرها من الدول، وأن فرسانها غدوا نموذجاً لغيرهم من الفرسان الأوربيين) [89].

كانت الاستجابة سريعة للانضواء تحت لواء الغزو، ويبدو أن تلك الجموع الهائلة المنْسابة نحو الشرق لم تتأثر بمواعظ الدعاة بقدر ما تأثرت بمجموعة من الظروف والنوازع المتمثلة في تردي الأوضاع الاقتصادية البائسة في أوربا من جهة، وتدهور أسس الحياة الاجتماعية نتيجة لتركيبها الطبقي الحاد من جهة ثانية، فكان التفكير بالذهاب إلى الشرق، والتنعم بخيراته الحلم الذي يراود مخيلة الجميع للانعتاق من أوضاعهم المزرية، فضلاً عن ذلك ما أقرته الكنيسة من الوعود التي داعبت خيال البسطاء من النّاس أن الاشتراك في الحرب يمحو الذنوب، ويفتح أبواب الغفران [90]، لأنَّ الرب يريد ذلك [91] (فالتجر مراعاة هدنة الله في أرض الوطن، وينبغي تجريد جيوش المسيحيين في حملة لقهر المسلمين ابتغاء الحصول على التوبة الكاملة) [92].

تشكلت الحشود الصليبية من مجموعتين هما: حملة العامة، وحملة الأمراء، فقد تمكن الداعية بطرس الناسك ورهطه أن يقوموا بدور مؤثر في حشد هذا اللفيف من العامة، ففي رمضان سنة 490هـ/نيسان 1096م أي قبل مايقرب من أربعة أشهر من الموعد المحدد تم

حشد خمسة جيوش من الفقراء(93)، ثم انساحت هذه الجيوش من العامة فاخترقت هنكاريا صوب القسطنطينية، وأخذت تنهب، وتسلب ماتمر به من البلاد، مما أثار حفيظة السكان المحليين، فأُبيد جيشان منها من قبل الهنكاريين انتقاماً لما أصاب بلادهم من الدمار نتيجة لما قام به هؤلاء الصليبيون من أعمال همجية، أمَّا الجيش الثالث فقد دخل مدن وادي الراين، وعاث فيها فساداً، وقتل زهاء عشرة الآف يهودي بدافع الحماس الأهوج، الأمر الذي دفع الهنكاريين إلى إبادة هذا الجيش بكامله(94).

أمَّا الحشدان الاخران فكان أحداهما بقيادة والتر المفلس الذي عبر هنكاريا خلال شهر شوال490هـ/مايس1096م متوجهاً إلى القسطنطينية، حيث انتظر فيها حتى منتصف شهر تموز(95)، والثاني بقيادة بطرس الناسك الذي غادر كولونيا في نيسان من السنة المذكورة مخترقاً ألمانيا وهنكاريا، وقد تسبب مروره عبر هنكاريا في إثارة مشاكل كبيرة راح ضحيتها الالاف من السكان(96).

وحصيلة ذلك أن وصل إلى القسطنطينية حشدان فقط، أحداهما بقيادة والتر، والثاني أتباع بطرس، الذين نصحهما الإمبراطور البيزنطي بالتريث لحين وصول الجيوش النظامية المتمثلة بحملة الأمراء(97).

غير أن هذه الحشود الهائجة البعيدة عن روح الانضباط لم تأبه لنصيحة الإمبراطور، وأطلقت يد الخراب في معقل الإمبراطورية، وقد أشار إلى ذلك أحد مؤرخي الحملة، عن لسان الإمبراطور قوله: (98)(وقال لهم: (لاتعبروا البسفور قبل وصول بقية الجيش المسيحي، لأنكم لستم بالكثرة التي تمكنكم من محاربة الترك)، فسار المسيحيون أسوأ سيرة إذ خربوا قصور المدينة، وأضرموا فيها النيران، وخلعوا الرصاص الذي كانت تغطى به الكنائس، وباعوه للإغريق، فتلظى الإمبراطور غضباً عليهم وأمر- وهو في سورة حنقه- بإبعادهم عن البسفور.

لم يتورع الصليبيون- بعد كل ما ارتكبوه- من اقتراف شتى ضروب المساوئ كإضرام النار في البيوت والكنائس، وتخريبهم إياها ..).

ونتيجةً لهذا السلوك البربري أصبح الإمبراطور البيزنطي يروم الخلاص من هذه الغوغاء بالإسراع في نقلهم إلى شاطئ الشرق، حيث نزلوا على خليج نيقوميديا الذي يحاذي ممتلكات السلاجقة، وبدأوا أعمالهم بالإغارة على القرى المجاورة، ونهبها، وقتل سكانها بوحشية كبيرة(99).

بعد ذلك واصلوا زحفهم نحو مدينة نيقية*، ثم ساروا منها إلى قلعة اكسريجوردون (Exerogorgo) إذ تمكنوا من الاستيلاء عليها والانتفاع بما فيها من المؤونة، وسرعان ما

تناهت الأخبار إلى قلج أرسلان السلجوقي الذي أرسل جيشاً فحاصر القلعة لمدة ثمانية أيّام فاستسلم الصليبيون، وتم القضاء على تلك الموجة البشرية بصورة كاملة[100]، وإلى ذلك يشير ابن القلانسي[101]، بقوله: (.. كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لايحصى عدده كثرة، وتتابعت الأنباء بذلك، فقلق الناس لسماعها، وانزعجوا لاشتهارها، وصحت الأخبار بذلك عند الملك داود بن سليمان بن قتلمش وكان أقرب إليهم داراً فشرع في الجمع والاحتشاد، وإقامة مفروض الجهاد.. فزحف إلى معابرهم ومسالكهم وسبلهم، فأوقع بكل من ظفر به منهم بحيث قتل خلقاً كثيراً)، وبذلك كانت نهاية حملة العامة على أعتاب آسيا الصغرى.

أمّا حملة الأمراء فتمثل الشطر الثاني من الحملة الصليبية الأولى، وقد تألفت من عدة جيوش اتسم كل واحد منها بسمات مميزة منذ أول أمره وانعكس ذلك على نشاطه في الشرق [102]، إذ كان تقسيمهم على أساسٍ من الأنماط اللغوية والجنسية من ناحية، وعلى أساسٍ من الروابط الإقطاعية من ناحية ثانية[103].

في أواخر صيف سنة 1096م (490هـ) كانت تلك الجيوش النظامية متأهبة للمسير صوب الشرق، وتألفت من عدة جيوش، يخضع كل منها لقيادة خاصة به، إذ تولى زعامتها عدة قواد لكل منهم اتجاهاته وسياسته الخاصة، الأمر الذي جعل هذه الجيوش ربما عملت في مسارات متعارضة[104] فكان الأمير جودفري البويولني (God Freyde Bouillon) أمير لوثرنيجيا على رأس الجيش الاول، يرافقه أخوه وعدد آخر من كبار الأمراء، وقد تم جمع هذا الجيش من اللورين شمال فرنسا ومن الألمان[105].

أمّا الجيش الثاني فكان تحت قيادة روبرت دوق نورماندي (Robert ˙Duke of Normandy) وزوج اخته استيفن كونت بلو (Stphen of Blois) الذي تولى قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا ونورماندي وعددٍ من مناطق الشمال فضلاً عن الكثير من الفرسان الانكليز من أتباع أخيه الملك الانكليزي وليم روفوس[106]، وتولى قيادة الجيش الثالث ريمون الرابع كونت ثولوز (المعروف بالصنجيلي)) (Raymondiv of Toulous) وكان جيشه مؤلفاً من فرسان جنوب فرنسا والبروفنسال، وصحبه ادهمار أسقف لوبوي، المندوب البابوي في هذه الحملة[107].

ويُعد جيش هيوكونت فرماندوا، وهو شقيق لويس فيليب الأول ملك فرنسا، أصغر الجيوش، وكان جيشه أول الجيوش الصليبية التي وصلت إلى القسطنطينية[108].

أمّا الجيش الخامس – وهو الأهم في اطار بحثنا– فكان تحت قيادة بوهمند النورماني ابن روبرت جويسكارد، وكان مؤلفاً من النورمان في جنوب إيطاليا، والمعروف أن بوهمند كان

من طراز الرجال السياسيين، غير المتحمسين للدين، وممن يسعون إلى الكسب الدنيوي إلى جانب الكسب الروحي[109].

لم يحفل النورمان في بداية الأمر بدعوة البابا أوربان للمشروع الصليبي نظراً لانشغالهم بالحروب الأهلية التي نشبت بينهم في جنوب إيطاليا إثر وفاة الزعيم روبرت جويسكارد والد بوهمند، وذلك لأن جويسكارد كان قد طلق زوجته أم بوهمند، وأوصى بدوقية ابوليا لابنه روجر بورصا مما دفع بوهمند إلى إعلان الثورة على أخيه عازماً على استخلاص اوترانتو لنفسه[110].

وبعد أن اطلع بوهمند على المشروع الصليبي وما يمثله من فتح آفاق جديدة أمام طموحاته غير المحدودة سارع إلى تهيئة نفسه للانضمام إلى ذلك المشروع (وأمر بتجزئة عباءة ثمينة كان يرتديها إلى أجزاء صغيرة وأن تعمل صلبانا)[111].

ثم ترك أراضيه في عهدة أخيه ورعايته، وجمع الأموال التي أمكن جمعها لتمويل حملته، ومن الصعوبة بمكان تحديد القوة التي صحبت بوهمند، ووفقا لعدد من الآراء فإنه كان بمعيته أكثر من (500) من الفرسان يضاف إلى ذلك المشاة، وحاملي الصليب من مناطق أخرى، وجيشه كغيره من الجيوش الصليبية الأخرى مؤلف من عناصر كثيرة من رجال الدين فضلاً عن المغامرين الذين يرون في الحروب الصليبية فرصة لتحقيق مآربهم، وغيرهم، وهناك إشارة إلى أن أغلب اتباعه كانوا من الشبان المغامرين الذين يبحثون عن جديد[112].

أبحر بوهمند من باري في تشرين اول 1096م/490هـ وقد صحبه ابن اخته تنكرد وعدد من الأمراء، وعند نزوله في ميناء أبيروس على ساحل البحر الأدرياني تجمعت قواته في وادي نهر فيوزا، وبالنظر لخبرة بوهمند بطبيعة الارض التي سلكها فمن الراجح أنه اختار الطريق الذي سلكه وهو طريق غير مألوف تجنباً لإشراف البيزنطيين ورقابتهم[113].

ويبدو أن المؤن التي جرى تقديمها لجيش بوهمند كانت وفيرة، فليس هناك ما يدعوه إلى أن يسلك مسلكاً مشيناً مع سكان المناطق التي يجتازها، كما حصل لمعظم الصليبيين الذين سبقوه، وإلى ذلك أشار مؤرخ الحملة بقوله (وحضهم [بوهمند] على الطيبة، والتواضع، والكف عن تخريب البلاد التابعة للنصارى..)[114].

في نيسان 1097م/490هـ أصبح بوهمند ليس بعيداً عن القسطنطينية عندما طلب مقابلة الإمبراطور البيزنطي الكيسوس ليعبر له عن حسن نواياه، فوافق الإمبراطور على هذا الطلب مشترطاً عدم دخول بوهمند القسطنطينية إلاّ بمفرده تاركاً جيشه خارج المدينة، وقد أدرك الإمبراطور أن هذا الزعيم النورماني، كان أخطر الزعماء الصليبيين بالنظر للتجارب

المريرة السابقة التي ذاقتها الإمبراطورية البيزنطية على يد النورمان ومطامعهم من جهة، وكفاءة قوات بوهمند من حيث الإعداد والتنظيم والتسلح من جهة ثانية [115].

ج- الأمراء الصليبيون والإمبراطور البيزنطي

يعد الإمبراطور الكسيوس كومونين آخر الأباطرة البارزين الذي استعادت الإمبراطورية البيزنطية في عهدهم شيئاً من مجدها وهيبتها، وذلك لما اتسم به من المهارة الدبلوماسية التي عرفت عن أسلافه بما ينسجم ومصالح الإمبراطورية [116]، وقد أدرك الإمبراطور أن انتزاع اراضي الإمبراطورية من أيدي السلاجقة ليس بالأمر الهين، لذا جدد الاستغاثة التي سبق لسلفه الإمبراطور ميخائيل السابع أن وجهها إلى البابا كريكوري السابع [117]، ولم يدر في خلده أن النجدة الحربية [118]، التي طلبها ستتحول إلى مشروع صليبي كبير تكون الإمبراطورية أحد أهدافه المعادية مستقبلاً، وبذلك أصبح الإمبراطور أمام حالة جديدة، تتمثل في التناقض الكبير بين ما طلبه من الغرب، وبين أهداف المشروع الصليبي المعلنة، وقد أشار أحد المؤرخين الأوربيين المحدثين إلى هذا الأمر قائلا إن (موقف الإمبراطورية البيزنطية شديد التعقيد في الحروب الصليبية التي كانت عملاً أوربياً خالصاً، فلم تكن هنالك فكرة عن أي حرب صليبية في بيزنطة، وكانت مسألة استعادة البيت المقدس، خيالية إلى حد بعيد، ولم تكن حيوية بالنسبة إلى الإمبراطورية..) [119].

لذا حاول الإمبراطور، ومنذ بداية تقاطر الأمراء الصليبيين على عاصمته أن يحصل على وعود موثقة بالأيمان المخلصة بإعادة ما سيفتحونه في الشرق إلى حوزة الإمبراطورية البيزنطية، إذ زعمت الامبراطوية البيزنطية أن لها حقوقاً تأريخية في تلك الأراضي التي انتزعها منها العرب المسلمون ولاسيما في أنطاكية والرها [120]، وإلى ذلك أشار بعض المؤرخين المسلمين، فذكر ابن الأثير [121] أن الإمبراطور قال للأمراء الصليبيين (لا أمكنكم من العبور إلى بلاد الإسلام حتى تحلفوا لي أنكم تسملوا لي أنطاكية).

لقد آثر الإمبراطور الكسيوس أن يكون التعامل مع الأمراء الصليبيين بشكل انفرادي، والاتفاق مع كل واحد منهم على حدة، واستخدام أساليب مختلفة للتفاهم معهم، كالهدايا النفيسة أو حجز المؤن والامدادات عنهم أو اللجوء إلى القتال، حتى نجح في أن يحصل منهم على يمين الولاء باستثناء بعضهم، إذ امتثل هيوكونت فرماندو في وقت مبكر لما طلبه الإمبراطور، وأعلن رضاه عن طيب خاطر [122].

غير أن الأمر أصبح اكثر تعقيداً حينما وصل إلى القسطنطينية دوق اللورين جودفري بوايون، فعند وصوله كانت في انتظاره دعوة من الإمبراطور، تحثه على اللقاء، إلا أنه أخذ

يراوغ ويماطل الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقات بين الجانبيين، ولكنه رضخ في نهاية المطاف، ورضي أن يقسم يمين الولاء [123].

اما بوهمند فقد دخل العاصمة البيزنطية في رمضان 490هـ/ 9نيسان 1097م [124] بعد أن أرسل السفراء قبله إلى الإمبراطور منذ نزوله في إقليم ابيروس في البلقان، وقبل دخوله القسطنطينية عند مدينة سالونيك عاد سفراؤه ومعهم موظف بيزنطي كبير، وفي تراقيا قرر بوهمند الإسراع إلى القسطنطينية ليقف على حقيقة المفاوضات الدائرة بين الإمبراطور وبين القادة الصليبيين [125].

ويبدو أن بوهمند تجنب أن يثير شيئاً من الريبة في نفس الإمبراطور (كأنما حرص منذ وصوله إلى القسطنطينية على اتباع نهج ثابت جاهداً على أن لاتتضح معالمه أو تتجلى إلاّ في الوقت المناسب) [126]، كما إن الإمبراطور قد آثر أن يكون أول لقاء له مع بوهمند على انفراد ليسبر غور أفكاره، غير أن بوهمند أظهر للإمبراطور علامات الصداقة والاحترام، لذا دعا الإمبراطور جودفري وبلدوين، اللذين كانا يقيمان بالقصر الملكي ليشتركا فيما يدور من حوار [127].

وتظهر أجواء المحادثات أن بوهمند كان أكثر الصليبيين إدراكاً بأن الإمبراطورية لازالت دولة قوية، وأنه مالم يتم للصليبيين الاعتماد عليها فلن تتحقق أهدافهم [128].

حاول بوهمند في الوقت نفسه تنفيذ مآربه الشخصية عن طريق التحالف الصليبي البيزنطي، هذا التحالف الذي تمثل في أداء القادة الصليبيين ليمين الولاء أمام الامبراطور، إذ استهدف من خلال مقابلة القادة وتقديم الولاء الكشف عن رغبته الشخصية عندما طلب من الإمبراطور أن يعينه القائد الأعلى للحملة الصليبية الأولى (دمستق الشرق) [129]، وهذا المنصب من الوظائف الإمبراطورية القديمة، وكان مقر صاحبه فيما مضى في مدينة أنطاكية، عندما كانت هذه المدينة المركز الإداري الذي يدير منه (كونت الشرق) الأطراف الشرقية للإمبراطورية، وهذا المطمح من جانب بوهمند يدل بجلاء على ذكائه وبعد نظره في نيل أهدافه السياسية، إذ تطلع إلى أن يكون على رأس إدارة إقليم شاسع ووصفت (آنه) ابنة الإمبراطور هذا المطلب بقولها : (لم يجد بوهمند استجابة لطلبه.. إذ كان الإمبراطور يخشى ما يترتب على هذا المنصب من سيادة بوهمند على سائر الأمراء الصليبيين.. ولما كان الإمبراطور في الوقت نفسه لايرغب في كشف خططه لبوهمند فقد منّاه بالوعود والآمال قائلاً له: (لم يحن الوقت بعد، ولكن لن يمضي وقت طويل حتى تحصل على هذا الشرف بفضل جهودك وهمتك) [130]

ومع ذلك، لم يظهر بوهمند ما يمكن أن يثير شكوك الإمبراطور تجاهه انسجاماً مع السياسة التي رسمها لنفسه تجاه الإمبراطورية التي توجب عليه أن يتظاهر بالرضا فيما رسمه له الإمبراطور، وأن يتواصل في سياسة التعاون مع النهج البيزنطي [131].

وبعد انتهاء الحوار، وأداء مراسيم اليمين تعمد الإمبراطور أن يغدق على بوهمند الهدايا النفيسة التي لاتقدر بثمن، مما أدهش الرجل، وقال: (لو امتلكت مثل هذه الثروة لكنت منذ زمن مضى سيداً على العديد من البلاد)، وقد أجابه أحد رجال الإمبراطور: (كل هذا لك اليوم هدية من الإمبراطور) [132].

وبعد أن أعلن بوهمند سروره بتلك الهدايا عاد فرفضها ثم قبلها مرة أخرى، وعندما تناهى ذلك إلى مسامع الإمبراطور علق قائلا: (سيرتد عليه سوء عمله) [133].

وإذا سلمنا برواية تابع بوهمند المؤلف المجهول، صاحب أعمال الفرنجة، يكون بوهمند بعدما لاحظه من اهتمام الإمبراطور به، قد طلب منه إمارة في آسيا الصغرى، وذلك مقابل تعهده بإعادة الممتلكات البيزنطية التي انتزعها المسلمون من تلك البلاد، وتقول الرواية: (وعد الإمبراطور بوهمند الشجاع - الذي يخافه كثيراً لأنه فر أكثر من مرة بجيشه من أمامه- أن يقطعه أرضاً وراء أنطاكية تمتد مسيرة خمسة عشر يوماً طولاً وثمانية أيام عرضاً، إذا أقسم بوهمند بيمين الولاء دون رجاء، وعاهده الإمبراطور أنه لن ينسى أبداً وعده إليه طالما هو مقيم على يمينه) [134].

ويعتقد عدد من المؤرخين أن رواية تابع بوهمند لا أساس لها من الصحة [135]، وأنها قد دست على كتاب أعمال الفرنجة فيما بعد وبأمر من بوهمند [136].

في حين يعتقد عدد آخر منهم بصحتها بالاستناد إلى موقف الإمبراطور الحرج تجاه جحافل الصليبيين في عاصمته، مما دفعه إلى أن يعطي وعداً شفوياً غامضاً إلى بوهمند إشباعاً لطموحه من جهة، وليجنده في خدمة الإمبراطورية من جهة ثانية [137].

وعلى أية حال فقد بدأت الأجواء ودية بين الطرفين خلال وجود بوهمند في العاصمة البيزنطية، وإلى ذلك يشير وليم الصوري بقوله: (وأخيرا أصبح بوهمند رجل الإمبراطور على مايقال) [138].

أمّا ريموند الصنجيلي كونت تولوز المسن، فكان تحت قيادته أكبر جيوش الحملة الصليبية الأولى، وقد رافقه ادهمار المندوب البابوي وبعد أن وصلت قواته الأراضي البيزنطية بعد رحلة مرهقة في بلاد البلقان، تأرجحت العلاقات بينه وبين الإمبراطور البيزنطي، إذ فوجئ عند وصوله القسطنطينية أن الامور تسير على غير ما يتوقع، فقد طلب منه الإمبراطور أن يؤدي له يمين الولاء، كما وجد الزعيم الطموح بوهمند قد أصبح على علاقة وطيدة بالإمبراطور، لذا فإنه صمم على رفض أداء اليمين، وعلّة رفضه كما قال أنه خرج إلى الشرق في سبيل الله) [139].

ويبدو أن ذلك الموقف المتشدد الذي اتخذه ريموند كان يداعب هواجس بوهمند الذي

وجد فيه فرصة لتحقيق أطماعه الشخصية في كسب ثقة الإمبراطور، واستمراره في سياسة التظاهر بالطاعة التي رسمها لنفسه، في أن يكون قائداً عاماً للقوات الصليبية وهي على وشك التوجه نحو شمال الشام[140].

لذا أعلن بوهمند بصراحة تامة (أنه إذا ارتكب [كونت تولرز] أي تعد ضد الإمبراطور، وخالف ما تعهده الزعماء بالوفاء به فإن بوهمند نفسه سيقف في صف الإمبراطور) [141].

إلاّ أن هذه المشكلة قد حُلّت في شهر نيسان بأن عدّل ريموند صيغة القسم، فوعد باحترام الإمبراطور، وحياته، وتبجيل شرفه، وبعد امتثال ريموند، وحسم الموقف معه، أقام الإمبراطور حفلاً عاماً تأكيداً لاتفاقية القسطنطينية أقسم فيها الأمراء الصليبيون اليمين، مجتمعين، عدا تنكرد ابن أخت بوهمند [142]، ولكي يتجنب القسم الإمبراطوري تسلل بقواته عبر البسفور إلى آسيا الصغرى[143].

إلاّ أنه بعد الاستيلاء على نيقية لم يلبث أن انصاع حاقداً فأقسم يمين الولاء [144].

د- الصليبيون في آسيا الصغرى

مهما تباينت وجهات النظر بين الإمبراطور وعددٍ من القادة الصليبيين، حول مستقبل فتوحاتهم المقبلة، فلم يكن هناك خلاف في مقاتلة المسلمين، فلابد من اجتياح آسيا الصغرى، وتأمين الطريق إلى الشام. وكانت نيقية أول هدف لهم، وهي لاتبعد عن بحر مرمرة، لأن بقاءها بيد المسلمين يمثل خطراً يهدد الطريق الذي يخترق الإقليم[145].

وفي شهر نيسان 490هـ/1097م باشر الصليبيون بعبور البسفور إلى الجانب الاسيوي[146].

وبعد أن اكتملت الحشود الصليبية انضم اليهم بطرس الناسك، ومعه من بقي من الحملة العامة، فتم الاتفاق على أن يبدأ الهجوم على نيقية مقر حكم قلج أرسلان [147]، وتمكن الصليبيون من الاستيلاء عليها بعد حصار دام أكثر من شهر، وذلك لأن سكان المدينة– بعد أن يئسوا من المقاومة–بعثوا إلى الإمبراطور بشأن استلام المدينة مقابل أن تترك المدينة بأهليها وأموالها آمنين[148].

وعلى الرغم من أن الإمبراطور قد أجزل العطاء للأمراء الصليبيين ليكافأهم على عودة المدينة إلى السيطرة البيزنطية، إلاّ أن ما قام به من اتفاق مع ساكنيها دون علم الصليبيين قد أثار سخطهم[149].

كان سقوط مدينة نيقية بأيدي القوات الصليبية البيزنطية، يمثل صدمة كبيرة، ونذير خطر لعموم القوى الإسلامية (ولكن الأنانية، وضيق النظر جعل تلك الصدمة، وذلك النذير بلا فائدة) [150].

أدرك الصليبيون بعد سقوط نيقية أن المعركة القادمة ستكون مع قلج أرسلان الذي كان منشغلاً في حروبه ضد بني الدانشماند عند مدينة ملطية، وكان ظنه أن هؤلاء الصليبيين هم على شاكلة جموع بطرس التي أبيدت قبل ذلك، لذا فإنه أرسل جزءاً من قواته بعد فوات الأوان[151]. ثم كان أن حضر السلطان نفسه، بعد أن أدرك جديّة الامر، وبدأ في 21مايس بمهاجمة الصليبيين ثم أدرك بعد معركة غير هامة أن لاجدوى من حضوره، وعليه الانسحاب لأن قوات الصليبيين أعظم مما كان يتصور[152].

لم يلبث الصليبيون أن غادروا نيقية ليواصلوا سيرهم في أواخر حزيران وأواخر رجب 490هـ/1097م نحو مدينة ضورليوم (اسكي شهر الحالية) وقد انقسم الجيش الصليبي على شطرين، وذلك لتسهيل عملية التموين، ولتغطية أكبر مساحة من المنطقة من ناحية أخرى، فأتجهت إحدى القوتين باتجاه شمالي شرقي والأخرى في اتجاه جنوبي شرقي، وتألفت القوة الأولى من النورمان تحت قيادة بوهمند وتنكرد، ونورمان فرنسا بزعامة روبرت، وفي نفس الوقت تزعم القوة الثانية جودفري وريموند، يصحبه المندوب البابوي ادهمار[153].

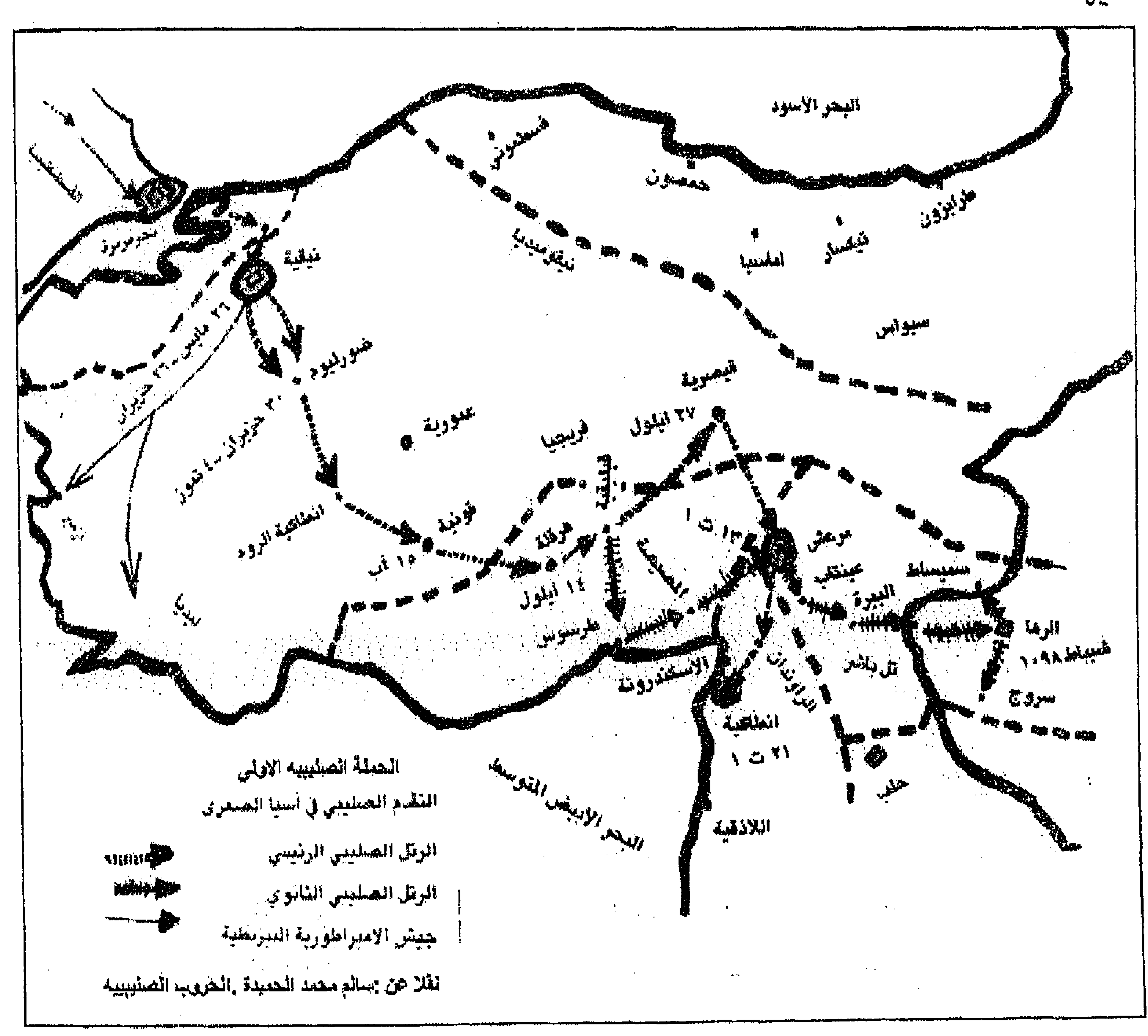
وبالقرب من ضورليوم وجد الصليبيون أنفسهم في مأزق خطير[154]، بعد أن اتحد السلاجقة وبني الدانشماند إثر هزيمة نيقية، لمواجهة الصليبيين، ففي29حزيران التحم بوهمند مع جيش السلاجقة، وفي فجر اليوم الثاني اشتدت المعركة، إذ هجم السلاجقة من كل الجوانب مستخدمين كل عدتهم الخفيفة، وقابليتهم العظيمة على أحسن ما يمكن، إلا أن المعركة حسمت حينما أُخذ المسلمون على حين غرّة بوصول القسم الثاني من الجيش الصليبي تحت قيادة جودفري وريموند اوف تولوز اللذين كانا على علم بالأحداث من قبل رسول من بوهمند، فهزم السلطان، وتبعه جيشه، ووقع تحت يد الصليبيين معظم الأثقال التابعة لجيش السلاجقة[155].

وبعد استراحة قصيرة واصل الصليبيون زحفهم في الرابع من تموز، ويظهر أنهم واجهوا الكثير من المصاعب بسبب صعوبة الأرض، وندرة مايجدونه من الماء، وقلة الطعام، وشدة حرارة الصيف، إذ هلكت معظم خيولهم فوجدوا صعوبة في حمل أثقالهم[156]، حتى وصلوا إلى سهول قونية الغنية، فلم يجدوا مايشير إلى أن السلاجقة اعتزموا الدفاع عنها، إذ هجرها السلاجقة إلى الجبال بكل مالديهم[157]، وذكر صاحب أعمال الفرنجة ماقام به السلاجقة من إخلاء للسكان في المدن التي على الطريق، وتدمير كل ما يمكن الانتفاع منه[158].

وعند هرقلة حاول المسلمون القيام بشن هجوم لصد الصليبيين إلا أن ذلك لم يجد نفعاً[159].

مكث الصليبيون أياماً قليلة في هرقلة ثم استأنفوا تقدمهم في شوال 490هـ/ايلول

1097م، إلاَّ أن هذه المرحلة من زحفهم شهدت انشقاقاً بين قادتهم مما أدّى إلى انقسام الجيش الصليبي على شطرين مختلفين، إذ سلك تنكرد ومعه بلدوين– شقيق جودفري بوايون– متجهين نحو قيليقية، في الطرف الشرقي لآسيا الصغرى، بينما اتجه الجيش الصليبي الكبير، وعلى رأسه جودفري وبوهمند وريموند، يصحبهم المندوب البابوي صوب الشمال الشرقي إلى قيصرية التي استولوا عليها في شوال 490هـ/27 أيلول 1097م(160)، ثم واصلوا زحفهم فاستولوا على قلعة بلاكتينيا الأرمنية التي كان الدانشمانديون قد فرضوا الحصار عليها، فسلمها الصليبيون إلى القائد البيزنطي، تنفيذاً لاتفاقية القسطنطينية(161)، ومن هذه القلعة انطلقت الجيوش الصليبية نحو مدينة مرعش الأرمنية(162)، فكان وصولها في 13تشرين أول 1097م (490هـ)، وتم تسليم المدينة إلى السلطات البيزنطية بعد الاستيلاء عليها(163).



الخارطة رقم (3)

ومن مرعش اتجهوا نحو الشام فوصلوا جسر الحديد على نهر العاصي في ذي القعدة 490هـ/1097م، وبذالك بدأ الغزو الصليبي لبلاد الشام[164].

أمّا الشطر الثاني من القوات الصليبية، الذي تزعمه الأميران بولدوين وتنكرد فقد اتجها نحو قيليقية (أرمينيا السفلى) بعد أن رفضا فكرة مصاحبة الجيش الرئيس لقيامه بحركة التفاف واسعة، خدمةً لأغرض الإمبراطور البيزنطي، ولم يعترف تنكرد بالاتفاقية التي أبرمت مع الإمبراطور، وكانت المقاطعة تخضع للسلاجقة إلاّ أنه لايوجد فيها سوى حاميات قليلة[165].

ويرى عدد من المؤرخين أن عملية الانشطار، تمثل تعبيراً عن نوايا بوهمند التي بدأت تمبر عن نفسها من خلال المسير عبر آسيا الصغرى، حينما ترك تنكرد المسير مع مجموعة من النورمان واتجهوا نحو قيليقية وذلك لتأمين السيطرة على الأراضي المهمة فيها وفي شمال سوريا للهيمنة على الأجزاء التي ستكون إمارة أنطاكية مستقبلا، ويعتقد أن بلدوين قد تبع تنكرد مع قوة من اللوثرنجيين لاحباط خطط النورمان وطعماً في الغنائم[166]. غير أن تنكرد سبق بلدوين البولوني في الوصول إلى مدينة طرسوس (مستفيداً من الطرق القصيرة، وبذلك كان الأول في الوصول إلى قيليقية) [167].

ومن ثم وصل بلدوين إلى نفس المكان فاستقبله تنكرد بحب وكرم[168]، ويبدو أن بلدوين لم يرق له ما حازه زميله، عندما شاهد أعلام تنكرد ترفرف على المكان، فطلب أن يقاسمه المدينة، غير أن تنكرد ردّ عليه قائلا: (إنني ارفض كل قسمة معك) [169].

وبعد جدل حاد بين الاثنين وتحكيم الأهالي، اضطر تنكرد إلى الانسحاب، رغم أن كفته الراجحة في ميل الأهالي إلى جانبه[170].

وهكذا تمكن بلدوين من الانفراد بالسيطرة على المدينة، فأجبر أهلها على أن يفتحوا له أبوابها ليدخلها مع جنوده، ويحوز برجين من أبراجها [171].

وعندما أرسل بوهمند ثلاثمائة من الفرسان، في نفس الليلة لتعزيز قوة تنكرد، وجدت هذه القوة، عند وصولها إلى طرسوس أن تنكرد قد غادر المكان، فرفض بلدوين دخولها إلى داخل الأسوار، فاضطروا إلى المبيت خارج أسوار المدينة[172].

وفي سكون الليل تسلل سكان المدينة مع عائلاتهم هاربين خارج مدينتهم[173]. وفي صباح اليوم التالي، اكتشف الصليبيون هروب أهل المدينة، بعد أن وجدوها قد خلت من سكانها، ولكن هالهم أن سكان المدينة الذين هربوا قد أحدثوا مذبحة كبيرة، إذ أجهزوا على الفرسان النورمان الذين رفض بلدوين أن يأويهم داخل الأسوار[174].

وبسبب ذلك، تعرض بلدوين للوم أصحابه، وتعريضهم به[175] ونسبوا إليه قتل رفاقهم[176].

ويظهر أن ذلك قد حز كثيراً في نفس تنكرد الذي ترك طرسوس إلى المصيصة، وعندما علم بقدوم بلدوين خلفه، خرج لملاقاته، ودارت معركة حامية بين الطرفين، هزم فيها النورمان، ويبدو أن تنكرد بعدها ذهب إلى سوريا، وهناك احتل عدداً من الأراضي في منطقة أنطاكية، ولكن من الصعوبة بمكان تحديدها بالضبط[177].

ويعتقد عددٌ من المؤرخين أن بلدوين بعد فشل مشروعه في قيليقية التحق بالجيش الرئيس للتشاور مع أخيه جودفري حول إمكانية إنشاء إمارة في البلاد الأرمنية بالنظر إلى حصوله على عرض من ثوروس أمير الرها، ومما يعزز هذا الاعتقاد أن بلدوين لم يستمر طويلاً مع الجيش الرئيس سوى يومين، ثم انصرف لتحقيق مشروعه[178]، وبذلك قامت إمارة الرها التي تمثل أول إمارة صليبية كان لها دور كبير في الصراع بين الصليبيين والمسلمين، إذ وقفت حائلاً بين الموصل وبلاد الشام[179]، حتى زوالها على يد عماد الدين زنكي.

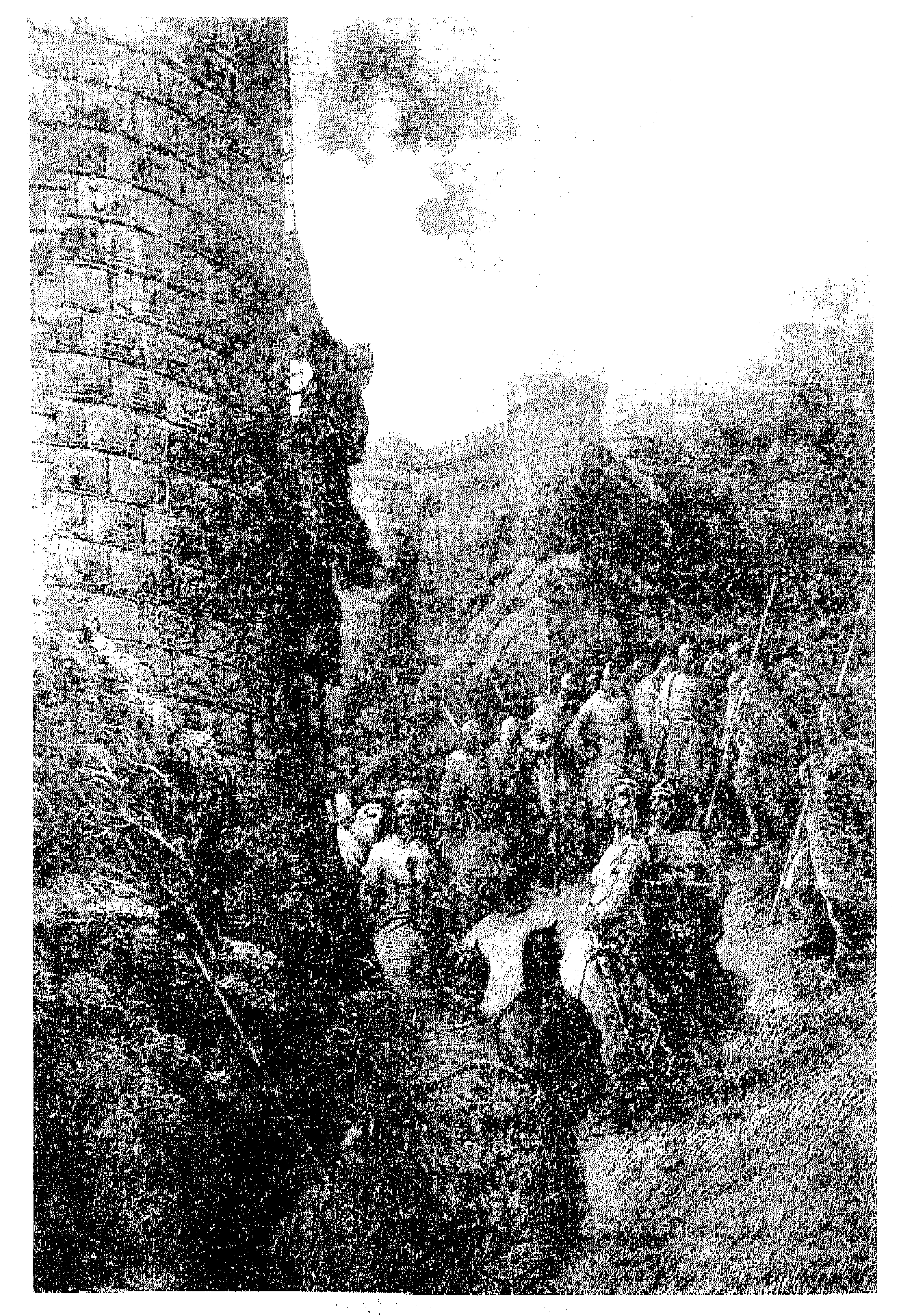
هـ- حصار أنطاكية*، ثم سقوطها:

وصلت طلائع الغزو الصليبي أمام أسوار أنطاكية في شهر شعبان 490هـ/تشرين اول 1097م[180]، فأثار وصولها إلى أطراف الشام موجة من القلق، والخوف في نفوس الناس، وذلك بما شاع عنهم من قسوة وهمجية، يضاف إلى ذلك ضخامة جموعهم وعدتهم، وقد أشار إلى ذلك ابن القلانسي بقوله: [181](في عالم لايحصى عدده كثرة، وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعهم، وانزعجوا لاشتهارها).

ومع ذلك فقد دهش الصليبيون أنفسهم واشتد خوفهم حينما شاهدوا حصانة المدينة، ومنعة أسوارها، التي ليس من السهل اقتحامها، وليس من أمل للظفر بها سوى طريقين هما التجويع، أو الخيانة، وقد حاول الصليبيون في الإسلوبين معا[182]، أمّا ياغي سيان، أمير أنطاكية، الذي كان خارجها عند اقتراب الصليبيين منها فأدهشه الخبر فخف (إلى أنطاكية، وسير ولده إلى دمشق إلى الملك دقاق، وإلى جناح الدولة بحمص، وإلى سائر البلاد والأطرف بالاستصراخ، والاستنجاد، والبعث على الخفوف إلى الجهاد، وقصد تحصين أنطاكية)[183].

حاول الصليبيون إحكام الحصار على المدينة، فنزل بوهمند بقواته في الجبهة الشمالية الشرقية من المدينة قبالة باب بولص[184]، (St. paull) الذي يؤدي إليه الطريق القادم من الجسر الحديدي وحلب[185]، وعلى يمينه بقية النورمان، أمّا أمير فرماندوا، وستيفن أمير بلوا، وروبرت أمير نورمندية وروبرت أمير فلاندر، فقد عسكروا في المنطقة المواجهة للأسوار بين باب بولص وباب الكلب، في حين عسكر ريموند ومعه المندوب البابوي في الجبهة الغربية

من باب الكلب، أمّا جودفري بوايون فرابط بقواته في الجبهة الشمالية الغربية من مدينة أنطاكية في مواجهة باب الجنينة[186].



THOMAS ASBRIDGE: THE FIRST CRUSADE

الحملة الصليبية الأولى

أمَّا البوابتان الأخريان (الجسر وبوابة جورج) فقد ظلتا خارج سيطرة الصليبيين التي فرضوها على المدينة، ومن باب الحيطة والحذر لم يقدموا على تقسيم قواتهم في وقت مبكر من الحصار، وإرسال قسم منها عبر نهر العاصي للسيطرة على البوابتين المذكورتين(187).

ثم عمل الصليبيون على إقامة جسر من السفن عبر النهر من معسكر جودفري إلى قرية تدعى (تالنكي) على الضفة الثانية حيث توجد هناك مقبرة المسلمين، وبواسطة هذا الجسر تمكنوا من الطريق المؤدي إلى الإسكندرونة والسويدية، ثم أُقيم معسكر شمال النهر(188).

أهمل الصليبيون من المدينة الجزء الذي تحميه الجبال الوعرة، وكذلك تركوا الجانب الغربي من المدينة الذي يحميه النهر، ولذلك أعطي لسكان المدينة حرية الاتصال، والحصول على الاغاثة أو طلب النجدة(189).

كان السريان والأرمن يمثلون الأكثرية من بين سكان أنطاكية(190)، ويبدو أن هؤلاء النصارى ولاسيما الأرمن - قد أظهروا ميلاً كبيراً إلى جانب الغزو، ليس في أنطاكية فحسب، وانما في عموم الجزيرة، وبلاد الشام كما تقدم، مما دفع أمير أنطاكية إلى أن يتصرف بحذر كبير تجاه عددٍ منهم ممن يشك في ولائهم إذ: (خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم، وأمر بحفر الخندق ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً ليس معهم مسلم.. فلما أرادوا دخول البلد منعهم.. وحفظ ياغي سيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم، وكف الأيدي المطرقة اليهم) (191).

هذه رواية المصادر العربية عن موقف سكان أنطاكية من النصارى، أمَّا الروايات الغربية فقد ذكرت أن (الأرمن والسريان الذين كانوا داخل المدينة قد دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار، وكانوا موجودين بيننا كل يوم، بينما بقيت نساؤهم في المدينة، وكان عادتهم أن يتقصوا حالنا وخبر موقفنا ثم يحملون كل شيء إلى اؤلئك المحاصرين.. فلما ألم الترك كل الالمام بجميع ما يتعلق بنا، ووقفوا على خبرنا شرعوا يغادرون المدينة شرذمة شرذمة، ومضوا يحدقون بحجاجنا) (192)، وفي رواية وليم الصوري أنَّ المسيحيين استفسروا من الصليبيين عن أهدافهم (وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة) (193).

وذكر مؤرخ آخر أن الأرمن الذين أخرجهم ياغي سيان من أنطاكية، كما قلنا سابقا، كانوا يقومون بدور الجواسيس (وكانوا يزورون مخيم الصليبيين، وطلبوا برجاء من بوهمند أن يضغط الحصار..) (194)، وذكر مؤرخ آخر أن عدداً منهم كان يحمل معلومات عسكرية إلى ياغي سيان(195).

وربما يفسر هذا التناقض في المواقف أن عدداً كبيراً من المسيحيين المحليين، ولاسيما السريان، قد ساورهم الشك فيما إذا كان البيزنطيون أو الصليبيون خيراً لهم من المسلمين؟

فأبدوا استعداداً لأداء الخدمة والتعاون مع ياغي سيان بأن يأتوه بخبر كل مايجري في المعسكر الصليبي[196].

ومهما يكن من أمر فإننا لانستطيع الحكم على ياغي سيان حول ذلك الموقف من النصارى المطرودين الذين أصبحوا وسطاً صالحاً للتجسس على المدينة، وتسريب المعلومات المهمة إلى الصليبيين عن ما يتعلق بتحصيناتهم ودفاعاتهم، مما سهل عليه معرفة مايدور خلف أسوارها.

وربما يكون عذر ياغي سيان في موقفه من النصارى، خشيته أن يكون هؤلاء ظهيراً لأعدائه الصليبيين من داخل المدينة، وعند ذاك تصعب معالجة الأمور، والذي يلوح من هذه الروايات التأريخية أن النصارى قد تنازعتهم الأهواء المتعارضة، فكانوا يراقبون الأمور عن كثب حتى يروا من المنتصر، وعندئذٍ ينضمون إلى جانبه.

هذه المواقف غير المستقرة، فضلاً عن حالة الفوضى والارتباك التي كانت تسود عموم الجبهة الإسلامية قد يسرت على بوهمند انتهاز الفرصة لإحكام السيطرة على مدينة أنطاكية، وللحيلولة دون حصول ياغي سيان على مساعدات عاجلة من جيرانه[197].

في المدة المبكرة من الحصار بدأت تنكشف تدريجياً نوايا بوهمند للانفراد بحكم أنطاكية، واتخاذها مقراً لإمارة نورمانية في الشرق، إذ رفض بوهمند مقترح ريموند الصنجيلي شن هجوم مباغت للاستيلاء على أنطاكية قبل أن يفيق المسلمون من حالة الاضطراب[198]، لأن أخشى ما كان يخشاه بوهمند هو أنه إذا سقطت المدينة بفضل الجهد المشترك للجيوش الصليبية فلن يكون في وسعه، مطلقاً، أن ينفرد بامتلاكها[199]، لذا حاول أن يكون الشخص المتميز بين القادة في القيام باتخاذ التدابير، ورسم الخطط للاستيلاء على المدينة، وقد حاول أن يوجه جهوده في الهجوم على المدن والقرى المحيطة بأنطاكية، خصوصاً في حوض نهر العاصي، علّه يحصل منها على ما يستطيع أن يمون به جيشه أثناء الحصار[200]، ذلك أن أمير أنطاكية أعد نفسه لحصار طويل، وشحن المدينة بالمقاتلين وادخر مؤناً كافيةً داخل أسوارها[201].

عندما علم ياغي سيان من خلال العيون التي بثها بين الصليبيين أن قادتهم لاينوون شن الهجوم على المدينة في الوقت الحاضر[202]، أخذ بالتحرش والتصدي للجماعات الصليبية التي تجوب المنطقة حول أنطاكية بحثاً عن العلف أو الحصول على المؤن[203].

ويبدو أن بوهمند أدرك خطر تسرب الأخبار إلى داخل أنطاكية من خلال عيون ياغي سيان المنتشرين بين صفوف الجيش الصليبي، لذلك حاول القضاء على هذه الظاهرة بقسوة، فقد أمر بوهمند بقتل السجناء المسلمين عنده، ثم أحرقت جثثهم بالنار أمامه، وأحضروا

كوجبة عشاء له ولجنوده، وطلب أشاعة هذا الخبر، فطارت القصة من فم إلى فم حتى إلى الأقاليم البعيدة [204]، ومن الواضح أن القصد من وراء ذلك هو الحد من انتشار المتسللين إلى داخل المعسكر، ومع ذلك فقد أشار عدد من المؤرخين الفرنسيين، أمثال لافيس، ولوشان بشيء من التبجح، والافتخار بمشاهدة الصليبيين يأكلون لحم بني آدم، الأمر الذي أيده جميع المؤرخين، شاهدوهم وهم يتغدون من جثث المسلمين، وأعترفوا أيضاً أن بوهمند كان يشوي الأسرى المسلمين ثم يدعو الحاضرين (صائحاً بوجوب اقناع الجوع من الموجود) [205].

في كانون الأول سنة 1097م (491هـ) أمسى الصليبيون يعانون من نقص حادٍ في المؤنة والتجهيزات، وبدأت أسعار المواد الغذائية بالارتفاع الكبير رغم الكميات المحدودة منها التي كانت تجلبها السفن الإغريقية إلى ميناء اللاذقية والسويدية، إلاّ أن المعاناة كانت كبيرة جداً، وفي ذلك يقول ابن الأثير (وأقام الفرنج.. ليس لهم ما يأكلونه وتقوت الأقوياء بدوابهم، والضعفاء بالميتة، وورق الشجر) [206]، هذا فضلاً عن وجود الكمائن الإسلامية في المناطق المجاورة، الأمر الذي جعل الاتصال بالموانئ محفوفاً بالمخاطر [207]، ومما زاد في تعاستهم، كثرة المصاعب التي كانوا يعيشونها نتيجة للأمطار والبرودة الشديدة [208].

هذه الحال دفعت الصليبيين إلى التفكير في البحث عن حل لهذا المأزق فقرروا ارسال حملة إلى المناطق الإسلامية المجاورة، وقد تولى بوهمند قيادة الحملة، وكان برفقته روبرت أوف فلاندر، وفي 13كانون الاول اصطدموا قرب البارة بعسكر دمشق الذي جاء لنجدة أنطاكية [209]، ومع أن النصر كان للمسلمين في بداية الأمر، إلاّ أن الجيش الصليبي بقيادة بوهمند تمكن من دحر المسلمين في نهاية المطاف [210]، فعاد الجيش الإسلامي إلى حماة، ورغم النصر المزعوم الذي ادعاه الصليبيون إلاّ أنهم أصبحوا عاجزين عن الخروج من أجل العلف والمؤن [211].

وهكذ أصبح الجيش الصليبي اليائس أمام أسوار أنطاكية يمر بمرحلة حرجة للغاية، مما دفع بوهمند إلى تنفيذ مشروعه من أجل الاستئثار بحكم المدينة، فإذا كان قد التزم بمعاهدة القسطنطينية فيما سبق، فإن مخططه الآن تجاه المدينة يمثل مرحلة أخرى في مشروعه الخاص الذي يستعبد معاهدة القسطنطينية جملةً وتفصيلاً [212].

وبعد أن مثل بوهمند دور البطل المنقذ للصليبيين، فاجأهم بعزمه على الرحيل والعودة إلى إيطاليا؛ لأنه لايرى جدوى في مواصلة حصار يائس، وعليه أن يبذل تلك الجهود في بلاده داخل إيطاليا [213]، وقد أربك بهذا النبأ الصليبيين الذين وجدوا فيه الرجل الذي لايمكن الاستغناء عنه، فأسرع القادة الصليبيون، باستثناء ريموند، إلى رجاء بوهمند ليستمر معهم في حصار أنطاكية، بإذلين له الوعود بتسليمه المدينة حين الاستيلاء عليها [214].

هكذا وقع الزعماء المذكورون في شباك بوهمند؛ لأن الكثيرين من أفراد جيش الرب قد تسللوا هاربين، أمثال: استيفن كونت بلو، وبطرس الناسك الداعية المفوّه[215].

بعد هذا الفوز الذي حققه بوهمند بدأ فوراً بتنفيذ الشوط الثاني في سياسته، وهو التخلص من ممثل الإمبراطور (تاتيكوس)؛ لأنَّ إبعاده يمثل فرصه طيبة أمام بوهمند للتنصل من اتفاق القسطنطينية أمام الامبرطور، ولو أن الروايات حول سبب رحيل تاتيكوس كثيرة ولكن لابأس من قبول القصة التي رواها بعد عودته إلى القسطنطينية، والتي ملخصها أن بوهمند قد استدعاه حينما شاع الخبر بأن المسلمين يحاولون مرة ثانية أن يرسلوا جيشاً لنجدة أنطاكية، فأخبره أن القادة الاخرين يعدون الإمبراطور مسؤولاً عن تشجيع المسلمين، وأن القادة الصليبيين ينوون اغتياله، فأعلن تاتيكوس أنه لابد من عودته إلى القسطنطينية، وبذلك أخذ بوهمند ودعاته يذيعون أن ممثل الإمبراطور فَرَّ جبناً أو بدافع الخيانة[216].

وعلى أية حال فإن الروايات التي تناولت انسحاب ممثل الإمبراطور كثيرة، فمنها ما ينسجم مع محتوى هذه القصة، ومنها مايباينه تماماً، ولكن النتيجة الثابتة أنه عاد بحاميته تاركاً جيوش الصليبين أمام أنطاكية[217].

وهكذا ووسط هذه الأزمة بدت تصرفات وتحركات بوهمند مثار شكوك، لأنها طافحة بالخفايا، وراح بوهمند يجمع القادة، ويطلب منهم أن يؤدوا يميناً صادقاً يعدونه فيه بأن الرجل الذي يحتل المدينة أولاً سيكون حاكمها المستقبلي، وبناءً على ذلك فقد كشف لهم سراً، أنه كان على اتصال بأحد أمراء[218] حاميات المدينة ممن يثق فيه ياغي سيان ثقة كبيرة، ونتيجةً لذلك فإنه قادر على أن يدخل المدينة، ويستولى عليها متى شاء[219]، ويبدو أن بوهمند أخذ يحيك مع فيروز خيوط تلك المؤامرة بسرية تامة، وهذا ما أشار إليه أحد شهود العيان بقوله[220] (لايمكنني أن أقص كل ما فعلناه قبل استيلائنا على أنطاكية ولايستطيع أحد، إكليركياً كان أو علمانياً، أن يكتب أو يروي كيف جرت الأمور).

في سنة 491هـ/1098م وجه رضوان صاحب حلب جيشاً لاسترداد مدينة حارم التي استولى عليها الصليبيون، وذلك تمهيداً لمهاجمة الصليبين أمام أنطاكية[221]، إلاّ ان الصليبيين أجبروا قوات رضوان على التراجع نحو حلب، واستردوا مدينة حارم، وأحبطوا محاولة لعددٍ من قوات ياغي سيان التي استغلت الفرصة للهجوم على المعسكر الصليبي من داخل أنطاكية، وبذلك تمكن بوهمند من أن يشدد الحصار مجدداً على مدينة أنطاكية[222].

وفي نفس الشهر وصلت إلى الصليبيين أمام أنطاكية سفارة مصرية من قبل الفاطميين للتفاوض مع الصليبيين حول مستقبل العلاقات بين الطرفين[223].

ويبدو أن الصليبيين قد لجؤوا إلى الوسائل الدبلوماسية في الرد على السفارة، فعادت

دون جواب قاطع[224]، كسباً للوقت لكي يفرغوا من موضوع الاستيلاء على أنطاكية، بعد أن ترامت إلى مسامع الصليبيين أنباء زحف كربوقا لنجدة أنطاكية[225].

أكد الصليبيون مجدداً استعدادهم لإعطاء أنطاكية إلى بوهمند، فقد ذكر صاحب أعمال الفرنجة أنه (إذا قدر لبوهمند التغلب على المدينة وحده أو بمعونة الآخرين فعلينا أن نوليه إياها عن طيب خاطر)[226]، إلا أن ريموند كونت تولوز رفض ذلك مدعيا التزامه باتفاقيه القسطنطينية، غير أن بوهمند لم يحفل كثيراً برفض ريموند؛ لأنه قد وضع يده على مصير المدينة من خلال اتفاقية سرية مع أحد قادة ياغي سيان المدعو فيروز، وقد وصف صاحب أعمال الفرنجة تلك المؤامرة بقوله: (فلما وثق بوهمند من دخوله المدينة انشرح صدره، واطمأنت نفسه، ثم جاء إلى السادة الآخرين ثابت الجنان وقال لهم مستبشرا: أيها الفرسان الفطنون عليكم ان تتبصرو المترية والشقاء اللذين نحيا فيهما صغاراً وكباراً، ولاندري من أين تأتينا النجدة، ومن ثم فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يقدم أحدنا فيرشح نفسه، ويتقدمنا جميعاً، فإن مكنته إحدى الوسائل أو براعته من الاستيلاء على المدينة، أوشن الهجوم عليها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الرأي ان نملكه إياها ..)[227].

وفي أول رجب 491هـ/2 حزيران 1098 م، جاءت اللحظة الحرجة التي قرر فيها بوهمند تسلق أسوار أنطاكية بعد أن أرسل إليه فيروز من يخبره باستعداده انجاز الوعد السري الخاص بتسليم المدينة[228].

عندئذ أعلن بوهمند للقادة الصليبيين جوهر خطته، وأصدر توجيهه بأن تتظاهر الجيوش الصليبية بالابتعاد عن أسوار المدينة، والتوجه نحو الخارج للتهيؤ لمواجهة قوات كربوقا التي أصبحت على مقربة من المدينة، ففي الصباح ابتعدت الجيوش عن المدينة إلى حيث أمر بوهمند، وعند حلول المساء أصدر أوامره بعودة القوات تحت جنح الظلام إلى أسوار المدينة، والتوجه إلى الطرف الغربي من السور حيث يتولى فيروز الحراسة، فهناك سلالم معدة للصعود إلى البرج المتفق عليه مع فيروز[229].

وذكر صاحب الملحمة (أنشودة أنطاكية) وهو من شهود العيان على فتح أنطاكية، أن فوشية اليتيم كان أول من تسلق السلالم، بعد أن رفض بوهمند أن يفعل ذلك، معلناً للحاضرين أنه لن يغامر بتعرض نفسه للهلاك (لوكان البرج كله من ذهب)[230].

وهكذا تم تسلق الأسوار، وسقطت أنطاكية في يد الصليبيين- ما عدا قلعتها- وذلك في جمادى الأولى 491 هـ / 3 حزيران 1098م[231].

ولقد تصرف الصليبيون إزاء سكان أنطاكية المغلوبين على أمرهم بهمجية معهودة لهم، لاحدود لها، وبذلك عكسوا وبوضوح الروح العدائية للمجتمع الغربي فسالت الدماء أنهاراً،

وقتل من الناس (ما لايدركه حصر)[232] (ولم ينج من القتل سوى من تهيأ لهم الفرار)[233]
وقال أحد كبارالقسس (مامن جريمة فظيعة، وما من نهب مريع، وما من فعلة مخجلة إلا ارتكبوها)[234] وقتلوا (كل من وقع نظرهم عليه)[235] فغطيت الأرض بالأجساد الميتة، وسالت الدماء كسيول في الشوارع[236]، ويقول لوبون: (يدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة)[237].

فتبع ذلك كل ما عرف من رعب وهلع أثناء القرون الوسطى[238]، هذه المجازر أسفرت عن حالة من الإحباط لدى حكام المدن المجاورة[239]، وأدتّ إلى بروز موقف المهادنة تجاه الصليبيين، بينما كان تأثير سقوط أنطاكية في الغرب على العكس تماماً بالنظر لأهمية المدينة الدينية والاقتصادية والستراتيجية[240].

أمًا عن أمير أنطاكية الذي فوجئ بسقوط مدينته، فتسلل خارج أسوارها مع بعض خدمه، حيث لقي مصرعه عند مطلع النهار[241].

ويمكن القول إن سقوط أنطاكية كان نتيجة طبيعية لانقسام المسلمين وتشتت شملهم، وبذلك تيسر للصليبين مواصلة طريقهم نحو هدفهم الأشمل في فلسطين.

و- قيام إمارة أنطاكية الصليبية

كانت الجيوش الإسلامة غداة سقوط أنطاكية تزحف نحوها لنجدتها، ولكن بعد فوات الأوان، وكان على الصليبيين في الوقت نفسه، التهيؤ لمواجهة الموقف الجديد، وموارات جثث الآلاف من الموتى خوفاً من انتشار الوباء[242].

نزلت جيوش المسلمين على أنطاكية بقيادة كربوقا حاكم الموصل ومعه مجموعة من أمراء المسلمين (ممن ليس مثلهم)[243]، وأحكموا السيطرة على المدينة، وولى كربوقا أحمد بن مروان على قلعة أنطاكية، بدلاً من شمس الدين بن ياغي سيان[244]، (فحصروهم حتى عدم القوت عندهم، حتى أكلوا الميتة)[245].

وقد أوفد الصليبيون إلى الإمبراطور الكسيوس طالبين منه المجيء لنجدتهم ومساعدتهم ضد كربوقا، فخرج الإمبراطور فعلاً بجيوشه رغم نصيحة عدد من مستشاريه بعدم المغامرة؛ لأن قوات المسلمين في آسيا الصغرى قادرة على تهديد هذا الزحف[246].

وفي أثناء سيره بلغته أنباء مفادها انهيار الجيوش الصليبية أمام أنطاكية، فازداد خوفه، واقتنع بعدم جدوى تدخله فآثر العودة بقواته، وشاعت بين الصليبيين أنباء عودته دون أن يبادر إلى نجدتهم مما زادهم بذلك كراهية له[247].

ولشدة الهجمات التي كان يشنها المسلمون على الجيوش الصليبية اضطروهم (فبنوا

سورا على بعض الجبل يمنع المسلمين من النزول إليهم) [248]، وإلى ذلك أشار عدد من المؤرخين الأوربيين إلى أن أنطاكية بعد حصار سبعة شهور كادت تهرب من أيدي المسيحين[249].

لذلك أصبح النصر وشيكاً، وعظم خوف الفرنج (حتى طلبوا من كربوقا أن يطلقهم فامتنع) [250]، إلاّ أن ذلك النصر المحقق سرعان ما ذهب أدراج الرياح حين (أساء كربوقا السيرة في من معه من المسلمين، وأغضب الأمراء، وتكبر عليهم، واضمروا له في أنفسهم الغدر) [251].

وفي الوقت نفسه أدت الظروف الحرجة التي عاشها الصليبيون آنذاك إلى ظهور الشائعات والمزاعم بينهم، ومن ذلك قصة العثور على الحربة المقدسة التي اخترقت جنب السيد المسيح (ع)، وادعى شخص اسمه (بطرس بارثولوميو) رؤية السيد المسيح عليه السلام، ومن الواضح أن هذه المزاعم الخيالية كان القصد منها رفع الجوانب المعنوية للجيوش الصليبية للخروج من وضعها الحرج[252].

هذا الوضع اليائس دفع الصليبيين لمواجهة مصيرهم المحتوم، (ثم زحفوا وهم في غاية من الضعف إلى عساكر الإسلام، وهم في غاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين، وخرقوا جموعهم) [253]، فأخذوا يتعقبون عساكرهم، فقد ذكر شاهد عيان عن الصليبيين قائلاً: (فما زالوا يقتلونهم حتى غروب الشمس) [254].

هذه الهزيمة فتت في عضد المسلمين فعاد كربوقا إلى الموصل، وتفرق بقية الأمراء، أمّا أحمد بن مروان، المسؤول عن القلعة، فقد أدرك عدم جدوى المقاومة (فراسله الفرنج وأمنوه ومن كان معه، وسلمها إليهم يوم الأحد الثاني من شعبان من السنة[491]) [255].

إنّ استيلاء الصليبيين على أنطاكية وقلعتها بعد حصار طويل، وهزيمة الجيوش الإسلامية، التي جاءت لنجدتها، يمثل مرحلة جديدة وهامة في تاريخ الغزو الصليبي، فقد اتضح عجز القوى الإسلامية بوضعها الراهن، آنذاك، عن مواجهة وصد الجيوش الصليبية، كما إن الطريق إلى بيت المقدس أصبح ممكناً؛ لأن أنطاكية تمثل مفتاح الشرق[256]، بل إنها (عاصمة بلاد الشام قاطبة) [257]، و (ملكة الشرق) على حد قول عدد من المؤرخين[258].

بعد هزيمة كربوقا خيم الهدوء المؤقت على أنطاكية، لتبدأ الأزمة الداخلية بين القادة الصليبيين أنفسهم وتدور هذه الأزمة حول مستقبل المدينة، أي من سيفوز بإمارة أنطاكية من القادة، فبوهمند الذي خطط لهذا الأمر بدهاء وحكمة اصطدم بالجناح المعارض الذي يتزعمه ريموند الصنجيلي، الذي تعلل بأن بوهمند لايمكنه التنصل من يمين الولاء الذي أقسمه للامبراطور[259].

ومع ذلك فقد تمكن المندوب البابوي ادهمار من إقناع الصليبيين بارسال سفارة إلى الإمبراطور، ومن ثم الانتظار للراحة حتى أوائل تشرين الثاني 1098م (492هـ)، لأجل تسوية مشكلة أنطاكية[260]، وقد احتوت الرسالة على مطلبين أساسيين، حضور الإمبراطور لاستلام أنطاكية، اولاً، وأن يكون على رأس حملة بيزنطية لمساندة الصليبيين في الزحف على بيت المقدس ثانياً، إلاّ أن تلك السفارة تعرضت في طريقها لعدد من المصاعب فتأخر وصولها، الأمر الذي جعل الإمبراطور يؤجل تلبية مطالبها حتى مطلع الربيع القادم[261].

ويبدو أن جهود بوهمند وخططه لم تذهب سدى، وأن الدور الذي قام به في تحقيق النصر قد دفع الجند إلى أن يطلقوا عليه لقب (أمير أنطاكية)[262] وبدأت تثار علناً مسألة مصير أنطاكية، لاسيما بعد أن شاع بين الصليبيين تقاعس الإمبراطور البيزنطي عن مد يد العون لهم[263].

ومما رجح كفة بوهمند أنه احتل القلعة أول الأمر ومعه ريموند وجود فري وروبرت فلاندر، وضع يده على الأبراج المهمة، ثم تمكن من طرد أنصار زملائه من الأبراج، والراجح أن تصرف بوهمند هذا قد حظي بتأييد كل من روبرت وجودفري، مما أوهن موقف ريموند المعارض الذي ثارت ثائرته، وكان رده أن انفرد بالسيطرة على الحصن المنيع وقصر ياغي سيان، إلاّ أنه سرعان ما أقعده المرض فخمد نشاطه، ولم يلبث ادهمار أن وافاه الأجل نتيجةً للوباء الذي عم المدينة، وكان من نتائج الأزمة أن فضل كثير من الصليبيين أن يتم الوفاق بين ريموند وبوهمند[264].

وكان من معالم ميل الكثيرين إلى جانب بوهمند، أن مدّعي النبوءات قد تحول لمساندة بوهمند، وذلك بادعائه نبوءة جديدة مفادها أن المندوب البابوي المتوفى الذي لم يصدق نبوءته الأولى حضره في الرؤيا فأبلغه أنه سينال عقاب عدم تصديقه لتلك النبوءة وأن الرجل الصالح الذي يمكن أن يدعو له هو بوهمند[265].

وقد جاءت هذه النبوءة الجديدة تدعيماً لموقف بوهمند، أي إن بطرس الناسك ورفاقه من البروفنساليين من اتباع ريموند الصنجيلي قد وافقوا ضمناً على زعامة بوهمند لأنطاكية، مقابل مساعدة بوهمند لزحف الجيوش الصليبية صوب القدس، والكف عن الآمال التي باتت متأرجحة في معونة البيزنطيين[266].

وهكذا سارت الأمور بما يخدم مآرب بوهمند، وبدأ يتصرف باعتباره الحاكم الأوحد للمدينة، فمنح عدداً من التجار الجنويين امتيازات تجاريه في أنطاكية من أجل كسب المؤيدين وتدعيم موقفه[267].

بوهمند الذي أحس بقرب تحقيق مشروعه أراد أن يوثق أعماله في إطار جديد يعلم

نتائجه مسبقاً، فأخذ يحث الصليبيين على ضرورة الاتصال بالبابا، عارضين عليه الحضور إلى أنطاكية، وبذلك يقطع الطريق أمام دعاوى الإمبراطور في المطالبة بتسلم المدينة، وكان الالتماس الموجه إلى البابا عبارة عن دعوة لتسليم مقاليد كنيسة القديس بطرس؛ لأنَّ بوهمند يعلم سلفاً استحالة مجيء البابا إلى أنطاكية [268].

ومن دون اكتراث بمعارضيه أخذ بوهمند يروج لحقه في زعامة أنطاكية، ففي مطلع تشرين ثاني 492هـ/1098م عقد الصليبيون مجلساً في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية لتدارس الموقف حول مصير المدينة، حين أعلن أصدقاء بوهمند أن هذه المدينة يجب أن تكون من نصيب صاحبهم، وذلك لطول باعه في نجاح الصليبيين في الاستيلاء عليها، وصد الهجمات عنها، بينما اعترض ريموند الصنجيلي مذكراً القادة بما أقسموا عليه أمام الإمبراطور [269].

وهكذا تسربت انباء الخلاف الذي ساد المجلس إلى خارج الكنيسة، حيث جموع الصليبيين الذين كانوا ينتظرون صدور القرار بالزحف إلى بيت المقدس، فخيبت نتائج الاجتماع آمالهم، وسادت حالة من الهياج، فوجه المتجمهرون انذاراً إلى المجتمعين، أعلنوا فيه استنكارهم لسلوك ريموند وبوهمند [270]، وقد جاء في الإنذار (ولنترك من أراد أن ينعم بموارد أنطاكية أن يفعل ما يشاء لنترك أولئك الذين حرصوا على أن ينالوا من الإمبراطور المنح والهدايا ينتظرون قدومه، أمّا هم فسيسيرون إلى البيت المقدس [271])، وهدد الجنود بهدم أسوار المدينة إذا استمر التشاحن على امتلاكها، وذلك قبل سيرهم إلى البيت المقدس [272].

ويبدو أن عامة الجند انحازوا إلى ريموند عندما تأكدت لهم مطامع بوهمند في أنطاكية، وعرضوا عليه حسماً للموقف ان يتولى القيادة العليا لجيوش الغزو المتوجهة إلى فلسطين، فرأى ريموند في ذلك العرض فرصة طيبة، وبادر إلى قبولها مشترطاً بقاء حامية من رجاله في أنطاكية لمنع بوهمند من الانفراد بحكمها [273] ثم قرر الصليبيون أن يكون زحفهم نحو فلسطين في شهر تشرين الثاني 1098م/492هـ [274]. ولكن بوهمند تمكن بعد خروج منافسه من طرد اتباعه، وأنفرد في حكم المدينة [275] وبذلك قامت ثاني إمارة صليبية في الشرق، وبدأ بوهمند بتنفيذ مشروعه الكبير الذي يتمثل في تأسيس إمارة كبرى يكون مقرها مدينة أنطاكية، غير مكترث، بما يدور من جدل حول الحقوق التاريخية للإمبراطور البيزنطي في أنطاكية.

وقد تعاقب على حكم إمارة أنطاكية الصليبية منذ قيامها حتى زوالها، اثنا عشر أميراً، فضلاً عن حقب الوصاية التي شغلها عدد من الأمراء، أو ملوك بيت المقدس*.

هوامش الفصل الثاني

1- نظر ص 89.

2- أرنست باركر: الحروب الصليبية: ترجمة الدكتور السيد الباز العريني. طبعة ثانية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1967. ص13.

❖ تجدر الاشارة هنا الى ان مصطلح (الحركة الصليبية) لم يستخدم من قبل معاصري تلك الحروب، فقد اطلق عليها في العصور الوسطى تسميات اخرى، كالارتحال، والحملة، والتجوال، والطريق الى الارض المقدسة، السير على درب الرب، الا حين استخدمه المؤرخ الفرنسي لويس ممبور مسميا بحثه (تاريخ الحروب الصليبية) وذلك عام 1675م. وفي المانيا استخدمه بعض المؤرخين مثل ليسنغ.

انظر: ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق. ترجمة الياس شاهين دار التقدم (موسكو1986)، ص13، 14؛ قاسم عبده قاسم (دكتور): ماهية الحروب الصليبية. (الكويت 1990)، ص11، 12.

3- اسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص9.

4- Jonathan Rily– Smith: What Were The Crusades. (London 1977) P.11.

5- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص94.

6- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص173.

7- عاشور، سعيد عبد الفتاح (دكتور): تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، 1972، ص34

8- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص95

9- فهمي توفيق مقبل، (الدكتور): الفاطميون والصليبيون(بيروت 1980) ص36.

10- Mayer (H.F):The Crusades: (Trans by Jone Gillingham, Oxford University 1972) P.5.

11- حلمي، كمال الدين (دكتور): السلاجقة في التاريخ والحضارة(الكويت 1975)، ص40.

12- ابو سعيد، حامد غنيم (دكتور): الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية، طبعة ثانية دار الثقافة(القاهرة، 1984) ج1، ص42.

13- عاشور: تاريخ العلاقات، ص35.

14- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ص70

15- عبد الرحمن بن محمد (ت:808 هـ/ 1405م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر. مؤسسة الإعلامي للمطبوعات (بيروت 1391هـ/ 1971م). ج4، ص1015.

16- Gibb: The Damascu chronicle of crusades (London 1957) P. 14.

17- خليل عماد الدين (الدكتور): عماد الدين زنكي، مطبعة الزهراء (الموصل 1406هـ/ 1985م)، ص135.

18- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص1؛ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن محمد بن علي (ت:579 هـ/ 1200م): المنتظم في تاريخ الملوك والامم، الدار الوطنية، (بغداد 1990)، ج7، ص47؛ ابن ظافر، جمال الدين علي: اخبار الدول المنقطعة: تحقيق الفريد به، القاهرة، 1972، ص10.

19- المعاضيدي، خاشع (الدكتور): الحياة السياسية في بلاد الشام، ط1، دار الحرية بغداد، 1975، ص22.

20- ابن الجوزي: المنتظم، ج8، ص291.

21- Runciman: The first crusade (is setton A History of the crasades , Vol , 1, P. 316;

العريني: الشرق الادنى، ص11.

22- Mayer: The crusades, P. 5.

23- العريني، السيد الباز: الشرق الادنى في العصور الوسطى (بيروت. 1963) ص11، 12.

24- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص86.

❖ البشناق: وهم فصائل من بقايا القبائل البربرية في اوربا الذين لاقوا الكثير من العنف والويلات لانهم وقعوا بين شقي حضارتين مندفعتين هما: الحضارة الغربية والحضارة البيزنطية الشرقية، فكان رد فعلهم ازاء هاتين الحضارتين هو رفض اعتناق المسيحية الكاثوليكية الغربية والارثذوكسية الشرقية وقبولهم العقيدة الهوميلية التي نشأت اول الامر في طراقيا اليونانية وفي بعض اجزاء بلغاريا التي تؤمن ان الله قد خلق الخير والشر وان الخير مجسد في السيد المسيح واما الشر فيتمثل في الشيطان وان العالم باسره بما فيه الانسان من خلق الشيطان الذي تمرد على الله لذا حاولت هذه القبائل صب جام غضبها على الحضارتين ثم ان قبائل البوشناق اتصلت بالعثمانيين بعد توغلهم في اوربا واعتنقوا ديانتهم اي انهم اصبحوا مسلمين وهجروا عقيدتهم الهوميلية. انظر: محي الدين اسماعيل توبني: منهج التاريخ وفلسفة التاريخ، ص76.

25- اليوسف، عبد القادر: الامبراطورية البيزنطية (بيروت 1969) ص141، 143- 144.

26- المصدر نفسه ص 144- 145.

27- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 112.

28- عاشور: تاريخ العلاقات، ص 53.

29- Grousset: Hist. De L. Armenil(Paris, 1947) P. 554.

30- C. M. H. Vol, 2 , P. 260.

31- عاشور: تاريخ العلاقات، ص54، 55.

32- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 278.

33- بول اميل: تاريخ ارمينيا، ترجمة شكري علاوي. مكتبة الحياة (بيروت. د. ت) ص 31.

34- العريني،: الشرق الادنى ص12.

35- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 297.

36- Matthieu, de Edesse, OP.Cit, P. 35;

نقلا عن: عامرة علي الحمد : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وامارة انطاكية الصليبية، ص134.

❖ كيسوم: من اعمال سيمساط، وصفها ياقوت بانها قرية لها سوق وبها دكاكين ولها قلعة على قمة تل. انظر معجم البلدان ج4، ص497.

❖❖ رعبان: مدينة بين حلب وسيمساط قرب الفرات، تعتبر من مدن العواصم، ولها قلعة تحت الجبل. ياقوت: معجم البلدان ج3 ص51.

37- كاهين، كلود : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية. ترجمة احمد الشيخ (القاهرة 1995) ص25.

38- Mary: The crusades, OP.Cit, P. 2.

39- كلود كاهين: الشرق والغرب، ص 56.

40- مرتضى الشيخ حسين: الحروب الصليبية وعبرها في كفاحنا ضد الصهيونية، مجلة افاق عربية، السنة الخامسة، العدد (1)، (1979)، ص82.

41- المصدر نفسه: ص 82.

42- ج. كرمب وإ.جاكوب: تراث العصور الوسطى، راجع الترجمة، محمد بدران و محمد مصطفى زيادة، مؤسسة سجل العرب 1965. ج1، ص 10 – 13.

43- Painter(S.): Western Europe on the eve of the crusades (in the setton(ed) A Hist. of crusades, Voil, 1, P.3.

44- Southren(R.WO: The making of the middle Ages PP. 74 - 75.

45- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص63.

46- المصدر نفسه ص63.

47- Painter: Westren Europe. P. 6.

48- Southren: The making of the middle Ages PP. 96-97.

49- Henry pirenne: A History of Europe. PP. 59 – 60.

50- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص 65.

51- Painter: OP.Cit. P. 7.

52- العدوي: ابراهيم احمد (دكتور): المجتمع الاوربي في العصور الوسطى دار المعرفة، ط1 (القاهرة، 1961). ص 124.

53- اوردت الانشودة شيئا من الحوار الذي دار بين احد السادة وتابعه، اذ رفض التابع ان يتسلق سيده السلالم، عشية سقوط انطاكية، ويعرض نفسه للخطر وانه(اي التابع) اولى بذلك من اجل صيانة حياة سيده، واوردت الملحمة شيئا من الحوار كالتالي: (وقال فوشيه[التابع] للكونت روبي [السيد] «سيدي اسمع كلامي: انت ابن القديس جرجس وهكذا يدعونك الناس،

فاذا اضعناك سنخسر خسارة عظيمة

اما انا فاذا مت فلا احد يبكيني، لأنني يتيم،

ساطلع على السلم النبيل ويسوع يساعدني...»

انظر: انور حاتم: شهود العيان على فتح الصليبيين انطاكية، مجلة المشرق مجلد 32، (بيروت 1943)، ص 195.

54- Merit Student, Encyclopedias, Vol , 5 , P. 351 ؛

عاشور: تاريخ العلاقات، ص 17.

55- باركر: الحرب الصليبية، ص 9؛ ارنولد توييني: مختصر دراسات التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، ج3، ص347.

56- Thompson: Economic and social History, of the middle Age (London 1969) Vol , 1, P. 365.

57- نيقولا زيادة: سوريا في زمن الصليبيين، مجلة المقطتف، 78[القاهرة، 1935] ص195.

58- Thompson: OP.Cit VOl , 1 , P. 355.

59- عاشور، سعيد عبد الفتاح (الدكتور): اوربا العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، ط3 (القاهرة 1964)، ج1، ص39، 194، 643، 649.

60- Thompson: OP. Cit vol, 1, P. 391.

61- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص 34، 35.

62- عاشور: تاريخ العلاقات، ص21.

63- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص27– 28.

64- Krey(A.): The first crusades (prinnceton 1958) , PP. 30– 33.

محمد عمارة: معارك العرب ضد الغزاة (بيروت، 1975) ص21.

65- William of Tyre: OP.Cit, Vol, 1 , PP. 85 , 86.

66- قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص 82، 83.

67- Fulcher de charters: Ahistory of expeditions to Jer usalem (Trans, by Frances Rita Ryan 1969) P. 62.

68- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 163، 164، 229.

69- العابد: صالح (الدكتور): الحروب الصليبية بواعثها ودوافعها الممهدة، بحث منشور في مجلة المورد، مج16، العدد الرابع، سنة 1408 هـ / 1987م، ص7.

70- James Harvey Robinson: An introduction to the History of western Europe(Boston, 1907) PP. 107 – 108.

71- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص42.

72- Mark Block, Feudal Society: Trans from Franch, by L.A. Manyon (London, 1961) PP. 296 – 299.

73- عاشور: الحروب الصليبية، ج1، ص42.

74- عاشور: تاريخ العلاقات، ص23.

75- العابد: الحروب الصليبية، ص13.

76- Pernoud(R.): The crusades (London, 1963) P.1.

77- James Harvy Robinson: An Introduction to the History of western Europe, P. 189.

78- Warren. O.Ault: Europe in the middle Ages(Boston 1967)P. 37.

79- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص77.

80- ول ديورنت: قصة الحضارة، (القاهرة، 1965) م4، مج4 ص13- 14.

81- Kureger: The Italian Cities and the Arab before(In setton A History of crusades), Vol , PP. 51 – 52.

82- العبادي، احمد مختار (دكتور) وسالم، السيد عبد العزيز (دكتور): تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام (بيروت 1972) ط1، ص 175؛ ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط من(500 – 1100) ص 383.

83- باركر: الحروب الصليبية، ص 19، 20.

84- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص 19، ص20.

85- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 161.

86- عاشور: تاريخ العلاقات، ص89.

❖ بطرس الناسك (Peter the Hermit) داعية الحملة الصليبية الاولى ولد سنة 1050م وتوفي في 8 تمز 1115م بالقرب من منطقة هوي، ولقد ذكر الكثير من القصص الخيالية حول بداية حياته، وعرف بملابسه الرثة وامتطائه لحماره اثناء تجواله في اقطار اوربا يدعوها الى شن الحروب الصليبية ضد المسلمين انظر:

Americana Encyclopedia(U. S. A 1962) Vol , 21 , P. 661.

87- عاشور: تاريخ العلاقات، ص 89، 90.

88- باركر: الحروب الصليبية، ص 23.

89- فشر، هـ. أ. ل: تاريخ اوربا (العصور الوسطى) القسم الاول، ترجمة محمد مصطفى زيادة وزميله، (القاهرة، 1966)، ص181.

90- Merit student: Encyclopedia, Vol , 5, P. 35.

91- لوبون، غوستاف (الدكتور): حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار احياء التراث العربي، ط3 (بيروت، 1979)، ص 396.

92- باركر: الحروب الصليبية، ص23.

93- المصدر نفسه، ص 25.

94- للمزيد، انظر: رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص195– 205.

95- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 182.

96- انتوني ويست: الحروب الصليبية. ترجمة محمود نديم، (بغداد، 1967)، ص44.

Keer, Anthony J.C: The crusades(Great Britain 1966) PP. 21– 22

97- Runciman: The first crusades, constantinpol to Antioch, in setton: A History of the crusades, Vol, 1, P. 281.

98- مجهول: اعمال الفرنجة، ص19.

99- Runciman: op. cit, p. 282.

❖ نيقية: ذكرها ياقوت (مدينة نيقية من اعمال اسطنبول على البر الشرقي..) انظر: المعجم، مج5، ص 3333.

100- اعمال الفرنجة، ص20.

101- ذيل تاريخ دمشق، ص 134.

102- C. M. H. Vol, 5, PP. 279– 280.

103- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص 120.

104- حسن حبشي: الحروب الصليبية الاولى، (القاهرة 1958)، ص95.

105- تكونت حول شخصية جودفري اسطورة بعد نجاح الحملة الصليبية الاولى، انظر:

William of Tyer, Vol 1, PP. 116– 120.

رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 120، 121.

106- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص 120.

107- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 229.

108- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص 121.

109- باركر: الحروب الصليبية، ص28.

110- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص222.

111- مجهول: اعمال الفرنجة، ص28.

112- Yewdal: Bohmond 1, Prince of Antioch, PP. 36– 38.

113- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 223، 224.

114- اعمال الفرنجة، ص26.

115- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 225، 226.

116- Diehl: Histoire de I 'mpire Byzintin, (1969)P. 140.

117- Ostrogorsky(G.): History of the Byzantine state(Oxford 1956) P. 316.

118- Duncalf, OP. Cit, P. 229.

119- شارل ديل: بيزنطة عظمتها واضمحلالها، ملحق كتاب الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز، ص392.

120- رنسيمان: الحروب الصليبية، ج1، ص 219.

121- الكامل: مج10، ص 273.

122- Anna comnena: The Alexiad, PP. 313, 315; William of Tyer, Vol,1, PP. 123 , 124.

123- تفاصيل الاحداث التي تتعلق بيمين الولاء ترويها المصادر المعاصرة وتحللها دراسات المؤرخين المعاصرين. انظر مثلا:

Anna comena, PP. 318– 323; William of Tyer, Vol , 1, P. 120– 132; Mary: ; The crausades, P. 48; i

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص249، 245.

124- Hagenmayer: Chronologie de La premiere croisade(Paris 1922) P. 64.

125- Anna comenan, P. 326.

126- Chalandon(F.): Essaisur Le Regne d,Alexis comnene(1081– 1118, Paris) P. 183.

127- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص227.

128- المصدر نفسه، ج1، ص227.

129- Anna comenan, OP. Cit. P. 229.
130- Ibid, P. 329.

131- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 228.

132- Anna comenan, P. 328.
133- Ibid, PP. 327 – 328.

134- اعمال الفرنجة، ص31.

135- Kery: Neglected Passge in the Gesta, P. 65.
136- Ibid, PP. 65– 66. i
137- Chalandon, Alexis comnena, P. 186.
138- William of Tyer: OP.Cit, Vol,1, P. 137.
139- Raymond d, Agiles, P. 283.i

نقلا عن عامرة علي الحمد: العلاقات، ص 81.

140- حسن حبشي، الحملة الصيبية الاولى، (القاهرة 1958) ص78.

141- اعمال الفرنجة، ص 32.

142- Grosset: Hist. Des croisades, Vol, 1, P. 27.

143- اعمال الفرنجة، ص 32.

144- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 257.

145- المصدر نفسه، ج1، ص 249.

146- Grosset: OP. Cit, Vol, 1, P. 19.

147- عاشور: الحركة الصليبية، ص 160.

148- اعمال الفرنجة، ص 37.

149- باركر: الحروب الصليبية، ص33.

150- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص98.

151- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 257.

152- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 162.

153- باركر: الحروب الصليبية،ص33، 340;

Buxton: The story of the crusades, P. 81.
154- William of Tyer: OP.Cit, Vol,1, P. 169– 170.
155- Mary: The crusades, P. 47. Boxton: The story of the crusades, P. 81– 82.

156- اعمال الفرنجة، ص 43، 44؛

Buxton: The story of the crusades, P. 82.

157- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 268.

158- اعمال الفرنجة، ص 43؛ المطوي، محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (تونس، 1954) ص 32، 33.

159- Runciman: The first crusade (insetton: A History of the crusades) Vol, 1, P. 290.

160- اعمال الفرنجة، ص 42– 45؛

Buxton: The story of the crusades , P. 82. i

161- Grousset Hist. des Croisades. Vol , 1 , P. 38.

162- C. M. H, Vol, 5, P. 287.

163- عاشور: تاريخ العلاقات، ص 122.

164- عاشور: تاريخ العلاقات، ص 122.

165- الحميدة، سالم محمد : الحروب الصليبية، (3 اجزاء) دار الشؤون الثقافية ط1(بغداد 1990– 1993) ج1، ص 100 – 101.

166- Yewdale(R.B): Bohamone. I. prince of Antioch P. 49.

167- William of Tyer: OP.Cit, Vol ,1, P. 199.

168- Ibid, Vol, 1, P. 180.

169- مجهول: اعمال الفرنجة، ص45.

170- المصدر نفسه، ص 45.

171- William of Tyer: OP.Cit, Vol,1, P. 182.

172- Runciman: The first crusade(insetton: A History of the crusades) Vol, , P. 300; Zoe': Olden bourg The Crusades(New York) 1965 P. 138.

173- William of Tyer: OP. Cit, Vol,1 , P. 183.

174- Ibid, Vol,1, P. 183.

175- Setton, OP. Cit, Volm1m P. 300.

176- William of Tyer: OP. Cit, Vol, 1, P. 183.

177- Yewdale: Bohamond, I , P. 49.

178- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 176؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج، 1ص 287

179- Steven, OP. Cit, P. 153.

❖ حصار انطاكية يمثل احد اهم الحلقات المهمة في الصراع الذي دار بين الجيوش الاسلامية وجيوش الصليبيين والذي استمر زهاء سبعة شهور طافحة بالاحداث المثيرة والمفاجآت وقد اسهبت المصادر والمراجع التاريخية القديمة منها والحديثة في تناول موضوع الحصار، والذي يمثل مرحلة دقيقة في حياة المدينة لذلك تشابكت الروايات والاراء وتباينت وجهات النظر حول العديد من الموضوعات والمواقف.

180- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 134؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص 132؛ اعمال الفرنجة، ص49، باركر: الحروب الصليبية، ص 34.

Zoe' Olden Bourg: The crusades P. 102

181- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 134.

182-Yewdale: Bohamond, I , P. 54. I

183- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 134؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص 130.

184- اعمال الفرنجة، ص49؛

William of Tyer: OP. Cit, Vol,1 , P. 207.

185- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 307.

186-William of Tyer: OP. Cit, Vol, 1, P. 207, 208; Yewdale: Bohamond, I, P. 54.

187- Yewdale, op. cit, p. 54.

188- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 308.

189- W. Robson: Michaud' s History of the crusades, Vol 1, P. 132.

190- عاشور: تاريخ العلاقات، ص 144.

191- ابن الاثير: الكامل، مج1، ص 274.

192- مجهول: اعمال الفرنجة، ص 50.

193- William of Tyer: OP. Cit , Vol, 1, P.

194- Ibid, Vol, 1, P.

195- yewdale: bohamond, I, p. 55.

196- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 310.

197 -William of Tyer: OP. Cit , Vol,1 , P. 204.

198 -عامرة: العلاقات ص 93.

199- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 309.

200-William of Tyer: OP. Cit , Vol, 1, P. 21 - 216.

201- Ibid, Vol, 1, P. 305.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 305.

202-Robson: History of the crusades, Vol, 1, P. 137.

203- اعمال الفرنجة، ص 50.

204- W.Robson: History of the crusades, Vol ,1, P. 137.

205- رضا بك: وثائق عن الحروب الصليبية، ط2، (تونس، 1977) ص 79.

206- الكامل: ج1، ص 276.

207-Yewdale: Bohamond, I , P. 55.

208- Robson: History of the crusades, Vol , 1, P. 132– 133.

209- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 134.

210- ابن العديم، ج2، ص 132؛

Stevnson: The crusades in the east, PP. 26– 27.

211 -رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 313.

212- Grousset. OP. Cit, Vol , 1, P. 79.

213- Ibid, Vol, 1, P. 79.

214- Chalandon: premiere croisades, P. 193.

215- اعمال الفرنجة، ص 55.

216- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 318.

217- للمزيد انظر: اعمال الفرنجة، ص 56؛

Anna comnena, PP. 343, 34 ; William of tyer, Vol,1, P. 242.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص317 – 318.

218- ذكر ابن القلانسي ان اسمه فيروز وقال انه من اصل ارمني، اما ابن الاثير فسماه (زوزبه) وقال انه كان زرادا ثم صار احد المستحفظين للأبراج، وذكره ابن العديم: بانه زراد من اهل انطاكية، كما ذكره صاحب اعمال الفرنجة (الجستا) والذي لا خلاف عليه انه كان مسؤولا عن حماية بعض الابراج المعروفة ببرج الاختين، وتم الاتصال سرا بينه وبين بوهمند فتم تحديد الوقت الذي استطاع الصليبيون فيه النفاذ من تلك الجهة.

انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 136؛ ابن الاثير: الكامل مج8، ص 186؛ ابن العديم: زبدة الحلب ج2، ص 133، 134؛ مجهول: اعمال الفرنجة، ص 66؛ انور حاتم: شهود العيان على فتح الصليبيين انطاكية، مجلة المشرق مج32 (بيروت 1934)، ص 93، 95.

William of tyer Vol,1 , P. 282.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص، 328 329، 330.

Buxton: The story of the crusades, P. 88. Ralph, Baileg Yewdale: Bohamond, I, prince of Antioch PP. 50– 66. W.Robson: Michauds: History of the crusades, Vol,1 , PP.147, 148.

219- Buxton: The story of the crusades, PP. 87, 88.

220- انور حاتم: شهود العيان، ص 192.

221- William of tyer, Vol, 1, PP. 223– 224.

222- اعمال الفرنجة، ص 57، 58؛

William of tyer, Vol,1 , PP. 226 227. I

223- انظر تفاصيل ذلك على ص 161 - 162 من هذا البحث.

224- William of tyer, Vol, 1, PP. 223 224.

225- انور حاتم: شهود العيان، ص 193.

226-اعمال الفرنجة، ص 67.

227- اعمال الفرنجة، ص 63؛

William of tyer, Vol,1 , P. 242.

228- William of tyer, Vol, 1, P. 247.

229- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 133، 134، 135؛ اعمال الفرنجة، ص 68، 69؛

W.Robson: History of the crusades, Vol ,1 , P. 152.

230- انور حاتم: شهود العيان على فتح انطاكية، ص 194.

231- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص274- 275؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص333؛

Lamb(H.) The crusades: Iron men and saltan PP. 151– 153.

232- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص135؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص135.

233- أعمال الفرنجة، ص70.

234- رضا بك: وثائق من الحروب الصليبية، ص 81.

235- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص332.

236- E.W. Robson. History of the crusades, Vol, 1, P.137 .

237- حضارة العرب، ص400.

238- Yewdale: Bohamond, I, The prince of Antioch. P.68 .

239- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص135 .

240- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 204، 205.

241- ذكرت المصادر ان ياغي سيان الذي فوجئ بدخول الصليبيين داخل الاسوار قد ذهل فهرب مع بعض اتباعه خارج مدينة انطاكية وكان ان سقط عن فرسه فأركبه بعض اصحابه ولم يلبث ان سقط مرة اخرى فمات، وقيل انه عند الصباح مر به بعض الارمن الذي احتز رأسه واتى به الى القادة الصليبيين.

للمزيد انظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص135؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص275؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص135؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج2، ص15؛ عاشور: تاريخ العلاقات ص156؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص333.

Buxton: The story of the crusades P. 88. W. B. Steven son
The crusades in the west , P. 27. Yewdale, Bohamond , I, P. 68.

242- عاشور: تاريخ العلاقات، ص158.

243- ابن الاثير: الكامل مج10، ص276.

244- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 136 .

245- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص136؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص276.

246- Anna Comena. P. 549.

247- W. Robson: History of the crusades, Vol ,1, P. 154.

248- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 136 .

249- W.Robson: History of the crusades, Vol ,1, P. 148.

250- ابو الفداء: المختصر، ج1، ص210؛

Setton, Vol, 1, P. 319.

251- ابن الاثير: الكامل مج10، ص276؛ ابن الوردي: تاريخه ج2، ص15.

252- اعمال الفرنجة: ص 81 – 83؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص277؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص143 – 349.

253- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 136 .

254- كلود كاهن: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبي، ص284. انظر نص الوثيقة في الملحق رقم (1) على صفحة 297 من هذا البحث.

255- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 137، 138 .

256- عاشور: تاريخ العلاقات، ص156 .

257- اعمال الفرنجة: ص 48.

258- Robson(W.): History of the crusades, Vol ,1 , P. 128.

259- اعمال الفرنجة: ص 107؛ باركر: الحروب الصليبية، ص35.

260- William of Tyer ,Vol,1, P. 298 ; Setton , Vol 1, P.324 .

261- Ibid, Vol 1, PP. 198, 199.

262- Gousset: Hist. des. croisades, Vol, 1, P. 109.

263- C: M, H, Vol, 5, P. 294.

264- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص357.

265- المصدر نفسه: ج1، ص360.

266- المصدر نفسه: ج2، ص360، 361.

267- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص357.

268- عامرة: العلاقات، ص 115.

269- Duncalf: The pope 's plan for the first crusades.(New York, 1968) P. 54.

270- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص367.

271- Duncalf: The pope 's plan for the first crusades, P. 258.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص367.

272- Runciman: The first crusade (in setton: A History of crusades), Vol , 1, P. 320.

273- Ibid, Vol, 1, P. 261.

274- مجهول: اعمال الفرنجة ص 98.

275- Runciman: The first crusade, Vol , 1, P. 326.

❖- انظر الملحق رقم (3) على صفحة، من هذا البحث.

الفصل الثالث:

علاقة امارة انطاكية بسلاجقة الشام وعدد من القوى المحلية الأخرى

أهم القوى المحيطة بإمارة أنطاكية

تميزت إمارة أنطاكية منذ قيامها، بافتقارها الى الحدود الآمنة المستقرة، فقد نشأت وسط محيط معاد لها، ممثل في مجموعتين متميزتين هما: الامبراطورية البيزنطية، وما كانت تشكله من خطر عليها من خلال القواعد البيزنطية المتناثرة في آسيا واقليم قيليقية والأماكن التي كانت تابعة للامبراطور في بلاد الشام بما في ذلك أنطاكية[1].

أمّا المجموعة الثانية فتمثل في القوى الاسلامية التي يمكن توزيعها جغرافياً على النحو الآتي:

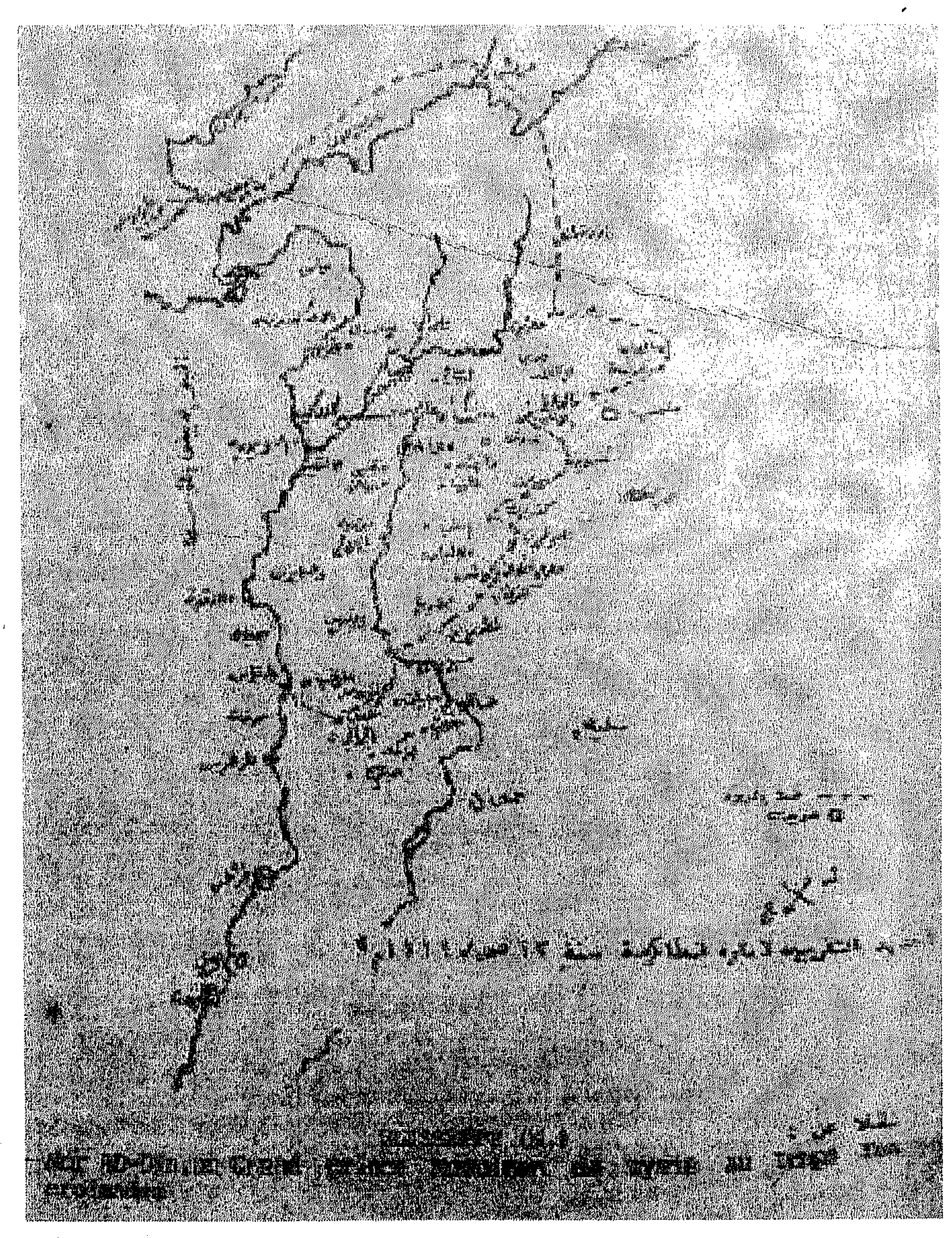
أ-القوى الاسلامية في بلاد الشام، المتمثلة في إمارتي حلب ودمشق فضلاً عن المدن التابعة للنفوذ الفاطمي وهي: عكا، وصور، وصيدا، وبيروت، إذ تحكمت هذه المدن في الشريط الساحلي الممتد من بيت المقدس جنوباً حتى أنطاكية شمالاً، ولم تظهر فاعلية هذه المدن في بداية دخول الصليبيين لأن الفاطميين لم يقدروا خطورة الغزو الصليبي في بداية الأمر[2].

ومن المدن الشامية التابعة للنفوذ الفاطمي، أيضاً، طرابلس التي استقل بحكمها القاضي فخر الملك بن عمار (492-502/1098-1108م)[3]، ثم مدينة أفامية التي يحكمها خلف بن ملاعب الذي اعترف بسيادة الفاطميين وامتد سلطانه الى القسم الاعلى في وادي نهر العاصي[4].

وضمت الشام عدداً من البيوتات العربية التي استقلت في عدد من المدن الشامية عند ضعف السلاجقة، ومنها بنو منقذ في شيزر الذين سيطروا على المنطقة المحصورة بين نهر العاصي والساحل، وتطل مباشرةً على إمارة أنطاكية الصليبية[5].

ومن رجالات الأسر العربية الاخرى، جناح الدولة حسين، أمير حمص الذي شغل منصب (أتابك) للأمير رضوان صاحب حلب[6].

ب- القوى الاسلامية في آسيا الصغرى، ومنطقة الجزيرة: واشتملت على سلطنة سلاجقة الروم التي تسيطر على وسط وجنوب آسيا الصغرى، وتتحكم في الممرات المهمة المؤدية إلى أنطاكية[7].



الخارطة رقم (6)

وفي الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى كانت إمارة بني الدانشماند (428-570هـ/1036-1174م) وعاصمتها سيواس، وتمثلت أهمية هذه الإمارة في أنها تشرف على ممرات إقليم قيليقية وغيرها من المواقع المهمة التي تسيطر على الجبهة الشمالية لإمارة أنطاكية [8].

وفي الموصل كانت أتابكية الموصل، وكان كربوقا على رأس هذه الاتابكية عند بداية الغزو الصليبي، الذي سارع لنجدة أنطاكية حال استيلاء الصليبين عليها [9].

وكان الأراتقة في جهات أخرى من أرض الجزيرة شرقي حلب، وكان هؤلاء موالين لصاحب دمشق [10]، وقد كانوا بحكم امتداد إمارتهم يهددون إمارة أنطاكية الصليبية.

كانت هذه القوى الاسلامية على مساس دائم بإمارة أنطاكية منذ قيامها حتى زوالها في 666هـ/1268م، وقد تميزت هذه العلاقات بالصدام المسلح بين الطرفين تارة، والهدوء النسبي أو قيام المعاهدات تارة اخرى.

وسيتم تناول أبرز العلاقات السياسية بين إمارة أنطاكية الصليبية من جهة، والأطراف الإسلامية المهمة من جهة أخرى وعلى النحو الاتي: -

أولاً: العلاقة مع حلب

كان لإمارة حلب أهمية خاصة بالنسبة لأنطاكية الصليبية، وتعود هذه الأهمية إلى الموقع الذي تتمتع به حلب، إذ تُعد نقطة اتصال أساسية بين الشام من ناحية، وكل من آسيا الصغرى، والجزيرة الفراتية، وشمال العراق من ناحية أخرى، وهذه القيمة الستراتيجية لموقع حلب يعززها واقع تاريخي سابق على الغزو الصليبي ومعاصر له، وإلى هذه الحقيقة أشار أسد الدين شيركو وهو يحث نور الدين محمود على تملك حلب بعد استشهاد أبيه عماد الدين بقوله (لأن ملك الشام بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق) [11].

وقد أصبحت حلب بعد الغزو الصليبي مركز التوازن على ساحة الصراع السياسي في تلك المدة [12].

ومما يزيد أهمية العلاقة بين حلب وأنطاكية الصليبية أن إمارة أنطاكية قبل سقوطها بيد الصليبيين كانت تابعة لإمارة حلب، ممثلة في أميرها ياغي سيان الذي ظل يدافع عن وجود إمارته حتى سقوطها بيد الصليبيين، كما سلف ذكره [13].

كانت إمارتا حلب ودمشق، إبان الغزو الصليبي في حالة خلاف، فلم تكن العلاقة طيبة بين ولدي تتش (رضوان ودقاق)، وتمثل ذلك في رغبة رضوان في انتزاع دمشق من يد أخيه دقاق [14].

فكان ذلك النزاع الدامي بينهما، وكان اشتراك ياغي سيان فيه لاحراز استقلاله في إمارة أنطاكية، عن طريق الايقاع بينهما [15] عاملاً مهماً أدّى الى إضعاف إمارة حلب في مواجهة الغزو الصليبي.

لقد أدرك الصليبيون أهمية إمارة حلب في مخططهم، لذا بادروا الى مكاتبة صاحبها، وإعلامه بعدم وجود أطماع لهم في إمارته قائلين: (بأننا لانقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم، لانطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية) [16].

وربما يفسر لنا ذلك قصور مساعي صاحبي حلب ودمشق عن المساعدة الجادة لإسعاف إمارة أنطاكية [17].

وعلى أية حال فالنوايا الحقيقة لم تعد خافية فيما ينطوي عليه الغزو الصليبي من أخطار تهدد المشرق الاسلامي بأسره، فالصليبيون الذين استولوا على أنطاكية بدأوا يجوبون المناطق الإسلامية المجاورة موغلين في التخريب، والقتل، وإشعال الحرائق في كل ما يقع في طريقهم، لذا توجب على القوى الاسلامية المجاورة لأنطاكية أن تبادر لدرء الخطر عن كيانها.

فعندما فشل دقاق في نصرة ياغي سيان لم يسع الاخير إلاّ أن يطلب النجدة من رضوان صاحب حلب [18]، الذي توجه مع سكمان الارتقي أمير ديار بكر الى أنطاكية، إلاّ أنه هُزم أمام الفرنج في صفر من سنة 491هـ/1097م فعاد إلى حلب، (وغلب أهل حارم من الأرمن عليها) [19].

إلاّ أن الصليبين تمكنوا من الاستيلاء عليها بعد مدة وجيزة، وعادت الى سيطرتهم [20].

كان رضوان يراقب الأمور عن كثب خوفاً من اقتراب الصليبيين من إمارته؛ لذا هب لنجدة معرة النعمان لصد الهجوم الذي شنه الصليبيون، بعد فشل جيش كربوقا، ففي شعبان 491هـ/1097م خرجت مجموعة من سرايا الصليبيين ومعهم نصارى أهل تل منس* والمعرة، فهاجموا المعرة، (فوصلت قطعة من عسكر حلب إليهم فالتقوا بين تل منس والمعرة، فانهزم الفرنج، وبقي الراجلة منهم، فقتل منهم زائداً عن ألف رجل، وحملت رؤوسهم إلى معرة النعمان) [21]، وحاول رضوان الاحتفاظ بحصن عزاز عندما حاول تابعه عمر* أمير الحصن شق عصا الطاعة، واستنجد بالصليبيين، ولكن رضوان لم يتمكن من تحقيق هدفه عندما وصلت النجدة الصليبية لمساندة الأمير المتمرد، فانسحب رضوان، وأبقى الصليبيون عمر في مكانه وأخذوا ابن عمر رهينة فمات عندهم [22].

وعندما استتبت الأمور لبوهمند في أنطاكية حاول أن يبسط نفوذه على المناطق الحيوية التي تربط إمارته بحوض العاصي الأعلى وأواسط الشام، فأغار سنة 493هـ/1100م

على أفامية مستغلاً الخلاف بين صاحبها خلف بن ملاعب وسيده رضوان صاحب حلب، غير أنه فشل في السيطرة عليها فاتلف زرعها [23].

وبعد ذلك أعدت العدة لمهاجمة حلب للحد من نشاط رضوان الذي بدأ التحرك نحو الطرف الجنوبي الشرقي لإمارة أنطاكية وراء نهر العاصي، حين توجه الى الأثارب ومنها الى (كلا)، وعند ذاك اجتمع من كان في الجزر** وزردنا وسرمين ثم التقى الطرفان سنة 493هـ/1100، (فانهزم رضوان واستبيح عسكره، وقتل خلق كثير وأسر قريب من خمسمائة.. وعاد الى الجزر، وأخذوا برج كفر طاب، وبرج الحاضر، وصار لهم من كفر طاب الى الحاضر، ومن حلب غرباً سوى تل منس) [24].

ويبدو أن الشلل الذي أصاب قوات رضوان قد شجع بوهمند على مواصلة الضغط على إمارة حلب، والتأهب لحصارها (ووصل بيمند و طنكري الى قرب حلب فنزلوا المشرفة- من الجانب القبلي على نهر قويق- لما بلغهم من ضعف رضوان، وتمزيق عسكره، وعزموا أن يبنوا.. حصوناً وأن يقيموا على حلب، ويستغلوا بلدها) [25].

ولكن سرعان ما تغيرت الأمور على جبهة حلب/ أنطاكية، حين سقط بوهمند في الأسر، أثناء توجهه لنجدة جبرائيل الأرمني حاكم ملطية* ضد الأمير غازي كمشتيكن بن الدانشمند [26]، فقد كان بوهمند يأمل- إذا حصل على موطئ قدم في ملطية- أن يتحكم في ممرات جبل اللكام، المعابر المهمة لمرور القوات البيزنطية صوب أنطاكية.

وكان أسره في مطلع رمضان سنة 493هـ/1100م، حيث تم نقله إلى قلعة نيكستار على البحر الاسود [27].

ومن الواضح أن الغياب المفاجئ لأمير أنطاكية قد فسح المجال أمام المسلمين في شمال الشام لترتيب أوضاعهم، فقد هرب الصليبيون من أعمال حلب، (فخرج رضوان وأخذ الغلال التي جمعوها ونزل سرمين) [28].

ومع أن تنكرد الذي خلف خاله بوهمند كان وصياً على عرش الإمارة، لايقل عنه همةً وتوثباً [29]، غير أن تنكرد وجه جلّ اهتمامه لمواجهة الامبراطورية البيزنطية، حتى تمكن من استرجاع مدن قيليقية، وأذنة والمصيصة، وطرطوس، التي احتلها البيزنطيون إبان مرور الحملة الصليبية الأولى نحو الشام، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحصين الجبهة الشمالية لحدود إمارة أنطاكية ضد البيزنطيين [30].

وفي سنة 495هـ/1102 تمّ اطلاق سراح بوهمند، وقد استهل عهده الجديد بالتوسع على حساب جيرانه، لاسيما إمارة حلب التي وهن أمرها نتيجة لتردي أوضاع الجبهة الاسلامية في الموصل، وشمال الشام، وآسيا الصغرى [31].

ففي صيف سنة 495هـ أخذ بالإغارة على جيرانه المسلمين بمساعدة جوسلين كورتناي صاحب الرها، فقد ذكر ابن الاثير[32] أن بوهمند الذي عاد الى أنطاكية (أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين وماجاورها يطالبهم بالأتاوة).

ثم أغار على حلب فتمكن من الاستيلاء على مدينة المسلمية التي تقع الى الشمال من حلب، (وقطعوا على عدة مواضع قطائع أخذوها) [33].

وفي سنة 496هـ/1103م أعاد بوهمند الكرة بالإغارة على حلب، فاستولى على بصرفوث التي تقع على الطريق بين حلب وأنطاكية، غير أن بوهمند لم يتمكن من الاستيلاء على كفر لاثا* الواقعة الى الجنوب من حلب، حيث كانت مضارب قبيلة بن عليم التي أبدت مقاومة عنيفة للغزاة[34].

وعندما انهزم الصليبيون- بما فيهم جيش أنطاكية- أمام المسلمين في حران 497هـ/1104م وأسر صاحب الرها [35] أحسّ رضوان أن الفرصة أصبحت مؤاتية لمهاجمة الحدود الشرقية لإمارة أنطاكية وانتزاع ما أخذه الفرنج من أعمال حلب، فأخذ المسلمون الفوعة** وسرمين، ومعرة مصرين*** وغيرها، وطلب عددٌ من الفرنج الأمان من رضوان فأمنهم من القتل، وحملهم أسرى، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجبل و (هاب) **** وحصون المعرة، وكفر طاب، وحوران، ثم استرد المسلمون حوران، فهرب من كان بلطمين، وكفر طاب، والمعرة، والبارة إلى أنطاكية وسلموها الى رضوان ماعدا هاب[36].

بعد ذلك واصل رضوان شن هجماته على أنطاكية[37] حتى بلغ جسر الحديد [38].

وبذلك أصبحت إمارة أنطاكية عرضة للخطر لولا وفاة دقاق صاحب دمشق، وما دار من نزاع بين الطامعين فيها، فتوجه رضوان الى دمشق (وحاصرها وقرر له الخطبة والسكة... وعاد الى حلب) [39].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن حالة التداعي والانهيار التي أصابت أنطاكية وعجز أميرها بوهمند عن معالجة الأمور كل ذلك دفعه الى مغادرتها والتوجه الى الغرب، وأوكل مهمة القيام بشؤون الإمارة إلى ابن اخته تنكرد ثم أبحر في سنة 497هـ/1104م[40].

استهل تنكرد مدة وصايته الثانية بشن الهجمات على جيرانه- رغم قلة ماله ورجاله- إذ كان يحاول العودة بحدود إمارة أنطاكية الى سابق عهدها قبل هزيمة حران بجيشه عام 498هـ/1105م لاستعادة مدينة ارتاح التي سلمها الأرمن الى رضوان تخلصاً من جور الفرنج، فسارع رضوان للدفاع عنها، ودارت المعركة بين الطرفين عند قرية تدعى تيزين بالقرب من أرتاح، ولم يتمكن رضوان من إحراز النصر على عدوه، فعاد أدراجه إلى حلب، وخسر قسما من قواته في ساحة المعركة[41].

وعند ذلك تمكن تنكرد من استثمار فوزه على رضوان بالسعي لاسترداد ما فقدته أنطاكية من الأراضي التابعة لها في السنة الماضية، فعادت مدينة ارتاح الى سيطرته، ومضى في مطاردة عساكر رضوان حتى أشرف على أسوار حلب، (فأجفل أهله منه، ونهب من نهب، وسبي من سبي.. واضطربت الأحوال في الشام بعد الأمن والسكون) [42].

ثم اضطر رضوان الى عقد الصلح مع تنكرد، وكان أبرز شروط ذلك الصلح أن يتنازل رضوان عن الاراضي التابعة لإمارة حلب في حوض نهر العاصي، فضلا عن دفع غرامه لتنكرد، وبذلك امتدت حدود إمارة أنطاكية مجدداً نحو الجنوب الى البارة ومعرة النعمان[43].

ولم نسمع قبل ذلك عن عقد اتفاقية بين المسلمين والصليبيين، وفي سنة 500هـ/1106م تمكن تنكرد من الاستيلاء على أفامية التي كانت تحت حكم خلف بن ملاعب إثر اغتيال الأخير على أيدي الباطنية في حلب، الذين سعوا الى تنصيب خليفته ابو الفتح السرميني مكانه، ولكن أحد أبناء خلف، وهو مصبح بن ملاعب سعى بمعونة أمير أنطاكية لاسترجاع مدينة أبيه، فتمكن تنكرد من قتل السرميني، والسيطرة على المدينة[44]، ثم تّم تنصيب حاكم صليبي مكانه، ولم يلبث الصليبيون أن استعادوا كفر طاب كذلك[45]، أمّا بوهمند الذي عاد الى اوربا، فتمكن من اقناع البابوية وملوك اوربا بأن مأساة الصليبيين في الشرق تكمن في الامبراطورية البيزنطية، ويجب شن الحرب المقدسة ضدها، واستطاع أن يؤلب الغرب ضد بيزنطة، ويعد الجيوش لغزوها من جهة البلقان، فظهر بجيوشه في دورازو، مفتاح جزيرة البلقان، الأمر الذي دعا الامبراطور الكسيوس الى مواجهة هذه التعبئة التي أعدها بوهمند بنقل قسم من قطعاته العسكرية في الشرق لمواجهة بوهمند، مما أثر على القدرات الدفاعية للامبراطورية البيزنطية، في منطقة قيليقية، فسارع تنكرد الى شن هجماته السريعة على المنطقة، وتمكن بذلك من استرجاع المصيصة، وأذنة، وطرسوس، وتم استعادة اللاذقية، وبذلك يكون تنكرد قد أعاد أهم المعاقل التي خسرتها أنطاكية في عهد بوهمند الذي هُزِمَ أمام الامبراطور البيزنطي، وخضع لشروط قاسية، في معاهدة (ديفول) * التي رفض تنكرد الاذعان لها، فتوارى بوهمند عن الأنظار حتى نهاية حياته عام 505هـ/1111م[46].

وفي سنة 503هـ/1109 تمكن تنكرد أن يمد نفوذه الى بانياس التي صارت بمثابة الحد الجنوبي لأنطاكية من جهة البحر، ثم استولى على جبلة التي آوى اليها ابن عمار[47]، ثم استولى عام 504هـ/1110م على بكسرائيل[48].

وبذلك أصبح تنكرد الحاكم المطلق لأنطاكية رغم كونه وصياً عليها -كما احتفظ بالوصاية على الرها- بعد أسر صاحبها بلدوين الثاني، ومن جهة أخرى هادن رضوان تنكرد

رغم استيلاء الأخير على معظم أعمال حلب، ووقف تنكرد إلى جانبه في الصراع الذي دار بينه وبين جاولي سقاو صاحب الموصل الذي طمع في ممتلكات رضوان في أعالي الفرات، وشن هجومه على مدينة بالس* على نهر الفرات، عندها لجأ رضوان الى طلب المساعدة من تنكرد الذي نهض على رأس جيش أنطاكية للوقوف الى جانب حليفه (49).

ويبدو أن ذلك الوفاق لم يستمر طويلاً حينما قرر رضوان مهاجمة أراضي إمارة أنطاكية في الوقت الذي انضم فيه تنكرد الى الحلف الفرنجي للوقوف في وجه مودود صاحب الموصل الذي زحف بجيوشه نحو الرها، إلاّ أن تنكرد ترك حلفاءه، ومضى لمواجهة رضوان، فاستولى على النقرة الواقعة على الحدود، وزحف الى الأثارب التي لاتبعد كثيراً عن حلب، وعندما أحس رضوان بعدم مقدرته على مواجهة خصمه توجه إليه بتجديد الصلح بينهما فقبل منه تنكرد ذلك مقابل ثمن باهظ، إذ دفع رضوان ما مقداره اثنين وثلاثين ألف دينار وغيرها من الخيول، والثياب فضلاً عن أنه خسر الاثارب(50).

ومما لاشك فيه أن خضوع رضوان ورضوخه لأمير أنطاكية ثم ميله إلى الباطنية (الحشيشية) التي دأبت على اغتيال زعماء المسلمين في الشام أمثال جناح الدولة أمير حمص سنة 496هـ/1103م ثم خلف بن ملاعب أمير أفامية بعد ذلك قد أثار أهل حلب الذين أوفدوا سفارة منهم الى دار الخلافة ببغداد، لافتين الأنظار الى تخاذل أمير حلب وانحرافه، مطالبين بالدعوة إلى الجهاد (51).

وقد كانت ردود فعل هذه الاستغاثة كبيرة في بغداد، لدى الخليفة والسلطان وعموم المسلمين، لذا طلب الخليفة من السلطان إنفاذ الجيوش، فسير السلطان السلجوقي (ولده الملك مسعود مع الأمير مودود صاحب الموصل، وتقدموا الى الموصل ليلحق به بقية الأمراء، ويسيرون إلى قتال الفرنج.. فكانوا مع الأمير مودود صاحب الموصل، والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز، والأمير ايلبكي وزنكي ابنا برسق.. والأمير أحمديل) (52).

وعندما اجتمع المسلمون في حران كتب إليهم أمير شيزر سلطان بن علي بن منقذ (يعلمهم نزول طنكري* صاحب أنطاكية أرض شيزر وشروعه في بناء تل بن معشر في مقابلة شيزر) (53).

حاولت جيوش الفرنج عبور الفرات لحماية الرها من القوات الاسلامية الزاحفة نحوها مما فسح المجال أمام رضوان لأن يقوم بمحاولة انتزاع ما أخذه صاحب أنطاكية من أعمال حلب، الأمر الذي دفع تنكرد الى أن يتوجه الى الشام للوقوف في وجه رضوان، فأغار على أعمال حلب (فأفسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا منها وأسروا وسبوا خلقا كثيرا) (54).

ولم تلبث الأوضاع أن تغيرت في إمارتي أنطاكية وحلب إثر وفاة الأميرين تنكرد

ورضوان، ففي جمادى الاخرة سنة 506هـ/1112م مات تنكرد، وفي نفس الشهر من سنة 507هـ/1113م توفي رضوان صاحب حلب، وقد انماز تنكرد- رغم نشاطه العسكري الواسع، وتثبيت حدود إمارته- بنزعته الاستقلالية عن أمراء الفرنج، بينما عرف رضوان بعلاقاته الفاترة مع القوى الإسلامية، وعلى أية حال فقد أوصى تنكرد بالحكم بعده لابن اخته روجر سالرنو، وآل الحكم بعد رضوان إلى ولده ألب أرسلان الذي لم يستمر حكمه طويلاً، فقد دبر طواشيه لؤلؤ أمر مقتله وأحل محله أخاه سلطان شاه الذي لم يتجاوز السادسة من العمر، وبذلك تحولت مقاليد الأمور إلى يد الطواشي وقائده شمس الخواص لسنوات عدة [55].

انضمت حلب الى التحالف المكون من: طغتكن أتابك دمشق، وايلغازي الأرتقي، وأمراء الفرنج- بما فيهم روجر صاحب أنطاكية- للوقوف بوجه الجيوش الإسلامية الزاحفة الى الشام بقيادة أمير همدان برسق بن برسق [56].

وفي سنة 510هـ/1116م كانت نهاية لؤلؤ على يد أفراد حاميته إذ خلفه طواشي آخر هو ياروقتاش الذي طلب مساندة الفرنج، فتنازل لروجر عن حصن القبة الواقع على الطريق بين دمشق وحلب، ويُعد هذا الحصن إحدى محطات قوافل الحجاج الى مكة، ومنحه الحق في تقاضي الرسوم من الحجاج[57].

وفي محرم 511هـ/1117م تمكن ايلغازي من دخول حلب، غير أن الأمر لم يستقم له (وفسد عليه ما أراده، وخرج منها، وبقي ولده حسام الدين تمرتاش) [58].

وفي نفس السنة وصل طغتكن أتابك دمشق، وآق سنقر البرسقي الى حلب، ولكن أهل حلب امتنعوا عن تسليم البلد اليهما وقالوا: (ما نريد أحداً من الشرق) وطلبوا النجدة من الفرنج فانصرف البرسقي، وأتابك دمشق تاركين مصير حلب[59].

ومن الواضح أن سيادة روح الفرقة والتناقض بين الأمراء المسلمين قد أطمع الفرنج، فقوي أمرهم، وشددوا غاراتهم على حلب (وأخذوا مالا لايحصيه إلاّ الله) ومدوا نفوذهم الى منطقة عزاز التي تُعد مصدر معونة لإمارة حلب[60]، إلاّ أن الوقت لم يطل حين عزم أتابك دمشق وايلغازي على النهوض للجهاد، فحشدا جيشاً كثيفاً من المسلمين لمواجهة أطماع روجر صاحب أنطاكية فكانت الوقعة الشهيرة بين الطرفين في ربيع الاول 513هـ/1119م عند الموضع المعروف بشرمدا*، وقيل دانيث البقل، حيث أحاط المسلمون بالفرنج (بحيث لم يفلت منهم شخص يخبر خبرهم، ووجد مقدمهم روجر صريعاً بين القتلى) [61].

وقد نعت عدد من المؤرخين هذه الوقعة باسم (ساحة الدم) لكثرة ما قتل من الصليبيين فيها [62].

ثم التحم ايلغازي بمن تجمع من فلولهم (وفتح منهم حصن الأثارب وزردنا، وعاد إلى

حلب) [63] مما أخاف البطريرك الذي بعث الى الملك بلدوين في بيت المقدس يخطره بذلك باعتباره وصياً على عرش أنطاكية* بعد مصرع أميرها روجر [64].

فتوجه الملك بلدوين إلى أنطاكية لنجدتها، وتدبير شؤونها (ولو سبقه ايلغازي إلى أنطاكية لما امتنعت عليه) [65].

ويبدو من خلال تتبع أحداث الإمارة، أن تلك المعركة الفاصلة تمثل علامة مميزة بين عهدين مختلفين من عهودها، إذ انقضى بمقتل روجر عصر قوة الإمارة واستمرار توسعها، لتبدأ مرحلة جديدة من الانحسار في ظل تنامي وحدة المسلمين، ورجحان توازن القوى لصالحهم.

ومع ذلك خف ضغط القوات الإسلامية على إمارة أنطاكية، بعد أن تعرض ايلغازي لهزيمة ساحقة على يد ملك الكرج** عام 514هـ/1121 عندما اشترك مع طغرل السلجوقي ضد ملك الكرج، هذه الفرصة لم يدعها الملك بلدوين- الوصي على إمارة أنطاكية- أن تفلت عندما أعلن سليمان بن ايلغازي الذي ولاه أبوه حلب، استقلاله عن سيطرة أبيه، فشن بلدوين هجومه على ممتلكات حلب فلم يكن بامكان سليمان أن يرده، فعقد معه الصلح الذي بمقتضاه تنازل عن زردنا والاثارب [66].

وفي رمضان 516هـ/1123م مات ايلغازي في ميافارقين فاقتسم ارثه ابناؤه وأبناء إخوته، فكانت حلب من نصيب ابن أخيه بدر الدولة سليمان، ويبدو أن بلدوين استفاد من تلك الفوضى، فأجبر أمير حلب الجديد على أن يرد الأثارب التي كان المسلمون قد استعادوها حديثاً [67].

ثم استرد بلدوين البارة أثناء مضيه الى الرها لتدبير أمرها بعد أسر صاحبها جوسلين، وكان الملك وقع في أسر بلك بن بهرام 517هـ/1123 م وتم إرساله الى قلعة خرتبرت* حيث يقيم جوسلين [68].

ولكن موت بلك غير مجريات الأمور، فقد آثر تمرتاش بن ايلغازي فكرة الحصول على فدية كبيرة مقابل أطلاق سراح الملك، إذ تعين عليه أن يدفع ما مقداره ثمانون ألف دينار، وأن يعيد إلى حلب مدن الاثارب، وزردنا وعزاز، وكفر طاب، والجزر، غير أن بلدوين بعد إطلاق سراحه تنصل من الإيفاء بما تعهد لتمرتاش، بل إنه أعد هجوماً كبيراً بعد أن تحالف مع دبيس ابن صدقة** فلم يحاول تمرتاش الدفاع عن حلب، بل أنه أظهر عدم اهتمامه بالموضوع، مما دفع أهل حلب الى التوجه الى الموصل، وأثاروا اهتمام الأتابك آق سنقر البرسقي الذي جهز جيشاً لقتال الفرنج ودخل حلب في عام 518هـ/1225م [69].

أمّا الملك بلدوين الذي عاد الى القدس فلم يغفل الدور الذي يضطلع به البرسقي في

سوريا بالنظر لأهمية موقعه الذي جمع بين إمارتي الموصل وحلب، فضلاً عن أن طغتكين وأمير حمص قد خضعا لسلطانه أيضاً، ففي سنة 519هـ/1125م هاجم البرسقي حصن كفر طاب التابع للفرنج، وبعد الاستيلاء على ذلك الحصن توجه الى حصن عزاز (70).

هذه التطورات عجلت بتوجه الملك بلدوين نحو الشمال، فتمكن من الجمع بين جيوش أنطاكية، وطرابلس، والرها لتكون تحت قيادته في مواجهة المسلمين، ففي سنة 519هـ/1125م دارت بين الطرفين معركة عنيفة عند مدينة عزاز خسر فيها المسلمون أمام الفرنج، ثم عقدت هدنة بين الطرفين، ومما تضمنته هذه الهدنة، أن احتفظ المسلمون بكفر طاب التي صارت تابعة لأمير حمص (71).

وعند انتهاء تلك المعركة وإبرام الهدنة بين الطرفين تكون وصاية بلدوين الثاني ملك بيت المقدس على أنطاكية قد شارفت على نهايتها، ففي سنة 520هـ/1126 م توجه بوهمند الثاني من الغرب- بعد بلوغه سن الرشد- الى شمال الشام لاستلام مقاليد إمارته (72).

ومع أن مدة حكم بوهمند الثاني كانت قصيرة، وجاءت مواكبة لبدايات الوحدة الإسلامية إلاّ أنه استهل عهده بما عرف عنه من علو الهمة والطموح الواسع، فقد كان «بلية عظيمة» (73) إذ تمكن من الاستيلاء على كفر طاب التي استعادها من أمير حمص (74).

وفي سنة 522هـ/1128م استغل بوهمند حقبة الاضطراب في مدينة حلب، قبل أن يمتلكها عماد الدين زنكي، فزحف إليها وحاصرها (وأشرف الناس على الخطر العظيم) (75)، ومع ذلك لم يتمكن من تحقيق مآربه فترك حلب، واستولى على حصن القدموس* التابع للباطنية سنة 523هـ/1129م (76).

ثم أغار على إمارة شيزر، وكان يقوم بهذه المهام الكبار رغم أنه ما زال شاباً يافعاً (77).

ثانيا: العلاقة مع دمشق

كانت دمشق سباقة في مضمار المواجهة مع الكيان الصليبي في أنطاكية، فقد انضم دقاق أمير دمشق الى التجمع الإسلامي، الذي قاده كربوقا صاحب الموصل ضد الصليبيين وهم يحاصرون أنطاكية، وفيما كان دقاق ومن انضم إليه يواصلون المسير للالتقاء بكربوقا أحسوا وهم عند شيزر بوجود عدد من طلائع الجيش الصليبي، بقيادة روبرت فلاندر وبوهمند تجوب المنطقة بحثاً عن المؤن، إذ نزلت هذه الفرقة الصليبية على البارة، فنهض المسلمون نحوهم (وتطاردوا، وقتل منهم جماعة، وعاد الفرنجة إلى الروج *) (78).

ويبدو أن العسكر الاسلامي لم يشترك جميعه في هذه المعركة، فقد أشار ابن العديم الى ذلك بقوله: (فساروا إليها بقطعة من العسكر، فلقوهم في أرض البارة) (79).

ولكن بوهمند الذي شاهد اندحار رفيقه روبرت استمات لإنقاذه فألحق الهزيمة بجيش دمشق الذي تراجع إلى حماة[80].

هذه المواجهة المباشرة مع دمشق دفعت الصليبيين الى التفكير بطريقة أخرى لتأمين جانب دمشق، فأيقنوا أن سياسة التفاوض وتحييد عددٍ من الخصوم خير من المواجهة العسكرية التي لاتعرف نتائجها، ريثما يتسنى لهم الانتهاء من موضوع حصار أنطاكية، لذلك بعثوا الى أمير دمشق معلنين له عن حسن النوايا، وعدم وجود أطماع لهم في دمشق، محاولين بذلك تحييد دمشق لاستبعادها عن وحدة الصف الإسلامي[81].

ويبدو أن دقاق قد حدَّ من نشاطه ضد الصليبيين وتباطأ في نجدة انطاكية[82]، ولكنه آثر فيما بعد الانضمام الى حملة كربوقا مع بقية (الأمراء ممن ليس مثلهم)[83].

وقد ألمحنا، فيما تقدم، إلى فشل حملة كربوقا، عندما أخذ الأمراء يغادرون ميدان المعركة، وكان دقاق على رأس الامراء الذين تركوا ساحة المعركة[84].

وبعد سقوط بيت المقدس، قدم بوهمند لزيارة القدس[85]، وعند عودته إلى أنطاكية، مرَّ بمنطقة بعلبك، التي كانت تابعة لأمير دمشق، فحشد دقاق أتباعه قاصداً ألتعرض لبوهمند وصاحبه بلدوين صاحب الرها اللذين عادا الى شمال الشام، غير أن بوهمند وصاحبه تمكنا من النجاة والعودة الى ممتلكاتهما[86].

وعندما أصبح تتكرد وصياً على إمارة أنطاكية بعد أسر بوهمند جدد الآمال باحتلال جبلة، التي فشل بوهمند في احتلالها سنة 494هـ/1100م، ولكن محاولته سنة 495هـ/1101م فشلت هي الأخرى، عندما أحسَّ ابن صليحة قاضي جبلة بالخطر، وفضل أن يسلم مدينته إلى أتابك دمشق سنة 494هـ/1100م[87].

وفي سنة 497هـ/1103 م توفي دقاق ملك دمشق، وخطب أتابكة طغتكين لولد له صغير عمره سنة واحدة، ثم أصبح طغتكين هو المتنفذ في الامور[88].

في سنة 505هـ/1111م اجتمعت جيوش المسلمين لمقاتلة الفرنج بقيادة الملك مسعود بن السلطان محمد، ومودود صاحب الموصل، ومعهم عدد من الأمراء، وسارت هذه الجيوش المتحالفة صوب الرها (ولم يجدوا فيها مطعماً) فرحلوا عنها، وعبروا الفرات متوجهين نحو حلب، ولكن صاحبها رضوان أغلق أبواب البلد دونهم، ثم رحلوا إلى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق إلاّ أنه خافهم على نفسه وبلاده (فشرع في مهادنة الفرنج سراً.. وتفرقت العساكر)[89]. غير أن طغتكين مال الى مودود في المعرة ثم رحلا ونزلا بنهر العاصي[90].

ولما سمع الفرنج بتفرق عساكر المسلمين (اجتمعوا، ونزلوا افامية باسرهم، بغدوين وطنكري وابن صنجيل)[91].

ثم سار مودود وطغتكين نحوهم مما اضطرهم الى الرحيل[92].

وأرسل صاحب دمشق، الذي أحس بخطر الفرنج، في طلب العون من مودود الذي عاد الى الشام سنة507هـ/1113م ومعه عدد من الامراء، في حين جمع ملك بيت المقدس عساكر الصليبيين بما فيهم جيش أنطاكية، والتقى الجمعان بالقرب من طبرية، وكان النصر حليف المسلمين، (وقتلوا منهم مقتلة عظيمة)[93]، فأسرع بالبشارة الى السلطان محمود السلجوقي غياث الدنيا والدين[94] بأصبهان ومعه جماعة من أسرى الفرنج ورؤوسهم وخيولهم وأنواع سلاحهم.

ثم تشتت الفرنج ولاذوا بالمناطق الوعرة، ولم يتمكنوا من الصمود أمام المسلمين، فتفرقت العساكر الإسلامية، على أن تعاود الجهاد في الربيع المقبل، ودخل مودود مع عدد من خواصه دمشق للإقامة عند طغتكين، ولكنه لقي مصرعه على يد أحد الباطنية، في أحد جوامع دمشق بعد الفراغ من صلاة الجمعة[95].

لقد تعرضت العلاقات بين أنطاكية ودمشق لطارئ جديد، وانقلبت تلك العلاقات من حالة المواجهة الى نوع من التحالف للحفاظ على المصالح المشتركة، والجديد في ذلك أن السلطان السلجوقي محمد قد أدرك بأن الانتصار على الفرنج في الشام لايكون إلاّ من خلال خضوع أمراء الشام لإرادة السلطان الجديد، وتوحيد جهودهم في ظل سلطته المركزية؛ لذلك أعد جيشاً كبيراً لهذه المهمة ولىَّ قيادته الأتابك آق سنقر البرسقي صاحب الموصل وأمير سنجار، ففي سنة 508هـ/1114م توجهت هذه الجيوش نحو الشام، الأمر الذي أخاف الأمراء المسلمين المتنافرين في الشام ومنطقة الجزيرة من هذا الحشد الكبير، فمال الأراتقة الى صاحب حلب ودمشق لتكوين حلف يقف بوجه جيوش السلطان، بل إن الشعور بالخوف تجاوز الأمراء المسلمين الى جيرانهم الصليبيين الذين أعلنوا رغبتهم بالانضمام الى ذلك الحلف ضد السلطان السلجوقي، فعقد روجر أمير أنطاكية حلفاً مع طغتكين أتابك دمشق واستنجد الحلفاء بملك بيت المقدس، وكونت طرابلس، ورغم ما أحرزته جيوش السلطان من الانتصارات مثل: استرجاع كفر طاب من أيدي الفرنج، واضافتها الى شيزر، غير أنها لم تحقق ما كانت تطمح إليه، ولاقت هزيمة كبرى على أيدي الحلفاء في معركة (دانيت) * فرجع برسق بعساكره نحو الشرق[96].

كان لموت السلطان السلجوقي سنة 511هـ/1117م أثر كبير في زوال مخاوف أمراء الشام، فبادر ايلغازي للاستيلاء على حلب[97]، ثم تحالف مع طغتكين أتابك دمشق للإغارة على أنطاكية، فقد كلف طغتكين بمشاغلة الحدود الجنوبية لإمارة أنطاكية[98]، حينما وجَّه ايلغازي ضربة قوية لأنطاكية فسحق جيشها وتمكن من قتل الأمير روجر[99]، وفي

514هـ/1121م اجتمع ايلغازي وأتابك طغتكين (وحصروا الفرنج في معرة قنسرين.. ثم أشار أتابك بالإفراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا الى المسلمين[100].

ثم انضم طغتكين مرة اخرى الى الجبهة الإسلامية سنة 519هـ/1125م عندما زحف آق سنقر البرسقي، أتابك الموصل، الى الشام وأخذ بمهاجمة إمارة أنطاكية، فاستولى على كفر طاب ثم شرع في حصار عزاز[101].

وعندئذ استنجدت أنطاكية بالملك بلدوين الثاني– الذي كان وصياً عليها– وفي تلك الأثناء انضم طغتكين الى البرسقي، فتركوا حصار زردنا وأتجهوا الى منطقة عزاز، شمال حلب على الطريق بين أنطاكية والرها، وهناك دارت معركة كبيرة بين الطرفين في عام 519هـ/1125م خسرت الجيوش الإسلامية فيها خسارة عظيمة[102]، هذه الكسرة التي أصابت المسلمين، أثارت مطامع بلدوين الثاني ملك بيت المقدس والوصي على عرش أنطاكية، فأغار على إمارة دمشق في السنة التالية فالتقى الجمعان عند قرية (سحقبا) * فانهزم جيش طغتكين، رغم حصولهم على الكثير مما نهبوه من الفرنج[103].

الأتابك طغتكين، الرجل الذي عرف بكثرة مناوراته السياسية والعسكرية مع الفرنج والمسلمين على حد سواء، ظل يذب عن استقلال إمارته طوال حياته، فوافاه الأجل سنة 522هـ/1129م، وذكر ابن الأثير أن طغتكين كان (عاقلاً خيراً كثير الغزوات والجهاد للفرنج.. ولما توفي ملك بعده ابنه تاج الملوك بوري وهو أكبر أولاده)[104].

وفي سنة 523هـ/1128م حاول الفرنج أن يجربوا حظهم مرة أخرى في الهجوم على إمارة دمشق، (فاجتمعوا كلهم صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس.. وساروا الى دمشق ليحصروها) ولما سمع تاج الملوك جمع أتباعه، ولكن الفرنج لم يظفروا بشيء ورحلوا عن دمشق وتبعهم المسلمون يقتلون كل من تخلف منهم[105]، ولم تطل الحياة بتاج الملوك بوري الذي توفي سنة 526هـ/1131م فخلفه ابنه شمس الملوك[106].

وقد استهل شمس الملوك عهده بانتزاع عدد من الحصون التي بيد الفرنج[107]، ثم أخذ بانياس سنة 527هـ/1132م، بعد أن استضعفه الفرنج وطعموا في أعمال دمشق[108].

ثم عمل على توطيد أركان إمارته، ويبدو أنه كان رجلاً فظاً غليظاً، فنفر منه أتباعه، وذكر ابن الأثير[109] أنه راسل عماد الدين زنكي ليسلمه دمشق، وكان أن دُبّر أمر مقتله، وملك بعده أخوه شهاب الدين محمود[110].

ومما لاشك فيه أن عماد الدين زنكي الذي أخذ سلطانه يتسع سريعاً في الشام[111]، قد أصر على احتواء دمشق لما لها من أهمية استراتيجية في مجاهدة الفرنج، فأخذ يسعى

للهيمنة على أعمالها المهمة وصولاً الى أخذ مدينتها، ففي سنة 532هـ/1138م انتزع عدداً من أعمالها، مثل: حصن المجدل، وبانياس، ثم نازل حمص[112].

غير أن الأحداث التي تلاحقت سريعاً في دمشق بين حكامها أدت إلى وقوع الإمارة في قبضة رجل قوي، ففي سنة 533هـ/1139م قتل شهاب الدين محمود فخلفه أخوه جمال الدين محمد الذي أوكل أموره الى أحد مماليك جده البارزين وهو معين الدين انر (وصار هو الجملة والتفصيل)[113].

وهنا لابد من القول، بأننا لسنا بصدد تسجيل حوليات لعموم أحداث إمارة دمشق، بقدر ما تفرضه طبيعة الموضوع من تواصل الأحداث وتشابك بعضها مع بعض، فقد كان عماد الدين يتحين كل الفرص لتضييق الخناق على إمارة دمشق ثم الانقضاض عليها، ولاشك أن بروز عماد الدين زنكي بقوته المتزايدة على الساحة الشامية، قد خفف إلى حد بعيد النشاط السياسي والعسكري بين الكيانات الاقليمية في بلاد الشام والصليبيين.

وفي سنة534هـ/1139م عاد زنكي الى دمشق مشدداً الحصار عليها، فبادر انر الى الاتصال بالفرنج لنجدته مقابل أن يسلمهم قلعة بانياس التابعة لزنكي، وعند ذاك سارع صاحب أنطاكية ريموند بواتيه لنجدته، فرحل زنكي عن دمشق، وسارت عساكر دمشق إلى بانياس وأخذوها وسلمها الى الفرنج[114].

تلك العلاقات بين حكام دمشق والفرنج، القائمة على المصالح المشتركة، في حقيقة الأمر، لاتمثل ثوابت في ميدان السياسة بين هؤلاء المتعاونين، بقدر ما هي تطمين لعدد من المواقف الآنية بين حكام دمشق والصليبيين من جهة، وبين حكام دمشق وعموم القوى الإسلامية من جهة ثانية.

ومن الطبيعي أن يكون لهذا التحالف بين حكام دمشق والصليبيين أثره البالغ على عطاء الجبهة الإسلامية، فقد جمَّد الموقف في بلاد الشام وشلَّ حركة زنكي، وأربك خطاه.

ومن الأحداث البارزة التي أعقبت وفاة عماد الدين زنكي سنة 541هـ/1146م محاولات ولده نور الدين محمود لضم المدينة الى جانب حلب، إن دمشق قد تعرضت سنة 543هـ/1148م الى الحصار من قبل ملك الألمان[115] ومعه صليبيو الشام، وعند ذاك لم يرَ أمراء دمشق بُداً من مد يد العون الى الزنكيين لانقاذ دمشق، فبادر سيف الدين غازي صاحب الموصل ونور الدين محمود، ولدا عماد الدين مسرعين لنجدة دمشق، وهنا يبرز دور معين الدولة انر وقابلياته السياسية الفائقة في مضمار المناورة السياسية، فهو يخشى الزنكيين مثلما يخشى الفرنج، فأخذ يماطل الزنكيين من دخول قلعة دمشق (لينظر ما يكون من أمر الفرنج)[116]، ثم يراسل الفرنج، ويخوفهم من الزنكيين، فقد ذكر لهم (أن ملك

الشرق* قد حضر، فإن رحلتم وإلاّ سلمت البلدة إليه وحينئذ تندمون، وأرسل الى فرنج الشام يقول لهم: بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية، فأجابوه الى التخلي عن ملك الألمان) (117).

وبذلك استطاع أن يحافظ على استقلال إمارته ويبدد آمال الطامعين فيها من حوله.

ثالثاً: العلاقة مع عددٍ من الامارات المحلية الاخرى

أ- العلاقة مع شيزر*

بعد أن أخذ الفرنج أنطاكية توجهوا صوب معرة النعمان، فتمكنوا منها، ثم ساروا الى عرقة**، فحاصروها لمدة أربعة أشهر ولم يظفروا بها، (وراسلهم ابن منقذ صاحب شيزر) (118).

هذا ما أشار أليه ابن الأثير، أمّا المراجع الغربية فقد تحدثت عن موضوع المراسلة بصورة أكثر تفصيلاً، إذ ذكرت أن أمير شيزر (ابو العساكر ابن منقذ) كان قد راسل الفرنج عندما كانوا في المعرة وكفر طاب معلناً موادعته لهم، وتعهد بأن لا يتعرض لهم أثناء عبورهم أراضيه، وأن يمدهم بالمؤن فضلاً عن ارسال الأدلاء من قبله ليرشدوا الفرنج أثناء عبور العاصي (119).

ويبدو أن أمراء شيزر قد أيقنوا أن لا قِبَلَ لهم– ضمن إمكانياتهم البسيطة– في الوقوف أمام تيار الغزو الصليبي؛ لذا بادروا الى التعامل بمرونة مع الصليبيين كيلا يخسروا إمارتهم مثلما حدث لأنطاكية ومعرة النعمان وغيرها.

وعندما أخذ بوهمند يفكر بالتوسع على حساب جيرانه المسلمين فيما وراء نهر العاصي، حاول أن يستغل حالة العداء القائمة بين صاحب أفامية الأمير سيف الدولة خلف بن ملاعب وأمراء شيزر، بني منقذ (120)، فأغار على أفامية، إلاّ أنه فشل في نيلها (وقاتل أهلها أياماً وأفسد زرعها، ثم رحل عنها) (121).

في سنة 499هـ/1105م تمكن تنكرد من الاستيلاء على أفامية بعد مقتل أميرها خلف بن ملاعب على يد الباطنية (122)، ثم أخذ يهاجم ما جاورها من المعاقل الإسلامية ولاسيما إمارة شيزر (123).

ويظهر أن تنكرد قد واصل غاراته الاستفزازية على الإمارة الحصينة، ولكنه ربما عاد من بعض هذه الغارات إلى إمارته بكسب بسيط، ففي إحدى المرات سنة 502هـ/1108م انقلب راجعاً بعد أن أهدى له امير شيزر جواداً عربياً اصيلاً (124)، ولكنه كان يجدد غاراته من حين

لآخر، ففي سنة 504هـ/1110م هاجم شيزر، غير أن بني منقذ تمكنوا من عقد هدنة معه لعدة شهور مقابل أن يدفعوا له أربعة الآف دينار[125].

وفي السنة نفسها عندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف من المشرق إلى الشام فوصلت طلائعها إلى حران كتب (إليهم سلطان بن منقذ صاحب شيزر يعلمهم نزول طنكري صاحب أنطاكية أرض شيزر وشروعه في بناء تل ابن معشر في مقابلة شيزر... ويستصرخهم ويبعثهم على الوصل إلى جهته)[126].

ومهما يكن نمط العلاقات السائدة بين الإمارتين فإن شيزر أصبحت تعاني من ضغط كبير يسلطه عليها أمير أنطاكية لابتزازها بشكل دائم؛ لذا كان بنو منقذ يعقدون الآمال الكبيرة على التحالفات الإسلامية من أجل الجهاد، أملاً في الخروج من المأزق الذي تعيشه إمارتهم.

فعندما توجهت الجيوش الإسلامية من المشرق نحو الشام تحت زعامة مودود فعبرت الفرات، سارع أمراء شيزر للاتصال بمودود وطلب النجدة، وبالنظر لشكوك الأخير في نوايا رضوان صاحب حلب، فقد مال الى شيزر ونزل قبالتها وصعد هو وخواصه إلى قلعتها، وعند ذلك لم يسع تنكرد إلاّ الانسحاب من أمام أسوار شيزر عائداً الى أفامية، (ولم ينزلوا فيها، بل تعدوها وتبعهم المسلمون عند معرفة رحيلهم وتخطفوا أطرافهم)[127].

ولكن هذه الحملة لم تحقق أهدافها بصورة جيدة[128].

وعند موت تنكرد تمكن خلفه روجر من الاستمرار في استحصال الأموال من إمارة شيزر، فيذكر ابن القلانسي[129] أن روجر طلب (مقاطعة شيزر، فأجاب صاحبها إليها وهي عشرة آلاف دينار).

وعند تتبع العلاقة التي ربطت إمارة شيزر والحملات الجهادية القادمة من الشرق الإسلامي، يمكن القول إن هذه الإمارة كانت محطة لاستقبال الجيوش الإسلامية المتحالفة ضد الوجود الصليبي، ففي عام 509هـ/1115م عندما أنفذ السلطان السلجوقي محمد حملة بقيادة برسق بن برسق الى الشام وتعاون الأمراء المسلمون المحليون ضد تلك الحملة التي كانت تهدد وجودهم اتخذ برسق من شيزر قاعدة لهم[130]، وقد تمكن من الاستيلاء على كفر طاب وسلمها إلى بني منقذ[131]، إلاّ أن روجر صاحب أنطاكية استطاع استعادتها بعد فشل حملة برسق[132].

وقد خسرت الجيوش الإسلامية المتحالفة المعركة أمام الفرنج عند تل دانيث[133]، ويعزو أسامة بن منقذ إخفاق هذه الحملة الإسلامية في دانيث إلى خديعة دبرها لؤلؤ الخادم (بدر الدين لؤلؤ الذي خلف رضوان بن تتش في إمارة حلب) إذ اتفق مع صاحب أنطاكية أن

يحتال لتفريق جيوش المسلمين، ثم يخرج صاحب أنطاكية لكسرهم، وهذا ما حدث فعلاً (وعاد الفرنج لعنهم الله إلى كفر طاب عمروها وسكنوها)[134]، ثم تفرقت الجيوش الإسلامية لأسباب يطول شرحها[135].

فكان انتصار روجر في تلك المعركة يمثل خيبة أمل لأمارة شيزر التي أصبحت بحكم جوارها لإمارة أنطاكية؛ على تماس مع عدو قوي، وهكذا دأبت هذه الإمارة على مواصلة الآمال بنهوض حملة إسلامية جديدة للانعتاق من تسلط جارتها إمارة أنطاكية الصليبية، فعندما أخذ ايلغازي الأرتقي بحشد الجيوش لشن هجوم جديد على الفرنج في الشام سارع بنو منقذ الى مهاجمة الأطراف الجنوبية لإمارة أنطاكية لحمل روجر على تشتيت قواته في جهة أخرى، فأخذوا يغيرون على أفامية، إذ أرسل ايلغازي عدداً من قواته لمساندتهم[136].

وقد تمكن ايلغازي من تدمير جيش أنطاكية وحلفائها عند تل عفرين بالقرب من الأثارب عام 513هـ، ودارت الدائرة على قوات الفرنج (وأخذهم السيف من سائر نواحيهم)[137].

وبعد ذلك الانتصار الكبير عقد ايلغازي هدنة مع الفرنج لمدة سنة، إلى آخر سنة 514هـ/1121م، ولكن الفرنج نقضوا عهدهم وخرجوا من أنطاكية عقب ذلك، (وأغاروا على بلدة شيزر، وأخذوا ما لا يحصى، وأسروا جمعاً وطلبوا المقاطعة التي جرت عادتهم قبل الوقعة بأخذها فبذل لهم ابن منقذ ذلك.. وصالحهم إلى أخر السنة)[138].

وفي سنة 517هـ/1123م وقع بلدوين ملك بيت المقدس– والوصي على أنطاكية– أسيراً في يد بلك بن بهرام ابن ارتق– كما مر معنا–[139] ولكن تمرتاش بن ايلغازي فضل إطلاق سراح ملك بيت المقدس بعد موت بلك (وكان المتوسط حديث بغدوين مع تمرتاش الأمير أبو العساكر بن منقذ، وسير أولاده وأولاد اخوته رهناً عن بغدوين الى حلب)[140].

لم يمض وقت طويل بعد إطلاق سراح الملك بلدوين حتى توجه البرسقي في شهر آذار سنة 519هـ/1125م إلى شيزر، حيث سلمه ابن منقذ رهائن الفرنج، واستطاع استرجاع حصن كفر طاب من الفرنج ثم حاصر عزاز، أمّا الملك بلدوين فقد عجل نحو الشمال فقاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها، ودارت رحى المعركة بين الطرفين عند عزاز، فربح الفرنج المعركة، واستطاع بلدوين أن يدفع فدية الرهائن إلى شيزر، وعقدت معاهدة بين الطرفين فعاد البرسقي إلى الموصل[141].

وحينما قدم بوهمند الثاني من الغرب إلى أنطاكية عام 520هـ/1126م لاستلام إرث أبيه كانت له عدة أحداث مع إمارة شيزر[142].

وقد وصفه أسامة بن منقذ بأنه (بلية عظيمة)[143].

وفي عهد عماد الدين زنكي الذي دأب على توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام لمواجهة الفرنج، بادر أمير شيزر إلى الاعتراف بسلطانه، وأبدى استعداده للتعاون مع الزنكيين للوقوف بوجه الكيان الصليبي [144]، ففي سنة 532هـ/1138م عندما حاصر الإمبراطور البيزنطي أنطاكية في عهد أميرها ريموند بواتيه، الذي لم يسعه إلاّ الخضوع لإرادة الامبراطور [145]، كان الأخير قد طرح مشروعاً مستقبلياً مفاده إذا ما استولى الروم بمساعدة الصليبيين على حلب وما يجاورها من البلاد فيتوجب على ريموند أن يعيد أنطاكية الى البيزنطينيين مقابل تعويضه عنها بإمارة جديدة تتكون من: حلب، وشيزر، وحماة وحمص [146].

ويبدو أن أمير أنطاكية لم يحبذ الانسياق وراء سراب ذلك المشروع المقترح، لأنه لا يريد المغامرة بتزعم الإمارة الموعودة التي تقع على تماس مع الخطوط الأمامية للقوى الإسلامية، لذلك لم يكن متحمساً للقتال عندما قاد جيشه مع الامبراطور لحصار شيزر عام 532هـ/1138م [147]، إلاّ أن هذه المغامرة لم تحقق آمال الامبراطور البيزنطي، فقد انتهى الحصار ورحل عن شيزر دون أن يظفر بطائل [148].

لذا فإن ذلك المشروع لم يرَ النور وظل النورمان في أنطاكية حتى زوالها، واستطاعت شيزر بفضل سياسة أمرائها الاحتفاظ باستقلالها الى تلك المدة رغم المحن التي مرت بها.

ويمكن القول إنّ رحجان كفة المسلمين، وتصاعد مشاريع الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ابان قيام الدولة الزنكية، وتحقيق الوحدة الإسلامية بفضل جهود عماد الدين وولده نور الدين محمود قد أدّى الى استمرار بقاء إمارة شيزر لسنوات عدة دون أن تتعرض إلى خطر جسيم من قبل جارتها أنطاكية، ولكن إمارة شيزر كغيرها من البلاد الشامية قد تعرضت للكوارث الطبيعية (الزلازل) المدمرة [149].

وقد بادر نور الدين الى حشد جيوشه والمسير الى الصليبيين حيث رابط بالقرب من أنطاكية تحسباً لأي اعتداء يشنه الصليبيون على بلاد المسلمين (لحمايتها وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وغيرها) [150]، وبادر نور الدين إلى بناء ما تهدم من الأسوار (فلم يزل كذلك حتى فرغ من جميع أسوار البلاد) [151].

ولكن نور الدين ألمَّ به مرض خطير أجبره على العودة الى حلب في (محفة) *، وكثرت الشائعات بموته، (فقلقت النفوس، وانزعجت القلوب، فتفرقت جموع المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج، فقصدوا مدينة شيزر وهجموها، وحصلوا فيها فقتلوا وأسروا) [152].

وقد اختلف الصليبيون حول موضوع إمارة شيزر، إذ أراد ملك بيت المقدس (بلدوين الثالث) أن يولي أمر شيزر أحد الأمراء الصليبيين على أن يكون تابعاً لملك بيت المقدس، ولكن

أرناط أمير أنطاكية اعترض على ذلك باعتبار أن ما كان يدفعه بنو منقذ من قطيعة أنطاكية هو نوع من التبعية؛ فيجب أن يكون من يحكمها تابعاً لإمارة أنطاكية[153].

غير أن المشكلة حُلَّت بأن غادر الصليبيون شيزر الى حارم[154].

ولم يلبث نور الدين أن تماثل للشفاء من مرضه، وقد كان في نفسه شيء من سلوك أمير شيزر (سلطان بن منقذ) الذي أقدم على تشريد أبناء إخوته، إذ عاملهم (بما يسوؤهم وأخرجهم من شيزر) [155].

وبلغ نور الدين مراسلة أمير شيزر للفرنج، (فاشتد ما في نفسه) [156]، فلما دمرت القلعة بالزلزال ولم يسلم (إلاّ اليسير ممن كان خارجاً) [157]، أصبحت الفرصة سانحة أمام نور الدين لضم حصن شيزر العتيد (فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده) [158].

وبذلك أصبحت شيزر جزءاً من ممتلكات نور الدين، وانتهى دور بني منقذ في تزعم هذه الإمارة.

ب- العلاقة مع حمص*

استقل جناح الدولة بحمص بعد خلاف مع سيده رضوان، إذ كان أتابكاً له وزوجاً لأمه[159].

وكانت عساكر حمص ضمن الجيوش الإسلامية التي هبت لمساعدة أنطاكية، عندما وصلها كربوقا لفك الحصار عنها[160].

ويذكر أن العداء القديم بين أميري حمص وصاحب منبج قد كان أحد العوامل التي أساءت الى رصانة موقف القوات الإسلامية المتحالفة أمام أسوار أنطاكية، فضلاً عن أن ما عُرِفَ عن كربوقا من سوء التصرف مع أتباعه من الأمراء.

ولكن أمير حمص ظل صامداً الى جانب كربوقا رغم تفرق القوات الإسلامية حتى اللحظات الاخيرة التي أصبح فيها الاستمرار في المعركة غير ذي جدوى[161].

وعندما فُتَّ في عضد القوات الإسلامية بعد سقوط أنطاكية اتجه الصليبيون جنوباً صوب بيت المقدس، ووصلت رسل أمير حمص الذين (أنفذهم أميرها الى الكونت، ومعهم الجياد والمال، وعقد معه معاهدة اتفق فيها معه إلاّ يُمسّ النصارى بما يضايقهم..) [162].

وبعد قيام أنطاكية حاول أميرها بوهمند أن يبسط سلطانه على الأراضي الكائنة في الجنوب الشرقي وراء نهر العاصي، الأمر الذي جعل رضوان صاحب حلب يحشد عساكره لمواجهة أطماع صاحب أنطاكية، وقد طلب رضوان المساعدة من أمير حمص، رغم أن العلاقات بين حمص وحلب لم تكن ودية إلى درجة مرضية[163].

وفي محاولة ريموند للاستيلاء على طرابلس، حاول أن يوطد سلطانه أولاً على المناطق المجاورة لانطرسوس، وكان بضمنها عددٌ من المناطق التابعة لأمير حمص، الذي أعد جيشاً لمواجهة ريموند، غير أن جناح الدولة لقي مصرعه على يد جماعة من الباطنية، ويعتقد أن ذلك حدث بتدبير رضوان، الذي حنق على أمير حمص ازاء ما قام به الأخير من التعرض له، حينما توجه رضوان لانجاد أنطاكية[164].

وعلى أية حال فقد آلت حمص إلى دقاق صاحب دمشق، الذي عهد بإدارتها الى الأتابك طغتكين[165].

ويبدو أن ضآلة حجم الإمارة، وتواضع إمكانياتها، ووقوعها على خطوط التماس مع الوجود الصليبي، قد فرض عليها أن تتصرف بمرونة عالية مع جيرانها فعندما أغار تنكرد على حصن بكسرائيل الواقع في الطريق بين شيزر واللاذقية بذل أمير حمص ألفي دينار، مقابل عدم تعرضه لإمارة حمص[166].

ومثلما كانت إمارة شيزر تعقد آمال بقائها على مهادنة جيرانها من جهة والتشبث بالجيوش القادمة من المشرق الإسلامي للجهاد في تقوية موقفها من جهة أخرى، كذلك الحال مع إمارة حمص، فقد حرص أميرها ابن قراجا على الوقوف الى جانب برسق بن برسق في شن هجوم على حماه التابعة للأتابك طغتكين عندما انضم الأخير الى التحالف مع الفرنج ضد الجيوش الإسلامية التي جاءت من المشرق للجهاد، ثم توجهت الجيوش الإسلامية الى كفر طاب التابعة للفرنج، الأمر الذي اضطر روجر صاحب أنطاكية الى القيام بحركة لتغيير اتجاهه، ولكن حليفه طغتكين أقنعه بخطورة ما يقدم عليه[167].

وحين اعتلى بوهمند الثاني عرش أنطاكية استهل أعماله بشن هجوم على كفر طاب، فاستعادها من أمير حمص، إذ كانت كفر طاب قد أضيفت إلى إمارة حمص عندما استعادها البرسقي من الفرنج عام 519هـ/1125م[168].

ولكن الحال قد تغيرت في إمارة حمص بعد دخول عماد الدين زنكي الى الشام، ففي غضون سنة 525هـ/1130م اتسع سلطان زنكي في الشام فامتد حتى جنوب حمص، ومع أن أمير حمص قد أبدى تعاونه مع الزنكي إلا أن الأخير أمر بسجنه بعد الاستيلاء على حماة[169]، ووضع حمص تحت الحصار[170]، ثم أصبحت حمص تخضع لدمشق[171].

وعند مجيء الإمبراطور البيزنطي الى الشرق– كما مر معنا– أصبحت حمص ضمن مشروع الإمبراطور الذي يقضي باستعادة أنطاكية للبيزنطيون وتعويض صاحبها بإمارة جديدة مقترحة، يؤمل انشاؤها من حلب وما يجاورها بما في ذلك إمارة حمص[172].

وعلى أية حال فقد أصبحت إمارة حمص جزءاً من وحدة البلاد الشامية في عهد

الدولة الزنكية ثم مدة حكم صلاح الدين الأيوبي إذ اختفت الكيانات الاقليمية المستقلة وانتهت الأدوار الانفرادية.

ج- العلاقة مع بني عمار في طرابلس

كانت طرابلس تحت حكم بني عمار– كما مر ذكره– وتتمتع بمركز استراتيجي مهم على الساحل، فضلاً عن ما تتمتع به من ثراء وغلات زراعية جيدة[173].

لذا حظيت باهتمام الصليبيين منذ وقت مبكر باعتبارها إحدى المحطات المهمة على الساحل لديمومة الاتصال مع البحر من جهة، وبين شمال الشام وجنوبه من جهة أخرى.

اتجه الصليبيون الى كفر طاب من معرة النعمان، وقد أرادوا الاستيلاء على جبلة في الشمال الغربي، وهي مدينة ساحلية تقع جنوب اللاذقية وكانت تتبع لأمير طرابلس[174].

وهنا يبدو أن الصليبيين قد انقسموا على فريقين حول تحديد طريق المسير الى بيت المقدس، إذ رأى الفريق الأول أن يسلكوا طريق الساحل، ليكونوا على اتصال بالتموين والامدادات البحرية، ولكن ذلك الطريق امتاز بطول مسافته، وكثرة تعرجه، فلابد لهم من الاستيلاء على جبلة وطرسوس وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا [175].

بينما رأى تنكرد أن الطريق الأول يكلف الصليبيين المزيد من الجهد، إذ لابد من الاستيلاء على الموانئ المذكورة، في الوقت الذي لم يكن الصليبيون قادرين فيه على تحقيق ذلك نتيجة لنقص في الرجال والامكانيات لذا اقترح الطريق الداخلي البديل، باتخاذ أقصر الطرق الى بيت المقدس مع الاقتراب من الساحل بين الحين والآخر حتى إذا ما استولى على بيت المقدس سهل عليهم بعد ذلك الهيمنة على المدن الساحلية[176].

وبذلك كانت مهمة الاستيلاء على طرابلس إحدى الضرورات الستراتيجية التي تفرضها طبيعة الموقف على الصليبيين.

وهنا أحس بنو عمار بحقيقة الخطر الذي يهدد إمارتهم؛ لذا بادر أبو علي فخر الملك ابن عمار بإرسال (رسالة من قبله الى الكونت[ريموند] يسأله الموادعة والاتفاق، والارتباط معه برباط المودة إذا أحب، وأنفذ إليه عشرة جياد وأربعة بغال وبعض المال) [177].

ولتسليط المزيد من الضغط على الإمارة اقتنع ريموند الصنجيلي بمهاجمة مدينتي عرقة وانطرسوس التابعتين لبني عمار[178].

غير أن الصليبيين لم يمكثوا طويلا عند طرابلس فقد انحدروا نحو بيت المقدس وعند ذاك مرت إمارة طرابلس بحقبة هدوء مؤقت، وذلك لانشغال بوهمند أمير انطاكية بتوطيد أركان إمارته الجديدة، وكذلك الحال مع بقية الصليبيين الذين انشغلوا بأمور بيت المقدس[179].

ريموند الصنجيلي الذي فشل في تحقيق آماله بالحصول على إمارة أنطاكية، وكذلك فشل في تزعم مملكة بيت المقدس عاد الى طرابلس تراوده الآمال من جديد بتأسيس إمارة له في الشرق[180].

وفي هذه المرة لم يكن بوسع ابن عمار إلاّ أن يمد يد العون إلى جيرانه المسلمين لدفع غائلة ريموند الصنجيلي، فسارع بإرسال رسالة الى كل من أمير حمص، وحاكم وأمير دمشق يقول فيها: (من الصواب أن يُعاجل صنجيل، اذ هو في هذه العدة القريبة)[181].

أمّا بالنسبة إلى موقف أنطاكية من الأحداث فيبدو أن تنكرد لم يرق له استيلاء ريموند الصنجيلي واتباعه على طرابلس، وربما يعود ذلك الى العداء المستحكم بين ريموند الصنجيلي وتنكرد، ويذكر عدد من المؤرخين أن سفناً فاطمية كانت تحمل المؤنة الى طرابلس من عددٍ من الموانئ ومن أملاك تنكرد[182].

وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله[183](فمّن الله عليهم سنة خمسمائة بميرة من البحر من جزيرة قبرص وأنطاكية..).

ويطول بنا المقام لو تتبعنا أحداث حقبة السنوات التي ظلت طرابلس تذب عن وجودها أمام مطامع الفرنج، وقد مات ريموند الصنجيلي عام 499هـ/1105م دون أن يحقق آماله في نيل إمارة طرابلس[184].

ومع ذلك استمر أتباعه في مواصلة المضمار الذي بدأه ريموند بمحاولة الاستيلاء على الإمارة، إذ واصل وليم جوردان، خليفة ريموند وابن خالته نفس السياسة التي كان يتبعها سلفه، بما في ذلك إحكام الحصار على طرابلس، و قد استمرت جهوده أكثر من ثلاث سنوات دون أن يظفر بطائل[185].

ومن جانب أنطاكية كان تنكرد يسعى جاهداً للاستحواذ على ما أمكنه من إرث طرابلس لتوسيع إمارته، فعندما عاد ابن عمار الى الشام من بغداد خالي الوفاض ووجد أن إمارته قد خضعت مباشرةً للنفوذ الفاطمي نتيجة لتآمر عدد من أتباعه مال الى جبلة التي لا زالت تتبع له، إلاّ أن وجوده فيها لم يستمر طويلا ففي سنة 502هـ/1108م ظهر تنكرد أمام جبلة وبكامل قواته، ولم يكن بوسع ابن عمار سوى التسليم بعد أن تم التفاهم مع تنكرد بأن تبقى جبلة له إقطاعاً، إلاّ أن تنكرد تنصل عن وعده وأرغم ابن عمار على الرحيل الى دمشق[186].

وعندما قدم برترام بن ريموند الصنجيلي من الغرب لمواصلة مشوار أبيه في الاستيلاء على طرابلس، انضم تنكرد الى جانب وليم جوردان وشجعه على مقاومة مطالب برترام وادعاءاته في طرابلس. ولم يتم الوفاق إلاّ بحضور بلدوين الأول ملك بيت المقدس، الذي أنقذ

الموقف بالوقوف بوجه مطامع تنكرد، ثم تمّ تقسيم إرث ريموند الصنجيلي بين برترام ووليم جوردان[187].

ومع ذلك فقد استمرت مطامع تنكرد في طرابلس حتى بعد سقوطها سنة 502هـ/1108م إذ استولى على عدد من أجزائها وضمها الى إمارته[188].

واخيراً يحسن القول إن أهالي طرابلس تحت زعامة فخر الملك بن عمار قد سجلوا صفحة مشهودة في الصمود والتصدي للعدو الصليبي[189].

هوامش الفصل الثالث

1- انظر ما تقدم ص 99 - 100.

2- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 197.

3- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص139.

4- ابن منقذ، مؤيد الدولة اسامة بن مرشد (ت:584هـ/ 1188م) كتاب الاعتبار حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، 1930، ص، 52، 53.

5- المصدر نفسه، ص، ت- ج (مقدمة المحرر)

6- ابن العديم: زبدة الحلب، مج2، ص 120.

7- Ostrogorsky(G.): History Byzantine state, P. 320.

8- Setton, OP. Cit, Vol, 1, P.P. 163 – 164.

9- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 276.

10- ابن العديم: زبدة الحلب، مج2، ص 129.

11- ابو شامة: الروضتين، ج1، ق1، ص120.

12- باركر: الحروب الصليبية، ص154.

13- انظر: الفصل الثاني، ص 123 – 124.

14- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 131 – 132.

15- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: ج1، ص 304.

16- ابن الاثير: الكامل، مج 10، ص 275.

17- Gibb: The caliphate and state (in setton: History of the crusades) Vol, 1, P. 97.

18- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، عني بنشره الدكتور علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية – التركية –(انقرة 1967،)، ص 140– 141.

19- ابن العديم: زبدة الحلب، مج2، ص 132.

20- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 320.

❖ تل منس: وهو حصن قرب معرة النعمان في بلاد الشام، ياقوت: معجم البلدان مج2، ص 44.

21- ابن العديم: زبدة الحلب، مج2، ص 138.

❖ ذكر رنسيمان ان ابن عمر هو امير الحصن وليس ابو عمر وهذا لا ينسجم مع ما ذكره ابن العديم. انظر: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص 365؛ كذلك ابن العديم: زبدة الحلب، مج2، ص 141.

22- ابن العديم: زبدة الحلب، مج2، ص 141.

23- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 137 – 138؛ ابن الاثير: الكامل، مج 10، ص 301.

❖❖ الجزر: قال ياقوت: هي كورة من كور حلب. انظر: معجم البلدان، مج2، ص 133.

24- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 143 – 144.

25- المصدر نفسه، ج2، ص144.

❖ ملطية: وهي في بلاد الروم تحاذي بلاد الشام، ياقوت: معجم البلدان، مج5، ص 192ط.

26- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 300؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 145؛ ابو الفداء، اسماعيل بن محمد (ت: 732م): المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحسينية ط2 (د: ت) ج2 ص212.

27- Matthieu of Edssa, PP. 51 – 52.

نقلا عن: عامرة: العلاقات ص 147.

28- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص145.

29- Chaen: La syrie du nord, P. 241.

30- Anna commena, OP. Cit , P. 356.

31- يتمثل ذلك في الخلافات التي دبت بين امراء الموصل للهيمنة على السلطة، كما احتدم النزاع بين رضوان صاحب حلب وجناح الدولة صاحب حمص نتيجة لمداهنة رضوان للباطنية. وكذلك ما حدث من خلاف بين بني الدانشمند وقلج ارسلان امير سلاجقة الروم، حول موضوع الفدية التي توجب على بوهمند ان يدفعها لاطلاق سراحه انظر ذلك في: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص142؛

Albert: Daix , OP. Cit, P. 610 – 612: Setton. OP. Cit, Vol , 1, P. 300.

32- الكامل، مج 10، ص 345.

33- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 147؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 68.

❖ كفر لاثا: وهي بلدة تقع على سفح جبل عاملة من نواحي حلب. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان مج4، ص 470.

34- ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 148.

35- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 143؛ ابن العديم: زبدة الحلب، مج2، ص 148.

❖❖ الفوعة: ذكرها ياقوت، قرية كبيرة من نواحي حلب، انظر المعجم، مج4، ص 280.

❖❖❖ معرة مصرين: بلدة وكورة من نواحي حلب وتعتبر من اعمالها حيث تبعد عنها حوالي خمسة فراسخ. انظر: ياقوت: معجم البلدان، مج5، ص 388.

❖❖❖❖ هاب: في ياقوت، قلعة عظيمة من العواصم. انظر: ياقوت: معجم البلدان، مج5، ص 388.

36- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 148 – 149.

37- المصدر نفسه، ج2، ص 149.

38- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 77.

39- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2 د، ص 150.

40- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 146؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 149.

41- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 148؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 150 – 151.

42- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 148.

43- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 87 – 88.

44- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 150؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 152.

45- اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 75 – 76.

❖ انظر بعض نصوص هذه الاتفاقية في الملحق رقم (2) على ص 299 - 300 من هذا البحث.

46- Yewdal: OP.CP. 130.

47- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 476.

48- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 158.

❖ بالس: من البلاد الشامية تقع بين حلب والرقا على الضفة الغربية لنهر الفرات. ياقوت: معجم البلدان ج1، ص 328.

49- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 464– 466؛ ابن خلدون: تاريخه، مج5، ص 191.

50- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 481؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 156.

ذكر ابن العديم ان رضوان وتنكرد تصالحا على عشرين الف دينار وعشرة رؤوس من الخيول الاصيلة.

51- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 142؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 482 – 483.

52- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 174؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 485.

❖ تنكرد.

53- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص174.

54- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 486.

55- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 183، 189؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 163. ذكر ابن الاثير انه مات سنة 507 هـ مج 10، ص 449.

56- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 509.

57- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 198، 199؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 179.

58- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 199.

59- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 180– 181.

60- المصدر نفسه: ج2، ص 181، 182.

❖ عند ياقوت: سرمد بلفظ السرمد الدائم، موضع اعمال حلب؛ انظر: معجم البلدان، مج 3، ص 215.

61- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 200، 201؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 189 – 190؛ اسامة: الاعتبار، ص 40.

62- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص239.

63- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 555.

64- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 251.

❖ دامت وصاية بلدوين الثاني على انطاكية زهاء(7) سنوات حتى مجيء بوهمند الثاني من الغرب لاستلام ارث ابيه.

65- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 191.

❖❖ الكرج: هم امة من النصارى كانوا يسكنون منطقة جبال القبق وبلد السرير وقد سيطروا على ما حولهم حتى ملكوا مدينة تفليس. وقد ذكر المسعودي ان بلادهم هي الخزر التي تقع خلف باب الابواب المعروف بالدربند شمال غرب بحر الخزر، وقد خرجوا مع غيرهم من الاقوام يريدون بلاد الاسلام، فاحتشد المسلمون لقتالهم.. للمزيد انظر: ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 565– 568؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 350 – 351.

66- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 209؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 613؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 209– 211.

67- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص610; رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص158.

❖خرتبت: وهو الحصن المعروف بحصن زياد وهو في اقصى ديار بكر من بلاد الروم. انظر: ياقوت: معجم البلدان، مج2، ص355.

68- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص209; ابن الاثير: الكامل، مج10، ص613; ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص209- 211.

❖❖ دبيس بن صدقة: احد الامراء المزيديين في الحلة وقد دخل طرفا في الصراع الذي دار بين السلاجقة والخلفاء العباسيين، ثم رحل الى الشام وحاول الاستيلاء على حلب بالتعاون مع الصليبيين ولكنه فشل في ذلك، للمزيد، انظر: ناجي، عبد الجبار (الدكتور): الامارة المزيدية، دار الطباعة الحديثة(بغداد 1970)، ص 128 وما بعدها.

69- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 221– 228.

70- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 628.

71- William of Tyre, OP. Cit, Vol ,2 , P. 34.

72- اسامة: الاعتبار، ص 121.

73- المصدر نفسه، ص 121.

74- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص281.

75- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 650.

❖ القدموس: قلعة شمال طرابلس بالقرب من الخوابي. انظر: القلقشندي: صبح الاعشى، ج4، ص 147.

76- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 659.

77- اسامة: الاعتبار، ص 122.

❖ الروج: وهي كورة من كور حلب، تقع الى الغرب منها، بينها وبين المعرة. انظر ياقوت: معجم البلدان، مج3، ص 76.

78- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 134؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 131.

79- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص131.

80- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص313.

81- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 75.

82- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 199.

83- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 276.

84- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص353.

85- Mayer: The crusades (Oxford 1972), P. 65.

86- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص433.

87- ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص 18.

88- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 375- 376.

89- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص 485- 487؛ ذكر ابن القلانسي ذلك ضمن احداث عام 504 هـ.

90- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 177.

91- المصدر نفسه، ص 177.

92- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص487.

93- اسامة: الاعتبار، ص 115- 116؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج9، ص 175.

94- انظر: زامباور: معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي، مطبعة فؤاد الاول، القاهرة 1951، ج2، ص 333.

95- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 184- 187؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص496- 497.

❖ دانيث: بلد من اعمال حلب، بينها وبين كفر طاب، انظر ياقوت: معجم البلدان مج2، ص 434.

96- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص509- 511؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 176.

97- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص533.

98- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص236.

99- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص555.

100- المصدر نفسه، مج10، ص568.

101- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 231.

102- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص231.

❖ سحقبا: لعل هذا الاسم هو (سقبا) الذي ذكر ياقوت، بانه قرية من قرى دمشق بالغوطة. انظر: معجم البلدان، مج3، ص 266.

103- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص639.

104- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص652؛ الداوداري: كنز الدرر، ج6، ص 502.

105- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 224- 227؛ ابن الاثير الكامل، مج10، ص657- 658.

106- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 233؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص679- 680.

107- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 235؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص679- 680.

108- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 336- 337؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص684.

109- الكامل، مج 11، ص 20.

110- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص257.

111- ابن العديم: بغية الطلب، ص267.

112- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص55؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص264.

113- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص68.

114- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص74.

115- Virginia, G Berry: The second crusades (in setton: History of the crusades, Vol, 1, P. 501.

116- ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص 133.

❖ يعني سيف الدين غازي.

117- ابن الاثير: الكامل، مج 11، ص 129- 131.

❖ وصف ابن الاثير حصن شيزر بانه قريب من حماه وهو من امنع القلاع واحصنها يقع على حجر عال، له طريق منقور في طرف الجبل وقطع هذا الطريق في وسطه بجسر من خشب، فاذا قطع ذلك الجسر تعذر الوصول الى الحصن، وكان الحصن لبني منقذ الكنانيين توارثوه حتى دمره الزلزال وقتل اهله جميعا ثم اضافه نور الدين الى املاكه. انظر: الباهر ص110- 112.

118- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص278.

119- اعمال الفرنجة، ص 107- 108.

❖❖عرقة: قال ياقوت: بلدة في شرقي طرابلس بينهما اربعة فراسخ، وهي اخر عمل دمشق وقيل عرقة بلد من العواصم. انظر، معجم البلدان، مج4، ص109.

120- اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 52- 55.

121- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص301.

122- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص149- 150؛ ابن الاثير: الكامل، مج 10، ص 408- 410.

123- اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 75 - 76.

124- اسامة: الاعتبار، ص65- 66؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2،ص 186.

125- اسامة بن منقذ: الاعتبار ص120 - 121؛ ابو الفداء: المختصر، ج، ص 224.

126- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص174.

127- المصدر نفسه، ص 177 - 178، ابن الاثير: الكامل، مج10، 487 - 488.

128- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص186- 187؛ ابن العديم: زبدة الحلب ج2، ص 160 - 161.

129- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص183.

130- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 175.

131- اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص 76.

132- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص 216.

133- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 176 .

134- اسامة بن منقذ : الاعتبار، ص76 .

135- انظر: ابن الاثير: الكامل، مج10، ص487 .

136- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص236 .

137- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص554 – 555 .

138- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 197 .

139- انظر ص 145 من هذا البحث.

140- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 222 .

141- المصدر نفسه، ج2، ص 230 – 231 .

142- انظر: اسامة بن منقذ : الاعتبار ص121 – 122 .

143- انظر ص 146 من هذا البحث.

144- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 568 .

145- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص263 .

146- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص341 .

147- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص 588 .

148- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص264؛ ابن الاثير: الكامل، مج11، ص57، 58؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 267 .

149- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص348؛ ابن الاثير: الباهر، ص112؛ ابن الوردي ج2، ص208؛ الحنبلي: شذرات الذهب، مج4، ص 160 .

150- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص348– 349 .

151- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص218 .

❖المحفة: قال ابن منظور ((والمحفة رحل يحف بثوب.. وقيل المحفة مركب كالهودج.. وقال ابن دريد سميت بها لان الخشب يحف بالقاعد فيها اي يحيط به من جميع جوانبه..)) انظر: جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ/ 1311م) لسان العرب المحيط (بيروت 1970) مج1 ص674 .

152- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص349 .

153- William of Tyre, OP. Cit, Vol ,2, P.P. 266- 268.

154- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص349- 350 .

155- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص220 .

156- ابن الاثير: الباهر، ص112 .

157- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص344 .

158- ابن الاثير: الباهر، ص112؛ الدواد اري: كنز الدرر، ج6، ص 556 .

❖ : مدينة بالشام من اوسع مدنها وهي مدينة حسنة في مستوى من الارض، يمر بها النهر المعروف بالمقلوب، وزراعتها مباركة كثيرة. انظر: الحميري: الروض المعطار، ص 198 .

159- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص133.

160- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص276.

161- المصدر نفسه، مج10، ص 277.

162- مجهول: اعمال الفرنجة، ص 109.

163- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 144.

164- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 146؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج، 5 ص 168- 169.

165- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص142.

166- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص192.

167- المصدر نفسه، ج2، ص526.

168- عاشور: تاريخ الحركة الصليبية، ج1، ص526.

169- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 246.

170- المصدر نفسه: ج2، ص246.

171- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص327.

172- انظر ص 140 من هذا البحث.

173- الحميري: الروض المعطار، ص390.

174- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص136؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص310 - 311.

175- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص288.

176- Ramond d, Aigles P. 273.

177- اعمال الفرنجة، مجهول، ص109.

178- Ramond‹ d, Aigles P. 278; Grousset: Hist des crusades Vo, 1,1 , P. P. 132 – 133.

179- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص59 – 60.

180- ابو سعيد (دكتور) حامد غنيم: الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية (القاهرة 1984) ج1، ص221.

181- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص344.

182- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص103.

183- ابن الاثير: الكامل، ج10، ص452.

184- المصدر نفسه، مج10، ص412.

185- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص367.

186- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص106.

187- Cahen: P. 250 – 251.

188- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص164.

189- ابو سعيد: الجبهة الاسلامية، ج1، ص157.

الفصل الرابع:

علاقة امارة انطاكية بالخلافتين العباسية والفاطمية ثم الزنكيين والأيوبيين

أولاً- العلاقات الخارجية

أ- علاقة الإمارة بالخلافة العباسية

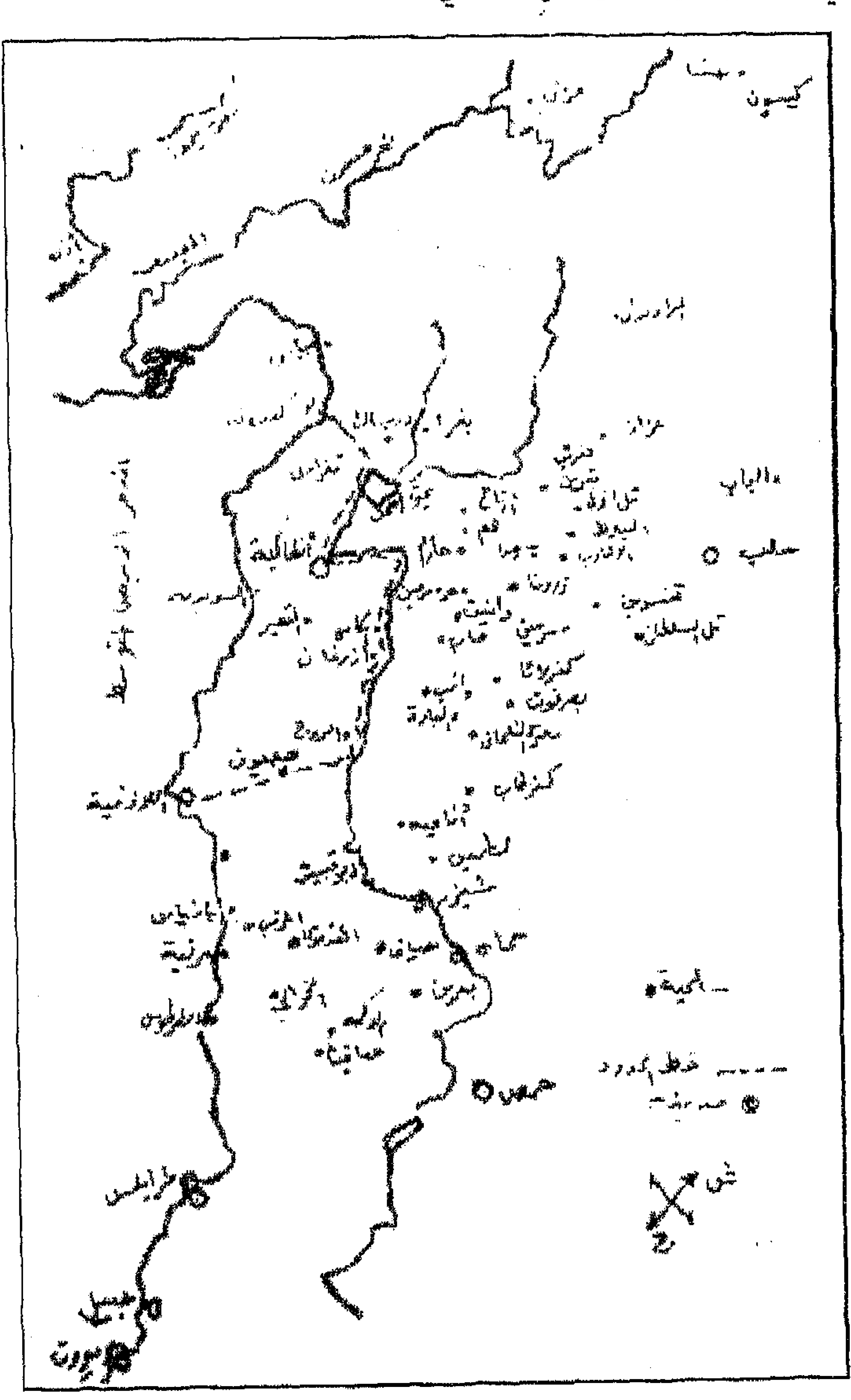
لا يمكن الحديث عن العلاقات السياسية بين الخلافة العباسية وإمارة أنطاكية الصليبية ضمن الإطار المحدد للعلاقات السياسية المباشرة، كما هو حال العلاقات التي سادت بين إمارة انطاكية الصليبية، وحلب أو دمشق، وإنما يأتي الحديث عن هذه العلاقات في نطاق عام ضمن إطار العلاقات السياسية بين مؤسسة الخلافة وعموم الوجود الصليبي، ويمكن القول إنَّ إمارة الموصل التي لعبت دوراً مميزاً عبر مراحل الجهاد الاسلامي ضد الغزو الصليبي، منذ مراحل الجهاد المبكر مروراً بالحقبة الأتابكية وفي ظل الأيوبيين، تعد إحدى الركائز الاساسية لتواصل الخلافة العباسية مع حركة الجهاد ضد الصليبيين، وقد حرص الأتابكة على الارتباط بمؤسسة الخلافة العباسية والسعي الى طلب رضاها للحصول على تفويض بالحكم لإسباغ الصفة الشرعية على حكمهم[1].

وفي هذا المعنى يؤكد ابن الأثير أن الأتابك الجديد بعد وفاة سلفه يرسل الى دار الخلافة يلتمس تقليداً أو تشريفاً من الخليفة بالحكم[2]، فيصله التقليد والخلع له ولنائبه[3].

أمَّا في الحقبة الأيوبية فلا نضيف جديداً إذا قلنا إن صلاح الدين الايوبي كان الابن البار للخلافة العباسية، إذ كانت تشريفات الخلافة وتقاليديها تترى عليه، وهو يخوض غمار الملاحم البطولية ضد الصليبيين[4].

فكانت الخلافة العباسية مصدر الإلهام الروحي والمبدئي لصلاح الدين الأيوبي في جهاده ضد الكيانات الصليبية في بلاد الشام والأرض المقدسة[5].

وهنا يمكن القول إن مؤسسة الخلافة كانت المظلة الأسمى التي استظل بها كل المجاهدين من جند الإسلام الذين تواصلوا مع سوح الجهاد ضد الغزو الصليبي زهاء قرنين من الزمان، سواء جاءت جيوشهم من مصر أو من داخل الشام أو الموصل أو انحدروا من أرض الروم أو أعالي الجزيرة أو المشرق الإسلامي كله.



الخارطة رقم (5)

الحدود التقريبية لإمارة أنطاكية سنة 567 هـ / 1171 م

ELISSEEFF (N.)

- Nur AD-Dinm un Grand Prince Musulman de syrie au temps Des croisades

ومع أن الخلافة العباسية في المرحلة المبكرة من الغزو الصليبي لم يكن لديها من القدرات ما يكفي للوقوف بوجه الغزو الصليبي، إذ إن الخليفة وهو حارس الدين وسائس الدنيا لم يعد له من الأمر شيء، وانما تركزت سلطاته الزمنية في أيدي سلاطين السلاجقة الذين يخوضون غمار حرب أهلية طاحنة بين بعضهم البعض للاستئثار بالسلطة[6].

ومع ذلك فلا زال الخليفة العباسي الرمز الأعلى لإمامة المسلمين والمسؤول عن حفظ ثغورهم ورد أعدائهم، فعندما أحس ياغي سيان، أمير أنطاكية، بالخطر الصليبي الداهم قد اقترب من إمارته سارع بإرسال (ولديه شمس الدولة ومحمد فسار أحدهما إلى دقاق وطغكتين يستنجدهما، وسار محمد ابنه الى التركمان وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه) [7]، هذا فضلا عن سلطان السلاجقة والخليفة العباسي[8] فكان نداؤه الى ((سائر البلاد، والأطرف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الخفوف الى الجهاد) [9].

وعندما ترامت الأنباء إلى مسامع الخليفة المستظهر بالله أرسل وفداً الى السلطان بركياروق الذي كان معسكراً في حلوان (مستنصرا على الفرنج، ومبالغاً في تعظيم الأمر، وتداركه قبل أن يزداد قوة) [10]، داعياً السلطان الى تسوية الخلاف مع أخيه محمد، والتوجه لنجدة المسلمين في الشام[11].

ويبدو أن دعوة الخليفة لم تجد آذاناً صاغية لدى السلطان الذي استمر في حروبه ضد أخيه التي استمرت لسنوات عدة، إلاّ أن السلطان طلب من كربوقا صاحب الموصل أن ينهض لمساعدة أنطاكية، فجمع كربوقا (العساكر، وسار الى الشام. واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها ..) [12].

ويشير صاحب أعمال الفرنجة (الجستا) إلى أن (كربوقا قد استعد للأمر منذ زمن بعيد، لذلك لم يكد يأذن له الخليفة– زعيمه الروحي- بقتال النصارى، حتى جمع جيشاً كبيراً وسار به في الطريق الطويل المؤدي الى أنطاكية) [13].

ولكن كربوقا كان قد أخفق في مسعاه– كما تقدم- وكان اخفاقه تعبيراً عن تمزق وحدة الصف الإسلامي من جهة، وإيذاناً بتفوق الغزو الصليبي من جهة اخرى، فقد تخطى الصليبيون مدينة أنطاكية التي تُعد من أمنع الحواجز في أعالي الشام.

بل إن الأوضاع أصبحت أكثر خطورة عندما أخذ الفرنج يحاولون مد نفوذهم الى حصن حران الذي يقع شمال الجزيرة بين الرها والفرات، مستغلين بذلك حالة الاضطراب في حران إثر مقتل أميرها على يد أحد أتباع أمير حران السابق قراجة[14]، فضلاً عن شيوع الفوضى التي نجمت عن الحرب الأهلية بين بركياروق وأخوه محمد، ثم وفاة كربوقا سنة495هـ/ 1101م فإذا ظفر الصليبيون بحران ربما يوجهون حملة ضد الموصل[15].

هذه الحال دفع جكرمش صاحب الموصل وسكمان الأرتقي أمير ماردين الى توحيد جهودهما (فاجتمعا على الخابور وتحالفا وسارا الى لقاء الفرنج) موحدين قواهما لتوجيه ضربة قوية الى قوة الفرنج التي أخذت تتنامى بشمال الشام، فحشدا جيوشهما زاحفين صوب الرها، أمَّا صاحب الرها- بلدوين الثاني- فقد استنجد ببوهمند أمير أنطاكية وآخرين، فكانت وقعة حران على نهر البليخ سنة 497هـ/ 1103م حيث نصر الله المسلمين على الفرنج (فقتلوهم كيف شاؤوا.. وكان بيمند وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم) [16].

ولكن هذه الهزيمة المرة كسرت شوكة الفرنجة، وحطمت الأسطورة القائلة إن الفرنج لايقهرون [17].

وبعد أن عزل السلطان السلجوقي محمد، جكرمش صاحب الموصل ونصب مكانه شخصاً آخر هو (جاولي سقاو) الذي اتفق مع رضوان صاحب حلب على شن هجوم على إمارة أنطاكية [18]، غير أن الأخير لم يكن محبوباً لدى الناس، ولم يكن ولاؤه خالصا للسلطان محمد، لذا قرر عزله، فأرسل الأمير مودود، على رأس جيش ليحل محله في إمارة الموصل، فخرج جاولي مطروداً منها، ونزل في اقليم الجزيرة، ثم أخذ يساوم الفرنج على أسراهم (بلدوين لي بور صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر) مقابل فدية، الأمر الذي لم يسر تنكرد الذي ظل أربع سنوات سيداً على الرها بعد أسر صاحبها بلدوين، فاتسع الخلاف بين أمراء الفرنج، ولم ينته الموضوع إلاّ بمجيء بلدوين ملك بيت المقدس الذي استطاع أن يرسي أسس الوفاق بينهم [19].

وعندما أخذ رضوان صاحب حلب يمالىء تنكرد صاحب أنطاكية ولايخفي الانقياد إليه، توجه وفد من أهالي حلب إلى بغداد شاكين أميرهم وداعين إلى الجهاد- كما مر ذكره- فهاج الناس في بغداد، وكسروا منابر الجوامع، وأبطلوا صلاة الجمعة، فأمر الخليفة السلطان السلجوقي بإعداد العدة للجهاد [20].

وفي عام 509هـ/ 1115م قاد برسق بن برسق، يسانده جيوش بك أمير الموصل- كما قدمناه- جيشاً كثيفاً بأمر السلطان السلجوقي محمد، وكان على برسق أن يتدبر أمرين مهمين، أولهما: أن يفرض سلطانه على الأمراء المتنافسين في الشام بهدف توحيد ساحة الجهاد، وثانيهما مجاهدة الفرنج، فبادر ايلغازي الأرتقي إلى التحالف مع طغتكين أتابك دمشق، ثم انضم الى الحلفاء الطواشيء لؤلؤ، متولي حلب، أمَّا روجر صاحب أنطاكية فإنه وجد ضالته في ذلك الحلف، فسارع للانضمام إليه، واستنجد الحلفاء بملك بيت المقدس، وكونت طرابلس، وبالنظر لمساندة أميري شيزر وحمص لجهود السلطان السلجوقي، فقد

رابط برسق في شيزر، ثم تظاهر بحركة انسحاب نحو الجزيرة لايهام خصومه الذين انطلت الخطة عليهم، فعاد بلدوين وبونز الى بلديهما، فكرّ برسق راجعاً إذ تمكن من استعادة كفر طاب وتسليمها إلى بني منقذ، إلاّ ان برسق فوجيء بهجوم قوي شنه روجر صاحب أنطاكية عند تل دانيت، في الوقت الذي لم تكن القوات الإسلامية مهيئة لدخول المعركة، فخسر برسق المعركة وتقهقر الى الوراء[21].

في عام 518هـ/1125م تمكن أمير الموصل آق سنقر البرسقي من الزحف الى الشام ودخول حلب، ثم استطاع أن يستولي على كفر طاب التي سبق أن استعادها الفرنج، وعند ذاك سارع الملك بلدوين الى المسير نحو الشمال، فقاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها لمواجهة الموقف، إذ التقى الجيشان في منطقة عزاز، ودارت معركة شرسة بين الطرفين، لم يتمكن البرسقي فيها من احراز النصر، لذا تم التوصل الى عقد هدنة بين الطرفين، اذْ احتفظ المسلمون بكفر طاب بموجب هذه الهدنة، وعاد البرسقي إلى الموصل[22].

ثم عادت الموصل لحمل راية الجهاد مجدداً في عهد عماد الدين زنكي الذي أصبح أتابكاً في الموصل، وسعى بجد الى توحيد الشام والجزيرة لمواجهة الفرنج، فتوجه نحو الشام فدخل حلب عام 522هـ/1128م[23] وبادر الى مهادنة الفرنج بصورة مؤقتة لكسب الوقت، والى ذلك يشير ابن الأثير بقوله[24](وأرسل [عماد الدين] إلى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التي بيد الفرنج بالجزيرة، وهادنه مدة يسيرة، يعلم أنه يفرغ من الاستيلاء على مابقى له من البلاد الشامية والجزيرة)، ثم توجه الى السلطان محمود السلجوقي عام 523هـ/1129م الذي أكرمه، ومنحه (التواقيع السلطانية بملك الغرب كله)[25].

وبذلك تمكن من بسط سلطانه على مناطق واسعة من الشام، وابان ذلك لقي صاحب أنطاكية- بوهمند الثاني- مصرعه على يد أتباع الدانشمند، فتولت زوجته الأميرة (اليس) الوصاية على ابنتها (كونستانس)، وقد حاولت هذه المرأة أن تتشبث بمقاليد السلطة، وأن تفلت من وصاية والدها الملك بلدوين على انطاكية، فبادرت إلى الاتصال بزنكي، ولكن رسولها وقع في يد جيوش الملك الذي توجه نحو شمال، وبذلك فشلت تلك المحاولة[26].

غير أن زنكي استطاع بعد مدة الاستيلاء على عدد من الحصون عند الحدود الشرقية لأنطاكية، مثل: كفر طاب، والمعرة، وزدنا، والاثارب ولكنه اضطر للعودة الى الموصل مرة أخرى[27].

ويمكن القول: إن مصرع عماد الدين زنكي واستقلال ولديه عن بعضهما، نور الدين في الشام، وسيف الدين غازي في الموصل كان نقطة التحول في دور الموصل على ساحة الجهاد ضد الفرنج، إذ تضاءل دور الموصل المركزي وذلك لظهور نور الدين الذي التف حوله المسلمون في

الشام لمواجهة الكيان الصليبي، ولكن ذلك لا يعني تخلف الموصل عن مجاهدة الصليبيين، ففي اوائل سنة544هـ/1149م حشد صاحب أنطاكية قواته لمهاجمة أعمال حلب، فاجتمع إلى نور الدين (فريق وافر من العسكر الدمشقي) [28] وأسهم سيف الدين غازي أمير الموصل في هذه الجولة من الجهاد بإرسال العسكر تلبية لنداء أخيه فتوجهت جيوشه إلى أنطاكية[29].

وعند اجتماع الجيوش الإسلامية دارت المعركة عند حصن (انب) * فانهزم الفرنج هزيمة منكرة، ولقي صاحب أنطاكية مصرعه، (وحمل رأسه إلى نور الدين فوصل حامله بأحسن صلة) [30].

ويذكر أن نور الدين أرسل رأس الأمير ريموند في صندوق من الفضة إلى دار الخلافة ببغداد [31].

ثم يتواصل دور الموصل في حركة الجهاد، ففي عام 559هـ /1164م، أراد نور الدين التعرض للفرنج في الشام لإشغالهم عن مساعدة عموري ملك بيت المقدس لإرغامه على ترك مصر، وعدم إفساح المجال أمامه للتدخل في شؤونها، فتوجه نور الدين الى حلب، وأرسل الى الأطراف داعياً إلى الجهاد، فنهض قطب الدين مودود بعساكر الموصل، كما شارك صاحبي حصن كيفا** وحصن ماردين*** [32].

وقد تحدث المؤرخون عن الدور الكبير الذي قام به عسكر الموصل في القتال عندما أباد راجلة الصليبيين وأسر الكثير منهم[33]، (وأخذ أكثر قرى عمل أنطاكية) [34].

وشارك عسكر الموصل إلى جانب عساكر الشام عندما أعد نور الدين العدة لقتال الصليبيين سنة 567هـ/1172م، إثر سيطرة الصليبيين على سفينتين مصريتين، اضطرتا للرسو في ميناء اللاذقية الذي كان بيد الصليبيين، وأخذوا يماطلون في إعادة السفينتين[35].

ويلوح مما تقدم أن إمارة الموصل، إحدى ولايات الخلافة المهمة، كانت تمثل العمق الستراتيجي لدولة الأتابكة، التي حملت راية الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في أدواره النشطة، حتى وفاة نور الدين محمود في الحادي عشر من شوال سنة 569هـ/1173م[36]، إذ دخلت العلاقة بين الموصل وبلاد الشام في سلسة من التطورات، اثر ظهور صلاح الدين على الساحة الإسلامية، ومحاولته ملء الفراغ الذي تركه رحيل نور الدين محمود، وبذلك إستمرت الموصل في تواصلها في ميدان الجهاد ضد الصليبيين، وأصبح أتابك الموصل عبارة عن نائب عن صلاح الدين وأحد اتباعه[37].

ويبدو أن صلاح الدين اشترط على صاحب الموصل أن يتعهد في النهوض بعساكره، وبذل أمواله في الجهاد الذي يقوده ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام عندما يطلب منه ذلك[38].

وقد شاركت عساكر الموصل نيابةً عن الخلافة، التي اقتصر نفوذها على العراق في معظم المعارك الكبيرة التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين[39].

ففي سنة 586هـ/1190م قاتلت عساكر الموصل الصليبيين أمام عكا جنباً الى جنب مع عساكر مصر والشام، (وكان مقدمهم علاء الدين حزم شاه ابن عز الدين مسعود صاحب الموصل، فحملوا أيضا على الفرنج وبالغوا في قتالهم، ونالوا منهم نيلاً كثيراً)[40].

وفي زمن الملك العادل شاركت أيضا عساكر الموصل في معظم المعارك الكبيرة ضد الفرنج[41].

وهكذا استمرت إمارة الموصل بزعامة حكامها الأتابكة، تحت ظل الخلافة العباسية، سباقة الى ميدان الجهاد ضد الغزو الصليبي، حتى سنة 631هـ/1233م عندما انتهى حكم الأسرة الأتابكية على يد بدر الدين لؤلؤ حينما أعلن الأخير عن وفاة ناصر الدين محمود بن القاهر عز الدين مسعود[42]، وقد أشار ابن تغري بردي إلى أن لؤلؤ أمر بقتل الأمير الزنكي[43].

وعلى أيه حال فقد دخلت إمارة الموصل مرحلة جديدة في عهد بدر الدين لؤلؤ، ومن الطبيعي أن يتأثر دور الموصل بالحالة العامة التي سادت القوى الإسلامية في هذه المرحلة، ومع أن بدر الدين لؤلؤ قد سار على سياسة خارجية واضحة المعالم تقوم على تقوية أواصر العلاقات مع الخلفاء العباسيين، والتقرب إلى حكام الأطراف[44] غير أن دورها على الساحة الاسلامية لم يكن كسابق عهده نتيجة لحالة التجزئة السائدة، وظهور خطر المغول الذي أصبح على الأبواب، ومع ذلك فإن المتتبع لإوضاع إمارة الموصل لا يعدم بعض الوقفات الجهادية للإمارة ضمن الإطار الإسلامي العام ضد الصليبيين، فقد كان لؤلؤ يجاهر بولائه للملك الناصر (داود بن عيسى بن محمد بن أيوب) صاحب دمشق، فقد قال لؤلؤ: (إنني مملوك السلطان الناصر صاحب دمشق... والبلاد بلاده)[45] وذكر سبط بن الجوزي، أن لؤلؤاً كان على علاقة بحكام حلب أيضاً، ويبدو أن هذه العلاقة كانت على فترات متقطعة[46].

ففي سنة 615هـ/1218م أرسل لؤلؤ (ولده الأكبر في جمع صالح من العسكر إلى الملك الأشرف بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر، وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التي بساحل الشام ينهبها ويخربها ليعود بعض من بدمياط إلى بلادهم، فيخفف الأمر على الملك الكامل صاحب مصر)[47]

وعلى أية حال يمكننا القول إن الأدوار التي لعبتها إمارة الموصل ضد الصليبيين في هذا العهد كانت طفيفة، ولم ترق الى سابق عهدها حينما كانت الموصل تعد إحدى أقطاب الجهاد ضد الفرنج، وهكذا استمر دورها حتى انتهت على يد المغول 660هـ/ 1261م[48].

ثانياً- علاقة الإمارة بالخلافة الفاطمية

كان رد فعل الخلافة الفاطمية في مصر على الصليبيين ضعيفاً في بدايته، شأنها في ذلك شأن الخلافة العباسة في بغداد، بل كان أضعف كثيراً من رد فعل بغداد، ذلك لأن الخطر الصليبي كان مباشراً للخلافة العباسية لأنه لامس الأرض الخاضعة لنفوذهم، ولو اسميا، من خلال سلاجقة الروم، والسلاجقة في بلاد الشام وأنطاكية على وجه الخصوص.

وفي حين كانت ملامسة الصليبيين لأملاك الفاطميين بدأت عندما قصد الصليبيون بيت المقدس، ومدن الساحل الخاضعة لنفوذهم، فضلاً عن الخلافات القائمة بين الخلافتين لأسباب مذهبية وسياسية، فكان التنازع على بلاد الشام مظهراً من مظاهر الصراع الحاد بين الطرفين.

وأكثر من ذلك إن مراكز القوى في عموم المنطقة العربية والإسلامية لم تكن- من الناحية الفعلية- بيد الخلافتين على حد سواء[49].

ومن هنا اتسم تاريخ الدولة الفاطمية في مصر ابان الغزو الصليبي بحقبة قائمة من مراحل تطوره، ولم تحظ هذه الحقبة بالعناية لدى الدارسين بالقدر الذي حظيت به الحقبة الاولى، من تاريخ هذه الدولة عند اتساع سلطانها وقوة بنيانها، ويشير عدد من المؤرخين إلى سبب هذه الظاهرة بأنه مظهر من مظاهر الاهمال العام، وأن الحروب الصليبية في الشام توالت أحداثها الرئيسة الكبرى في شمال الشام حتى آلت الدولة الفاطمية إلى السقوط، ومرد ذلك إلى أن الأدوار الكبرى للجهاد ضد الصليبيين جاءت من شمال العراق، إذ حملت الموصل راية الجهاد لمدة طويلة، ولم تصبح مصر مسرحاً أساسياً للنشاط الإسلامي إلاّ في الأحداث التي ارتبطت بسقوط الخلافة الفاطمية فيها وقيام الدولة الأيوبية[50].

وعند العودة الى ردود الفعل المبكرة- عندما أصبح الصليبيون على مشارف أنطاكية- واستنجاد أميرها بالأطراف الإسلامية، نجد أن معظم تلك الاطراف قد استجابت، ولو بصورة متفاوتة، لإنجاد أنطاكية ضد جيوش الغزو الصليبي في الوقت الذي كان الفاطميون يعدون سفارة للتفاهم مع الصليبيين.

وهناك إشارة إلى أن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومونين قد نصح الصليبيين أثناء مرورهم بالقسطنطينية بالتعاون مع الفاطميين ضد السلاجقة الذين أبدوا استعدادهم لقبول فكرة سقوط أنطاكية بيد الغزاة[51].

ووصلت فعلاً تلك السفارة الى الصليبيين أمام أسوار أنطاكية قبل سقوطها، "لتحديد مستقبل العلاقات بين الطرفين، على أن تكون شمال الشام للصليبيين، وجنوبيه للفاطميين[52].

ويذكر أن السفارة الفاطمية نقلت عن الخليفة الفاطمي، وعده باصلاح كنائس المسيحيين، وحماية أماكن عبادتهم، وفتح أبواب المدينة المقدسة لكل الحجاج، ولكن الصليبيين أجابوا عن هذه العروض بطريقة مختلفة تماماً عندما أناخوا أمام خيمة سفارة مصر أربعة جمال محملة برؤوس المسلمين الذين تمكن الصليبيون من الإجهاز عليهم[53].

ويبدو أن الصليبيين حاولوا تحييد الفاطميين لكسب الوقت، إذ عادت السفارة المصرية الى القاهرة وبرفقتها بعثة صليبية رغم عدم التوصل الى اتفاق واضح بين الطرفين[54].

ومع ذلك فقد أضفت تلك السفارة على الوجود الصليبي في شمال الشام وضعاً سياسياً معترفاً به إلى حد ما [55].

بل إن الفاطميين عندما أصبح موقف القوات الإسلامية في حرجاً شمال الشام وأصبحت غير قادرة على مدافعة الغزو الصليبي الذي أطبق على أنطاكية، وهزم القوات التي نهضت لنجدتها، بادروا إلى مد نفوذهم مجدداً إلى بيت المقدس الذي كان تحت حكم الأراتقة، فسارت جيوشهم (ومقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي، وحصروه وبه الأمير سقمان وايلغازي ابنا ارتق.. وملكوه بالأمان في شعبان سنة تسع وثمانين واربعمائة) [56].

وقد فعلوا هذا للاستيلاء على أراضي المسلمين بدلاً من ضم قواتهم الى الجيوش الإسلامية المتحشدة للدفاع عن أراضي المسلمين في شمال الشام.

وبذلك يتحمل الفاطميون قسطاً كبيراً من مسؤولية نجاح الصليبيين في حملتهم الأولى، فقد امتلكوا أجزاءً مهمةً من الوطن العربي[57].

وعلى أية حالة فموقف الفاطميين من الغزو الصليبي في مرحلته الأولى اتسم بالسلبية، وهنا يتسائل أبو المحاسن[58]، عندما أخذ الصليبيون المعرة بعد سقوط أنطاكية، وانحاز أمراء الشام والجزيرة الى بعضهم لمواجهة الغزو، فيقول: (ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال).

ولكن الأمر لم يعد خافياً على الفاطميين عندما انحدر الصليبيون جنوباً نحو فلسطين، وقد تلقى الفاطميون جواب الصليبيين المليء بالعنجهية من خلال سفارتهم المحملة بالهدايا الى الصليبيين قرب طرابلس التي نقلت رغبة الخليفة الفاطمي في السماح للصليبيين بالحج في دفعات تتألف من مئتين أو ثلاثمائة من منزوعي السلاح، فأجابه الصليبيون بأنهم سيتمكنون من الحج، ولكن بإذن الله، وليس بإذن الخليفة الفاطمي[59].

ومع أن مواقف الصليبيين أصبحت واضحة للفاطميين (كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج) [60].

ولكن عندما سقط بيت المقدس بيد الصليبيين خرج الفاطميون من الغمامة التي كانت

تلفهم، عند النظر الى طبيعة الغزو الصليبي، ونهضوا لمقاومته بعد الاستكانة، والى ذلك يشير ابن الأثير[61] بقوله: (إنَّ المصريين لما بلغهم ما تم على أهل القدس جمع الأفضل أمير الجيوش والعساكر، وسار الى عسقلان، وأرسل الى الفرنج ينكر عليهم بما فعلوه ويتهددهم) ومن الواضح أن رد الفعل الفاطمي هذا جاء بعد فوات الأوان.

ثم توالت الحملات الفاطمية ضد الصليبيين في السنوات التالية[62]. وهذا ينهض دليلاً على أن الخلافة الفاطمية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام التوسع الصليبي، بل إنها حاولت جاهدة إنقاذ الموقف رغم النتائج المؤسفة التي حصلت عليها.

وهنا يبرز دور إمارة أنطاكية في الصراع القائم بين مملكة بيت المقدس ومحاولاتها التوسعية على حساب المدن الساحلية التابعة للخلافة الفاطمية ولو اسميا وبين الفاطميين الذين حاولوا جاهدين ضد التوسع الصليبي في الساحل، فكان دور أنطاكية ممثلاً في النجدات العسكرية التي كان يرسلها أمراؤها لتعزيز قوات بيت المقدس، ففي سنة 496هـ/1102م وبعد خسارة الجيوش الفاطمية أمام بلدوين ملك بيت المقدس استشاط الوزير المصري الأفضل غضباً، فأرسل حملتين أحدهما برية والأخرى بحرية مما جعل الصليبيين في موقف حرج، لذا أرسل بلدوين الأول رسالة عاجلة الى تنكرد الوصي على عرش أنطاكية، والى أمير الرها طالباً منهما النجدة[63] وقد وصلت هذه النجدة بقيادة أميري انطاكية والرها[64].

هذه الحشود الصليبية أرغمت وزير مصر الأفضل على التفكير بضرورة التعاون الإسلامي ضد الغزو الصليبي، فبادر الى مناشدة شمس الملوك دقاق صاحب دمشق بمد يد العون ولكن الأخير لم يلب نداءه[65].

وفي نفس العام عاد تنكرد الى بيت المقدس، فانحاز في عساكره الى الحملة الموجهة الى مهاجمة عسقلان[66].

وفي سنة 498هـ/1104م جهز الأفضل حملة كبيرة للتوجه الى فلسطين، وقد ولى قيادتها أحد أبنائه الأمير (شرف المعالي) (وكوتب ظهير الدين أتابك بالاستدعاء للمعونة، والاعتضاد إلى جهاد الكفرة الأضداد فلم يتمكن من الإجابة الى المراد .. ثم استدرك الرأي واستصوب المسير الى العسكر المصري للاعتضاد على الجهاد فسار إليه ووصل)[67].

أما بلدوين الأول ملك بيت المقدس فقد جمع كل أفصاله من أمراء الصليبيين وجيوشهم، وقد خسرت القوات الإسلامية أمام الفرنج وتفرقت جيوشهم[68].

وتُعد هذه المعركة التي دارت في الرملة آخر المحاولات المصرية الكبرى التي قام بها الفاطميون لاسترجاع فلسطين[69].

وبذلك تغيرت طبيعة الحملات الفاطمية ضد الصليبيين من هجمات كبرى لاسترداد المناطق الواسعة أو بعضها التي سبق وأن انتزعها الصليبيون إلى هجمات استفزازية لزعزعة الوجود الصليبي في فلسطين[70].

ويمكن القول إن مدينة عسقلان كانت مركزاً للغارات الفاطمية ضد الصليبيين، غير أن طبيعة الغارات بين الطرفين قد تغيرت في المرحلة اللاحقة عندما يمم الصليبيون وجوههم صوب مصر للاستيلاء عليها، وكان من نتيجة ذلك على ما يبدو أن غيّر الفاطميون استراتيجية التعامل مع الغزو الصليبي، إذ انتقلت ساحة المعركة الى الأراضي المصرية؛ فأصبح لازماً على الفاطميين حماية أراضي مصر، ووجب عليهم أن يعززوا تواجد قواتهم في عسقلان، ويذكر أن الخليفة الحافظ كان يبعث كل ستة أشهر بقوات عسكرية الى عسقلان[71].

ويمكن للمتتبع لطبيعة الصراع بين الفاطميين والصليبيين وما ترتب على ذلك من النتائج، يمكنه أن يلمس حقيقة واضحة، هي أن الجهود الفاطمية لم تؤد الى نتيجة ايجابية بالنسبة للجبهة الإسلامية، بل العكس من ذلك فقد استطاع الصليبيون أن يفرضوا سيطرتهم على المناطق الساحلية وكان آخرها هو مدينة عسقلان عام 548هـ/1153م[72].

ومع أن طبيعة البحث لا تمكّنا من الاتساق مع أدوار الصراع الفاطمي الصليبي في إطاره العام إلاّ أنه تجدر الإشارة إلى أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس كان أول من نقل ساحة الصراع إلى داخل أراضي مصر، فقد وصل إلى الفرما التي خلت من سكانها، فأحرق جامع الفرما ومساجدها[73].

ويشير عدد من المؤرخين إلى أن بلدوين الثاني قد ذهب إلى أبعد من ذلك، فقد ذكر ابن الأثير[74]، أن بلدوين (قد سار إلى ديار مصر في جمع الفرنج قاصداً ملكها والتغلب عليها، وقوي طمعه في الديار المصرية وبلغ مقابل تنيس).

ويظهر من ذلك أن المسلمين قد دأبوا على الاستمرار في توازن الصراع مع الصليبيين بكامل وجودهم بالشام أو مصر، فكلما حاول الصليبيون أن يطرقوا مصر يبدأ المسلمون بالضغط على الصليبيين في الشام لإرباك خططهم في غزو مصر.

ففي سنة 559هـ/1163م أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه إلى مصر لمناصرة الوزير شاور الذي طلب النجدة من نور الدين، غير أن شاور، بعد أن استتبت له الأمور تنكر لنور الدين، وطلب معونة الفرنج لإخراج شيركوه من مصر، وهكذا أصبح شيركوه محصوراً بين أتباع شاور من جهة، والفرنج من جهة أخرى[75].

وعند ذلك بدأ نور الدين بالضغط على ممتلكات الفرنج في بلاد الشام لإجبارهم على

العودة من مصر، فسار نحو حارم وبانياس، فوصل الخبر إلى الفرنج في مصر، (إذ أتاهم الخبر بكسرة الفرنج على حارم، وتملك نور الدين لها مسيرة بعد ذلك الى بانياس لأخذها، فعظم عليهم وخافوا على البلاد، فراسلوا أسد الدين في الصلح) [76]، (وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا إلأوقد ملكها [نور الدين]) [77].

وقد تزعم أمير أنطاكية جميع الفرنج بالساحل للدفاع عن حارم، ولكنه مني بهزيمة مروعة أمام نور الدين، ووقع هو نفسه في الأسر [78].

وفي سنة 563هـ/1166م عندما كان شيركوه يقاتل الفرنج في مصر، قصد نور الدين بلادهم (وسارت عساكرالمسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد) [79].

ودامت الحال على هذه الصورة حتى زوال الخلافة الفاطمية سنة 567هـ/1171م.

ثانيا: العلاقات المحلية

أ-علاقة الإمارة بالزنكيين

في سنة521هـ/ 1127م توفي صاحب الموصل الأمير عز الدين مسعود بن آقسنقر البرسقي، الذي وافاه الأجل عند مدينة الرحبة، حينما توجه نحو بلاد الشام قاصداً مدينة دمشق [80].

ويبدو أن عماد الدين زنكي بن آقنسقر الحاجب، الذي فاز بأتابكية الموصل بعد البرسقي، كان أفضل المرشحين لهذا المنصب، وبعد أن أمضى أشهراً من سنة 521هـ/1127 م لترتيب أمور أتابكيته الجديدة [81] توجه في مطلع سنة 522هـ/1128م إلى حلب التي أصبحت جزءاً من أملاك البرسقي، فرحب به أهلها الذين رأوا فيه منقذاً لمدينتهم من الفوضى التي كانت تعيشها، (وأظهروا من الفرح والسرور ما لايعلمه إلاّ الله سبحانه وتعالى.. ولولا أن الله تعالى مَنّ على المسلمين بولاية الشهيد زنكي لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه) [82] هذا على حد قول ابن الأثير.

فأخذ يوطد مركزه في بلاده، ويوسع دائرة نفوذه، إذ تمكن في سنة 524هـ/1129م من الاستيلاء على مدينة حماه، ثم حاصر مدينة حمص ولم يظفر بها، فعاد متوجها الى الموصل [83] ليريح عسكره ويدبر شؤونها، ثم عاد الى الشام، وكان ينوي هذه المرة أن ينتزع حصن الأثارب من الفرنج لأهمية ذلك الحصن وشدة ضرره على المسلمين، فهو لايبعد عن حلب سوى ثلاثة فراسخ باتجاه أنطاكية (وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربية، حتى على رحى لأهل حلب بظاهرة باب الجنان، بينهما وبين البلد عرض الطريق) [84].

فتمكن من انتزاع الحصن بعد قتال شديد[85].

أمّا أنطاكية فقد تعرضت في 524هـ/1129م لحادثة كبيرة، فقد لقي أميرها بوهمند الثاني مصرعه وهو يتجه الى قيليقية لتوطيد سلطان إمارته هناك، ولم تنجب زوجته (اليس) ابنة الملك بلدوين- سوى طفلة كانت في الثانية من عمرها حين مصرع أبيها، فبادرت الأميرة الأرملة الى تولي مقاليد الأمور في أنطاكية من دون أن تنتظر ماسيفعله والدها بلدوين، ملك بيت المقدس[86].

ومما أقدمت عليه أنها أرسلت إلى زنكي رسولاً مع هدية ليخبره أن الأميرة على استعداد أن تعترف بالتبعية إذا ما أمنت جانبه في عدم الاستيلاء على أنطاكية[87].

غير أن عساكر والدها الذي عجل نحو الشمال، عند سماعه بنبأ وفاة الأمير، ألقت القبض على الرسول، وأمر الملك باعدامه ثم نفى ابنته الى اللاذقية، وتقلد مجدداً وصاية أنطاكية[88].

وفيما يخص مستقبل العلاقة بين الإمارتين حلب وأنطاكية فإنها اتخذت طابعاً جديداً بعد أن أصبحت حلب قاعدة للدولة الزنكية في بلاد الشام، وسيكون لها شأن مهم ضمن إطار الدولة الجديدة التي أخذت تسعى إلى توحيد القوى الإسلامية، وهذا ما حدث فعلاً في عهد نور الدين محمود الذي اكتملت في عهده وحدة بلاد الشام ومصر فضلاً عن منطقة الجزيرة والموصل التي كانت بيد إخوته وأبناء بيته.

وستكون الصفحات الآتية من هذه الدراسة مكرسة لبحث أبرز العلاقات بين الزنكيين والأيوبيين وإمارة أنطاكية.

عماد الدين زنكي الذي انهمك بما يجري من صراع بين الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[89]، لم ينس دوره في تحريك الأحداث في الشام، فقد شجع عامله على حلب المدعو سيف الدين سوار، في ربيع سنة 528هـ/1133م بالغارة على أنطاكية التي استبد الفزع بأهلها، فاستنجدوا بالملك فولك الذي حاول أن يحول دون هجمات سوار[90]، وسار صوب أعمال حلب فخرج إليه سوار فيمن معه، ولكن سوار خسر الجولة الأولى في حربه ضد الملك الفرنجي ثم عاود الكرة، (فوقع على طائفة منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر، ودخل أسوار حلب، ومعه الأسرى ورؤوس القتلى، وكان يوما مشهودا)[91].

بعد ان اطمئن زنكي إلى ما يجري في العراق، والحصول على تأييد الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله والسلطان مسعود السلجوقي توجه نحو الشام مرة أخرى[92]، وقد بدأ نشاطه العسكري في أرض الشام سنة 530هـ/1135م بالهجوم على الصليبيين شرقي نهر العاصي (وسار الى حلب فنزل على الأثار ففتحها أول رجب، ثم فتح زردنا، ثم تل اغدي، ثم

فتح معرة النعمان، ومنَّ على أهلها بأملاكهم، ثم فتح كفر طاب، ونزل على شيزر.. ثم نزل بارين* وأظهر أنه يحاصرها، ثم سار وأهل حمص غادون فشن عليهم الغارة) [93].

وفي سنة 530هـ/ 1135م نهض الأمير سوار من حلب بمجموعة الى اللاذقية وحاز على الظفر الكبير، وقد ورد في كتاب البشري الذي يصف نصر المسلمين (ونهضوا الى بلاد اللاذقية وأعمالها بغتة بعد اليأس منهم وقلة الاحتراز من غاراتهم، وعادوا من هذه الغزاة الى شيزر.. ومعهم سبعة الآف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي، ومئة ألف رأس دواب.. والذي حازوه واحتاجوه يزيد على مئة قرية) [94].

في عام 531هـ/1136م استطاع الملك فولك أن يحل مشكلة شغور عرش إمارة أنطاكية، وذلك باسناده الإمارة إلى أحد الفرسان المدعو ريموند بواتيه الذي تزوج الأميرة كونستان وريثة الإمارة، وبذلك انتهت وصاية الملك على أنطاكية [95] ولكن الأمير الجديد قد وجه بداية اهتمامه نحو مدن قيليقية التي ضاعت من أنطاكية منذ 526هـ/ 1131م، فقد سيطر أمراء بيت روبين الأرمن على مدن: المصيصة، وطرسوس، وأذنة، ولكن ريموند لم يفلح في مسعاه بالنظر للتطورات الجديدة على الجبهة الجنوبية، فوجد نفسه مضطرا للتوجه نحو بارين (بعرين) حيث كان الملك فولك محاصراً من قبل زنكي [96]، غير أن ريموند بواتيه الذي عاد إلى أنطاكية بعد فك حصار الملك فولك وجد إمارته محاصرة من قبل الامبراطور البيزنطي حنا كومنين الذي استمر في حصارها حتى ركع ريموند للإمبراطور وأعلن تبعيته له، ثم توجه ريموند بجيشه في معية الإمبراطور لشن هجوم على حلب عام 532هـ/1138م إلاّ أن مناعة استحكامات المدينة حالت دون سقوطها، فعندما نزل ملك الروم على حلب، ونصب خيمته على نهر قويق وكان معه ريموند صاحب أنطاكية، (وخرج إليهم أحداث حلب فقاتلوهم وظهروا عليهم، وقتل من الروم مقدم كبير، ورجعوا الى خيمهم خائبين)، ثم رحلوا [97].

فتوجهت الجيوش المسيحية صوب الجنوب فاحتلت الأثارب، ومعرة النعمان، وكفر طاب [98]، ثم عرج الإمبراطور نحو شيزر، ومنها عاد الى أنطاكية ثم رحل الى بلاده [99].

وفي خضم هذه الأحداث الساخنة في عموم المشرق العربي والساحة الشامية بصورة خاصة، كانت نهاية عماد الدين زنكي حامل لواء الجهاد الإسلامي ضد الفرنج الذي سطع نجمه بعد أن أزاح إمارة الرها الصليبية من الوجود عام 539هـ/1144م [100]، إذ فاجأه الموت في قلعة جعبر على يد أحد الخدم عام 541هـ/1146م، فتنفس أعداؤه الصعداء، وكان لمصرعه أثر كبير على توازن القوى المتصارعة في المنطقة [101].

فقد (كان الأعداء محدقين ببلاده، وكلهم يقصدها ويريد أخذها) [102] ولكن موت عماد الدين لا يعني، كما تمنى الأعداء، زوال الراية الزنكية المجاهدة بل على العكس، أصبحت

الساحة الشامية، في ظل الزعامة الجهادية الشابة، أكثر نضجاً وإصراراً، لاسيما وأن نور الدين محمود كان رجل الساعة، والشخصية القيادية التي حوت من المؤهلات والخلال ما كانت تتطلبه الظروف من كل ناحية، وهو الشخص الذي أنفق مع أبيه السنوات الطوال في سوح القتال، وورث عنه الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام[103].

وفيما يخص أثر وفاة عماد الدين زنكي على العلاقة بين إمارتي أنطاكية وحلب فإن ريموند صاحب أنطاكية أخذ بالإغارة حتى وصل الى نواحي حلب، (فقتل وسبى عالماً عظيماً، وتمادى حتى وصل الى صلدى ونهبها)، فخرج لملاقاته أسد الدين شيركوه الذي تمكن من صد هجومه، وخلّص الأسرى الذين كانوا بين يديه، فعاد الى حلب مظفرا [104]، وفي سنة 542هـ أغار نور الدين على أعمال أنطاكية، واستعاد مدينة ارتاح، وبسرفوث، وكفر لاثا [105]، لذا حاول ريموند إقناع الملك الفرنسي لويس السابع الذي جاء إلى الشرق مع الحملة الصليبية الثانية سنة 543هـ/1148م بالاشتراك معاً في توجيه ضربة قوية إلى مدينة حلب، التي ملكها نور الدين سنة 541هـ/1146 م بعد مصرع أبيه عماد الدين زنكي[106]، غير أن لويس لم يستجب لرغبات ريموند لطعن الدولة النورية في قلبها [107]، وقاد جيوشه صوب بيت المقدس، فقد أكد أنه جاء حاجاً إلى بيت المقدس والدفاع عنه، لا ليغزو حلب[108].

وبعد أن يئس صاحب أنطاكية من إقناع الملك لويس السابع في شن هجوم على حلب، وفشل الحملة الصليبية الثانية، بشكل تام، كانت أنطاكية في مقدمة أهداف نور الدين، وكان أمير أنطاكية نفسه مدركاً لهذه الحقيقة، ومن ثم فإن الأمير الصليبي أراد أن يعاجل نور الدين لعله يستطيع بذلك أن يخفف من وقع الهزيمة التي لحقت بقوات الحملة الصليبية الثانية[109].

ففي أواخر سنة 543هـ/1148 زحف أمير أنطاكية ريموند بواتيه ليهاجم إمارة حلب، ولكن نور الدين تصدى له في الطريق في مكان يعرف بـ (يغرى) * وتمكن أن يلحق به هزيمة منكرة، (وأرسل [نور الدين] من الغنيمة والأسرى إلى أخيه سيف الدين، والى الخليفة ببغداد، والى السلطان مسعود، وغيرهم) [110].

نور الدين الذي كان يراقب تحركات صاحب أنطاكية توجه في عام 544هـ/1149م إلى حصن حارم وهو للفرنج[111]؛ لأن الأخير (جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في أعمال الحلبية) [112]، فحضر نور الدين الحصن، وخرب ربضة، ثم نهبه ورحل الى انب، فحصره أيضا، (فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية، وتوجهوا نحو نور الدين لدفعه عن حصن انب)[113].

فالتقى الجمعان وانهزم الفرنج شر هزيمة، (ولم يفلت منهم إلاَّ من خبر ببوارهم وتعجيل دمارهم)[114]، ووجد صاحب أنطاكية مصرعه في هذه الحملة فَحُمِلَ رأسه الى نور الدين[115].

ومع أن الطريق أصبح مفتوحاً إلى مدينة أنطاكية، التي نزل نور الدين بعسكره على بابها [116](وقد خلت من حماتها.. ثم رتب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها)[117].

غير أن نور الدين لم يواصل زحفه نحو المدينة، بل إنه وافق على قبول هدنة مؤقتة في الوقت الذي كان بمكانه الاستيلاء على أفامية التي تمثل آخر معقل لإمارة أنطاكية في وادي نهر العاصي [118].

ويبدو أن الأسباب التي منعت نور الدين من الإجهاز على الإمارة كان في مقدمتها أن الأمر يتطلب وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً، في الوقت الذي ستنهض فيه قوات بيت المقدس وطرابلس لنجدتها؛ لذلك فضل أن يستغل فرصة الاضطراب الذي ساد الإمارة بعد مقتل أميرها، والسيطرة على ما تبقى لتلك الإمارة من مناطق مهمة في شرق نهر العاصي[119].

ثم اقتضت (الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم) [120].

أميرة انطاكية كونستانس التي عزفت عن الزواج نحو ثلاث سنوات بعد مصرع زوجها، وافقت أخيراً على أن تتزوج من أحد الفرسان، وهو رينالد شايتون، المعروف بـ (أرناط)، وهو ممن تبعوا الملك لويس السابع ملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية، ولم يعد إلى وطنه بل أقام في فلسطين، ففي سنة 544هـ/1149م وافقت الاميرة على الزواج منه، إذ لم يتجاوز عمر ولدها بوهمند الثالث عند مصرع أبيه الخامسة من العمر، فأصبح أرناط أميراً لأنطاكية[121].

استهل أرناط عهده بدفع الأرمن عن إقليم الاسكندرونه، فردهم الى قيليقية، فقد عدَّ الفرنج هذا الإقليم (إسكندرونة) جزءاً من ممتلكات أنطاكية، ثم شن هجوماً على جزيرة قبرص، فنهب الجزيرة وعاد الى أنطاكية[122].

وفي سنة 553هـ/1158م تمكن أرناط بمساعدة الجيوش المسيحية من استعادة حارم، وتقرر إعطاؤها إلى أحد الفرسان الذي تولاها باعتباره تابعاً لأمير أنطاكية[123].

وقد عرف رينالد لدى المسلمين، بأنه رجل لايرعى العهود والمواثيق، فقد (كان من شياطين الإنس وأشدهم عداوة للمسلمين) [124].

وبالنسبة الى مكانته عند الإمبراطور البيزنطي وملك بيت المقدس بلدوين الثالث فإنه لم يكن موضع تقدير، بسبب مخالفاته العديدة التي كان أبرزها غزوه لجزيرة قبرص، فلم يطل به الحال، في سنة 555هـ/1160م وقع أسيراً بيد والي حلب أثناء سطوه على قطعان الماشية العائدة للمسلمين أثناء حركتها الموسمية من جبال اللكام الى نهر الفرات، فأرسل مع أصحابه مقيدين بالحبال الى حلب حيث مكث سجيناً ستة عشر عاماً [125]، فخلفه في حكم أنطاكية بوهمند الثالث- ابن رايموند بواتيه [126].

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر اتخذ الصراع بين القوى الإسلامية في الوطن العربي والوجود الصليبي طابعاً جديداً عندما قاد املريك ملك بيت المقدس جيوشه لغزو مصر سنة 555هـ /1160 م الأمر الذي دفع نور الدين الى البدء بهجماته على الوجود الصليبي في بلاد الشام، مستغلاً تخلخل الوجود العسكري لقوات الفرنج، إذ (اغتنم نور لدين خلو الشام من الفرنج- يعني بسبب رحيلهم إلى مصر)) [127]، من جهة، ولتشديد الخناق على الصليبيين في الشام من جهة أخرى، (فأراد أن يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر) [128].

كانت أنطاكية في نظر نور الدين، ومن الناحية المرحلية، أهم الأهداف الصليبية في بلاد الشام؛ لذا سارع بشن هجومه على ممتلكاتها، فحاصر حارم [129] وعندئذ طلب صاحب أنطاكية من كونت طرابلس وثوروس صاحب أرمينيا والقائد البيزنطي أن يهبوا لنجدته [130]، كان ذلك في عام 560هـ/1164م عندما تمكن نور الدين من سحق هذه الجيوش وأسر قادتها- بما فيهم صاحب أنطاكية- [131] وأرسلهم جميعاً الى حلب مكبلين بالحبال [132].

وللمرة الثانية تصبح أنطاكية في متناول يد نور الدين ولكنه يتوقف عن أخذها، ويبدو أن هنالك أسباباً منطقيةً منعته من دخولها، إذ كان يعتقد أنه إذا دخل المدينة فلن يستطيع النفاذ إلى القلعة التي سوف يعززها البيزنطيون، وهو يرى أن تكون أنطاكية إمارة صليبية ضعيفة خيراً من أن تكون جزءاً من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية القوية، وإلى ذلك أشار نور الدين بقوله: (اذا ضيقنا عليهم أرسلوا الى صاحب القسطنطينية وملكوه إياها، ومجاورة بيمند أحب إلي من مجاورة ملك الروم) [133]، وهذا ما ذهب إليه وليم الصوري، من أن نور الدين لم يواصل زحفه على أنطاكية لسببين، أولهما: رغبته في تحاشي الاصطدام المباشر بالإمبراطور البيزنطي، وثانيهما صغر سن بوهمند الثالث، الأمر الذي يجعل من خطورته أقل أهمية [134].

ويضيف حسن حبشي احتمالاً ثالثاً، هو خوف نور الدين من وقوع إمارة أنطاكية تحت وصاية املريك ملك بيت المقدس، غريم نور الدين ومنافسه في مصر [135].

الملك املريك الذي اهتز لما حدث في الشام عاد أدراجه ليهرع الى شمال الشام، فقد بدأ سلسلة من المفاوضات مع نور الدين حول أوضاع الصليبيين في الشام بعد الهزيمة الأخيرة [136]، وقد تمكن من اقناع نور الدين بإطلاق سراح بوهمند الثالث أمير أنطاكية وثوروس مقابل فدية كبيرة؛ نظراً لاحتياج نور الدين الى تمويل مشروع الجهاد ضد الفرنج، وإلى ذلك يشير أبو شامة حول موضوع الفدية التي دفعها بوهمند بقوله: (وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد) [137].

في عام 567هـ/ 1171م تعرض الفرنج في اللاذقية لسفينتين مصريتين تحملان مواداً

تجاريةً، مما أثار حفيظة نور الدين الذي أغار على بلاد أنطاكية وطرابلس، ودمر عدداً من القلاع، مثل صافيتا، والعريمة، وغيرها ولم ينتبه من ذلك إلا بعد أن حصل على تعويض كبير[138].

ويبدو أن نور الدين كان يطمح إلى استتباب الهدوء في الطرف الشمالي من بلاد الشام؛ لأنه كان يسعى إلى الحصول على مساعدة سلاجقة الروم للقيام بهجوم واسع على إمارة أنطاكية، غير أن السلطان السلجوقي (عز الدين قلج أرسلان) لم يستجب لمطالب نور الدين، ويعتقد أنه تماشى مع رغبة الامبراطور في عدم الانصياع لمآرب نور الدين، وفوق ذلك فإنه انشغل بمحاربة بني الدانشمند، وهكذا نجت أنطاكية من احتمال قيام حلف قوي بين سلاجقة الروم ونور الدين[139].

في الوقت الذي أخذت فيه الأمور تستتب في مصر لصالح صلاح الدين الأيوبي، وبدأت قوته بالتنامي مستنداً على إمكانات مصر الكبيرة، بدأت تطفو على السطح بوادر الخلاف بينه وبين ولي نعمته نور الدين محمود، غير أن الوقت لم يطل بنور الدين الذي توفي سنة 569هـ/ 1173م[140].

ب- علاقة الإمارة بالأيوبيين

بعد وفاة نور الدين قام ولده الصالح إسماعيل بالملك بعده، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقام على تربيته الأمير شمس الدين المعروف بابن المقدم[141]، ولكن صلاح الدين الذي استقل بحكم مصر بما تضمه من موارد هائلة جعلت امكاناته السياسية والعسكرية أكثر قوة، ثم جاءت وفاة نور الدين محمود، وكذلك موت عدوه اللدود املريك، ملك بيت المقدس، في السنة نفسها، فرصة طيبة لكي يسعى صلاح الدين الى توحيد الجبهة العربية الإسلامية، ويؤكد زعامته على العالم الاسلامي[142]، وهذا ما يجب الاسراع فيه، إذ (تحركت الفرنج بكل أرض)[143].

ويبدو أن البيت الزنكي، في هذه المرحلة، لم يكن مؤهلاً لتمثيل هذه الزعامة[144]، إذ لم يخلف نور الدين غير الصالح إسماعيل، كذلك لم يكن بين عمه سيف الدين غازي (صاحب الموصل) وعماد الدين (صاحب سنجار) من العلاقات الطيبة ما يشير إلى تكاتفهما، (وكانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ما أبرموه أمس في يومهم بنقض)[145].

ومما يشير إلى الارتياب في ديمومة وحدة بلاد الشام والجزيرة أن أمراء نور الدين وكبار قادته وقعوا بعد وفاته في تنافس شديد حول القيام بالوصاية على الملك الصالح[146]، واختلفت كلمتهم، (واختلت تدابيرهم، وخاف بعضهم من بعض، وقبض على جماعة منهم)[147].

هذا الحال شجع الصليبيين، على كسر حواجز الخوف التي فرضها نور الدين أمام أطماعهم، فهاجموا بانياس في شوال سنة569هـ/1174م، مما اضطر أميرها ابن المقدم الى مهادنتهم مقابل أن يدفع مبلغاً من المال ويطلق سراح أسراهم[148].

وهنا اتضح للجميع أنه ليس بإمكان أي من الأمراء المحليين الوقوف أمام التوسع الصليبي بشكل انفرادي[149].

لذلك احسّ صلاح الدين الذي يعتقد أنه الوارث الحقيقي لنور الدين، بوجوب إعادة بناء الدولة الموحدة ولم شعث المسلمين لمواصلة الطريق الذي سلكه سلفه نور الدين[150].

وتعتد المدة الكائنة بين مجيء صلاح الدين من مصر ودخوله دمشق سنة 570هـ/1174م[151]، ثم استيلاؤه على حلب في شهر صفر من عام 579هـ/1138م[152]، حقبة مليئة بالأحداث المثيرة بين صلاح الدين والامراء المحليين الذين تشبثوا بكل الوسائل في مقاومته، محاولين الاحتفاظ بسلطانهم، حتى ولو بالتعاون مع الصليبيين ضد صلاح الدين [153]، وعلى أية حال فقد توج صلاح الدين مساعيه في بلاد الشام بضم حلب الى دولته المنشودة، وقد عَدَّ الصليبيون هذه الخطوة أعظم نكبة حلت بهم؛ لأنها أكدت الروابط الستراتيجية والعسكرية بين مصر والشام، وأصبحت ممتلكاتهم في الشام محصورة ضمن ذلك الإطار[154]، وهذا ما أشار إليه الدواداري بقوله: (فلما بلغ الفرنج خروج صلاح الدين في تلك العساكر الكثيفة سكنوا عما همّوا عليه) [155].

أي إن تحرك صلاح الدين لملء الفراغ الذي أحدثه موت نور الدين يعد أمراً خطيراً وذا أهمية كبيرة بالنسبة لما كان يعتقده الصليبيون من تردي الوضع الإسلامي، خصوصاً على الساحة الشامية بعد رحيل نور الدين[156].

ويبدو أن صلاح الدين كان مدركاً تماماً لمتطلبات المرحلة الجديدة؛ لذا سعى قبل كل شيء إلى تثبيت أركان الدولة الجديدة، حتى لو كان الحال على حساب عدد من الأمور المرحلية، بما في ذلك القبول بالهدنة مع الصليبيين لخدمة خططه العسكرية الشاملة في اجتثاث الوجود الصليبي من الشام.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن وحدة بلاد الشام الجديدة في ظل قيادة صلاح الدين، وانضمام البلاد الجزرية والموصل الى تلك الوحدة قد وحد أرضية الجهاد لمواجهة التوسع الصليبي، فلم يعد هناك حكام مستقلون بشؤونهم وقراراتهم بعضهم عن البعض في دمشق أو حلب أو الموصل، وإنما أصبحت جميع هذه البلاد تحت قيادة واحدة موحدة[157] ولاشك أن رفع صلاح الدين لشعار (الجهاد في سبيل الله)[158]، وضع الأمراء المسلمين المستقلين، أمام الأمر الواقع، إذ ليس بامكانهم إلاّ الاذعان لإرادة الجهاد وإمداد جيش صلاح الدين بالمال والرجال.

لقد أدرك الصليبيون خطورة قيام الوحدة بين القاهرة ودمشق وحلب؛ لذا بادر كونت طرابلس – ريموند الثالث – للوقوف الى جانب حلب ضد محاولات ضمها من قبل صلاح الدين، ليس حبا بالصالح إسماعيل، بل لإحباط مساعي صلاح الدين[159]، ولكن صلاح الدين لم يكترث بتهديدات الفرنج، وجاء رده (لست ممن يرهب بتأليب الفرنج، وها أنا ذا سائر إليهم)[160].

وقد اقترن القول بالفعل بالإغارة على إمارة أنطاكية، (فغنموا غنيمة حسنة.وعادوا) [161]، ومع ذلك فقد حاول أمير أنطاكية– بوهمند الثالث– الاستيلاء على قلعة حارم التي تقع الى الشرق من نهر العاصي، وكانت تابعة للزنكيين في حلب، وبذلك خرق أمير أنطاكية أسس التعاون مع الزنكيين بدلاً من كسب ثقتهم، وتدعيم الجبهة المعادية لصلاح الدين[162].

غير أن مدينة (حارم) أبدت مقاومة عنيفة لمحاولة الفرنج ولم يتمكنوا منها [163].

ولم تلبث حامية حارم أن سلمت الى صلاح الدين عام 579هـ/1138م، وبذلك وضع صلاح الدين يده على ركيزتين مهمتين في شمال الشام، هما : حلب وحارم، وكانت إمارة أنطاكية بشكل خاص أكثر الإمارات الصليبية تأثراً باستيلاء صلاح الدين على هاتين المدينتين؛ لأنها أدركت أن صلاح الدين يستغل هذ القواعد المهمة لاجتياحها [164].

وقد عبر أبو شامة عن واقع حال الفرنج عندما علموا باستيلاء صلاح الدين على حلب وحارم بقوله: (رجفت أنطاكية بعد ذلك رعباً) [165].

في الوقت الذي أصبح فيه صلاح الدين ينتقل من نصر الى نصر على مستوى توحيد العالم الاسلامي ومواجهة الصليبيين، أخذت إمارة أنطاكية ترزخ تحت وطأة الكثير من المشاكل الداخلية، بسبب اتخاذ أميرها بوهمند الثالث لأكثر من زوجة، وذكر ابن الاثير أن زوجته الثالثة، كانت تتصل بصلاح الدين موضحة له تحركات جيوش الفرنج[166]، (وكان السلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا) [167].

وبرغم ما جرته هذه المرأة من المشاكل على زوجها وإمارته فقد ظل متعلقاً بها، مما دفع البطريق إلى أن يصدر بحقه قرار الحرمان، فأدى ذلك إلى وقوف الأمير ضد إرادة الكنيسة، فنجم عن ذلك انشقاق كبير في أنطاكية قاد الى حرب أهلية خطيرة[168].

وهكذا تحولت موازين القوى وبسرعة لصالح القوى الإسلامية بزعامة صلاح الدين، بعد أن ضعفت إثر وفاة نور الدين محمود، وأمسى أمير انطاكية عاجزا عن الوقوف بوجه صلاح الدين، فالتمس جانب الموادعة وأرسل إلى صلاح الدين، حين كان يعسكر أمام حلب، طالباً منه عقد هدنة بين الطرفين لمدة أربع سنوات[169].

ويبدو أن تلك الهدنة كانت مهمة للطرفين، صلاح الدين وصاحب أنطاكية، إذ تمكن صلاح الدين من تحييد أنطاكية في المرحلة اللاحقة– وهي مرحلة حاسمة– إذ حلت أكبر

هزيمة بالصليبيين في معركة حطين سنة 583هـ/1187م، وتم تحرير بيت المقدس، أمّا بوهمند فقد نجا بإمارته من احتمال الدخول في معركة خاسرة أمام جيوش المسلمين، وتمكن من تحكيم إجراءتها الدفاعية [170].

غير أن صلاح الدين لم يغفل جانب الصليبيين في أنطاكية، وترك عدداً من العساكر (مقابل أنطاكية ليردوا عادية بيمند صاحبها عن أعمال حلب) [171]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هذه المدة شهدت نهاية حكم الأسرة البروفنسالية [172] في طرابلس، إثر وفاة أميرها ريموند الثالث [317]، الذي أوصى بأن يرثه ريموند - الابن الاكبر- لبوهمند الثالث أمير أنطاكية، لعدم وجود وريث شرعي من الأسرة البروفنسالية، وبذلك خضعت طرابلس لحكم النورمان في أنطاكية [174].

وعندما أخذ صلاح الدين بالزحف نحو الشمال لفتح الساحل الشامي، أصدر أوامره الى عدد من العساكر الإسلامية بالنزول على تيزين (قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب) [175]، وأخذ بشن الغارات على طرابلس ثم نادى في عساكره: (انا داخلون الى الساحل.. والعدو يحيط بنا في بلاده في سائر الجوانب) [176]، ثم أخذ بمواصله الزحف نحو الشمال فتمكن من فتح (ساحل إقليم أنطاكية) [177]، سنة 584هـ، بعد أن أوغل في أراضي الإمارة، ففتح جبلة، وكان فيها مسلمون مقيمون وفيها قاض يحكم بينهم [178]، وبذلك ارتفعت على أسوارها الرايات الإسلامية المظفرة [179]، وتم تحريرها في ثامن عشر جمادى الاولى [180]. وكان صاحب أنطاكية قد أخذ أعداداً من مسلمي جبلة رهائن عنده، وحين تمكن المسلمون من جبلة استرهنوا عدداً من سكانها الصليبيين لحين أطلق صاحب أنطاكية من لديه من رهائن المسلمين [181].

ثم جاء إلى صلاح الدين أهالي بكسرائيل، وهو من الحصون الجبلية المنيعه بين جبلة ومدينة حماة، (فملكه المسلمون) [182].

ومن جبلة توجه صلاح الدين إلى اللاذقية، فكان نزوله عليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى [183]، (فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها، وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما) [184]، فتمكن المسلمون من دخول (البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة) [185]، ثم أخذ المسلمون بشن هجوم عنيف على القلعتين، ونقبوا السور لمسافة طويلة، فعند ذاك أيقن الصليبيون أن لا طائل من عنادهم، فطلبوا الأمان، (فأمنهم صلاح الدين، ورفعوا الأعلام الإسلامية على الحصنين) [186].

وكانت شروط الأمان (على أنهم يطلعون بأنفسهم، وذراريهم، وأموالهم، إلى مأمنهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية) [187].

ويبدو أن ذلك الموضع كان شديد المنعة، وهذا ما أشار إليه العماد الكاتب بقوله (وكان فتح ذلك المعقل من الله مشيئة، فإنه موضع ما فيه مطمع) [188].

ومع ذلك فقد فرغ المسلمون من تحرير اللاذقية في مدة قصيرة جداً، هي عشية الجمعة الخامس والعشرين من جمادى الاولى[189]، وفي يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر المذكور رحل السلطان عن اللاذقية متوجهاً صوب حصن صهيون المنيع[190] فأدركه واستدارت العساكر به من سائر نواحيه[191]، وكانت صهيون (قلعة منيعة في الهواء صعبة المرتقى)[192].

وقد قذفت القلعة بالمناجيق، إلى أن طلب أهلها الأمان فأجيبوا إلى ذلك ثم فرض (عليهم قطيعة القدس) [193].

وكان لولد السلطان الملك الظاهر دورٌ مميزٌ وأساسيٌ في فتح هذه القلعة، إذ كان قد التحق بعسكر والده قبل الوصول الى جبلة، فأبلى بلاءً حسناً، (وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة) [194].

ويبدو أن صلاح الدين قد اتخذ هذا الحصن المنيع قاعدة لفتح ما حوله من الحصون والقلاع، مثل العيذو* وبلانطس** [195]، وكان أهل الحصن الأخير من الصليبيين (قد هربوا منه، وتركوه خوفاً ورعباً) [196].

ومن الأماكن الأخرى التي تم فتحها قلعة الجماهيريين*** [197].

وفي مطلع جمادى الآخرة سار صلاح الدين من صهيون صوب قلعتي بكاس والشغر، وهما على الطريق المؤدي إلى جبلة واللاذقية[198]، وقلعة بكاس على جبل يطل على العاصي[199]، وكان الصليبيون قد أخلوا هذه القلعة، وتحصنوا بقلعة الشغر[200]، التي تعد غاية في المنعة، فضربها صلاح الدين بالمنجنيقات فطلب أهلها الأمان، وناشدوا السلطان (في مهلة ثلاثة أيام والإرجاء ليخبروا صاحب أنطاكية، ويستأذنوه) [201].

إلاّ أنهم سلموا القلعة بعد ثلاثة أيام، (وكان سبب استمهالهم أنهم أرسلوا إلى [بوهمند] صاحب أنطاكية.. يعرفونه أنهم محصورن ويطلبون منه أن يرحّل عنهم المسلمين..) [202]. ولما يئسوا من نصرة صاحبهم، سلموا القلعة إلى المسلمين يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة[203].

ويتأكد دور حلب مجدداً في عمليات تحرير اقليم إمارة أنطاكية، حين أمر السلطان ولده الظاهر غازي بالتوجه الى سرمينية، فكان أن حصرها وقاتلها قتالاً شديداً حتى استسلمت، فتسلمها يوم الجمعة في الثالث والعشرين من الشهر نفسه[204]، بعد أن استنزل أهلها وأخذ منهم المقاطعة، ثم هدم الحصن[205].

ويذكر ابن شداد حالة من التوافق اللطيف في فتح هذه القلاع بقوله: (وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تباع، جبلة، واللاذقية، وصهيون، وبكاس، والشغر، وسرمانية.. فقد كان في هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدة، ولولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدة، وهذا إقليم جبلة واللاذقية هي عينا أنطاكية التي فقئت) [206].

وبعد فتح هذه القلاع (وهي جميعاً من أعمال أنطاكية، ولم يبق لها سوى القصير بغراس ودربساك)[207]، يقول أبو شامة[208] (وقد اصبحت [أي أنطاكية] بحمد الله معدومة الأطراف، قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف).

ثم سار صلاح الدين جريدة الى قلعة برزية (وكانت صاحبة حصن برزية أخت زوجة البرنس صاحب أنطاكية)[209]، وقد أوى إليها خلق كثير من قلاع الفرنج المنهارة، وكان فتحها يوماً عظيماً[210].

ويبدو أن صلاح الدين كان ما يزال يرغب في تحييد صاحب أنطاكية، رغم تهاوي أعمال إمارته أمام الجيوش الإسلامية الزاحفة نحو مركز الإمارة؛ لذلك جمع صلاح الدين أفراد الأسرة الحاكمة في هذا الحصن، (وأنفذهم الى صاحب أنطاكية استمالة له)[211].

ويذكر أبو شامة أن صلاح الدين فعل ذلك (لأجل امرأة البرنس فشكرته على ذلك)[212].

وهـذا أمر ليس مستغرباً من سلوك صلاح الدين من باب رد الجميل، إذ قدمت زوجة أمير أنطاكية للمسلمين وصلاح الدين خدمة جليلة، فقد (كانت تراسل صلاح الدين، وتهاديه، وتعلمه كثير من الأحوال التي تؤثر، فأطلق هؤلاء لأجلها)[213].

بعد ذلك اقترب صلاح الدين كثيراً من مدينة أنطاكية (حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً)[214]، ومنه توجه إلى دربساك (وقاتلهم حتى طلبوا الأمان)[215].

ثم سار إلى بغراس، ونتيجةً لاقتراب التماس من العسكر الصليبي في أنطاكية احتاج صلاح الدين إلى إخراج سرايا لمراقبة ما يكون من جيش أنطاكية (لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر)[216].

ولم يكن من أصحاب الحصن إلاّ أن يطلبوا من صلاح الدين الأمان (ورقى العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان من شهور سنة أربع وثمانين)[217].

ويبدو أن لهذين الحصنين أهمية كبيرة، بالنسبة لإمارة أنطاكية، والى ذلك يشير أبو شامة بقوله: (وهذان الحصنان دربساك وبغراس، كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين)[218].

وبعد فتح صلاح الدين جميع حصونها (عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها)[219]، إذ لم يترك (في الساحل حصن ولا معقل إلا وقد علاه الأذان)[220].

ولكنه أدرك ما عليه جنده من الإرهاق، والمعاناة، وهم بحاجة إلى مدة من الزمن (ليستريحوا ويجدوا ما يحتاجون إليه)[221].

أمير أنطاكية الذي أحس بالمصير المحتوم لامارته بعد أن أحاطت بها الجيوش

الإسلامية (قد عجل بإرسال أخي زوجته [إلى صلاح الدين] يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته، وسلامة مهجته، وعقد الهدنة على بلده) [222]، فعقدت الهدنة بين الطرفين، واشترط صلاح الدين إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين في أنطاكية، وكان أجل هذه الهدنة ثمانية شهور[223]، ومن شروطها أيضاً بعد نفاذها استسلام أنطاكية، (فإن جاءهم من ينصرهم وإلاّ سلموا البلد إلى السلطان) [224].

ويبدو أن صلاح الدين لم يرَ ضيراً في هذه الهدنة، ليريح جيوشه بعد عناء طويل، من جهة، ولإعداده للجولة الثانية من جهة أخرى.

ولابد من الإشارة إلى أنه لم يبق لإمارة أنطاكية سوى مركز مدينة أنطاكية وميناء السويدية، وحصن المراقب[225].

ومع ذلك لم يغفل صلاح الدين موضوع أنطاكية، فقد ترك قسماً من عساكره قبالة أنطاكية ((لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة)) [226].

ولكن بوهمند اقتنع بسياسة الحياد مع جيرانه، وبذلك استطاع أن يمد عمر إمارته، واستطاع ولده المحافظة على طرابلس[227].

بل إن عدداً من المؤرخين الغربيين اتهمه بخيانه الحركة الصليبية قاطبة، وقال إنه قام بدور مريب أثناء فتوح صلاح الدين، وأثناء جهاد المسلمين ضد الحملة الصليبية الثالثة، ولم يبذل محاولة جادة لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على معاقل انطاكية في حوض نهر العاصي سنة 584هـ/1188م، ولم يسترد اللاذقية وجبلة التي سقطت بأيدي المسلمين، ولم يقم بعمل ذي شأن عندما زحفت القوات الصليبية نحو الجنوب[228].

ويبدو أن انتشار أنباء الحملة الصليبية الثالثة، قد وضعت أمام صلاح الدين مسؤوليات جديدة لمعالجة الموقف الناجم عن تدفق ملوك الغرب بجيوشهم إلى المشرق الإسلامي، ولم يكن الإمبراطور البيزنطي أقل تحفظاً من صلاح الدين حول مجيء الحملة الجديدة، فأرسل إلى صلاح الدين يخبره بوصول إمبراطور ألمانيا فردريك بربروس، ((ويعده أنه لا يمكنه العبور في بلاده)) [229].

ويمثل ذلك بداية التعاون بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطي للاشتراك في الوقوف بوجه الحملة الجديدة، فأرسل صلاح الدين بعثة إسلامية مكونة من الخطباء والمؤذنين والقراء الى القسطنطينية فأقيمت الخطبة في الجامع القديم بالقسطنطينية، وخُطبَ فيها للخليفة الناصر لدين الله[230].

ولما صح أمر هذه الحملة عند صلاح الدين بعث إلى الأطراف، ((ورأى استنفار الناس للجهاد)) [231].

وقد وصل ملكا إنكلترا وفرنسا عن طريق صقلية[232].

أمّا إمبراطور الألمان بربروسا، فقد غرق في نهر صغير في قيليقية، في طريقه إلى أنطاكية، وقد اتصف سلوك بقية ملوك الحملة بالصبغة الفردية، وارتياب بعضهم من بعض[233]، مما بدّد مخاوف المسلمين، وهدأت الأحوال نسبياً بعد القلق، والى ذلك أشار ابن الأثير بقوله[234]: (لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الألمان لما خرج الى الشام.. وإلاّ لما كان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين).

وبرغم الزوبعة التي أثارتها هذه الحملة فإن النتائج التي ترتبت على مجيئها كانت ضئيلة بالنسبة للصليبيين، غير أنها حققت هدفاً آخر في الجانب الإسلامي، وهو إنها عرقلت جهود صلاح الدين في مواصلة الفتوح[235].

ويبدو أن بوهمند استغل انشغال صلاح الدين أمام عكا، فخرج (بعسكره نحو القرايا الإسلامية لشن الغارة عليها، فتصدت له بعض العساكر الإسلامية وردته خائباً على أعقابه)[236].

انتهى نشاط الحملة الصليبية الثالثة في بلاد الشام بعقد صلح الرملة عام 588هـ/1192م بين صلاح الدين وريتشارد ملك الانكليز، واشترط الصليبيون دخول صاحب أنطاكية وطرابلس[237]، في الصلح وتحددت مدته بثلاث سنوات وثلاثة أشهر[238].

بوهمند الثالث أمير أنطاكية الذي أقر صلح الرملة، حضر بين يدي صلاح الدين مع ولده صاحب طرابلس[239]- في بيروت- سنة 588هـ/1192م، فأنعم عليه السلطان وأكرمه[240]، رغم قيامه في العام في الماضي بمحاولة الاستيلاء على جبلة واللاذقية، عندما ردته القوات الإسلامية ((وعاد الى أنطاكية مغلولاً مخذولاً))[241].

ويظهر مما تقدم أن بوهمند الذي تراوح سلوكه بين التحرش والاستكانة أمام المسلمين حسبما يمليه عليه الظرف، قد أيقن أن لافائدة مما يفعله؛ لذا سعى بعد صلح الرملة، وعودة ملك الانكليز إلى الغرب إلى تحسين علاقاته مع صلاح الدين[242].

ولكن صلاح الدين لم تمهله الأقدار، فقد توفي في شهر صفر عام 589هـ/1193م، وكان يوم وفاته حسبما وصفه عدد من المؤرخين ((يوما لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون))[243].

وتمثل نهاية صلاح الدين بداية لمرحلة جديدة من العلاقات السياسية على ساحة الصراع بين المسلمين والغزو الصليبي من جهة، وبين أبناء البيت الأيوبي ومسألة وراثة الحكم من جهة أخرى، إذ لم تلبث حرب الوراثة أن نشبت بين أبناء الأسرة الأيوبية[244]، الأمر الذي استنزف إمكانيات الجهاد الإسلامي لمدة طويلة.

وفي الجانب الصليبي في شمال الشام اضطربت الأمور في السنوات الخمس والعشرين التالية، نتيجةً لحرب الوراثة التي نشبت في أنطاكية، وقد تغيرت الأحوال في المشرق قبل زمن طويل من تسوية المشكلة[245].

وبعد وفاة صلاح الدين انقسمت دولته بين أولاده وبقية أبناء البيت الأيوبي، فصارت حلب من نصيب ولده الظاهر غازي مع جميع أعمالها، في الوقت الذي أخذ الأفضل نور الدين علي دمشق، والساحل، وبيت المقدس وعدداً من الأقاليم الأخرى، بينما ثبت الملك العزيز أقدامه بمصر واستقر بها [246].

وبذلك بدأت رياح النزاع والفرقة تهب على أرجاء الدولة الأيوبية، ولعبت حرب الوراثة دوراً خطيراً في مستقبل الكيانات الإقليمية التي أخذت تسعى إلى تحقيق استقلالها الذاتي بعضها عن البعض، حتى ولو استدعى الأمر اللجوء إلى السلاح، وإراقة الدماء[247].

أمّا امراء البيت الزنكي فهم أيضاً تحركوا لبسط نفوذهم على ما يستطيعون أخذه من ممتلكات صلاح الدين[248].

وبذلك بدأت عوامل الفرقة تسري في أوصال الجبهة الإسلامية، في الوقت الذي أخذ هنري دي شامبن ملك بيت المقدس يكثّف جهوده لتوحيد أنطاكية، وأرمينية، وقبرص، وعكا[249].

وعندما تمكن الملك العادل من أخذ يافا سنة 593هـ/1196م[250]، أغار الصليبيون على بيروت فأخذوها، وعند ذلك تجرأ بوهمند الثالث، صاحب أنطاكية على القيام بمحاولة استرجاع جبلة، واللاذقية، فجاء عن طريق البحر، ونزل عند بانياس، ولكنه وجد الظاهر الأيوبي يقف له بالمرصاد، إذ احتاط للأمر، وحصن المدينتين، فعاد بوهمند خالي الوفاض[251].

ويبدو أن حرب الوراثة قد فعلت فعلها لدى الأيوبيين والصليبيين على السواء، وأوجدت انماطاً جديدةً من العلاقات السياسية التي تقوم أساساً على تحقيق المنافع الذاتية الطارئة لأصحاب هذه العلاقات، فالملك الظاهر صاحب حلب لم يجد ضيراً في التعاون مع صاحب أنطاكية بوهمند الرابع، إذ لم يكن الظاهر على علاقة طيبة مع عمه العادل، أمّا بوهمند الرابع –أمير طرابلس– فقد حاول أن يضم إمارة أنطاكية الى ملكه– أنطاكية طرابلس– بعد موت أبيه بوهمند الثالث، ويحجب حكم الإمارة عن وريثها الشرعي ريموند روبين– ابن اخيه– الذي يمت بصلة نسب إلى الأرمن من جهة أمه؛ لذا استنجد بوهمند الرابع بصاحب حلب سنة 600هـ/1203م عندما حاصره ليو الأرمني داخل قلعة أنطاكية ونادى ((بشعار الملك الظاهر)) [252].

وهكذا سنحت الفرصة أمام الظاهر لفرض هيمنته على أنطاكية، فقد خرج بعسكره نجدةً لبوهمند الرابع فعند ذاك انسحب زعيم الأرمن من دون تحقيق مطامحه[253].

وقد ذهب الظاهر إلى أبعد من ذلك عندما طلب من أمير انطاكية الاشتراك معه لمهاجمة أرمينية، والقضاء على عدوهما المشترك– ليو الارمني- (واستأصال شأفته وقلع أثره) [254].

ثم لجأ الظاهر إلى التحالف مع كيخسرو سلطان سلاجقة الروم في التعاون مع الداوية لمحاربة ليو الأرمني فقصدوا بلاده، وسيطروا على عدد من حصونها [255]، الأمر الذي حدا بملك الأرمن إلى مد يد العون الى الملك العادل عم الظاهر، وعندئذ حصل الصلح مع ليو الأرمني شريطة أن يرد (حصن بغراس إلى الداوية وألا يتعرض لأنطاكية) [256].

إنَّ حصن بغراس الذي صار للداوية الذي سبق لصلاح الدين أن فتحه عام 584هـ/1188م[257]، كان لوقوعه بالقرب من حصن دربساك الذي يمتلكه المسلمون أهمية خاصة، إذ استمر النزاع عن قرب بين هذين الجارين[258].

ومثالٌ على ذلك النزاع أن العزيز بن الظاهر، صاحب حلب قد شن هجوماً على حصن بغراس سنة634هـ/1226م، وبعد وفاة العزيز خلفه ولده الناصر، ثم أغار أهل حلب على الداوية في بغرس، وكادوا أن يأخذوا الحصن، غير أن بوهمند الخامس صاحب أنطاكية تدخل في الأمر، وتم عقد الهدنة بين الفريقين[259].

وفي سنة 635هـ/1237م نقض الداوية الهدنة وأغاروا على دربساك، ولكن أصحاب الحصن أبدوا مقاومة عنيفة أمام الصليبيين، وعندما وصلت الأنباء الى حلب توجهت العساكر إلى هناك، وألحقت الهزيمة بالداوية، ولم ينج منهم إلاّ القليل[260].

غير أن العلاقات بين المسلمين والصليبيين قد تعرضت لطارئ جديد، ذلك أن جموع المغول الزاحفة من الشرق أسقطت الخلافة العباسية في سنة 656هـ/1258م، ثم واصل المغول زحفهم نحو الشام، ((فجفل الناس من بين أيديهم الى الديار المصرية، والجبال، والأماكن المتوعرة.. وكان نزولهم على حلب في ثاني صفر سنة 658هـ[1259]م واستولوا عليها)) [261].

ويبدو أن بوهمند السادس صاحب أنطاكية قد انجر وراء علاقات صهره هيثوم الأرمني للاصطفاف مع المغول ضد المسلمين، فقد كوفئ نتيجة لخضوعه لهولاكو بأن أعيدت إلى إمارة أنطاكية عددٌ من المدن التي كانت بيد المسلمين، مثل اللاذقية[262].

وعندها تحرك السلطان الظاهر بيبرس الذي صار زعيماً مطلقاً في مصر وبلاد الشام[263]، فحاول الانتقام من أمير أنطاكية لمحالفته المغول، وبدأ يشن الغارات على أنطاكية سنة 660هـ/1261م ثم، عاد 661هـ/1262م، وكادت تستسلم له لولا استنجاد هيثوم الأرمني

بالمغول ليدرؤوا الخطر عن الإمارة، مما أدى إلى انسحاب العساكر الإسلامية، ومعهم كثير من الأسرى[264].

أمّا عن كيفية نهاية حكومة دمشق وانضمامها في اطار الوحدة الإسلامية في بلاد الشام فإن انحراف الحملة الصليبية الثانية عن أهدافها في استرداد مدينة الرها، وتوجهها لمهاجمة دمشق، حليف الصليبيين في المنطقة، قد ترك آثاراً سلبيةً على مستقبل الوجود الصليبي في المنطقة، وأخلَّ بميزان القوى بين الطرفين، من خلال ارتماء إمارة دمشق في أحضان نور الدين محمود الذي دخلها سنة 549هـ/1154م لتأخذ دورها المهم في الوحدة الإسلامية في بلاد الشام[265].

وبذلك فقدت دورها كإمارة ذات علاقات مستقلة، فأصبحت مركزاً أساسياً للدولة الإسلامية الفتية في إطارها الجديد الذي امتد من الرها شمالاً، حتى حوران جنوباً[266].

ويتضح من هذا أن مستقبل العلاقات مع إمارة أنطاكية، في عهد نور الدين محمود سيكون ضمن الإطار العام لوحدة بلاد الشام، في محورها الجديد عبر حلب/ دمشق، وبذلك برزت معالم هذه الزعامة الجديدة، ليس في تهديد مصير إمارة أنطاكية فحسب، وإنما استهدف الوجود الصليبي بصورة عامة[267]. وفي الحقيقة إن وفاة نور الدين كانت تمثل تصدعا واضحا لوحدة بلاد الشام، لولا أن تداركها صلاح الدين، فملأ الفراغ الذي تركه سلفه، وقد ألمحنا إلى تطورات الأحداث التي أعقبت وفاة نور الدين ومجيء صلاح الدين، فلم يطل الوقت حتى انضوت دمشق تحت زعامة صلاح الدين الذي ملكها سنة 570هـ[268]، لتذوب في اطار الدولة الأيوبية، حتى وفاة صلاح الدين سنة 589هـ، وانقسام أبناء البيت الأيوبي من بعده، فقد أصبحت دمشق من نصيب ولده الأفضل نور الدين[269].

وبذلك تكون وفاة صلاح الدين قد تركت فراغاً كبيراً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته أو أبناء إخوته أن يملأه[270]، فقد قسمت بلاد الشام بشكل اقطاعات بين هؤلاء لتبدأ سلسلة طويلة من حرب الوراثة بينهم.

والذي يهمنا من ذلك، هو الأفضل، صاحب دمشق الذي نعته مجموعة من المؤرخين بصفات، هي غير الصفات الواجب توافرها برجل ينوء بهذا القدر من المسؤولية[271]، لذا كان من السهولة على عمه السلطان العادل، الرجل المحنك أن يستغل خلافات الأفضل مع إخوته ليزيحه عن حكم دمشق بحجة مساعدة أخيه ضده.

وعلى أية حال فإننا لايمكن أن نلمس بسهولة نمط العلاقات السياسية بين إمارة أنطاكية ودمشق في هذه الحقبة التأريخية من انقسام أبناء البيت الأيوبي، وذلك لانشغال أمراء أنطاكية بمشاكلهم الخاصة من جهة، ولاستمرار حرب الوراثة والصراع على السلطة

بين أبناء البيت الايوبي من جهة اخرى، يضاف إلى ذلك، مايمكن أخذه بنظر الاعتبار من التطورات الجديدة، إذ طرأت على المنطقة، قوى غربية لاهمّ لها سوى الهيمنة والتسلط، دون الأخذ بنظر الاعتبار لخصوصيات الأوضاع، ونوع العلاقات السائدة، وقد تمثلت هذه القوى في جموع الخوارزمية* المتدفقة من الشرق والتي استفاد من جهودها بعض الامراء الايوبيين ضد البعض الاخر(272).

ثم وصول الموجات المغولية التي سحقت كل ما يقع على طريقها حتى دخلت ربوع الشام.

وفي هذا الوقت القاتم، ظهرت دولة المماليك البحرية التي كان لها شأن في انقاذ الشام من خطر المغول، وتقويض أركان الوجود الصليبي في الشام.

هوامش الفصل الرابع

1- الجميلي، رشيد (الدكتور): دولة الاتابكة في الموصل، بعد عماد الدين زنكي (541- 631هـ)، دار النهضة العربية ط2، (بيروت) 1975)، ص224.

2- ابن الاثير: رسائل ضياء الدين بن الاثير، ص242- 243.

3- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص334؛ ابن خلدون، العبر، ج5، ص595.

4- الايوبي، محمد تقي الدين بن عمر بن شامنشاه(ت: 617هـ): مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د.حسن حبشي، عالم الكتب (القاهرة 1968) ص51.

5- محمد، سوادي عبد (دكتور): اضواء على التحالف الصليبي المغولي ضد العراق والمشرق العربي. مجلة المورد، وزارة الاعلام، بغداد، المجلد16، العدد الرابع 1408هـ/ 1987م (عدد خاص) ص175.

6- ابن خلدون: العبر، ج5، ص23 - 32.

7- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص130.

8- William of Tyre, OP. Cit, Vol, 1, PP. 204– 205.

9- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص134.

10- ابن الاثير: الكامل، مج8، ص188.

11- سالم محمد الحميدة: الحروب الصليبية، ج1، ص140.

12- ابن الاثير: الكامل، مج8، ص187؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص15.

13- مجهول، أعمال الفرنجة، ص71.

14- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص373.

15- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص70.

16- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص374.

17- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص70- 75.

18- المصدر نفسه، ج2، ص178- 179.

19- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص180.

20- ابن الاثير: الكامل، مج8، ص260- 261.

21- انظر ص 134 من هذا البحث.

22- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص230- 232.

23- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص650.

24- ابن الاثير: الباهر، ص37.

25- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص243.

26- Mtthieu of Edssa pp 51-52

27- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص654؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص242.

28- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص304.

29- سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص201.

❖ انب: حصن من اعمال عزاز من نواحي حلب. ياقوت ج1، ص342.

30- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص305؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص201؛ ابو شامة الروضتين، ج1، ص150.

31- William of Tyre. OP. Cit, Vol, 2, P. 199.

❖❖ حصن كيفا: عي قلعة وبلدة عظيمة تطل على دجلة بين امد وجزيرة ابن عمر في ديار بكر. انظر: ياقوت: معجم البلدان. ج2، ص265.

❖❖❖ ماردين: قال ياقوت: وماردين قلعة مشهورة من قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنسير ودارا ونصيبين.. وقد امها ربض عظيم في اسواق كثيرة وخانات..)

انظر: معجم البلدان، مج5، ص 39.

32- ابن الاثير: الباهر، ص122 - 123؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج8، ص246; ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص318.

33- ابن الاثير: الباهر، ص124؛ ابو شامة: الروضتين، ج2، ص341؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص320.

34- ابو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص352.

35- انظر ص 171 من هذا البحث.

36- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص402.

37- رشيد الجميلي: دولة الاتابكة في الموصل، ص102، 159.

38- Smail(R.C.): Crusading warfar(Cambridge, 1950) P.70.

39- انظر: ابن الاثير: الكامل، مج11، ص529- 538، ج12، ص273؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص57؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص66؛ ابن واصل: مفرج الكرمب، ج2، ص، 187 - 188، ج3، ص172 - 173.

40- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص51.

41- انظر ص 159.

42- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص249؛ الذهبي، ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان (ت: 748هـ / 1348م): العبر في خبر من غبر، طبعة الكويت دون تاريخ، ج5، ص123.

43- النجوم الزاهرة: ج5، ص257.

44- الرويشدي، سوادي عبد محمد: امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ، ص54.

45- ابن شداد: عزالدين أبو عبد الله محمد بن علي (ت:684 هـ): الاعلاق الخطيرة (تاريخ لبنان والاردن وفلسطين) تحقيق، سامي الدهان (دمشق 1382هـ/ 1962م) ص 160.

46- الرويشدي: امارة الموصل ص78 – 79.

47- ابن الاثير: الكامل، ج12، ص140.

48- الهمداني، رشيد الدين فضل الله(ت: 718هـ): تاريخ المغول، نقله من الفارسية الى العربية، محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة 1960، ج2، ق1، ص330.

49- المعاضيدي، خاشع (الدكتور): محاضرات القيت على طلبة الدكتوراه في جامعة بغداد/ كلية التربية، للعام الدراسي 1993 / 1994.

50- عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص168.

51- Runciman: The first crusade. Antioch to Asclon (in setton, AHistory of the crusades) Vol,1 , PP. 315 – 316.

52- Robson(W.): History of the crusades, Vol,1 , P.138 ; Setton: OP. Cit, Vol , 1, P.316 . i

53- Robson(W.): OP. Cit, Vol,1 , P.139 .

54- Setton: OP. Cit. Vol,1 , P. 316.

55- فهمي توفيق مقبل: الفاطميون والصليبيون، ص55.

56- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص283.

57- المطوي، محمد العروسين: الحروب الصليبية، ص18.

58- النجوم الزاهرة، ج5، ص147– 148.

59- W. Robson: History of the crusades, Vol ,1, P.39 .

60- ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج5، ص147.

* عند ياقوت: سرمد بلفظ السرمد الدائم، موضع من اعمال حلب. انظر معجم البلدان، مج3، ص215.

61- الكامل، مج10، ص286.

62- للمزيد من تلك الحملات انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص140– 141؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص364 – 365.

Stevnson. OP. Cit, PP. 44– 45.

63- Stevnson, OP. Cit, P. 46.

64- Albert d'Aix, P. 597.

65- ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف (ت: 677 هـ): تاريخ مصر، تحقيق هنري ماسية (القاهرة 1919)، حوادث سنة 496.

66- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص135.

67- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص148- 149.

68- عاشور: تاريخ الحركة الصليبية، ج1، ص304– 305.

69- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص147.

70- ابو سعيد: الجبهة الاسلامية، ج1، ص 157 – 158.

71- ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج5، ص244.

72- ابو سعيد: الجبهة الاسلامية، ج1، ص 223.

73- ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج5، ص171.

74- الكامل مج10، ص543.

75- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص 299- 300.

76- ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص140.

77- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص 304.

78- ابـن واصـل: مفـرج الكـروب، ج1، ص140؛ ابـن الاثـير: الكامـل، مـج11، ص 302، 303: ابـن الوردي: تاريخ ج2، ص91.

79- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص 327.

80- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص216، 217؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص643- 644.

81- ابن الاثير: الباهر، ص 34.

82- المصدر نفسه، ص37- 38.

83- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص288؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص245- 246.

84- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص662؛ ابن خلدون: تاريخ، مج5، ص224- 225.

85- ابن الاثير: الكامل. مج10، ص666؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص246.

86- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص246.

87- William of Tyre. OP. Cit, Vol, 2, P. 44; Stevemson: OP. Cit, P. 129.

88- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص247؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص295.

89- ابن الاثير: الباهر، ص45- 46، 47- 48.

90- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص310 - 311.

91- ابن الاثير: الكامل، مج10، ص685.

92- ابن واصل: مفرج الكروب ج1، ص67- 70.

❖ بارين: مدينة لطيفة بين حلب وحماه والعامية تسميها بعرين. انظر: ياقوت: معجم البلدان، مـج2، ص320 — 321.

93- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص259؛ Zoe': The crusades P. 307.

ذكر الدواداري: ان ذلك حدث سنة 531هـ: انظر كنز الدرر، ج6، ص 525.

94- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص255؛ ابن الاثير: الكامل، مج11، ص40.

95- William of Tyre ،OP. Cit, Vol, 1, PP. 77, 78;

عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص43.

96- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص51- 52.

97- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص56- 57، ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص265- 266.

98- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص266- 268.

99- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص264؛ ابن خلدون: تاريخه مج، 5 ص233.

100- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص279؛ ابن الاثير: الباهر، ص66- 67.

101- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص284- 285؛ ابن الاثير: الباهر، ص66- 67.

102- ابن الاثير: الكامل حوادث عام 541.

103- مؤنس، حسين (دكتور): نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، ط1 (القاهرة 1959) ص184، 203.

104- ابو شامة: الروضتين، ج1، ق1، ص123- 124.

105- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص122؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص291.

106- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص112.

107- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص629.

108- William of Tyre. OP. Cit, Vol, P.P. 181, 182.

109- ابو سعيد (د. حامد غنيم): الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ج، 1 ص274- 275.

❖ يغرى: مكان على حدود اقليم العمق بجوار دريساك. انظر ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص292، حاشية 4.

110- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص134؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص114- 115.

111- ابن الاثير: الباهر، ص98.

112- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص304.

113- ابو شامة: الروضتين، ج، ص150.

114- المصدر نفسه، ج1، ق1، ص150.

115- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص305.

116- ابو شامة: الروضتين. ج1، ق1، ص150.

117- ابو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص213.

118- ابن الاثير: الباهر، ص99؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص298؛
William of Tyre, Vol. 2, P. 196,197.

119- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص639.

120- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص305.

121- ابن الاثير: الكامل، مج، 11 ص144؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج، 2 ص299.

122- William of Tyre, Vol. 1, P.P. 253, 254.

123- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص564.

124- ابن شداد، عزالدين ابي عبد الله محمد بن علي(ت:684هـ): الاعلاق الخطيرة(تاريخ لبنان والاردن وفلسطين) تحقيق، سامي الدهان(دمشق 1382هـ/ 1962م) ص71.

125- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص677؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص577.

126- ابن الاثير: الباهر، ص99؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص299.

127- ابو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص268.

128- ابن الاثير: الكامل، مج، 11 ص301– 302.

129- ابن الاثير: الكامل، مج، 11 ص208; ابو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص239.

130- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص302؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص596.

131- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص303.

132- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص597.

133- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص303- 304; ابو شامة: عيون الروضتين، ق1، ص272.

134- Stevensen: The crusaders in the east, P. 190.

135- حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، ص90– 91.

136- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص686.

137- الروضتين: ج1، ق2، ص342.

138- ابن الاثير: الباهر، ص154 - 155؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ج1، ق1، ص517.

139- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص720- 721.

140- ابن الاثير: الباهر، ص158، 161؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص338-340.

141- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص405.

142- قاسم عبدة: ماهية الحروب الصليبية، ص142.

143- الدواداري: كنز الدرر، ج7، ص43.

144- نوري، دريد عبد القادر (دكتور): سياسة صلاح الدين، مطبعة الارشاد (بغداد، 1976) ص119.

145- ابن الاثير: الباهر، ص163.

146- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص 406،405؛ البنداري: الفتح بن علي(ت:643هـ)، سنا البرق الشامي، تحقيق، د .فتحية النبراوي، الخانجي(القاهرة 1979) ص، 74- 76.

147- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص50; ابو شامة: الروضتين، ج1، ق2، ص604.

148- ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص12.

149- Stevenson: The crusaders in the east. P. 213.

150- نوري، دريد عبد القادر: الفكر العسكري للقائد صلاح الدين الايوبي، بحث منشور في مجلة افاق عربية، المجلد 16، العدد الرابع لسنة 1987، ص70.

151- ابن الاثير: الباهر، ص176- 177؛ البغدادي: سنا البرق الشامي، ص81.

152- ابن الاثير: الباهر، ص183.

153- ابن واصل: مفرج الكروب، ج،2 ص24؛ ابو شامة: الروضتين، ج،1 ص40.

154- الجميلي: دولة الاتابكة، ص149.

155- الداوداري: كنز الدرر، ج7، ص43.

156- عاشور: الحركة الصليبية ص747.

157- الباز العريني: الشرق الادنى في العصور الوسطى، ص65-66.

158- Immanuel Sivan: L' Islam et al croisades(paris 1968). P. 96;

والى ذلك اشار الاستاذ جب بقوله ان صلاح الدين كان يرجو من وراء ذلك الشعار (اعادة التسلح الخلقي)) في اطار العقيدة الاسلامية.

انظر: جب هاملتون: صلاح الدين، ص188؛ كما يعتقد هارولد لامب، ان صلاح الدين كان يعلم ان امكانية توحيد المسلمين وحشد طاقاتهم لا يتم الا في اطار مشروع اعلان الجهاد المقدس.

انظر: شعلة الاسلام: قصة الحروب الصليبية، ترجمة محمود عبد الله يعقوب، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال (بغداد 1967،) ص67.

159- Grousset, Vol, 2. P.646 .

160- ابو شامة: الروضتين، ج1، ق2، ص611.

161- المقريزي: السلوك، ج1، ص65.

162- Grousset, Vol, 2. P.646 .

163- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص498- 499؛ ابن شداد: النوادر، ص60.

164- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص780.

165- ابو شامة: الروضتين، ج2، ص47.

166- ابن الاثير: انكامل، مج9، ص194.

167- ابو شامة: الروضتين، ج2، ص131.

168- William of Tyre, OP. Cit, Vol ,2, P. 491.

169- ابن شاهنشاه الايوبي (ت: 617هـ): مضمار الحقائق وسر الخلائق ص151، لم يذكر عماد الدين الاصفهاني في مدة الهدنة التي طلبها صاحب انطاكية وانما اكتفى بالقول((فراسل صاحب انطاكية ضارعا وللعجز عارضا، والى الانقياد مسارعا وسير الينا من اسارى المسلمين عدة واخيه..)) انظر: البرق الشامي، تحقيق الدكتور فالح صالح حسين ط1(الاردن، عمان 1987)، ص124.

170- William of Tyre, OP. Cit, Vol ,2 , P.

171- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص37.

172- الاصفهاني، العماد الكاتب محمد بن صفي الدين(ت:597هـ): الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، (القاهرة 1965). ص618؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص240؛ ابو الفداء: المختصر، ج2، ص83. الملك الاشرف الغساني(ت:803هـ): المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء، تحقيق، شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الاسلامي بيروت، دار البيان، بغداد (1975)، ص218.

173- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص538؛ ابو الفداء: المختصر، ج3، ص75.

174- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص828.

175- ابن شداد: النوادر، ص86؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص186.

176- ابن شداد: النوادر، ص86.

177- ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص184.

178- ابن شداد : النوادر، ص89: ابو شامة : عيون الروضتين، ق2، ص188.

179- الاصفهاني: الفتح القسي، ص233.

180- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص8؛ وذكر بن شداد واو شامة أن فتحها كان في تاسع عشر جماد الاولى: انظر: النوادر، ص89؛ عيون الروضتين ق2، ص189.

181- الاصفهاني: الفتح القسي، ص233؛ ابن الاثير: الكامل، مج12، ص189؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص188، 190.

182- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص8؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص189.

183- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص9؛ ابن شداد : النوادر، ص89.

184- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص9.

185- ابن شداد : النوادر، ص89.

186- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص9؛ ابن شداد : النوادر، ص89؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص89.

187- الاصفهاني: الفتح القسي، ص237؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص189.

188- الفتح القسي، ص237.

189- الاصفهاني: الفتح القسي، ص237؛ ابن شداد : النوادر، ص89؛ ذكر ابو شامة ان ذلك حدث في السادس والعشرون من الشهر. انظر: عيون الروضتين، ق2، ص189.

190- العماد الكاتب: الفتح القسي، ص241؛ ابن الاثير: الكامل، مج12، ص102.

191- ابن شداد : النوادر، ص90.

192- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص10،18.

193- الاصفهاني: الفتح القسي، ص243؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص189،190.

194- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص10-11؛ ابن شداد : النوادر، ص90.

❖ العيذو: قال ياقوت هي قلعة بنواحي حلب: انظر: معجم البلدان، مج4، ص171.

❖❖ بلانطس: عند ياقوت حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من اعمال حلب انظر: معجم البلدان، مج1، ص478.

195- ابن شداد : النوادر، ص91.

❖❖❖ الجماهيرية: حصن قرب جبلة من سواحل الشام. من سواحل الشام. ياقوت: معجم البلدان، مج2، ص160.

196- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص11.

197- ابو شامة: عيون الروضتين، ص190؛ وعند ابن الاثير: ((حصن الجماهرتين)) انظر: الكامل، مج12، ص11.

198- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص12.

199- ابن شداد : النوادر، ص91.

200- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص12.
201- الاصفهاني: الفتح القسي، ص246؛ ابن شداد: النوادر، ص91.
202- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص13.
203- ابن الاثير، الكامل، مج12، ص13؛ ابن شداد، النوادر، ص91.
204- ابن شداد: النوادر، ص92.
205- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص13.
206- المصدر نفسه، مج9، ص193؛ ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص190.
207- الاصفهاني: الفتح القسي، ص254؛ ابن الاثير: الكامل، مج12، ص14.
208- عيون الروضتين، ق2، ص191.
209- ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص192؛ الحنبلي: الانس الجليل، ج1، ص352.
210- ابن شداد: النوادر، ص93.
211- المصدر نفسه، ص93.
212- عيون الروضتين ق2، ص192.
213- ابن الاثير: الكامل، مج9، ص194.
214- ابن شداد: النوادر، ص93؛ ابو الفداء: المختصر، ج3، ص74.
215- ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، ص92.
216- ابن شداد: النوادر، ص93.
217- المصدر نفسه، ص94.
218- عيون الروضتين، ق2، ص193.
219- ابن الاثير: الكامل، مج9، ص195؛ عيون الروضتين، ق1، ص193.
220- الدواداري: كنز الدرر، ج7، ص98.
221- ابن الاثير: الكامل، مج8، ص195.
222- الاصفهاني: الفتح القسي، ص260؛ الدواداري: كنز الدرر، ج7، ص95.
223- الاصفهاني: الفتح القسي، ص260؛ ابن الاثير: الكامل، مج9، ص195؛ ابو الفداء: المختصر. ج3، ص75؛ ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص142.
224- ابن شداد: النوادر ص94.

225- Grousset ,Vol,11 , PP. 834 -835.

226- ابن الاثير: الكامل، مج9، ص19.
227- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص146.
228- المصدر نفسه،، ج3، ص161، 162.
229- المقريزي: السلوك، ج1، ص98.
230- المقريزي: السلوك، ج1، ص104.
231- ابن شداد: النوادر، ص115.

232- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص848.

233- المصدر نفسه ج2، ص845، 850.

234- ابن الاثير: الكامل، مج9، ص201.

235- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص145.

236- ابن شداد: النوادر، ص143.

237- الاصفهاني: الفتح القسي، ص605؛ ابن شداد: النوادر السلطانية، ص235؛ ابن الفرات: تاريخه مج4، ج2، ص74.

238- هذا ما اجمعت عليه المصادر المعاصرة عدا ابن الاثير وابن العبري اللذين قالا ان اجل الهدنة ثلاث سنوات وثمانية اشهر: انظر الكامل، مج9، ص221، تاريخ مختصر الدول، ص223.

239- ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص122.

240- الاصفهاني: الفتح القسي، ص618؛ ابن شداد: النوادر، ص240؛ ابو الفداء: المختصر، ص588.

241- ابو شامة: الروضتين، ج2، ص207.

242- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص901.

243- ابن شداد: النوادر، ص246.

244- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص913.

245- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص184.

246- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص97.

247- الدواد اري: كنز الدرر، ج7، ص128- 130.

248- ابن الاثير: الكامل، مج9، ص277.

249- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص912.

250- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص126- 127؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج3، ص75.

251- ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص140.

252- ابن واصل: مفرج الكروب، ج3، ص155؛ ابو الفداء: المختصر ج3، ص105.

253- ابو الفداء: المختصر. حوادث 600هـ.

254- ابن واصل: مفرج الكروب، ج3، ص171؛ ابن الفرات: تاريخ مج5، ج1، ص21.

255- ابن واصل: مفرج الكروب، ج، 2 ص187.

256- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص244.

257- ابن شداد: النوادر، ص95.

258- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1026.

259- ابو الفداء: المختصر حوادث سنة 634 هـ.

260- ابن العديم: زبدة الحلب ج2، ص225.

261- اليونيني، الشيخ قطب الدين بن محمد بن احمد (ت:726هـ): ذيل مرآة الزمان، دار المعارف، ط1، حيدر اباد (الدكن 1954)، مج1، ج1، ص349.

262- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص523- 527.

263- ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7، ص108.

264- ابو الفداء: المختصر، حوادق 660هـ.

265- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، 327؛ ابن الاثير: الكامل، مج11، ص197.

ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص303- 305؛ الحنبلي: شذرات الذهب، مج4، ص52.

266- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص665.

267- Chaen. OP. Cit. P. 394.

268- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص570.

269- الاصفهاني: الفتح القسي، ص632.

270- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص911.

271- انظر: المقريزي: السلوك، ج1، ص118؛ ابو المحاسن، النجوم الزاهرة ج6، ص120- 122.

❖ الخوارزمية: يمثل الخوارزمية احدى الامارات الاسلامية التي نشأت في كنف السلاجقة عند نهاية القرن الخامس الهجري، وقد دخلوا معهم في صراع طويل، حتى تمكنوا من تثبيت سلطانهم، ولكنهم تعرضوا لضغط الموجات المغولية الزاحفة فانسحبوا امامها نحو بلاد فارس والجزيرة وبلاد الشام. للمزيد انظر: ابن الاثير: الكامل، ج12، ص106- 107، 415- 420؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص 134، 135؛ د. محمد صالح داود القزاز: الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير، ص217- 219؛ د. محمود ياسين التكريتي: الايوبيون في شمال الشام والجزيرة، ص287؛ د. بدري محمد فهد: تاريخ العراق السياسي في العصر العباسي الاخير ص56 - 57.

272- للمزيد انظر: ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص249- 263؛ الحنبلي: شفاء القلوب، ص 367- 378.

الفصل الخامس:

سقوط إمارة أنطاكية الصليبية

إنّ سقوط أو زوال أية دولة، لابد أن يكون بفعل عوامل ومؤثرات كثيرة منها ما هو خارجي، ومنها ما هو ذاتي يتعلق بطبيعة كيانها، وكيفية قيامها، وفي الاطار العام لمنشأ وأهمية الأسباب التي أدت إلى زوال إمارة أنطاكية الصليبية يمكن حصرها في المجالات التالية:

أولاً: الأسباب الخارجية

أ- ما يتعلق بالغرب الأوربي

إن البحث عن الأسباب ذات المنشأ الاوربي، تحتم على الباحث أن يفتش عن جذورها، عبر تتبع النشاط الأوربي في ميدان إعداد وتدفق الحملات الصليبية المتجهة الى الشرق، إذ رافق التمهيد لهذه الحملات وإعدادها أموراً وتطورات يمكن أن نلتقط من خلالها أسباباً موضوعية لضعف وتداعي عموم الوجود الصليبي، بما فيها إمارة انطاكية.

فإذا كان سوء الأوضاع في الشرق قد ساعد الصليبيين الى حد كبير، في تأسيس إماراتهم، فإن غياب التماسك والانسجام بين تلك الإمارات، بسبب اختلاف اللغة والجنس، فضلاً عن الجذور القومية والتاريخية، جعلها في حاجة دائمة للاستعانة بأوربا لإسعافها بعوامل الثبات والبقاء[1].

فإذا كان النداء الذي أطلقه البابا في أوربا سنة 488هـ/1095م موجهاً إلى عموم المسيحيين في الغرب[2]، لإعداد الجموع والمسير إلى الشرق، حيث الأرض المقدسة فإن النورمان، الذين أقاموا إمارة أنطاكية الصليبية، كانوا من بين تلك الجموع، وإذا ما عدنا إلى علاقة هؤلاء بالصراع الدامي الذي دار بين السلطتين الزمنية والروحية في أوربا إبان الغزو

الصليبي بهدف أن يفرض كل من الطرفين (الكنيسة والأباطرة) هيمنته على الطرف الآخر لوجدنا أن النورمان اصطفوا الى جانب البابوية في صراعها مع الأباطرة[3].

ويبدو منطقياً أن ذلك الصراع الذي امتد لسنوات طويلة بين الطرفين في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يدعمون وجودهم في الشرق، قد انعكس الى حد بعيد في الانهماك بما يجري في أوربا، والنأي عن رفد وتدعيم الحركة الصليبية.

وبذلك تكون البابوية قد أسهمت في إضعاف الوجود الصليبي في الشرق، بترجيح مصالحها الذاتية على الصالح العام للحركة الصليبية بأسرها [4].

فعندما عاد إلى أوربا عددٌ من الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى معلنين حاجة إخوانهم في الشرق إلى محاربين لتثبيت كيانهم[5] واصفين ما في الشرق من الثروات، والروائع، والضياع الكبيرة التي تنتظرهم جرى الشروع في الغرب بإعداد حملة كبيرة، وكان ينتظر من تلك الحملة أن تحقق أعمالاً مهمةً[6]، ولاسيما إمارة أنطاكية، لأنَّ طليعة الحملة كانت من اللمبارديين، الذين انضموا الى صفوف أتباع بوهمند منذ الحملة الصليبية الأولى[7]، وصار لبوهمند دون غيره من الصليبيين القدح المعلى في لومبارديا [8]، لذا جعل اللمبارديون بعد وصولهم الى القسطنطينية، في مقدمة أهدافهم القيام بمحاولة لإطلاق سراح زعيمهم بوهمند، الذي كان أسيراً في تلك الاثناء لدى الامير ايلغازي بن الدانشمند [9].

غير أن الحملة، أبيدت على يد القوات الإسلامية سنة 495هـ/ 1101م بين منطقتي أماسية وسيواس، وقد حرمت تلك الكارثة الصليبيين في الشام [10]، وإمارة أنطاكية خاصة، من تدعيم موقفها، برفدها بإعداد متزايدة من الرجال (اللمبارديين) الذين وضعوا نصب أعينهم خدمة الإمارة وزعيمها بوهمند.

ومن النتائج الخطيرة لفشل تلك الحملة، عودة السلاجقة وبني الدانشمند للسيطرة مجدداً على الممرات البرية الستراتيجية التي تربط شمال الشام بأوربا عبر القسطنطينية، وقد امتد نفوذ الدانشمند في حوض الفرات جنوباً حتى اقترب من الرها [11].

وبذلك أصبحت القوات الإسلامية المنتصرة تتحين الفرص للانقضاض على أية دفعات صليبية جديدة تتجه نحو الشرق، ففي شهري حزيران وأيلول من سنة 495هـ/ 1101م تمكنت القوات من إبادة جيشين صليبيين تعدادهما نحو (75) ألف صليبي، كان الجيش الأول بقيادة وليم الثالث كونت نفرز (Nevers)، والثاني بقيادة دوقي اكوتين وبافاريا، إذ حاول هؤلاء الصليبيون اللحاق بإخوانهم اللمبارديين، ولكنهم شهدوا نفس المصير الذي مر بسابقيهم، ولم يصل منهم إلى إمارة أنطاكية إلاّ شراذم قليلة[12].

ومن الواضح أن عجز الغرب عن تأمين حاجة الإمارات الصليبية في الشرق من الرجال

قد ظهر بصورة جلية على قدرات إمارة أنطاكية الدفاعية في السنوات القلائل التالية، فبعد هزيمة الصليبيين في حران وتصاعد هجمات رضوان صاحب حلب على أنطاكية وجد بوهمند نفسه يائساً من مواجهة الموقف، وأن الوسيلة الوحيدة أن يطلب المدد من الغرب، بل إنه آثر الذهاب بنفسه لتجنيد ما يحتاج إليه من الرجال، وقد عانى تنكرد- الوصي على الإمارة - من نفس المشكلة بعد رحيل بوهمند إلى الغرب، فأخذ باستئجار المرتزقة المحليين[13].

كان لسقوط الرها سنة 539هـ/1144م دوي هائل في الغرب، فهي أولى الإمارات اللاتينية، وترس الصليبيين من جهة الشرق[14]، فأثار سقوطها الرعب في العالم الغربي[15]، بعد أن وصلت تلك الأنباء إلى هناك.

فبادر البابا يوجينيوس الثالث (1145- 1153م) بالشروع لاستثارة أوربا لإعداد ما عُرفَ بالحملة الصليبية الثانية، ولكن ذلك البابا لم يكن آنذاك في روما، وانما كان في (فيتربو) نظراً لأن روما كانت في قبضة حكومة (قومون) تبغض الحكم البابوي، فلم يكن بإمكانه دخول روما منذ توليه البابوية، ولكنه استطاع بما يربطه من علاقة طيبة مع كنراد وهوهنشتاوفن ملك المانيا، ولويس السابع ملك فرنسا إعداد تلك الحملة[16].

وقد بدا واضحاً ولاسيما في فرنسا، منبع الحركة الصليبية[17]، أن الناس أخذوا ينظرون الى تلك الحروب بمنظار جديد، فلما قرر لويس السابع ملك فرنسا، الاشتراك شخصياً في تلك الحرب، والتمس من أتباعه أن يقتدوا به (ساءه ما تلقى من إجابة مخيبة لأمله، فلم يبد النبلاء العلمانيون شيئاً من الحماس لهذا القرار)[18].

ويبدو أنه ليس هناك ثمة وحدة حقيقية تربط أعضاء هذه الحملة الكبيرة، وذلك لأن كل من: كنراد، ولويس سارا الواحد منهم مستقلاً عن الآخر وفي أوقات مختلفة، تحاشيا لما قد يقع من منازعات بين جيوشهما، حتى وصلا الى آسيا الصغرى[19]، حيث وقع معظم رجال الحملة فريسة سهلة في أيدي السلاجقة ولم يصل منهم إلى الأراضي المقدسة إلاّ أعداد قليلة[20].

تلك الحملة التي كان إعدادها استجابة لإنقاذ الرها قد انحرفت تماماً عن الأهداف المرسومة لها، وحاولت الإمارات الصليبية أن تظفر كل واحدة منها بتحقيق غاياتها الخاصة[21].

أمّا ريموند بواتيه أمير أنطاكية الذي عقد آمالاً كبيرةً على تلك الحملة، ولاسيما الجانب الفرنسي منها، نظراً لما يربطه من صلة عائلية بملك فرنسا، فهو (ريموند) عم الملكة اليانور زوجة لويس السابع؛ لذا حاول استغلال هذه العلاقة لتحريض ملك فرنسا، الذي وصل أنطاكية، على توجيه ضربة قوية لمدينة حلب، قلب الدولة النورية، ومصدر الخطر

الحقيقي على أنطاكية، ولكن علاقة أمير أنطاكية بملكة فرنسا قد تجاوزت على ما يبدو حدود علاقات ذوي القربى[22] وهذا ما شغل بال لويس السابع، إذ شاع الكثير عن العلاقات الغرامية بين زوجته أمير انطاكية، فأسرع بالمسير الى فلسطين دون الاكتراث بما تتعرض له إمارة أنطاكية[23].

ومن الغريب أن تلك الحملة الصليبية بما اجتمع لها في الشام من الأعداد الضخمة[24]، قد استقر الرأي فيها على شن هجوم فاشل ضد دمشق، الأمر الذي عجّل في تسهيل انضمام دمشق الى الجبهة الإسلامية تحت قيادة نور الدين محمود الذي دخلها سنة 549هـ/1154م[25].

وقد أدى فشل هذه الحملة الذريع الى انحطاط هيبة الصليبيين ورجحان كفة المسلمين، ويبدو أن ما توهمه المسلمون من خطورة هذه الحملة لم يعدُ أن يكون أوهاماً كاذبة[26].

وعن هذه الحملة يقول رنسيمان، واصفاً الآمال، والخيبة، والنتائج التي ترتبت عليها، إنه ما من حملة تضارعها، إذ دعا إليها، ووضع خططها البابا، وقادها أعظم ملكين في أوربا، فاتجهت إليها أنظار العالم المسيحي، ولكن فشلها الذريع وارتدادها المشين عن دمشق، كان خيبة لا توصف، بل إنها أدّت إلى القطيعة النهائية بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين، وبذرت الشكوك بين الصليبيين القاطنين في الشرق، ثم حملت المسلمين على أن يزدادوا تقارباً، وكشفت القناع عن أسطورة الفرنج الذين لا يقهرون، يضاف الى ذلك أنها كشفت عن جهل وحماقة الملوك الأوربيين الذين قادوا تلك الحملة[27].

إنّ المرحلة التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية، وانضمام دمشق الى وحدة بلاد الشام، ثم زوال الخلافة الفاطمية في مصر سنة 567هـ/1171م، قد أعطت بعداً استراتيجيا جديداً للوحدة الاسلامية في محورها الجديد، القاهرة/ دمشق/ حلب، وقد توجت هذه الوحدة بيوم حطين، وعودة بيت المقدس إلى العالم الاسلامي سنة 583هـ/1187م، في الوقت الذي شهدت فيه إمارة أنطاكية تغييرات خطيرة، تمثلت في جوانب عدة، فقد انكمشت حدود الإمارة بعد الغارات التي شنها نور الدين لتجريدها من أهم أجزائها[28]، يضاف إلى ذلك ما تعرضت له الإمارة من الضغوط البيزنطية من جهة، والصراع الداخلي على عرش الإمارة وتدخل النساء في شؤونها من جهة أخرى[29].

بعد خسارة الصليبيين الهائلة في معركة حطين، وعودة بيت المقدس الى سيادة المسلمين سنة 583هـ/1187م، هرعت رسل الصليبيين نحو الغرب لإشعار أوربا بنبأ الهزيمة التي لحقت بهم على أيدي المسلمين، غير أن أوربا كانت في شغل شاغل عما يجري في الشرق،

إذ كانت سادرة في مشاكلها الداخلية، ومع أن البابوية كانت أكثر إحساسا بوطأة الخطر[30]، إلاّ أن موقفها كان بالغ الصعوبة إثر موت أربان الثالث (1185- 1217) الذي مات من هول الصدمة، فتوجه الرسل الى غرب أوربا لشرح حقيقة الوضع، فقد قام كبير أساقفة صور بجولة زار فيها بلاط عدد من الملوك والأمراء في الغرب يستنهض هممهم[31]، ووجه البابا الجديد خطاباً بابوياً إلى (جميع المؤمنين بالغرب) أعاد فيه إلى الأذهان أن فقدان الرها قبل أربعين سنة كان يجب أن يكون نذيراً لهم، ووعدهم بغفران كامل خطاياهم إن هم شاركوا في حملة صليبية جديدة[32].

وقد تشكلت تلك الحملة (الثالثة) من ملوك ألمانيا، وفرنسا، وانكلترا، فريدريك بربروسة، وفيليب أغسطس، وريتشارد الأول، ووصلت طلائعها إلى سوريا سنة 587هـ/ 1191م[33]، أي بعد ما يقرب من أربع سنوات بعد حدوث معركة حطين.

ومن أبرز سمات تلك الحملة أنها كانت تعاني من مشاكل خانقة، ولاسيما ما كان يدور من صراعٍ حادٍ بين ملكي إنكلترا وفرنسا، فلم يكن من السهل أن يتناسيا ما كان بينهما من عداء عميق الجذور، وهذا ما أثر على الآمال المرجوة من تلك الحملة، فقد اتصفت المساعي بالصفة الفردية، وعدم إمكانية القيام بعمل مشترك ضد صلاح الدين[34].

والمعروف أن تلك الحملة قد اختلفت عما سبقها، في أنها لم تنبع من البابوية التي كان تعاني وقتذاك من عوامل الانهيار، إذ مثلت هذه الحملة إرادة السلطة الزمنية التي يمثلها الملوك الثلاثة في كل من ألمانيا وإنكلترا وفرنسا، والذين صارت لهم السيادة والسلطات في أوربا، وبذلك أفصحت تلك الحملة عن مظهرها العلماني، ويعد هذا المظهر أحد عوامل فشلها، لأن ملكي انكلترا وفرنسا قد نقلا ما بينهما من منازعات سياسية الى الحركة الصليبية، ومن الطبيعي أن جيشا افتقر الى القيادة الموحدة، ومزقته النزاعات السياسية على أرض أجنبية، ليس بإمكانه أن يحرز النصر[35]،

وقد أضاف ريتشارد الى الرصيد الدموي للصليبيين في أنطاكية، ومعرة النعمان، وبيت المقدس، ما ارتكبه هو شخصياً من إبادة الأسرى المسلمين العزل في عكا، بأن قتل صبراً نحو ثلاثة آلاف أسير بعد أن منحهم الأمان[36].

ومع ذلك فقد كان حصاد تلك الحملة هزيلاً ومخيبا لآمال الأوربيين في الغرب، والصليبيين في الشرق، الأمر الذي أحرج وضع إمارة أنطاكية، وهذا ما دفع أميرها بوهمند الثالث إلى الارتماء بأحضان صلاح الدين، حينما فاجأ السلطان بالمثول بين يديه في بيروت سنة 588هـ/1192م، طالباً رضاه، والإبقاء على ما في يده من بقايا أشلاء إمارة أنطاكية[37].

ومن خلال تتبع الحملات الصليبية اللاحقة، يبدو لنا بوضوح أنها لم تحقق للصليبيين

في الشرق مكاسب جدية مؤثرة، فإذا كان فريدريك الثاني الألماني الذي جاء بثلة صغيرة من جنده إلى الشرق، وقالها صراحة: إنه (ما له غرض في القدس، ولا غيره، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج)[38]، فدخل القدس بصفته صديقاً للمسلمين (فعاد إلى أوربا مكتفياً بهذه المجاملة الحقيرة)، فإن الحملات الصليبية أخذت تفقد صبغتها الجماعية الشاملة ولاتبحث عن غير ما فيه الثراء[39].

وعلى الرغم من أن الصليبيين في الشرق لم يواجهوا أي خطر حقيقي خلال الحقبة الأيوبية– بعد وفاة صلاح الدين– ومع ذلك فقد شهدت شواطئ الشام في هذه الحقبة جموعاً متواصلة من الفرسان والمغامرين وشذاذ الآفاق، والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب، ومع أن عدداً من تلك الجموع من الفرسان والمحاربين، كانت ضخمة وعاتية، إلا أن بعضها كان عبارة عن مجاميع وثلل ليست كبيرة، وبرغم المد المتواصل لم يستطع الصليبيون تثبيت أقدامهم، وإنما كانت النهاية المحتومة تلوح في الأفق القريب[40].

وإذا كان لويس التاسع آخر من أدلى دلوه لإنعاش الحركة الصليبية في الشرق، فإن ما حاز عليه من نتائج واهية لم تغير من واقع الحال، إذ أصبح ما تبناه لويس التاسع من أفكار صليبية بمعزل عن التيار العام لأفكار أوربا ونهجها الحضاري في النصف الثاني من القرن الثالث عشر[41].

وهنا لابد من إضافة أسباب أخرى أسهمت إلى حد كبير في اخفاق تلك الحملات، وعدم حيلولتها دون انهيار الوجود الصليبي في الشرق، ومن تلك الأسباب العوامل الاقتصادية، فمنذ زمن مبكر، يرجع إلى سنة 542هـ/1147م، فرض لويس السابع ملك فرنسا ضريبة من أجل الحروب الصليبية، ثم جدد لويس تلك الضريبة، وحذا حذوه ملك إنكلترا هنري الثاني، سنة 562هـ/1166م، ثم تطورت تلك الضرائب سنة 584هـ/1188م الى ما يعرف (بعشور صلاح الدين) ولتلك الضرائب سمة خاصة في أنها فرضت لأول مرة على الأموال المنقولة[42].

غير أن أسس جباية تلك الأموال لم تخل من المشاكل، إذ حاول جلبرت هوكستون، أحد فرسان الداوية، أن يحوز لنفسه قدراً من المال الذي جباه، بينما لم يستطع ملك اسكتلندة– أحد أتباع ملك إنكلترا– حمل باروناته الأشحاء على المساهمة بأموالهم[43].

وفي سنة 612هـ/1215م قرر البابا انونسنت الثالث أن تسري ضريبة العشور على رجال الدين أيضاً، وبذلك صارت الضريبة المفروضة على رجال الدين تؤلف جانباً من جوانب المشروع السياسي الذي رسمه ذلك البابا الكبير[44]، ويبدو أن ردود الفعل كانت كبيرة إزاء تلك الضرائب (وهكذا انقلبت الحرب الصليبية ... وبإرادة انونسنت، على الأوربيين في بلادهم، واستغلت القوة الصليبية لخدمة البابا وأطماعه)[45].

وبالنظر إلى الاحتياجات المتزايدة لحملة لويس التاسع ملك فرنسا، فقد قرر جباية ضرائب استثنائية للانفاق على مشروعه لغزو الشرق، ولم يُعف من دفعها رجال الدين مما أثار غضبهم[46].

ويبدو أن فرض تلك الضرائب قد أدى إلى حدوث الكثير من المشاكل الإقتصادية في أوربا؛ وذلك أن المشتركين في الحملات الصليبية قد أعفوا من تلك الضرائب، لذلك اندفع الكثير الى أن يتخذوا الصليب للاشتراك في الحرب تخلصاً من أعباء تلك الضرائب[47] ويعتقد عددٌ من الباحثين أن رجال الدين وجدوا فرصتهم الثمينة لابتزاز أموال الناس بدعوى انفاقها في سبيل إعلاء كلمة الدين، (فأينما حل المتبصر لايسمع إلاَّ ضجيج الناس، وتأنيب البابوية عما أظهرته من المطامع النهمة) [48].

وإذا كان لذلك من نتائج فلا بد أن تكون تلك الضرائب قد أرهقت كاهل الناس، ولفتت انتباههم الى التفكير من جدوى الأغراض التي تجبى من أجلها، ويمكن أن ينطبق ذلك على الكثير من جباة ودافعي الضرائب، وبتعبير أخر، إن تلك الضرائب التي أثقلت كاهل الناس– على مختلف طبقاتهم– وتلكأ الكثير في دفعها، قد اسهمت الى حد كبير في إضعاف دوافع الاستجابة لدى الأوربيين لنصرة الصليبيين في الشرق، مما انعكس سلباً على مقومات وقدرات إمارة أنطاكية، ويمكن أن يضاف الى ما تقدم من أسباب أن أمراء الإقطاع في إنكلترا وألمانيا لم يشترك منهم إلاَّ القليل في الحروب الصليبية، فحافظوا بذلك على إقطاعاتهم، وأصبحوا رقباء على ملوكهم الذين تورطوا فيها [49].

ومن العوامل الأُخرى التي يمكن إضافتها إلى ما سبق من أسباب إخفاق أوربا في رفد الوجود الصليبي بمقومات البقاء والنمو، هو تعثر تلك الحملات أو الإرساليات التي تنطلق من أوربا نحو الشرق، ويبدو أن بعد الشقة المتمثلة بالمسافات الشاسعة التي تفصل بين مراكز تجمع تلك الحشود ومواقع الهدف الذي تروم الوصول إليه قد فعل فعله، من ضياع الوقت، والجهد، والرجال، فضلاً عن ما تمر به تلك الحملات من الصعاب وهي تجتاز الطريق الطويل نحو الشرق، لاسيما وأن السلوك العدائي لأكثر الجموع المؤلفة منها قد أثار شكوك وارتياب الشعوب التي تقع أراضيها على الطريق من جهة، واضطراب تلك الحملات عند محاولاتها اختراق أراضي المسلمين في آسيا الصغرى من جهة ثانية، والشواهد على ذلك كثيرة عند تتبع مسير أية حملة من تلك الحملات التي سلكت الطرق البرية [50]، فكانت الحصيلة ألا يصل منها إلاَّ القلة القليلة، وقد أجهدهم الإعياء وأضناهم طول المسير، وفي ذلك يقول ابن شداد [51]، عن رجال الحملة الألمانية بأنهم وصفوا (بالضعف العظيم والمرض الشديد) (وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير) [52] فلم يصل منهم إلاَّ فلول هزيلة متعبة [53].

وفضلاً عما قدمناه فإن وتائر التطور في أوربا قد أحدثت تغييراً عميقاً في نواحي الحياة العامة، فقد كانت النهضة الأوربية قد آتت أكلها [54]، فلا ريب أن يهجر الناس الأنماط السالفة في التفكير والتصرف. بما ينسجم مع واقع الحال، ومعطيات العصر.

ويعتقد عددٌ من المؤرخين الغربيين، أن الحروب الصليبية لم تفشل، وإنما توقفت، ولم تتوقف إلاّ لأنها لم تعد ملائمة لروح العصر، فإن أوربا القرن الثالث عشر من الناحية الأخلاقية هي غير أوربا القرن الحادي عشر، وبتعبير آخر فإن أوربا القرن الثالث عشر التي أخذت بتلابيب الحياة العلمانية، والدنيوية، ودراسة القانون، والفلسفة صارت غريبة عن أوربا القرن الحادي عشر ذات الطابع الديني والتفكير في الحياة الآخرة [55].

وبذلك زالت عن العقل الغربي الغشاوة التي جعلته يغالط في إدراك حقائق الأمور، فما تلك الهزائم التي حلت بجيوشهم في الشرق إلاّ تكذيب لدجل دعاة الحرب والمتقولين بأن الله هو الذي أمرهم بإعلانها، وسوف يمن عليهم بالنصر [56].

وبذلك خبت جذوة المثالية في العقل الأوربي، وأخذت كل أُمة تعمل في اطار تحقيق مصالحها الخاصة بها [57].

ويبدو مما تقدم أن أوربا التي تبنت مشروع الحركة الصليبية قد أخذت بمرور الأيام تنظر إليها من خلال جملة المتغيرات في ميدان التطور الاجتماعي والاقتصادي والعلمي الذي يمثل بواكير النهضة الأوربية الوسيطة، فكانت المحصلة تتمثل في تفكك الأواصر المتينة بين الحياة الحضارية الجديدة وبين مشاريع الغزو الصليبي الذي يحتاج إلى حشد طاقات كبيرة لم تعد ممكنة في ضوء المفاهيم المعاصرة، وقد أكد هذا شاعر فرنسي يدعى (رابيف) كان معاصراً لحقبة احتضار الوجود الصليبي في المشرق، إذ يقول في قصيدته، إنه من الحماقة أن يخاطر الإنسان في حرب دينية خارج بلاده، طالما بوسعه أن يتصل بالله في وطنه، ويعيش في يسر وسلام [58].

ويمكن أن نفسر ما ذهب إليه الشاعر بأنه انعكاس لصدى الواقع الاجتماعي الجديد في أوربا، ذلك الواقع الذي نبذ روح الانسياق وراء العواطف والخيال ليبدأ مرحلة جديدة في منطلقاتها وآفاقها.

ب- الصراع البيزنطي الأنطاكي

ألمحنا فيما سبق [59] إلى عمق الجذور العدائية بين النورمان والامبراطورية البيزنطية وكيف تمكن الإمبراطور الكسيوس كومونين من التغلب على الزعيم النورماني جويسكارد والد بوهمند في شبه جزيرة البلقان سنة 476هـ/ 1083م [60].

ثم وجه الإمبراطور جهوده بعد ذلك لمواجهة الزحف السلجوقي نحو أراضي الإمبراطورية في آسيا الصغرى، ذلك الزحف الذي انتهى بسيطرة السلاجقة بقيادة سليمان بن قتلمش على مدينة أنطاكية سنة 478هـ/1085م [61].

ولكن الامبراطور البيزنطي لم يأل جهداً في محاولاته لاسترداد ما فقده في آسيا الصغرى وشمال الشام باعتباره جزءاً من ممتلكاته التي سيطر عليها السلاجقة [62].

وعندما أخذ أمراء الصليبيين يتقاطرون على العاصمة البيزنطية في حملتهم الأولى دأب الإمبراطور على انتزاع العهود الموثقة منهم لإعادة ما يسيطرون عليه من أراضي الإمبراطورية التي كانت في حوزة المسلمين، وقد مَرَّ معنا كيف تنصل بوهمند النورماني من عهوده التي قطعها للإمبراطور بعد أن أصبح زعيماً أوحداً لإمارة أنطاكية دون منازع، ومن هنا تجدد الصراع بين النورمان في أنطاكية والإمبراطورية البيزنطية. وأخذ كل طرف في التماس وسائله لمجابهة الطرف الآخر، ويبدو أن الامبراطور الكسيوس قد انتهز انشغال السلاجقة في مقاومة الحملة الصليبية الأولى الزاحفة صوب أنطاكية، فاسترد البقية الباقية من مدن وأقاليم الساحل الغربي لآسيا الصغرى، فاستولى على الأقاليم الساحلية في ايونيا وفرجيا، وتمكن من انتزاع أزمير التي سبق وأن فشل في استعادتها [63].

ثم إن تنسيق الإمبراطور بين قواته البرية والبحرية والانتشار باتجاه شمال سوريا ماهو إلاّ دليل على رغبته في استرداد السيادة البيزنطية على شمال الشام؛ لذلك أدرك بوهمند خطورة ما يفكر به الإمبراطور، فاتجه بعد سقوط أنطاكية (492هـ/1098م) إلى اقليم قيليقية الذي عده الخطر البيزنطي المباشر على أنطاكية، فعزز الحاميات التي سبق أن تركها تتكرد هناك في أذنة، والمصيصة، وطرسوس، إذ عزم على ضم ذلك الإقليم نهائياً إلى إمارته [64].

ثم اتجه في شهر آب من سنة 493هـ/1099م الى اللاذقية لاستخلاصها من الحامية البيزنطية، تحسباً للحصار البحري الذي قد يفرضه الكسيوس على الإمارة، ولتأمين الاتصال بالقطعات البحرية الإيطالية، للإفادة منها في تحقيق أهدافه التوسعية [65]، غير أن بوهمند لم يتمكن من تحقيق غايته [66].

وبذلك تحول الصراع بين الطرفين إلى أطواره العلنية، وأصبح الصدام العسكري الوسيلة الأساسية لإثبات وجود كل طرف ضد الطرف الآخر، إذ تصاعد نشاط الإمبراطور لتطويق إمارة أنطاكية، وإفساد كل المحاولات التوسعية لبوهمند سواء كان ذلك في الأراضي البيزنطية أم الإسلامية على السواء، واتجهت سياسة الإمبراطور أولاً إلى تطويق الجهات الشمالية لإمارة أنطاكية، إذ تمكن أسطوله من السيطرة على عدد من المدن الساحلية التي هيأت الفرصة أمام القوات البرية في الانتشار الى داخل قيليقية لاحتلال مدنها الهامة، اذنة،

والمصيصة، وطرسوس، وطرد حاميات أنطاكية، التي سبق لبوهمند أن عززها وضمن ولائها له [67].

وفي الوقت الذي كان بوهمند يوسع إمارته على حساب جيرانه المسلمين– لاسيما حلب – أفزعته تلك الأنباء عن نشاط القوات البيزنطية في قيليقية، ولكن ضعف إمكاناته البحرية دفعه إلى التماس التفوق على البيزنطيين في المواجهة البرية معهم، فعمد الى السيطرة على ممرات جبل اللكام لإيقاف أي زحف بري يقوم به الإمبراطور بالاستناد إلى تفوقه البحري المتزايد على شواطئ قيليقية[68].

لذا انطلق بوهمند نحو مرعش التي أعادتها جيوش الصليبيين الى سيادة الامبراطور، إلاّ أنه لم يتمكن من السيطرة عليها، واكتفى بالاستيلاء على عدد من المناطق المحيطة بها[69].

غير أن هذه الحملة قادت بوهمند إلى موقف جديد، وهو الوقوف إلى جانب جبرائيل الأرمني حاكم مدينة ملطية ضد الهجوم الذي تتعرض له إمارته من قبل ابن الدانشمند صاحب سيواس[70].

وقد عول بوهمند على تقديم هذه المساعدة في إخراج الأرمن من دائرة النفوذ البيزنطي، فبادر في سنة 494هـ/تموز 1100م إلى تلبية مطالب جبرائيل الذي وعده بتسليمه المدينة بعد زوال الخطر عنها [71].

قاد بوهمند ثلة من فرسانه بعد أن ترك قسماً من قواته في أنطاكية لحمايتها، ولكنه سقط في الكمين الذي وضعه له ابن الدانشمند، فقتل فرسانه ووقع في الأسر[72].

وسار تنكرد الذي أصبح وصياً على عرش أنطاكية بعد أسر خاله، على نفس المنهج العدائي تجاه الإمبراطورية البيزنطية، فهي كما يعتقد الجبهة التي يجب أن يفعل كل ما في وسعه للقضاء عليها [73].

فقد حاول تنكرد أن يُفشل التحالف بين الكسيوس وريموند الصنجيلي ضد أنطاكية، ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية هي التي أرست دعائم ذلك التحالف الذي يعد جزءاً من الخطة السياسية لتطويق إمارة أنطاكية، ومن ثمار ذلك التحالف أن ريموند منع بوهمند من احتلال اللاذقية سنة 493هـ/1099م[74]، ودخلها رافعاً علمه إلى جانب علم الإمبراطور[75].

كما أن النورمان اتهموا ريموند الصنجيلي بالتواطئ مع الإمبراطور البيزنطي، في تضليل الحملة اللمباردية سنة 495هـ/ 1101م والتي كان على رأس أهدافها إطلاق سراح بوهمند الذي كان يرى فيه النورمان الزعيم الكفوء الذي يستطيع أن يقودهم إلى النصر، ولكن ريموند الذي ولاّه الإمبراطور قيادة الحملة وتنفيذ تعليماته، قادها الى كمين سبق أن نصبه أعداؤهم السلاجقة[76] ويبدو أن استعادة السيطرة على آسيا الصغرى من قبل

السلاجقة وبني الدانشمند عقب كارثة الحملة اللمباردية، قد حدت من إمكانية الإمبراطورية البيزنطية، للضغط على أنطاكية، وذلك لأن الطريق عبر آسيا صار مجدداً تحت سيطرة السلاجقة، الأمر الذي وجد فيه تنكرد فرصة ملائمة لاستعادة السيطرة على مدن قيليقية التي سبق أن استولى عليها البيزنطيون، ولضمان الجبهة الشمالية للإمارة. وقد تمكن فعلاً من طرد الحاميات البيزنطية بإعادة احتلال هذه المدن المهمة، ثم عين أحد رجاله ممن يعتمد عليه، وجعل مقره في طرطوس[77].

وفي الجبهة الجنوبية تمكن تنكرد من احتلال اللاذقية— كما مر معنا آنفاً— هذه الأنباء أثارت غضب الإمبراطور البيزنطي، الذي جدد اعتماده على ريموند الصنجيلي بدعمه للحصول على إمارة له، واستقر الرأي أن تكون هذه الإمارة إلى الجنوب من إمارة أنطاكية، لتكون حاجزاً منيعاً أمام توسعها في الجبهة الجنوبية، فأخذ ريموند يتلقى المساعدات البيزنطية لتنفيذ مشروعه، واستطاع بذلك أن يشيد سنة 497هـ/1103م قلعة الى جوار طرابلس، اشتهرت بنسبها إليه، قلعة الصنجيل، التي أصبحت نواة لإمارة طرابلس بعد تحديد إطارها الخارجي[78]، وبذلك دق الإمبراطور أسفينا أمام توسع إمارة أنطاكية صوب الجنوب، وأصبح ريموند شوكة في جنب بوهمند[79].

بوهمند الذي أطلق سراحه في أوائل سنة 496هـ/1103[80]، تلقى رسالة بعد عودته إلى أنطاكية من الإمبراطور البيزنطي، جدد فيها المطالبة بأنطاكية والمدن التابعة لها، تنفيذاً لاتفاقية القسطنطينية سنة 491هـ/1097م، وجاء في رسالة الإمبراطور ما يأتي: (أنت على علم بالعهود والمواثيق التي أخذت للإمبراطور الروماني، ليس منك وحدك بل من جميع الكونتات الآخرين، والآن أنت أول من يحنث بالعهد، فحزت أنطاكية، ووضعت يدك على أماكن أخرى حصينة، بما في ذلك اللاذقية نفسها، آمرك أن ترجع عن مدينة أنطاكية والأماكن الأخرى فتكون بذلك قد فعلت خيراً، وإلا تعد الى إثارة عدوات جديدة، ومعارك ضد نفسك)[81].

ويبدو أن بوهمند لم يجد ضيرا في الرد على الإمبراطور، بما يستحقه حسبما يراه بوهمند، فكتب له (انا نفسي غير مسؤول عن هذه الأعمال، بل أنت المسؤول، لقد وعدتنا بأن تتبعنا بجيش قوي، ولكنك لم تكن مستعدا لتأييد وعودك بالأفعال... وخلافا لما كان متوقعا فقد استولينا على المدينة وتمكنا من إبادة القوات التي جاءت من خراسان لمساعدة قوات أنطاكية، قل لي بربك: كيف يمكن أن يكون حقا أن نتخلى بهذه السهولة عما كسبناه بعرقنا وجهدنا)[82].

وهكذا أصبح الصدام المسلح بين الطرفين أمراً لا مفر منه، فأصدر الإمبراطور أوامره بشن هجوم واسع على إقليم قيليقية، ثم الزحف على إمارة أنطاكية[83].

ولكن بوهمند الذي خَبر نقاط الضعف لدى خصومه، سارع بالهجوم مرة أخرى على مرعش، الممر الخطير نحو أنطاكية، وكان هجومه بالاتفاق مع جوسلين صاحب تل باشر، ولم يجد حاكم المدينة الأرمني مناصاً من تسليم المدينة الى جوسلين والتوجه إلى القسطنطينية، أمَّا بوهمند فتمكن من الاستيلاء على مدينة البستان (الابلستين)، كما سلف ذكره.

وبعد الهزيمة التي لحقت بالصليبيين في حران، وتهاوي خطوط الدفاع الشرقية لإمارة أنطاكية، أحس الإمبراطور أن الوقت أصبح مناسباً للانتقام من إمارة أنطاكية، ولاسيما أنه أمن جانب جيرانها الصليبيين من نجدتها ضده، فريموند الصنجلي جار إمارة أنطاكية من الجنوب لا زال متحفظاً بتحالفه مع الإمبراطور، أمَّا ملك بيت المقدس فليس من السهل أن يفرط بعلاقاته الجيدة مع الإمبراطور، الذي كان سخياً في إطلاقه مجموعة من أسرى الصليبيين من بيت المقدس، ممن كانوا في حوزة الفاطميين أصحاب العلاقة الطيبة مع الإمبراطور[84].

استهل الإمبراطور هجومه باستعادة إقليم قيليقية، فعادت إلى قبضته أهم مدنها، اذنة، والمصيصة، وطرطوس، وبذلك صار هذا الإقليم مرة اخرى تابعاً للسيادة البيزنطية، وموضع متقدم لتهديد البقية الباقية من إمارة أنطاكية[85].

وتمكن الجيش البيزنطي من شن هجوم بحري واسع النطاق على اللاذقية، وهكذا تم انتزاع الميناء من أيدي قوات بوهمند، في الوقت الذي ظلت فيه باقي المدينة وقلعتها تقاوم الهجوم[86].

وهكذا استبدّ اليأس بأمير أنطاكية بعد أن وجد إمارته تتداعى أجزاؤها أمام عينيه تباعا، وتقترب من الزوال[87].

ويبدو أن بوهمند ظل على قناعة تامة، وسط هذه الزوبعة من الكوارث، بأن عدوه اللدود الإمبراطور البيزنطي الكسيوس والامبراطورية البيزنطية من وراءه، ليس الآن فقط، بل وفي المستقبل أيضاً[88].

إذن بات من الواضح، أن إمارة أنطاكية لن تكون بنجوة طالما هيأ الإمبراطور البيزنطي أسباب زوالها، وليس أمام بوهمند سوى انتظار المصير المحتوم لإمارته، أو القيام بعمل خارق ضد بيزنطة، مكمن الخطر القاتل الذي يهدده، وهذا ما استقر عليه، وصارح فيه كبار أتباعه في المجلس الذي عقده لهذا الأمر، وأخطرهم بأنه سوف يذهب إلى فرنسا لبذل ما في وسعه، من جهد ونفوذ لإعداد ما يمكن إعداده من القوة الحربية[89].

وقبيل رحيل بوهمند إلى الغرب بث إشاعة مفادها أنه قد مات، وسيرسل جثمانه إلى أوربا، وكان يقصد من وراء ذلك أن يفلت من الحصار الذي فرضه البيزنطيون على إمارة

أنطاكية، وقد تمكن فعلاً بهذه الحيلة أن ينفذ بسلام، وعند وصوله الى الغرب بعث من هناك رسالة الى الإمبراطور البيزنطي تنطوي على التهديد والوعيد، والتصريح بأنه سيغزو الإمبراطورية ويدمرها، وقال: (عندئذ سأجعل الدماء تجري في مدنك وقراك حتى أسدد رمحي في بيزنطة نفسها) [90].

تمكن بوهمند من كسب الغرب بعد أن ضمن البابوية إلى جانبه، لشن حرب صليبية ضد بيزنطة [91].

غير أنه فشل فشلاً ذريعاً أمام حصن دورازو المنيع الذي يعد مفتاح جزيرة البلقان [92].

وبذلك وافق بوهمند على (اتفاقية ديفول) المهينة سنة 502هـ/1108م [93]. ومما لا شك فيه أن هذه الاتفاقية حطمت طموح بوهمند الذي توارى عن الأنظار حتى مماته؛ لأنه ارتكب خطأ كبيراً في تعجله بإعلان عصيانه على الإمبراطورية البيزنطية وشن الحرب ضدها متجاهلاً حقوقها المزعومة في إمارة أنطاكية [94].

وبعد أن حقق تنكرد عدداً من الانتصارات الخاطفة على جيرانه المسلمين في الجبهة الجنوبية، ثم استعاد اللاذقية نتيجةً لارتباك الدفاعات البيزنطية، بمساعدة أسطول بيزا وذلك بمنحهم عدد من الامتيازات [95]، الأمر الذي أثار حنق الإمبراطور فأخذ بالسعي مجددا لإخضاع إمارة أنطاكية لمشيئته، فبعث برسله الى تنكرد ليخطره بما التزم به خاله بوهمند في اتفاقية ديفول، ولكن تنكرد الذي امتلأ زهواً وغروراً بما حققه من انتصارات، أمر بطرد السفراء البيزنطنيين باسلوب مليء بالغطرسة، واصفاً نفسه بأنه نينوس الآشوري العملاق الذي لا يستطيع أحد مقاومته، وأن جميع الرومان بالنسبة له ليسوا إلاّ كالنمل أضعف الكائنات الحية رغم كثرته [96].

ويبدو أن الظروف الجديدة لم تعد تخدم مصالح الإمبراطور في إنزال العقاب الصارم بتنكرد، إذ توفي السلطان السلجوقي قليج أرسلان في سنة (500هـ/1107م) [97]، الذي كان على وفاق مع الإمبراطور، وأمده بالإمدادات لقتال بوهمند في دورازو [98].

فبدأت الغارات السلجوقية مجدداً ضد الإمبراطورية البيزنطية، الأمر الذي حال دون إمكانية توجهه الى شمال الشام؛ لأن ذلك يعد مغامرة غير مأمونة، ضمن الأوضاع الجديدة، ولا تنسجم مع حرص الإمبراطور الشديد على سلامة جيوشه وأمن امبراطوريته، فأخذ يفكر في طريقة جديدة لمجابهة الموقف ضد تنكرد، ولكنه آثر أن يسلك الطرق الدبلوماسية، هذه المرة، محاولة منه لتحييد الصليبيين في الشمال أو كسبهم إلى جانبه ضد تنكرد إذا ما قام البيزنطيون بشن الهجوم ضد أنطاكية [99].

غير أن صليبيي الشام لم يستجيبوا لمساعي الإمبراطور [100]، الذي أخذ يفكر بوسيلة

بديلة تتمثل في استثمار العداء الإسلامي للصليبيين في الشام، ولاسيما تنكرد الذي اشتهر بصلفه ونشاطه وعدم التزامه بالعهود والمواثيق، فوصلت الوفود البيزنطية الى بغداد سنة 504هـ/1110م، وقد حمل الوفد تعليمات الإمبراطور في التماس التعاون مع المسلمين لشن هجوم ضد تنكرد الذي أصبح مكروهاً من الصليبيين والمسلمين على السواء[101].

ويلوح من وراء ذلك أن الامبراطور استهدف من وراء ذلك توجيه ضربة قوية للصليبيين مماثلة لما حدث في حران، وبذلك يستطيع أن يزحف نحو أنطاكية بعد أن يحيق بها الضعف، وقد عول الإمبراطور على السلطان السلجوقي ملفتاً نظره إلى جسامة الخطر الصليبي، وحاثاً إياه على النهوض (وترك التراخي في امرهم، واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل إعضال خطبهم واستفحال شرهم)[102].

وبالرغم من تجهيز حملة كبيرة بقيادة مودود إلى الشام، إلاّ أن النتائج لم تكن بالشكل الذي يأمله الامبراطور، وعاد مودود الى الموصل في نفس السنة (504هـ/1110م)[103].

أمّا روجر الأنطاكي، خليفة تنكرد على عرش أنطاكية فقد رفض وبشكل قاطع اتفاقية ديفول، جملةً وتفصيلاً، وكان يعتقد أن سياسة الوفاق مع الصليبيين التي قامت أواخر عهد تنكرد، هي الوسيلة المجدية لمقاومة دعاوى الإمبراطور البيزنطي في أنطاكية، والحفاظ عليها إمارةً صليبية مستقلة ذات شأن[104].

وأبرز ما يقال عن العداء البيزنطي لأنطاكية في عهد روجر أن المشكلة قد جُمِّدت لمدة لاحقة، وذلك بسبب انهماك الطرفين في مشاكلهما الداخلية، فقد انشغل الإمبراطور بالتصدي للغارات السلجوقية النشيطة على الممتلكات البيزنطية[105]، وانشغل روجر بمتاعب إمارته الداخلية، ولاسيما الكوارث الطبيعية، ففي سنة 508هـ/1114م ضرب زلزال مدمر المنطقة وهدم الكثير من مباني أنطاكية وحصونها[106]، وخشي روجر أن يستغل المسلمون ما حدث لأنطاكية، ويبدو أن مخاوفه كان لها ما يسوغها؛ لأنَّ السلطان السلجوقي في فارس كان يستعد لاثبات هيمنته وسلطانه على القوى العديدة في بلاد الشام، من المسلمين والصليبيين على السواء[107].

وفي أواخر أيامه حاول الإمبراطور الكسيوس أن يحل مشكلة أنطاكية سلمياً بعد أن أدرك عجزه في ميدان الحلول العسكرية، فبعث إلى روجر طالباً مصاهرته، بتزويج ابنة روجر من أحد أمراء بيت كومونين[108].

غير أن ذلك لم يتم، فقد مات الإمبراطور سنة 512هـ/1118م[109]، ولحق به روجر في العام التالي، عند مصرعه على أيدي القوات الإسلامية، حسب ما سلف ذكره.

وإذا حدث أن تأجل النزاع بين الطرفين في أواخر أيام الكسيوس، فإن اوار هذا النزاع

لم تخمد، ففي سنة 532هـ/1137م ظهر الإمبراطور البيزنطي- حنا كومونين الثاني- أمام أسوار مدينة أنطاكية بعد أن اجتاح قيليقية[110]، فأجبر أميرها على الخضوع لارادته، وأن يصبح من أتباع القسطنطينية، وكان في نية الإمبراطور الاستيلاء على المدينة لو لم يجبره الشتاء على الرحيل[111].

وبالرغم من أن الإمبراطور لم يصر على دخول أنطاكية، عندما أقبل ريموند أمير أنطاكية وركع أمام قدميه، إلاّ أن العلم الإمبراطوري قد ارتفع بأعلى القلعة[112].

ومع أن الإمبراطور قد عاد الى القسطنطينية، إلاّ أنه عاود الرجوع بحملة جديدة الى الشام سنة 537هـ/1142م، وبعد أن أكمل استعداداته لشن هجوم على أنطاكية، دهمه الموت في سنة 538هـ/18نيسان 1143م، وبذلك نجت أنطاكية من مخاطر ذلك الهجوم[113].

الإمبراطور الجديد مانويل كومونين الأول (1143- 1180م) الذي حاول السير بموجب الخطوط العامة التي رسمها والده في المجالين الخارجي والداخلي[114]، خرج في سنة 553هـ/1158م على رأس حملة كبيرة متوجهاً الى قيليقية، وقد ارتاب صاحب أنطاكية، رينالد شاتيون (أرناط) لقدوم الإمبراطور، إذ إدرك أنه ليس بوسعه أن يقاوم هذا الجيش الامبراطوري الضخم، ثم لبس ثوب التوبة، واتجه مع حاشيته إلى خيمة الإمبراطور، حيث ركع هناك على الأرض ووجهه الى التراب مثل تابع ذليل[115].

وفي يوم عيد الفصح 554هـ/12 نيسان 1159م، دخل الإمبراطور أنطاكية في موكب مهيب بكامل بزته الإمبراطورية، وتاجه المرصع، وكان رينالد يسير حافياً متجرداً من سلاحه ممسكاً بعنان فرس الإمبراطور[116].

وفي الوقت الذي كان اللاتين يأملون من حملة الإمبراطور، أن تضعف جانب أعدائهم بتوجيه ضربة قوية الى حلب، مركز النشاط الإسلامي في المنطقة، ولكن الإمبراطور اكتفى بعقد هدنة، مع نور الدين مقابل اطلاق سراح (6000) من أسرى الفرنج الذين بحوزته، وعاد أدراجه[117].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الإمبراطور البيزنطي، رغم تشديد قبضته على إمارة أنطاكية، وتجريدها تقريبا، من أسباب القوة، بما فرضه عليها من التبعية، وانتزاع إقليم قيليقية المهم منها، إلاّ أنه حافظ على استمرارها، وحفظها من السقوط بيد نور الدين، الذي كان يعتقد أن إمارة أنطاكية اللاتينية الضعيفة، خير له من أن تكون جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية القوية[118].

إلاّ أن ذلك لا يعني أن أباطرة القسطنطينية قد تركوا الحبل على الغارب لإمارة أنطاكية، ولتصبح قوية بالشكل الذي يسمح لها بأن تتمرد على سلطانهم، فعندما حدثت

الكارثة التي حلت بالصليبيين في موقعة حطين، واستعاد المسلمون بيت المقدس، وهرعت ملوك أوربا لنجدة اللاتين في الشرق، كان لإمبراطور القسطنطينية إسحاق انجيليوس (1185– 1195م) موقف واضح من تلك الحملة، حين أرسل إلى صلاح الدين الأيوبي بخبر ملك الألمان، مبدياً تعاونه مع المسلمين، ضد ذلك الملك[119].

ويبدو أن ما كان يحلم به بوهمند، منذ زهاء قرن من الزمان، قد تحقق عندما جنح الصليبيون بحملتهم الرابعة إلى القسطنطينية، معقل الأباطرة الرومان، فأطاحوا بها في سنة 600هـ/1204م ملحقين بها الضرر والدمار الشامل، ومع أن الإمبراطورية البيزنطية عادت إلى الوجود ثانية سنة 660هـ/1261م[120]، غير أنها بقيت شبحاً هزيلاً، ولم تتمكن من الاعتماد على نفسها في الدفاع عن وجودها [121].

ثانيا ـ الأسباب المحلية

أ- مشاكل الإمارة مع جيرانها الصليبيين

1- إمارة الرها

ذكرنا في الفصل الثاني، أن تنكرد وبلدوين البولوني، قد انفصلا عن التشكيل العام لجيش الصليبيين، أثناء المسير نحو سورية، عند مدينة هرقلة، وقد أشرنا إلى الدافع الذي ساق كل منهما إلى ذلك الاتجاه، وما دار بينهما من صراع، راح بسببه بضع مئات من الفرسان النورمان فريسة سهلة أمام أسوار طرسوس، حين داهمتهم قوات المدينة المحاصرة تحت جنح الظلام[122].

ويبدو أن الرواسب القديمة للخلفيّة العدائية بين الطرفين قد ظهرت آثارها على العلاقة بين الإمارتين، عندما أصبح تنكرد وصيا ثم أميراً على عرش أنطاكية.

ففي معركة حران (497هـ/1104م) التي اشترك فيها كلاً من بوهمند وتنكرد [123]، برزت شكوك بلدوين دي بور – صاحب الرها – تجاه الأنطاكيين، إثر الخلاف الذي نشب بينهما، حول من يحق له رفع علمه أولاً قبل صاحبه على المدينة عند الاستيلاء عليها[124].

وبعد الهزيمة الكبيرة التي لحقت بالصليبيين في تلك المعركة، وأسر بلدوين دي بور، اختير تنكرد وصياً على إمارة الرها، ثم أناب عنه ريتشارد دي سالرنو قيّماً عليها، بعد انشغال تنكرد بإمارة أنطاكية، بعد سفر بوهمند إلى الغرب، ومما يذكر أن ريتشارد هذا، قد

أرهق الإمارة كثيراً خلال مدة حكمه[125]، الأمر الذي أثار الأرمن في الرها وقيليقية، واندفعوا لمساندة بلدوين، بعد إطلاق سراحه، نتيجةً لكراهيتهم لسوء إدارة ريتشارد، مندوب تنكرد في الرها [126].

ومن خلال مجريات الأحداث في إمارة الرها، إبان وصاية تنكرد، يظهر جلياً حرص ذلك الأمير على الاحتفاظ بالرها في قبضته، من دون التفكير بمصير أميرها (بلدوين)، فعندما سنحت الفرصة لإطلاق سراحه، حين تقدم جكرمش بذلك، مقابل إطلاق تنكرد لأميرة سلجوقية، أسيرة لديه، أو أن يفتديها، بمبلغ من المال[127]،

وموافقة ملك بيت المقدس الذي تحمس لهذه الفكرة، وألحّ على بوهمند وتنكرد بقبولها، وعدم إضاعة فرصة سانحة لاطلاق سراح بلدوين أمير الرها، ولكن بوهمند وتنكرد أجابا ملك بيت المقدس، بأنه ليس من الحكمة الاستعجال في الموافقة، ويبدو أن الأمر كان في صورة التلهف، وقد يتمادى جكرمش في مقدار الفدية، ويتضح من سلوك بوهمند وتنكرد أنهما ابتعدا عن الحقيقة، وهما يرغبان في الحصول على المال (الفدية) وليس إطلاق أمير الرها، إذ أن عودته ستنهي وصاية تنكرد على عرش الرها، ويعود إلى أنطاكية بخفيْ حنين، لذلك رتّبا مع جكرمش لتسلم الفدية، وإبقاء بلدوين في الأسر[128].

وحين تم اطلاق سراح بلدوين وصاحبه جوسلين من الأسر، اشترط تنكرد على الأميرين أن يكونا تابعين له، ولكنهما رفضا ذلك العرض[129]، وهكذا توتر الوضع بين الإمارتين، فلجأ بلدوين الى طلب المساعدة من جاولي وكوغ باسيل الأرمني[130]، في الوقت الذي دعا فيه تنكرد رضوان (صاحب حلب) لمساعدته، (فأمده بعسكر حلب، والتقوا فقتل من الفرنج جماعة) [131].

وفي عهد بوهمند الثاني الذي جاء من الغرب سنة 520هـ/1126م لتسلم مقاليد إمارته تجددت الخصومة مرة أخرى بينه وبين جوسلين أمير الرها، رغم تعاونهما الظاهر في الهجوم الذي شناه على إمارة حلب[132].

غير أن وليم الصوري[133]، يشير إلى أن (أسباب ذلك النزاع الخطير بين بوهمند الثاني وجوسلين الأكبر كانت غير معروفة).

ومن خلال العلاقة التي تربط كلا الأميرين بملك بيت المقدس، يمكن أن نلمس سبباً لذلك في أن جوسلين، كان يطمح بالفوز في عرش بيت المقدس بعد وفاة الملك بلدوين الثاني، بسبب صلة القرابة، والقرائن السابقة بينهما يجد (جوسلين) أن بوهمند الثاني زوج ابنة الملك قد ضيع عليه تلك الفرصة[134].

ومع أن جوسلين لم يمكث في حلب (فصانعوه على مال حتى رحل) [135].

غير أن الصراع امتد إلى إمارة أنطاكية بعد أن استعان جوسلين بالمسلمين للنيل من بوهمند [136].

وقد وصف وليم الصوري[137] ذلك الصراع بقوله: (طلب جوسلين المساعدة من مجموعات من الأتراك، وشيد أسساً لسابقة معيبة لأعقابه، وبمساعدة الغير انتقل من أراضي أنطاكية بالنار والسيف، وأجبروا أهلها الخدم الحقيقيين للمسيح على أن ينحنوا لنير عبودية غير مستوجب).

وذكر ميخائيل[138] السيرياني أن جوسلين (استولى على كل شيء في إقليم أنطاكية ما عدا الرجال).

بعد أن توفي جوسلين الأول سنة 526هـ/1131م، خلفه في الحكم جوسلين الثاني، حاول الأخير أن يحكم أنطاكية، مثلما كان أبوه، غير أن أهالي أنطاكية يؤيدهم البطريرك لم يقبلوا بذلك، واحتفظوا بالمدينة للأميرة ابنة بوهمند [139].

ويبدو أن زواج ريموند دي بواتيه من الأميرة كونستانس ابنة بوهمند الثاني، فأصبح أميراً لأنطاكية، (531هـ/1136م– 544هـ/1149م) قد أقفل الأبواب في وجه أطماع إمارة الرها في أنطاكية، وعلى أية حال، فليس من الصعب هنا، وبناءً على ما تقدم الاستنتاج أنَّ هذه المنازعات بين الإمارتين الصليبيتين قد أضرت بهما على السواء، وانضمت الى قائمة الأسباب الطويلة التي أدت الى سقوطهما، رغم الفارق الزمني بين زوال الإمارتين.

2- إمارة طرابلس

لقد تناولنا في الفصل الثالث علاقة إمارة أنطاكية الصليبية بإمارة طرابلس العربية في عهد بني عمار، ثم أشرنا إلى أهم التطورات التي رافقت محاولات وليم الصنجيلي للسيطرة على المدينة حتى سقوطها سنة 503هـ/1109م، وقيام كونتية طرابلس الصليبية على أشلائها، ولاحظنا من خلال ذلك الجهود التي بذلها أمراء أنطاكية للوقوف بوجه قيام تلك الإمارة.

وما نود إضافته هنا أن قسماً من جذور هذا العداء بين الإمارتين الصليبيتين (أنطاكية وطرابلس) يمتد بعيداً إلى خارج بلاد الشام، فكانت إحدى بواعثه المهمة تعود إلى علاقة الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومونين بكل من بوهمند وريموند الصنجيلي، أثناء مروهما بالقسطنطنية، فإذا صحت الشائعات التي ترددت بأن الامبراطور، قد وعد بوهمند بتوليه القيادة العامة لجيوش الصليبيين في الشرق، فإن ذلك يعني الحط من مكانة ريموند الصنجيلي الذي كان يطمح إلى تولي القيادة ألعلمانية للحملة[140]، لذا أعلن ريموند للامبراطور أنه يفضل أن يتولى الامبراطور شخصياً قيادة الجيوش، فلن يمتنع عند ذاك من

الخدمة تحت لوائه، وهذا يعني أن ريموند يكره بوهمند لا الإمبراطور، ولكن بعد رحيل بوهمند استطاع الامبراطور إقناع ريموند بأنه يكره النورمان، ولن يولي بوهمند إمرة الجيوش المسيحية [141].

وأوضحت (آنة كومونين) أن ريموند اطمأن إلى ما سمعه من الإمبراطور بخصوص حقيقة موقفه من بوهمند، بعد اجتماعات متوالية، ونبّه ريموند إلى أن يأخذ حذره من بوهمند، وبذلك توثقت العلاقة بين الرجلين من أجل الوقوف أمام أطماع بوهمند، والحد من طموحاته، إذ وجد الامبراطور أن ريموند (رجلٌ يفضل اللاتين ذكاء وسمعة طيبة ونقاء في حياته) [142].

وبتعبير أخر إن ريموند أصبح حليفاً تقليدياً للامبراطورية البيزنطية ضد مطامع بوهمند، وحاول جاهداً بعد سقوط أنطاكية حمل بوهمند على أن يلتزم ببنود معاهدة القسطنطينية في إعادة أنطاكية إلى سلطان الإمبراطورية البيزنطية، غير أن تمادي بوهمند في مشاريعه التوسعية ورفضه لما ورد في اتفاقية القسطنطينية أملى على الامبراطور أن يقف المواقف الايجابية المشجعة لقيام ريموند بتشكيل إمارة طرابلس على الحدود الجنوبية لإمارة أنطاكية لتحول دون توسع الأخيرة، قد آتى هذا التحالف ثماره سنة 493هـ/1099م عندما تمكن ريموند من منع بوهمند من الاستيلاء على ميناء اللاذقية [143]،

ثم تولى إدارتها إلى جانب ممثل الإمبراطور لمدة من الزمن [144].

وفي ربيع سنة 494هـ/1100م بعث الإمبراطور إلى ريموند، معرباً له عن شكره على تعاونه، ودعاه إلى زيارة القسطنطينية لتدارس الموقف في شمال الشام [145].

ويبدو أن محور الموضوع كان يتركز حول أطماع بوهمند التوسعية، وموقفه اتجاه كل منهما.

بعد أسر بوهمند، وفشل الحملة اللمباردية سنة 594هـ/101ام من انقاذه، ثم اتساع سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى، أعد الامبراطور عدة سفن لإعادة ريموند ومن معه من الصليبيين إلى شمال الشام [146]، ولكن ريموند وقع في يد تنكرد عندما رست سفينته في ميناء طرطوس، فتم اعتقاله في قلعة مدينة أنطاكية [147]، متهماً إياه بخيانة الحركة الصليبية، لأنه كان سبباً في إلحاق الكارثة بالحملة اللمباردية، حسب ما سلف ذكره، ولم يوافق على إطلاق سراحه إلاّ إذا أقسم بعدم التدخل في شؤون شمال الشام وبعد أن أقسم على ذلك أمر باطلاق سراحه [148].

ووجد الإمبراطور في عزم ريموند تأسيس إمارة صليبية على حساب جيرانه المسلمين جنوب إمارة أنطاكية فرصة جديرة بالتشجيع؛ لأن الإمارة المنشودة تستطيع أن تقف بامتدادها الجغرافي حاجزاً يحول دون اتساع إمارة أنطاكية إلى الجنوب من اللاذقية، وكان ريموند يطمح الى إقامة إمارته الجديدة على مفترق الطرق المهم الذي يشمل المنطقة الممتدة

من اللاذقية الى بيت المقدس، إذ كانت هذه المنطقة تتحكم بطريقين مهمين أحدهما : الطريق الساحلي الذي يمر من اللاذقية وجبلة الى بيروت، والثاني: طريق نهر العاصي الذي يربط شمال الشام، حيث مدينة أنطاكية ببيت المقدس، ويمتاز الطريق الأخير بأهمية ستراتيجية عظمى، إذ يجتاز مدينة شيزر التابعة لبني منقذ، ومدينة حماه التي تدين بالولاء لرضوان صاحب حلب، ثم مدينة حمص الخاضعة لجناح الدولة أتابك رضوان، ويبدو أن ريموند عزم في هذا الوقت المبكرعلى أن يجعل من حمص عاصمة لإمارته المرتقبة[149].

وقد اتجه ريموند إلى المدن الساحلية الواقعة جنوب اللاذقية ليتخذ منها قاعدة لأعماله الحربية وتحقيق أهدافه، فأغار على انطرسوس واستولى عليها سنة 496هـ/1102م[150].

وتطلب ذلك من ريموند أن ينشد العون من الإمبراطور البيزنطي، صاحب القوة البحرية الضاربة لإسناده في مساعيه، ثم أخذ يخطط للاستيلاء على طرابلس[151].

غير أن الإمبراطور اشترط على ريموند مقابل تقديم المساعدات أن يقوم بشن هجوم على ميناء اللاذقية، الذي استولى عليه تنكرد قبل قليل[152].

وهكذا استمر ريموند في وفائه للامبراطور، وتمرير سياسته في المنطقة حتى وفاته سنة 499هـ/1105م، حين حضر من الغرب ولده برترام الى الشام في أواخر سنة 502هـ/1108م للمطالبة بميراث أبيه، إمارة طرابلس[153].

ومرَّ برترام في طريقه إلى الشرق بالقسطنطينية، حيث قابل الإمبراطور البيزنطي، عارضاً عليه المحالفة طالباً منه مساعدته في الحصول على حقه في إمارة طرابلس، فرحب الإمبراطور بالأمير برترام الذي قدم يمين الولاء وصار حليفاً له، كما كان والده ريموند الصنجيلي من قبل[154].

وبعد أن تسنم برترام مقاليد إمارة أبيه أبدى تحمسه للتعاون مع الإمبراطور، وتنفيذ مخططاته ضد إمارة أنطاكية[155].

ب- مشاكل الإمارة مع الأرمن:

أشرنا فيما سبق إلى موقف الأرمن من القوى المحيطة بهم من المسلمين والبيزنطيين، وما نود اضافته هنا أن الصليبيين، ولاسيما بوهمند النورماني، قد أدرك تماماً الدور الخطير الذي تضطلع به تلك الجماعات على ساحة الصراع في الشرق الأدنى، وبخاصة ما يدور بين إمارة أنطاكية، والإمبراطورية البيزنطية، ففي ضوء ذلك أظهر بوهمند حرصه على الأرمن والدفاع عنهم، محاولاً إقناعهم أن النورمان والأرمن لهم عدو مشترك هم البيزنطيون[156].

ومن نتائج هذا التعاون، أن بوهمند وقع في أسر غازي كمشتكن بن الدانشمند سنة 494هـ/1100م، عندما هب لنجدة جبريل الأرمني صاحب ملطية ضد الدانشمند [157].

غير أن ذلك التعاون الذي تحدده المصالح السياسية لكلا الطرفين لم يتسم بالمواقف المبدئية الثابتة، فسرعان ما ينقلب الى نزاع حسبما تمليه الضرورة، ففي سنة 498هـ/1104م تمكن الإمبراطور البيزنطي من استعادة أهم المدن قيليقية، أذنة، والمصيصة، وطرسوس، وكان من بنود اتفاقية (ديفول) بعد هزيمة بوهمند في دورازو ألّا يتعرض أمراء أنطاكية لأملاك أمراء أُسرة روبان الأرمنية في اقليم قيليقية [158].

ولكن تنكرد الذي رفض ما جاء في اتفاقية (ديفول) تمكن من انتزاع، قيليقية، مرة أخرى من يد البيزنطيين، وطرد الأمير الأرمني اوشين الذي عهد إليه البيزنطينيون حمايتها، والذي اعتقد الإمبراطور البيزنطي أنه قادر على الدفاع عنها [159].

ثم نقل تنكرد الصراع إلى جزء آخر من ممتلكات الأرمن في طوروس، فغزا إمارة كوسيل الأرمني بالتعاون مع بلودين، كونت الرها واستولى على رعبان [160].

وبينما كان تنكرد يستعد لقيادة حملة أخرى إلى بلاد كواسيل دهمه المرض فجأة [161].

تلك المشاكل بين الصليبيين والأرمن دفعت واسيل دغا وريث كواسيل الذي ارتاع من محاولات الصليبيين للاستيلاء على بلاده، أن يرسل هو ووالدته الى البرسقي سنة 508هـ/1114م يطلبان التعاون معه، وإلى ذلك أشار ابن الأثير بقوله [162]: (في هذه السنة[508هـ] توفى بعض كنود الفرنج ويعرف بكواسيل، صاحب مرعش، وكيسوم ورعبان وغيرها، فاستولت زوجته على المملكة وتحصنت من الافرنج.. ولما عرف الفرنج ذلك عاد كثير مما عندها إلى أنطاكية) وفي النزاع الذي دار بين تنكرد وبلدوين لي بور أمير الرها بعد إطلاقه من الأسر وامتناع تنكرد من إعادة الرها الى بلدوين، صاحبها الشرعي وما دار من نزاع بين الطرفين أرسل اوشين الأرمني ثلاثمائة من الفرسان لنجدة بلدوين ضد تنكرد، معبراً عن ارتياحه للإسهام بكل عمل مناهض لتنكرد [163]، ومع أن ليو الروبين (الأرمني) أبدى تعاوناً مع روجر الأنطاكي صاحب أنطاكية حينما توجه على رأس قوة عسكرية ليساعد روجر في محاصرة عزاز [164]،

إلاّ أن تأرجح تبعية إقليم قيليقية لإمارة أنطاكية أو الروم البيزنطيين، كانت رهينة بتطور الأوضاع لدى الطرفين من جهة، وحقب الضعف والقوة التي مرت بكليهما نتيجة لجملة من الأسباب المعقدة سواء الخارجية منها أم الداخلية، ويبدو أن النشاط الأرمني في تلك المنطقة يكون تبعاً لتلك الظروف والملابسات، ففي سنة 525هـ/1130م حاول بوهمند الثاني أن يفرض سلطان إمارة أنطاكية مجدداً على داخل إقليم قيليقية، إثر وفاة الأمير

الأرمني ثوروس وشيوع الفوضى والمؤامرات في بلاطه، التي كان ضحيتها ابنه قسطنطين، فظن بوهمند أن الوقت مناسب لتنفيذ مخططه في قيليقية فسار على رأس جيش صغير نحو عين زربة، وعندما سمع ليو الروبين خليفة ثوروس أنباء التحرك الأنطاكي، لم يسعه إلاّ أن يطلب العون من الدانشمند، وبينما كان بوهمند يسير محاذياً لنهر جيحان، لقي مصرعه مع جميع رجاله على يد قوات دانشمند، حلفاء الأرمن[165].

وبمقتل ذلك الأمير الوافر النشاط، يكون الأرمن قد وجهوا ضربة قوية إلى إمارة أنطاكية الصليبية التي ظلت تعاني لمدة غير قصيرة اثر فقدها له[166].

وفي سنة 526هـ/1131م عقب وفاة بوهمند الثاني هبط الى سهل قيليقية ليو الروبيني الأرمني مستفيداً من عقد التحالف مع الأمير الدانشمند، فاستطاع بسط نفوذه على مدن قيليقية المهمة، أذنة، والمصيصة، وطرسوس[167].

وفي سنة 553هـ/1158م قاد الإمبراطور البيزنطي مانويل حملته الكبيرة عبر آسيا، ولم يشعر به الأمير الأرمني ثوروس، إلاّ حينما دهمت خيله المنطقة فلاذ الأخير بالفرار إلى منطقة جبال طوروس الوعرة[168]، وبعد موت ثوروس سنة 564هـ/1168م تمكن أخوه مليح من السيطرة على قيليقية بعد أن أقصى الوريث روبين الثاني (ابن ثوروس) عن الحكم وتحالف مع نور الدين محمود الذي أمده بالعساكر، فاستطاع أن يغزو قيليقية ويحتل مدنها: المصيصة، وأذنة، وطوروس سنة 568هـ/1172م[169]، وبذلك استطاع أن يهدد أنطاكية بصورة مباشرة[170].

وهكذا يكون الخطر الأرمني، نتيجةً لذلك التحالف قد اتخذ أبعاداً جديدة وخطيرة، ليس ازاء الصليبيين وإمارة أنطاكية فحسب، بل ضد الوجود البيزنطي في شمال سوريا أيضاً، الأمر الذي حتم ضرورة التعاون بين البيزنطيين والصليبيين، فعندما زار املريك ملك بيت المقدس القسطنطينية لتداول الامور، ونتج عن ذلك معاهدة بين الطرفين كان من أبرز محاورها ضرورة العمل المشترك من أجل إيقاف خطر مليح الأرمني[171].

وفي سنة 582هـ/1186م أصبح من المؤمل أن تبدأ مرحلة الوئام بين إمارة أنطاكية والأرمن، وذلك عندما سعى ليو الثاني الأرمني إلى التحالف مع بوهمند الثالث أمير أنطاكية، ثم تبع ذلك أن تزوج ليو ابنة أخت الأميرة سبيلا زوجة بوهمند، ولكن ليو وقف على الحياد[172] عندما أغار صلاح الدين على أنطاكية ودمر حصن بغراس الضخم، وهو من الحصون التابعة للداوية[173].

ثم بادر ليو إلى احتلال الحصن وإعادة تعميره، ولم يستمع الى طلب بوهمند في إرجاعه إلى جماعة الفرسان الداوية[174].

وفي ضوء ذلك نشبت مخالب الصراع مجدداً بين الطرفين، وتمكن ليو من خداع بوهمند عندما دعاه الى الاجتماع به في قلعة بغراس لمناقشة المشكلة بينهما، ولكن ليو أسر بوهمند وطالبه بالتنازل عن السيادة في أنطاكية، ثم أرسل عساكره للاستيلاء على المدينة[175].

وتحولت المفاجأة الى نزاع بين الأرمن في خارج وداخل إمارة أنطاكية من جهة، وسكان المدينة من اللاتين من جهة أخرى، فبينما رحب سكان أنطاكية الأرمن بما قام به ليو، وفعلوا كل ما في وسعهم لإسناده، امتنع سكان المدينة من اليونانيين واللاتين، يقودهم بطريرك أنطاكية، وشرعوا في تشكيل حكومة (قومون) تتولى إدارة المدينة والدفاع عنها، وبادر أعضاء الحكومة إلى أداء يمين الولاء لريموند أكبر أبناء بوهمند، الذي سارع بإيفاد رسول إلى أخيه بوهمند الرابع كونت طرابلس لإنجاد أنطاكية[176].

وعندما أحس ليو بالخطر أخذ بوهمند وانسحب نحو عاصمته (سيس)، ولكن ليو قرر إطلاق سراح بوهمند على شروط أهمها، أن تُعد بغراس وما حولها من البلاد ضمن أملاك الأرمن، وألا يكون أي من الأميرين سيداً على الآخر، ولتوثيق شروط ذلك الصلح وجب أن يتزوج ريموند ولي عهد بوهمند من الأميرة (أليس) ابنة روبين الثالث (ابنة أخ ليو ووريثته)[177].

واذا كان لهذا الزواج السياسي من أثر واضح في إسدال الستار على فصول النزاع بين الطرفين، فإن مستقبله ينذر بشؤم لما سيجره من متاعب على إمارة أنطاكية.

ففي سنة 597هـ/1200م مات ريموند، الذي كان يأمل بجمع عرشي أنطاكية وأرمينية بزواجه من الأميرة الأرمنية الوريثة، ولم يترك ريموند من زوجته الأرمنية سوى طفل صغير هو ريموند– روبين، الذي يعد وريثاً لعرش أنطاكية حسب قوانين الوراثة الإقطاعية[178].

وهنا يبرز دور العداء للأرمن مجدداً، لعدم رغبة اللاتين في أنطاكية بازدياد نفوذ الأرمن من خلال حفيدهم ريموند– روبين، الأمر الذي دفع بوهمند كونت طرابلس بأن يظهر في أنطاكية فجأة، فطرد أباه (بوهمند الثالث) وطلب الى القومون أن يؤدي له يمين الولاء[179].

ومع أن بوهمند عاد الى طرابلس، بعد أن استرضى والده وكسبه الى جانبه، فضلاً عن بطريرك أنطاكية، لذا لم يجد بوهمند صعوبة في الفوز بعرش أنطاكية عندما مات أبوه بوهمند الثالث سنة 598هـ/1201م.

رغم أن عدداً من النبلاء الذين تمسكوا بيمين الولاء لريموند– روبين، من خشية نزعات بوهمند الاستبدادية قد انضموا إلى صفوف الأرمن، ورحلوا الى سيس عاصمة ليو[180]، فبات من الواضح أن المرحلة اللاحقة ستشهد نزاعاً بين إمارتي أرمينيا وأنطاكية،

ففي سنة 600هـ قام ليو الثاني بشن هجوم على إمارة أنطاكية، ويبدو أن بوهمند عجز عن صد ذلك الهجوم، فالتجأ الى قلعة المدينة منادياً (بشعار الملك الظاهر*) [181].

وحين علم الملك الظاهر بذلك تحرك (ووصل الى حارم فرحل ابن لاون عن أنطاكية على عقبه) [182].

ولكن ليو الثاني الأرمني الذي أحس بخطورة التحالف بين أنطاكية وحلب، عمل على تمزيق ذلك التحالف بالتقرب إلى الملك الظاهر، وأرسل إليه يبذل له الطاعة، وبذلك خرج الملك الظاهر من حلبة النزاع، وبقي الطرفان ينازع بعضهم بعضاً في شمال الشام[183].

ولم يلبث النزاع الطائفي والعنصري داخل إمارة أنطاكية أن بلغ مداه بين سنتي 604-605هـ/1207- 1208م فتحول الوضع الى ثورة عارمة ضد بوهمند الرابع، في الوقت الذي كان فيه ليو الثاني على رأس جيشه يرقب الأمور عن كثب، على مقربة من مدينة أنطاكية، فتمكن بعض الثائرين أن يفتحوا أبواب المدينة، فدخلها وتم إعلانه أميراً أوحداً لأنطاكية، في الوقت الذي انزوى بوهمند الرابع وأعوانه في قلعة أنطاكية[184].

غير أن الهجوم المضاد الذي شنه بوهمند الرابع قد اضطر ليو الى اخلاء المدينة والانسحاب صوب قلعة بغراس[185].

ويمكن القول إن إمارة أنطاكية قد مرت بأزمات خانقة في هذه المرحلة، وظلت تتأرجح في خضوعها حتى سنة 616هـ/ 1219م، فقد استردها بوهمند الرابع من يد أخيه روبين بصورة نهائية، وخضعت لسلطانه حتى وفاته سنة631هـ/1233م[186].

وبرغم صلة القربى التي تربط ريموند- روبين بالأرمن، فان بيت هيثوم الأرمني، بعد موت ليو الثاني، حاول إبعاد روبين عن عرش أرمينية، ورشحوا لهذه المهمة ابنته الصغرى إيزابيلا، وبادر قسطنطين الأرمني الى احتلال طرسوس سنة 515هـ /1121م حيث كان يقيم روبين الذي كان ينازع أخاه بوهمند الرابع عرش أنطاكية، ثم أودع روبين السجن، فمات بعد مدة وجيزة[187].

وبذلك وجه الأرمن ضربة أخرى إلى إمارة أنطاكية بقتل أميرها الشرعي في أحد سجونهم بصورة غامضة.

ولم يكتف الأرمن بذلك، بل عرضوا مجدداً على بوهمند الرابع أن يزوج ولده فيليب من الأميرة الأرمنية الصغيرة، بشرط أن ينتمي إلى كنيسة أرمينية، فكان أن وافق بوهمند بذلك، غير أن فيليب أظهر ميولاً لاتينية خالصة، وكان يعيش معظم وقته في أنطاكية، لذا ارتاب الأرمن بنواياه، وقبضوا عليه أثناء مسيره إلى أنطاكية، وأودعوه السجن ثم دسوا له السم[188].

وبذلك تجدد النزاع بين أمير أنطاكية بوهمند الخامس (1232- 1251) ، وبين ملك

أرمينية الجديد هيثوم الأول، لذا لم ينس بوهمند الخامس كيف استدعى الأرمن أخاه ليولوه الحكم، ثم غدروا به وقتلوه[189].

ومع أن بوهمند الخامس في آخر سني حكمه قد جنح إلى السلم مع هيثوم الأرمني رغم ذكريات الماضي المريرة، إلا أن ولده بوهمند السادس لم يكن في ذهنه شيء من ذلك، ففي سنة 652هـ/1254م، وبناءً على اقتراح الملك لويس التاسع ملك فرنسا الذي كان موجوداً في الشام، تزوج من اسبيلا ابنة هيثوم، ووافق الأرمن علي تحمل المسؤولية في الدفاع عن أنطاكية[190]، ولكن بعد أن بلغت الإمارة شفير الخطر وأصبحت ركائزها على شفا جرف هار.

ج- ظهور المماليك*

يمثل تاريخ زوال أنطاكية الصليبية على يد المماليك (666هـ/1268م) الحلقة السياسية الأخيرة في مضمار العلاقات بين المسلمين وأنطاكية، فقد توجت الضربة القاصمة التي وجهها الظاهر بيبرس لهذه الإمارة مسيرة الجهاد الاسلامي عبر سنواته الطويلة ضد الصليبيين في أنطاكية.

ويمكن القول إن هزيمة المغول في عين جالوت تمثل آفاقاً جديدة لمستقبل الأمة الإسلامية في مصر وبلاد الشام، فقد تهاوت الكيانات الأيوبية الضعيفة أمام الزحف المغولي، مما فسح المجال أمام المماليك لتوحيد مصر وبلاد الشام بعد الانتصار الكبير الذي حققته القوات الإسلامية على المغول في تلك المعركة، وبذلك عادت وحدة مصر والشام في ظل المماليك[191].

غير أن تفكك الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك لم يغير من اتجاه حركة التاريخ في المنطقة، فكانت دولة المماليك امتداداً للدولة الأيوبية في بنائها وطبيعتها العسكرية، فقد ارتكزت على نفس الأسس السياسية والاقتصادية التي قامت عليها الدولة الأيوبية، كما إنها ورثت دورها في قتال الصليبيين[192].

وبذلك أصبحت الأجواء ممهدة لبيبرس أن يمارس نشاطه الجهادي ضد الصليبيين، وآثر أن تكون البداية ضد الأمير الأرمني هيثوم سمسار المغول في الوطن العربي وصهره بوهمند السادس أمير أنطاكية، الذي رد له المغول الجميل، إزاء تعاونه معهم بإرجاع ما فقدت إمارته من المدن والأقاليم على يد القوات الإسلامية، في الحقب السابقة مثل اللاذقية[193].

ومن الواضح أن ما كسبه بوهمند تحت حماية حراب المغول، لا يمكنه الحفاظ عليه بعد هزيمة أسياده في عين جالوت، في الوقت الذي أخذ السلطان بيبرس يعد العدة لاجتياح أنطاكية، وبقية الكيانات الصليبية الأخرى في الشام.

أمَّا بيبرس ولكي ينفذ مشروعه بدقة كان عليه أن يجد حلاً لعدد من المشكلات الداخلية والخارجية التي تربك نشاطه في مواصلة الجهاد وهدم الوجود الصليبي في الشام، ففي مضمار المشاكل الداخلية استطاع بالاعتماد على أميري حمص وحماة من تصفية عدد من الجيوب المغولية، التي زحفت من الجزيرة نحو شمال الشام فاحتلوا حلب، ثم زحفوا نحو حماة، وتقهقر صاحبها الملك المنصور الثاني محمد إلى حمص[194].

ولكن الملك المنصور استطاع بمساعدة الملك الأشرف موسى صاحب حمص أن يلحق هزيمة بالمغول إلى الشرق من حمص، (وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاؤوا) حتى ازاحوهم إلى ما وراء الفرات سنة 659هـ / 1260م[195].

ثم تمكن بيبرس من التخلص من مشكلة أخرى عندما استطاع كبح جماح الأمير سنجر الحلبي الذي تمرد عليه وأعلن نفسه سلطاناً على دمشق، وبالتخلص من سنجر يكون بيبرس قد أصبح حاكماً مطلقاً على مصر والشام[196].

وفي ميدان السياسة الخارجية رأى بيبرس (قبل أن يتوجه بكليته إلى الفرنج)[197] أن يبحث عن أُسس متينة لدعامة سلطانه، وقد وجد في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة خير سند لاضفاء الشرعية على حكمه، وتمتين الروابط الروحية بين سلطانه ومشاعر المسلمين، ففي سنة 661هـ/ 1162م، وفد على بيبرس أحمد أبو القاسم بن الظاهر بأمر الله وقيل إنه كان محبوساً في بغداد، فلما أخذت التتار بغداد هرب الى البادية، ولما حكم بيبرس مصر والشام توجه الى هناك، ثم اثبت نسبه على يد قاضي القضاة، فبويع له بالخلافة، ونقش اسمه على السكة، وَلُقبَ بلقب أخيه المنتصر بالله أحمد[198].

ومما ينم عن براعة بيبرس السياسية أنه خطا خطوة أخرى كبيرة الأهمية في عزل الكيانات الصليبية في الشام وتطويقها، وذلك عندما سعى إلى التحالف مع قوى خارجية لها أهميتها في مواجهة أطماع مغول فارس وتلهيتهم بالتحالف مع الصليبيين، فقد وطد اتصاله بمغول القفجاق أو القبيلة الذهبية، ومال إلى زعيمهم بركة خان الذي اعتنق الاسلام، وقد أثمرت تلك الاتصالات بين سنتي (661هـ/ 1262م– 662هـ/ 1263م) عن التحالف بين الطرفين والتعاون ضد هولاكو، وفي ذلك يقول المقريزي: إنَّ بيبرس راسل (بركة خان يغريه بقتال هولاكو ويرغبه في ذلك)[199].

وبذلك أصبحت الأجواء ممهدة أمام بيبرس للقيام بنشاط واسع النطاق ضد الصليبيين في بلاد الشام.

أمَّا عن الصليبيين في الشام فقد مكث بينهم ملك فرنسا لويس التاسع بعد هزيمته في مصر زهاء أربع سنوات لترميم أوضاعهم المنهارة في الوطن العربي، وعمل ما في وسعه

لإصلاح ذات البين بينهم، ثم غادر الشام متوجها الى فرنسا سنة 652هـ/25 نيسان 1254م[200].

فلم تلبث الخصومات والنزاعات أن دبت مجدداً بينهم؛ وذلك لأن عوامل الشقاق والضعف كانت أقوى وأعمق جذوراً من قدرات ملك فرنسا في استئصال جذورها، فتصاعد النزاع بين الصليبيين والهيئات الدينية العسكرية، وتجار المدن الإيطالية من دون أن ينتبهوا إلى المصير الذي ينتظرهم على يد الدولة الفتية الناشئة حديثاً في مصر[201].

وربما يكون لاجتياح المغول بلاد الشام دون إلحاق الأذى بالكيانات الصليبية أثره في تصور الصليبيين في أنهم في منجاة من الخطر، الأمر الذي أدّى إلى تفرقهم للانهماك في الصراع فيما بينهم، مما أدّى الى المزيد من ضعفهم، وإنهاك قواهم، فلا غرابة أن تتهاوى مدنهم ومعاقلهم الواحدة تلو الاخرى بيد المسلمين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر[202].

ويطول بنا المقام لو تتبعنا مجريات النزاع الذي ساد المجتمع الصليبي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ولكن المحصلة النهائية هي حدة الانقسامات التي أملتها المصالح الذاتية بكل أبعادها، فضلاً عن افتقار الصليبيين في هذه المرحلة إلى القيادة الحازمة التي تجمع شملهم وتعمق الروابط بينهم في الارتفاع إلى مستوى الأحداث[203].

وفي ضوء ذلك أدرك بيبرس أن الوقت حان لاجتياح الكيانات الصليبية في بلاد الشام، فبدأ بشن غارات عاصفة وسريعة على مواضع متعددة ومتفرقة للصليبيين بهدف إرباكهم وشل قدراتهم الدفاعية[204].

ويبدو أن انتصارات بيبرس على الصليبيين قد نالت الاستحسان من خصوم الصليبيين في كل مكان مثل حكام صقلية، والإمبراطور البيزنطي وبركة خان زعيم مغول القفجاق المسلمين، وعدد من المدن الإيطالية، إذ شارك جميع هؤلاء السلطان بيبرس في مقت الصليبيين[205].

وعندما كان بيبرس في القاهرة بلغه نبأ وفاة هولاكو سنة 664هـ/1265م وكان لموت هولاكو أهمية كبيرة إذ تخلص بيبرس من خصم عنيد مما أضعف مغول فارس وأصبح بإمكان السلطان في مصر أن يستأنف نشاطه ضد الصليبيين[206].

وفي سنة 665/1266م توجه نحو عكا، فتركها بعد أن امتنعت عليه حصونها، فتوجه إلى صفد التي اضطرت إلى التسليم بعد مقاومة عنيفة[207]. ثم فتح بعد ذلك هونين، وتبنين، ومدينة الرملة[208].

وبذلك تمكن بيبرس من شل المواقع الصليبية الرئيسة، وجعلها عاجزة عن مد يد العون

بعضها للبعض الآخر، مما سهل عليه المضي في مواصلة خططه وأهدافه، فقد نقل نشاطه إلى إمارة طرابلس التي أصبحت العمق الستراتيجي لإمارة أنطاكية الصليبية، فأرسل طلائع جيشه للاستيلاء على القليعات* وحلباء** وعرقة*** التي تشكل إقليماً واقياً لحماية طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي، وبذلك أصبحت طرابلس في متناول يديه (وأغارت العساكر على الفرنج من كل جهة) (209).

وفيما يخص إمارة أنطاكية كان على بيبرس أن يقطعها من جهة الشمال عن حلفائها الأرمن تمهيداً لشن هجوم ضدها، ولاسيما أن هيثوم الأرمني يستحق العقاب لما سببه من الآم مريرة للمنطقة؛ نتيجة لتحالفه مع المغول، وتحريضهم على غزو الشام، فضلا عن أنه قد فرض نوعاً من الحصارالاقتصادي على مصر يمنع التجار المسلمين من شراء الخيل والبغال، والحديد والمؤن من بلاده(210).

وبذلك نجد أن مشروع التعاون المغولي/ الأرمني وانزلاق أنطاكية فيه قد عرضها مع حلفائها الأرمن لطائلة الانتقام من المسلمين، فوضعت في موضع الهدف الأول.

وازاء ذلك زحفت الجيوش الإسلامية نحو أرمينية في سنة 665هـ/1266م، فاستطاعت تلك الجيوش أن تدك قلاع الأرمن، وتقتل أحد أبناء هيثوم وتأسر ابنه الثاني في الوقت الذي كان هيثوم يحل ضيفاً على المغول في تبريز طالباً منهم النجدة ضد المسلمين(211).

وقد انشطرالجيش الإسلامي على جناحين، أغار أحدهما على مدن قيليقية المهمة وهي: المصيصة، وأذنة، وطرسوس وعدد من موانئها، في الوقت الذي توجه الجناح الثاني نحو سيس عاصمة هيثوم وتمكن منها، (فجعل عاليها سافلها) (212).

وبذلك كانت الحملة، ضد أرمينية لم تؤد إلى تخريب أهم المعاقل التي تحمي مداخل هذة المملكة في الجنوب والشرق والتي كانت همزة الوصل مع أنطاكية فحسب، بل إنها أضعفت إمارة أنطاكية الصليبية وجعلت منها هدفاً لجولة بيبرس التالية(213).

وفي سنة (666هـ/1268م) كان بوهمند السادس أمير أنطاكية يقيم في طرابلس، فقد ترك تولي قيادة أنطاكية الى الكند سطبل سيمون مانسل الذي تزوج من إحدى قريبات زوجة بوهمند الأرمنية(214)، في الوقت الذي أخذ فيه بيبرس بالاقتراب من أنطاكية، وقد قسم جيوشه على ثلاثة أرتال، زحف أحدها نحو السويدية لعزل أنطاكية عن البحر، ثم قاد بيبرس بنفسه الجيش لاقتحام أسوار المدينة(215)(وأحاطت العساكر بها من كل جانب.. وبعث السلطان إلى الفرنج يدعوهم وينذرهم بالزحف عليها، وفاوضهم في ذلك مدة ثلاثة أيام، وهم لا يجيبون، فزحف عليها وقاتل أهلها قتالاً شديداً، وتسور المسلمون من جهة الجبل بالقرب من القلعة ونزلوا الى المدينة) (216).

إذ تمكن الجند من النفاذ إلى داخل الأسوار من إحدى الثغرات في منحدر جبل اللكام (سليبون)، وتدفقوا الى داخل المدينة، وبذلك زالت تلك الإمارة التي استمر وجودها حوالي (170) سنة[217]. (وكتبت البشائر[218] بالفتح الى الأقطار الشامية والمصرية والفرنجية)[219].

ثالثا: الأسباب الذاتية (الداخلية)

يضاف الى ماتقدم من أسباب خارجية ومحلية، هناك جملة أسباب أخرى داخلية أدت الى حد بعيد لانهيار تلك الإمارة الصليبية من الداخل، وسارعت بها نحو الزوال، وفي حقيقة الامر أن تلك الأسباب عديدة ومتشعبة، ولكن يمكن إجمالها في الإطار العام ضمن محورين أساسيين هما:

أ- مشاكل العرش

لقد سادت النظم الإقطاعية أوربا في العصور الوسطى وفق ما هو معلوم؛ لذا كان من الطبيعي أن ينقل الصليبيون معهم إلى الشرق ما ألفوه من نظام في أوطانهم[220]، وتبعاً لذلك فإن ولاية العرش كانت وراثية في إمارة أنطاكية الصليبية[221]، مما جرّ الكثير من المتاعب على هذه الإمارة، نتيجةً لسرعة تبدل الكثير من الحكام في عددٍ من الأحيان لأسباب، أهمها الوقوع في الأسر أو القتل.

واذا كانت مغريات السلطان والتهافت على الحكم تمثل جزءاً من طبيعة النظم الإقطاعية، فلا نعدم هذا فيما دار من صراع حول التشبث بدفة الحكم في تلك الامارة الصليبية، ومثال ذلك أن تنكرد الذي خلف خاله بوهمند الأول – وصياً– على عرش أنطاكية أثناء أسر الأخير قد تقاعس كثيراً عن الاشتراك في المفاوضات، لافتداء خاله بالمال ليعود إلى عرش الإمارة، وبعد أن عاد بوهمند سنة 497هـ/1103م قابل تنكرد عودة خاله بشيء من الفتور وثارت بينهما المشاكل، ثم امتثل للأمر بما حصل عليه من إقطاع صغير في إمارة أنطاكية[222].

ثم أفصح عن نفسه في تمسكه بتلابيب السلطة وعدم التفريط بها في أنه لم يأسف لما حدث لبوهمند من كارثة مروعة أمام الامبراطور البيزنطي في معركة دورازو، فقد انتهى نشاطه السياسي وأصبح مستبعداً من الشرق[223].

وفي سنة 513هـ/1119م، سقط روجر الأنطاكي، أمير أنطاكية، صريعاً في المعركة التي أطلق عليها الصليبيون (ساحة الدم)، عندما قاد ايلغازي الأرتقي جيوش التحالف الإسلامي ضد الصليبيين[224]، وبذلك برزت مشكلة شغورعرش أنطاكية، إذ لا زال الوريث بوهمند

الثاني يعيش مع أمه في الغرب، ولم يبلغ سن الرشد عند ذلك التاريخ، في الوقت الذي أصبحت فيه القوات الإسلامية غير بعيدة عن أنطاكية، وليس فيها من العساكر ما يكفي للدفاع عنها، وقد خشي بطريرك أنطاكية (برنارد) ما قد يقوم به المسيحيون الشرقيون، داخل أنطاكية من إثارة الشغب، نتيجة لما كانوا يشعرون به من التمييز المذهبي بينهم، وبين اللاتين، فبادر إلى تجريدهم من السلاح، وفرض عليهم حظر التجوال، ثم أنفذ رسولاً إلى الملك بلدوين، يدعوه للمجيء إلى أنطاكية، على جناح السرعة[225].

والى ذلك أشار أحد المؤرخين الغربيين، إلى أن إمارة أنطاكية أصبحت فجأة من دون أمير ولا فرسان، ولا جيش يذود عنها، فضلاً عما يشاع بين المسيحيين الشرقيين من السريان والأرمن والارثوذكس من تآمر للإفلات من حكم الصليبيين اللاتين[226].

وبالرغم من أن بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، نجح في أقل من أربع سنوات، في إعادة أملاك إمارة أنطاكية، إلى ما كانت عليه سنة 512هـ/1118م[227]، غير أن وصايته فيما يبدو لا تستند على حق شرعي، بل جرت بناءً على إرادة المحكمة العليا في أنطاكية[228].

ومن هذا يتضح أن مدة الوصاية التي امتدت نحو أربع سنوات حتى مجيء بوهمند الثاني من الغرب، سنة 520هـ/1126م قد تركت آثاراً سلبية على سير الأحداث في إمارة أنطاكية، رغم الجهود التي بذلها ملك بيت المقدس في الذب عن أنطاكية، ومعالجة الأوضاع فيها، ولكن بعد الشقة بين بيت المقدس وإمارة أنطاكية، فضلاً عن انشغال الملك في متاعبه الكثيرة، جعل تلك الوصاية عبئاً على عاتقه[229]، من جهة، وحرم الإمارة من المبادرات الآنية في توسيع ممتلكاتها أو الدفاع عن نفسها من جهة أخرى.

وعلى أية حال فقد كان استلام بوهمند الثاني لميراث أبيه، وانتهاء دور الوصاية يشير إلى مرحلة جديدة من تاريخ الإمارة، لما امتاز به ذلك الأمير الشاب من النشاط الكبير في استعادة كل ما فقدته أنطاكية من أملاكها، وبينما كان بوهمند في خضم نشاطه، لقي مصرعه سنة 525هـ/1130م أثناء زحفه لاسترداد ممتلكات إمارته في قيليقية وفق ما تقدم ذكره.

وبموت ذلك الأمير الشاب أصبحت إمارة أنطاكية أمام كارثة حقيقية هذه المرة، اذ لم يخلف من يرثه سوى طفلة في الثانية من عمرها تدعى (كونستانس) من زوجته (أليس) ابنة بلدوين ملك بيت المقدس[230].

وقد أشرنا إلى تفاصيل ذلك، فيما سبق، وما نود اضافته هنا أن (أليس) بادرت إلى أن تتولى بنفسها الوصاية على أنطاكية وسرعان ما تردد في أنطاكية أن أليس تريد أن تحكم بصفتها أميرة مستقلة دون أن تكتفي بحق الوصاية[231].

ثم بادرت إلى توزيع الأموال على أتباعها، ويبدو أن ما قامت به قد حظي برضا المسيحيين الشرقيين، لأنَّ أليس تجري في عروقها الدماء الأرمنية [232].

ولكن ذلك لم يجد نفعاً إذ بادر النبلاء اللاتين المناهضين لسلوك الأميرة أليس بفتح أحد أبواب سور أنطاكية (باب القديس بولص) الذي أغلقته أليس في وجه والدها الملك فدخل بقواته إلى جوف المدينة، ولم يسعها انذاك إلّا أن تركع أمامه طالبة الرحمة فعزلها عن الوصاية وأمر بنفيها إلى اللاذقية لتعيش بعيداً عن أنطاكية [233]، وأخذ على عاتقه مجدداً الوصاية على عرش أنطاكية، إلى أن تكبر الأميرة (كونستانس) [234].

ويبدو أن الأميرة أليس لم تكف عن التآمر للوصول إلى عرش أنطاكية، ولاسيما بعد وفاة والدها الملك بلدوين الثاني، الذي أفشل مخططها في المرة الأولى [235].

ففي هذه المرة التجأت إلى اقناع صاحب حصن صهيون، وجوسلين الثاني أمير الرها وبونزكونت طرابلس، بما بذلته لهم من الهدايا والأموال لمساعدتها في العودة إلى أنطاكية سنة 527هـ/1132م إلاَّ أن أخبار نوايا الأميرة وتآمرها قد أصبح معروفاً لفرسان أنطاكية الذين ارسلوا الى فولك ملك بيت المقدس طالبين قدومه الى انطاكية لمعالجة الموقف [236].

وهنا اتسع نطاق المشكلة عندما تدخل بونزكونت طرابلس لحماية الأميرة (أليس) وجذب إلى صفه عدداً من الأمراء الصليبيين في المناطق المجاورة فتعقد الموقف كثيراً وأخذت الحركة تنبئ بحدوث ثورة ضد مساعي الملك فولك في شمال الشام [237].

وقد أشار إلى ذلك ابن القلانسي [238] بقوله (وفي المحرم منها سنة 527هـ] وردت الأخبار من ناحية الفرنج بوقوع الخلاف بينهم من غير عادة جارية لهم بذلك، ونشبت المحاربة بينهم، وقتل منهم جماعة).

ويبدو أن المسلمين قد استغلوا هذه الفوضى بين الصليبيين، فأغاروا على ممتلكات إمارة أنطاكية شرق نهر العاصي، إذ اتخذوا من معرة النعمان، وكفر طاب قواعد لشن هجماتهم في تلك الجهات [239] ومع ذلك فقد تمكن فولك من الهيمنة على خصومه وفرض وصايته على أنطاكية [240].

إلاَّ أن آمال أليس لم تخمد في السيطرة على عرش الإمارة، فقد تمكنت بعد موت البطريرك برنارد من إغراء خلفه البطريرك (رادولف) بالتعاون معها، والتمست مساعدة أختها ميليسند ملكة بيت المقدس في التأثير على الملك فولك لمساعدتها في العودة إلى أنطاكية من منفاها في اللاذقية [241]، ثم عادت تدير شؤون الحكم بالتعاون مع البطريرك الجديد [242].

وفي هذه المرة صدقت مخاوف الصليبيين اللاتين من ألاعيب تلك الأميرة، فقد دفعها

الحرص على السلطة والرغبة في الافلات من قبضة اللاتين، بأن اعتمدت على المسيحيين المحليين[243].

وبعثت إلى الإمبراطورية البيزنطية العدو التقليدي للنورمان في انطاكية، بأن بعثت الى الامبراطور يوحنا الثاني تعرض عليه خطبة ابنتها الأميرة كونستانس لمنويل الابن الاصغر لذلك الإمبراطور، الأمر الذي ارتاع له الصليبيون، لأنَّ هذه الخطوة ستجعل منهم تابعين للإمبراطورية الشرقية وكنيستها[244].

وهنا بات من الضروري أن يتم البحث بصورة عاجلة عن عريس للأميرة كونستانس قبل أن يتفاقم الأمر، ويبدو أن تدبيراً سرياً تم مع الملك فولك لاستقدام ريموند- دي بواتيه ابن الإمبراطور وليم التاسع أمير بواتيه[245].

وبهذه الخطوة تحطمت مشاريع الأميرة أليس التي انسحبت الى اللاذقية لتقضي بقية حياتها منزوية عن الأنظار[246].

وفي سنة 544هـ/1149م، لقي ريموند بواتيه مصرعه على يد نور الدين محمود، وبذلك تجددت مشكلة شغور عرش أنطاكية، اذ خلف ريموند ورائه زوجته الأميرة كونستانس بأطفالها الأربعة، ولم يتجاوز ابنها بوهمند الثالث الخامسة من العمر[247].

لذلك عجَّل الملك بلودين الثالث بالمجيء من القدس، فأعلنت وصايته على عرش أنطاكية بالرغم من أن مشاكله في مملكة بيت المقدس لم تدع له مجالاً لتحمل أعباء مسؤولية إضافية[248].

ومن هذا المنطلق أخذ يلح على كونستانس، التي لم تتجاوز الحادية والعشرين من العمر، أن تختار لها زوجاً آخر، فسمى ثلاثاً من الأمراء، وعليها أن تختار أحدهم، ولكنها لم تفعل[249].

وتحت ذلك الإلحاح أرسلت إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل باعتباره سيدها الأعلى، كي يختار لها زوجاً، ولكن كونستانس لم ترضَ بمن اختاره الإمبراطور[250].

وأخيراً قررت الأميرة سنة 548هـ/1153م أن تتزوج من أحد الفرسان المدعو، رينالد شاتيون، وهو من الفرسان الذين صحبوا ملك فرنسا لويس السابع إلى بلاد الشام، حيث مكث رينالد هناك ولم يعد الى بلاده[251].

وفي سنة 555هـ/1160م، وقع رينالد صاحب أنطاكية أسيراً في يد والي حلب، وقد أثار أسره مشكلة دستورية في إمارة أنطاكية، فقد كان رينالد، يحكم باعتباره زوج الأميرة الوريثة وبأسره زعمت أن السلطة عادت إليها، ولا سيما أن ابنها بوهمند الثالث لم يبلغ سن الرشد بعد، وبذلك كانت مشكلة صغار السن إحدى المصاعب التي عانى منها عرش أنطاكية، ثم بادر

النورمان في إيطاليا الى التطلع مجدداً الى بيت المقدس لإيجاد حل للموقف، باعتبارهم أقارب وليسوا سادةً، فتقدم بلودين إلى أنطاكية، وعهد بالحكومة إلى البطريرك (ايمري) حتى بلغ الأمير بوهمند سن الرشد، غير أن تلك الطريقة لم تعجب الإمبراطور البيزنطي، باعتباره سيداً على أنطاكية، فمالت الأميرة كونستانس إلى جانبه في عدم الاعتراف بما جرى لعرش أنطاكية [252]، وتم زواج الإمبراطور الأرمل من الأميرة (ماري ابنة كونستانس) وبذلك انتصرت كونستانس في تثبيت سلطانها [253].

وفي سنة 560هـ/1164م وقع بوهمند الثالث أسيراً في يد نور الدين محمود، في معركة دارت بينهما قرب ارتاح– كما تقدم ذكره– وبأسر بوهمند أصبح العرش شاغراً، وكان من اليسير على نور الدين أن يحتل المدينة، لولا وجود عدد من الحسابات الستراتيجية، من وجهة نظره الخاصة [254].

في المشكلة التي قدمنا شرحها بين ليو الثاني الأرمني، وبوهمند الثالث، أمير أنطاكية سنة 582هـ/1186م التي وقع الأخير من جرائها أسيراً بيد الأمير الأرمني، إذ أصبحت إمارة أنطاكية آيلة للسقوط بيد الأرمن، لاحظنا وقوف الأميرة سبيلا زوجة بوهمند إلى جانب ليو الأرمني الذي تزوج من ابنة اختها طمعاً في مساعدة الأرمن لإعطاء عرش أنطاكية لولدها فيليب دون إخوته من زوجها بوهمند [255].

ثم تجددت مشكلة العرش في الصراع الذي دار في نطاق أسرة بوهمند الثالث، فعندما مات ولده الأكبر ريموند، ولم يخلف من زوجته الأرمنية إلاّ ولداً صغيراً هو ريموند– روبين، صاحب الحق الشرعي في عرش أنطاكية، تدخل عمه (بوهمند الرابع) كونت طرابلس مطالباً بعرش أنطاكية لنفسه [256].

ويبدو أن بوهمند الرابع استطاع أن يؤثر على فئات واسعة من السكان المعادين للأرمن في الميل إلى جانبه، فانحاز إليه الداوية والاسبتارية، فضلاً عن البيازنة والجنويين [257]، ثم إن بوهمند الرابع تمكن من إقناع والده الشيخ بوهمند الثالث بسلامة موقفه ولم يلبث (البطريرك) أن حذا حذوه وتكللت مساعيه بانضمام (القومون) حكومة أنطاكية بالانحياز إلى جانبه، فلم يجد صعوبة عند المسير من حاضرته طرابلس للاستقرار في أنطاكية [258].

إلاّ أن ذلك لايعني نهاية المطاف فقد استمرت حرب الوراثة في السنوات الخمس والعشرين التالية [259]؛ مما أوهن الإمارة وأدَّى الى تآكل قواها الداخلية، ولو لا الانقسامات الحادة في العالم الإسلامي، السلاجقة في آسيا الصغرى والأيوبيون في بلاد الشام، لما قدر لهذه الإمارة أن تستمر لسنوات لاحقة.

وبعد موت بوهمند الثالث أصبحت المشكلة أكثر تعقيداً، فقد استمر ليو الأرمني في

ممارسة نشاطه لتدعيم موقف ريموند- روبين ثم تصاعد النزاع عندما رفض ليو أن يعيد للداوية قلعة بغراس، فانحاز إليه الإسبتارية في عدائه لبوهمند، وبذلك اتجه بوهمند الرابع لطلب العون من الظاهر غازي أمير حلب الذي كان مستعداً لارسال الإمداد إليه [260].

ومن المفارقات المحزنة حقاً في مواقف الأيوبيين أن السلطان العادل يعادي بوهمند، في الوقت الذي يصطف الظاهر الى جانبه ضد عمه العادل [261]، ولم يخمد ذلك النزاع إلى أن مات ريموند روبين في سجون الأرمن حوالي سنة 618هـ/1221م [262].

ويبدو أن الطوائف الدينية العسكرية قد لعبت دوراً خطيراً في مسألة النزاع على العرش، إذ لم تجد محاولات بوهمند الرابع للإيقاع بينهما، فلجأ إلى اسلوب المساومة معهما مستغلاً كره الطائفتين (الداوية والاسبتارية) للإمبراطورية البيزنطية، يضاف إلى ذلك ما قدمه بوهمند من ضمانات مالية ضخمة للإسبتارية في أنطاكية وطرابلس [263].

أمّا بوهمند الخامس الذي تولى العرش بعد موت أبيه سنة 631هـ/1233م، فقد انقاد للكنيسة في روما، وترك إمارة أنطاكية لحكومة (قوموون)، إذ أقام في حاضرته الأخرى طرابلس [264]، ولم يتمكن من اخضاع الطوائف الدينية العسكرية، كما إن حكام الارمن لم يكونوا موالين، له فضلاً عن أن اللاذقية كانت تمثل جيباً إسلامياً داخل أملاكه، الأمر الذي جعل حكمه ينذر بانهيار سريع [265].

ومع أن بوهمند حاول قدر المستطاع أن يكون بعيداً عن أمور جيرانه إلاّ أنه سمح تحت نفوذ زوجته الإيطالية (لوسيين سيجيني) باستقبال الأعداد الغفيرة من أصدقائها وأقاربها في روما الذين دعتهم للمجيء الى الشرق، الأمر الذي أزعج بارونات أنطاكية، وبرز عنه كثيرٌ من المتاعب فيما بعد [266].

وفي سنة 650هـ/1252م توفي الأمير بوهمند الخامس، وترك وراءه ابناً هو (بوهمند السادس) الذي كان في الخامسة عشر من العمر، حين تولى حكم أنطاكية تحت وصاية (لوسيين) أرملة أبيه، ولكن تلك المرأة، كانت بالغة الضعف، وقد اتخذت من طرابلس مقراً لها دون أن تغادرها إلى أنطاكية مطلقاً، الأمر الذي دفع لويس التاسع ملك فرنسا الذي كان موجوداً في الشرق إلى إنهاء وصاية (لوسيين)، وتنصيب بوهمند السادس أميراً لأنطاكية قبل بلوغه سن الرشد [267]، كما تقدم لويس بتزويج بوهمند السادس من سبيلا ابنة هيثوم الأرمني [268].

وقد لاحظنا فيما سبق ما جره ذلك الزواج من متاعب لإمارة أنطاكية مع جيرانها الصليبيين نتيجة انسياق بوهمند وراء رغبات صهره هيثوم في مساعدة المغول لاجتياح المنطقة، وبناءً على ما تقدم، يمكن أن نجمل مشاكل العرش في إمارة أنطاكية، في عبارات

قليلة ومحدودة، منها شغور العرش لمرات متعددة ولمدة طويلة نسبياً، إذ كان الوريث صغير السن، وقد عولجت تلك المشكلة بنظام الوصاية من قبل ملوك بيت المقدس، رغم انشغالهم بمشاكلهم الكثيرة، الداخلية والخارجية، الأمر الذي جعل الوصاية عبئا ثقيلاً على كاهلهم، ومن الطبيعي أن سلبيات نظام الوصاية قد انعكست على أحوال الإمارة إلى حد بعيد.

يضاف الى ما تقدم الدور الخطير الذي لعبته النساء في أمور الحكم، وما سببه ذلك من ضعف، فعل فعله في التعجيل بزوالها.

ب- الصراع المذهبي ودور الكنيسة

لا نريد هنا أن نعرج على خلفيات الشقاق في العالم المسيحي، وما نشب عن ذلك من انشطار تبلور بمرور الزمن، فتجسد في العالم الشرقي الأرثذوكسي والعالم الغربي الكاثوليكي، وما يهمنا، هو تشخيص تلك الأخطار الناجمة عن ذلك الصراع المذهبي التي أسهمت في تدهور إمارة أنطاكية الصليبية، نتيجةً للنزاع التقليدي والدائم بين الكنيستين الشرقية والغربية.

بعد استيلاء الصليبيين مباشرةً على أنطاكية استقبل المندوب البابوي ادهمار بطريرك أنطاكية البيزنطي (حنا الرابع) الذي كان محتجزاً لدى المسلمين أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية، فتمت إعادته إلى منصبه، من دون إشارة إلى الفروق بين الطقوس اليونانية واللاتينية(269).

وقد حرص المندوب البابوي على تنفيذ التعليمات البابوية بشأن إدامة الصلات الطيبة مع رجال الكنيسة الأرثذوكسية(270).

فقد حاولت البابوية أن تخلق أجواءً من المودة والوئام بين شطري العالم المسيحي عن طريق الاشتراك معاً في الحروب الصليبية(271).

ويبدو أن بوهمند، نتيجةً لما يضمره في نفسه، قد خرج على السياسة البابوية، وحاول إثارة الكراهية ضد رجال الدين البيزنطي، وقد أُتيح له المجال أكثر بعد وفاة ادهمار، المندوب البابوي الذي كان ينطق عن آراء البابا وأفكاره(272).

ووجد بوهمند فرصته السانحة في تحقيق السياسة المناهضة للأرثذوكس، عندما نجح في تحالفه مع المندوب البابوي الجديد الذي بعثه البابا ليحل محل ادهمار(273).

بدأ بوهمند مخططه بإظهار العداء للأرثذوكس، عندما أظهر ارتيابه تجاه البطريرك البيزنطي حنا الرابع، واتهمه بالميل الى البيزنطيين، وأنه يشجع الأرثذوكس ويدفعهم إلى السعي للتخلص من اللاتين بمساندة الإمبراطور الكسيوس كومونين(274).

لذا أمر بعزل البطريرك البيزنطي حنا الرابع وطرده من أنطاكية، ونصب بديلاً عنه أسقفاً لاتينياً يدعى برنارد دي فالنس[275].

غير أن الأساقفة الأرثذوكس في أنطاكية احتجوا على بوهمند، وأصروا على رفض الإذعان للأساقفة اللاتين، وبذا يكون بوهمند قد أحدث شرخاً عميقاً في مستقبل العلاقة بين اللاتين في أنطاكية وبين رجال الأرثذوكس، وعدّ ذلك القرار خطيراً من نوعه في تصدع العلاقة بين الكنيستين الشرقية والغربية[276].

ومن الواضح أن قرار بوهمند هذا قد جلب المزيد من العداء البيزنطي لإمارة أنطاكية في جانبيه السياسي والديني، وصار الإمبراطور يسعى بجد لإيقاف أفعال بوهمند، وكبح جماحه للتصميم على إعادة البطريرك البيزنطي، صاحب الحق إلى منصبه في بطريركية أنطاكية[277].

وليس من الصعوبة أن نستنتج بأن ما جلبه بوهمند على أنطاكية من عداء سياسي وديني للإمبراطورية البيزنطية، كان من الخطورة بمكان أن بوهمند بعد هزيمة حران وجد نفسه في موضع اليائس من الاستمرار في تحقيق مشروعه الكبير؛ لذا آثر أن يترك إمارته تحيق بها الأخطار ويعود الى الغرب سنة 498هـ/1104م.

وزاد من عمق الهوة أن تنكرد الذي خلف خاله على إمارة أنطاكية كان أكثر قسوة وبطشاً في إبعاد رجال الدين البيزنطيين[278]، فحينما أصبح وصياً على الرها بعد أن أسر صاحبها بلدوين في موقعة حران، حاول أن ينقل معه وباء العداء النورماني للبيزنطيين إلى إمارة الرها، فحاول أن يطبع هذه الإمارة بالطابع اللاتيني، مما أثار حفيظة أهلها من الأرمن المعروفين بتعصبهم الشديد لمذهبهم، وقد أدركوا قبل غيرهم حقيقة الأهداف الصليبية[279]، لذلك تسربت موجة السخط التي أثارتها سياسة تنكرد ضد الأرمن في الرها إلى الأرمن في أنطاكية، لاسيما مدن قيليقية، وأذنة والمصيصة، وطرسوس، ذات الأكثرية الأرمنية، فقد استنجد الأرمن بالإمبراطور البيزنطي الذي كان يعد العدة لاجتياح أنطاكية؛ لذلك استطاع الإمبراطور بسهولة استعادة المدن المذكورة سنة 498هـ/1104م على يد قائد أرمني وبمساعدة الأرمن[280].

ثم تمادى تنكرد حين استقل بإمارة أنطاكية، بعد سفر بوهمند الى الغرب، في سياسته الدينية المقيتة تجاه المجتمع الأنطاكي[281].

فإذا كان المسيحيون الشرقيون، لا يعيرون كبير اهتمامهم للانشقاق الديني بين الكنيستين الشرقية والغربية، ويعيشون حياتهم دون تعقيد كبير، فإن سياسة النورمان الطائفية جعلتهم يدركون أبعاد ذلك الشقاق الديني وخطورته على معتقداتهم[282].

ومن الواضح أن ما يجري في بطريركية أنطاكية ينعكس على جميع الكنائس التابعة لها، إذ تتبعها كنيستا : الرها وطرابلس، أي إن أساقفة طرابلس، وانطرسوس، وجبلة، والبارة، وطرسوس، والمصيصة جميعاً تابعون لأنطاكية[283].

وهذا يعني أن الصراع المذهبي، لم يكن حصراً في أنطاكية، وإنما يسري على ما ذكرناه من المؤسسات الدينية المسيحية، أي إن أمد الصراع له أبعاد جغرافية خارج حدود إمارة أنطاكية، التي تعد مركزاً لتصدير الشقاق الطائفي الى تلك الأنحاء.

في المعركة التي دارت بين ايلغازي الارتقي، وروجر أمير أنطاكية سنة 153هـ/1119م التي يطلق عليها الصليبييون اسم (ساحة الدم) التي مزقت فيها جيوش الصليبيين، سقط روجر صريعاً في تلك المعركة، وعندما وصلت الأنباء الى أنطاكية بما حل بجيشها وأميرها ارتاع الصليبيون لهول الحادث، فسارع البطريرك برنارد إلى تجريد المسيحيين من غير اللاتين من أسلحتهم، بدلاً من أن يطلب تعاونهم للوقوف معه، وذلك ظناً منه أنهم لم يغفروا له ما قام به من أفعال مريرة تجاههم، ولم يكتف بهذا، وإنما فرض عليهم حظر التجوال، كما ذكرنا، وتفسير ذلك لا يحتاج الى كبير عناء، في استشراء حالة الكره التي يكنها المسيحيون الشرقيون لأسيادهم اللاتين[284].

ويبدو أن تأثير الكنيسة وبطاركتها لم يقتصر على كره المسيحيين الشرقيين فحسب، وانما أخذت الكنيسة تحشر نفسها في مشاكل الصراع على السلطة ومؤامرات البلاط، ومثل ذلك أن البطريرك رادولف دو مفرون الذي خلف برنارد، قد عمل مع مؤيديه لإرجاع الأميرة (أليس) التي فرض عليها الملك بلدوين الإقامة في اللاذقية، إلى أنطاكية لتتولى شؤون الحكم بالتعاون معه، إذ كان يروم من وراء ذلك إبعاد نفوذ الملك ورجاله من بلاط أنطاكية[285]. وقد ذكرنا في موضع سابق الدور الذي اضطلعت به تلك الأميرة في جر المشاكل على عرش إمارة أنطاكية.

وبعد أن تم استدعاء الأمير ريموند بواتيه، للزواج من الأميرة (كونستانس) ابنة (أليس) كي يتولى عرش أنطاكية، طلب منه رادولف أن يقسم له يمين الولاء ويطيعه في كل شيء[286].

غير أن ريموند حاول أن يتحلل من يمينه فيما بعد، مما أثار حفيظة البطريرك الذي ناصب ريموند العداء، وبذلك رفعت ملفات القضية إلى روما التي أرسلت مبعوثيها إلى الشرق للتحقيق في الوضوع. فانتهى الأمر بطرد البطريرك رادولف وإحلال (ايمري) محله[287].

ومع أن البطريرك ايمري تولى إدارة إمارة أنطاكية في وقت الأزمة، بعد مصرع أميرها ريموند بواتيه، غير أن الأمراء العلمانيين يكرهون فكرة تولي رجال الدين إدارة الإمارة[288].

ويبدو أن النزاع بين الأمراء العلمانيين اللاتين، ورجال الدين قد اتخذ أبعاداً جديدة، فقد حاول الأمير رينالد شاتيوي (أمير أنطاكية) أن ينتزع الأموال بالقوة من بطريرك أنطاكية لتمويل حملته ضد جزيرة قبرص، فقد أمر بضربه ضرباً مبرحاً، وأن تطلى جراحه بالعسل، ثم يترك تحت أشعة الشمس المحرقة، لتنال منه الحشرات التي التصقت به [289].

ومن الأمثلة الأخرى على شدة العداء بين رجال الكنيسة والأمراء، أن الامبراطور البيزنطي الذي قصد سوريا سنة 553هـ/1158م بقصد معاقبة رينالد وثوروس الأرمني لغزوهما جزيرة قبرص، قد تلقى رسالة من البطريرك ايمري في منفاه، يدعو فيها ألأ يمثل رينالد بين يديه، ما لم يكن مقيداً بالأغلال، ولابد من عزله [290].

ومن ذلك نستطيع أن نلمس عمق العداء بين السلطتين الزمنية والروحية في إمارة أنطاكية، عندما التجأ البطريرك اللاتيني (ايمري) الى الإمبراطور البيزنطي العدو التقليدي الذي جاء لفرض سيطرته على أنطاكية، مقابل أن يذل أميرها الذي يناصبه العداء [291].

وبالرغم من كل المحاولات التي قام بها البطريرك اللاتيني ايمري لكسب رضا الامبراطور البيزنطي لحماية مركزه في إمارة أنطاكية إلأ أن الأخير أصّر على نفي البطريرك اللاتيني، وإحلال البطريرك اليوناني (اثناسيوس الثاني) محله، وظل اليونانيون يسيطرون على كنيسة أنطاكية في السنوات الخمسة التالية [292].

ولم تتخلص أنطاكية من سيطرة البطريرك اليوناني حتى سنة 566هـ/1170م، عندما ضربت سوريا هزة أرضية عنيفة، كان تدميرها شاملاً لاسيما أنطاكية [293]، فانهار البناء في كاتدرائية القديس بطرس على البطريرك اليوناني وجماعته أثناء إقامة قداس لهم في أروقة تلك الكاتدرائية [294].

وبذلك عاد ايمري من منفاه ليتولى منصب البطريركية مجدداً في أنطاكية، إذ لم يتمكن الإمبراطور من فرض إرادته على أنطاكية في تلك الأثناء لأسباب معقدة على الصعيدين الخارجي والداخلي [295].

وبعودة ايمري الى منصب البطريركية في أنطاكية بدأت مرحلة من النزاع بين الأمير بوهمند الثالث والبطريركية ايمري، هذه المرة، إذ أعقب انحسار نفوذ الامبراطور البيزنطي، فقد ابتهج بوهمند لزوال ذلك الكابوس، ثم سارع إلى الافتراق عن زوجته اليونانية ليتزوج من امرأة خليعة من أنطاكية، هي (سبيلا)؛ مما أثار حنق البطريرك اللاتيني ايمري، متهماً الأمير بوهمند بممارسة الزنا، وقطعه من الكنيسة وأصدر الحرمان الديني بحق إمارة أنطاكية، وقد أدّى ذلك الى ثورة بوهمند ضد الكنيسة ورجالها، فحدث انشقاق خطير في كنيسة أنطاكية واشتعلت الحرب الأهلية فيها [296].

ولم يفلح ملك بيت المقدس بلدوين في كبح جماح الحرب الأهلية التي شبت في أنطاكية عندما حاول تسوية المشكلة، فهرب كثير من نبلاء أنطاكية إلى بلاد روبين الأرمني(297).

ويبدو أن موقف بوهمند الثالث من الكنيسة اللاتينية في أنطاكية قد أزعج البابا انوسنت الثالث الذي بعث برسالة سنة 569هـ/1199م إلى بطريرك أنطاكية يدعوه إلى إصدار قرار الحرمان ضد حكومة أنطاكية إن هي تمادت في استمرار اضطهاد رجال الدين وفرض الضرائب الباهظة عليهم(298).

وفي سنة 598هـ/1201م أصبح الصراع في إمارة أنطاكية أشد عنفاً، فقد انحاز بطرس انجولم بطريرك أنطاكية اللاتيني إلى جانب ليو الأرمني، ملك ارمينية، وخال ريموند- روبين، مؤيداً حق ريموند- روبين، في ولاية عرش أنطاكية، الأمر الذي عرض البطريرك لطائلة غضب بوهمند الرابع الذي قرر الانتقام منه(299).

فقرر بوهمند عزله، ودعا سمعان الثاني البطريرك اليوناني، الذي لم يكن له إلاّ اللقب ليحل مكانه، وطالب الأمير بمحاكمة البطريرك اللاتيني بتهمة الخيانة(300).

وهنا تدخل ملك بيت المقدس مرة أخرى في ذلك النزاع بين الكنيسة والأمراء في أنطاكية، فرضخ بوهمند لمشيئة ملك بيت المقدس بتعيينه بطريركاً لاتينياً جديداً في أنطاكية هو بطرس لوكيديو(301).

ويظهر أن البابوية في الغرب قد أدركت ما للعنصر اليوناني في أهمية كبيرة باعتبارهم الأغلبية في أنطاكية، لذلك عرض البابا هونوريوس الثالث أن يكون لليونانيين كنيسة مستقلة في الداخل، فقد اعترف البطريرك اليوناني بالسلطة العليا البابوية، إلاّ أن اليونانيين رفضوا ذلك العرض، ويرجح أن بوهمند الخامس أمير أنطاكية كان وراء ذلك؛ لأنه أدرك أن رجال الدين اليونانيين أكثر طواعية له من أقرانهم اللاتين(302).

ونتج عن ذلك أن سارع البطريرك سمعان الثاني اليوناني إلى المجمع الديني المعادي للاتين، الذي دعا إلى عقده الإمبراطور البيزنطي الذي يقيم في نيقية في (تيمفايوم) وقرر المجمع قطع البابا عن الكنيسة(303).

ولكن البطريرك سمعان أدركه الموت حوالي سنة، 1240م، فخلفه البطريرك الجديد داود، وقد عرف عن ذلك الرجل الدهاء، وسعة الحيلة عندما هادن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فيما بين عامي (638هـ/1240 - 643هـ/1246م)، فحاز رضاها وموافقتها بتنصيبه بطريرك أرثدوكسيا في أنطاكية إلى جانب خصمه البطريرك اللاتيني(304).

غير أن البطريرك اللاتيني البرت داتزو لم يكن راضياً عن ذلك، إلاّ أن موته حل المعضلة، ولم يتم تعيين بطريرك لهم محله، حتى سنة 1247م، عندما تقلد أوبيرون فيشي

منصب البطريركية في أنطاكية، ولكن البطريرك اليوناني يوثيميوس الذي خلف داود بعد موته، رفض ما للبابوية من سيادة، فأتيحت الفرصة للبطريرك اللاتيني (أوبيزون) بقطعه عن الكنيسة وطرده خارج المدينة[305].

ويستنتج من هذا أن ذلك الصراع المذهبي لا بد أن يكون قد فعل فعله بين طوائف السكان الذين يمثلون بمجموعهم رعايا إمارة أنطاكية، فقد حالت الفوارق العنصرية، والثقافية، والمذهبية، والاعتبارات السياسية دون تحقيق الوحدة المنشودة[306].

ومما تجدر الإشارة إليه، بعد أن أصبحت إمارة طرابلس الحاضرة الثانية للنورمان في الشام، أن البطاركة اللاتين كانوا يفضلون الإقامة في أنطاكية شأنهم شأن أمرائهم، ومثال ذلك البطريرك اللاتيني البرت دي رزاتوا (Albert de Rezato) الذي تقلد منصبه في سنة (1228– 1245) والذي شهد في أخريات عهده تنصيب بطريرك يوناني إلى جانبه، فرحل إلى الغرب محتجا على ذلك حيث قضى نحبه هناك[307].

أمّا خليفته ايليا المسمى اوبيزوفيسكي (Opeizofieschi) فقد آثر هو الآخر الرحيل الى الغرب تاركاً بأنطاكية عدداً من رجال الدين لينوبوا عنه فيها، نذكر منهم كريستيات الدومانيكي الذي قتله السلطان بيبرس سنة 666هـ/1268م، عند اجتياحه إمارة أنطاكية[308].

هوامش الفصل الخامس

1- قلعي، قدري: صلاح الدين الايوبي، (بيروت،1966) ص609، 610.

2- Mayer(H.E): The crusades, P. 91.

3- عاشور: اوربا العصور الوسطى، ج1، ص365- 371.

4- باركر: الحروب الصليبية، ص133.

5- James(L.C.): The crusade of 1101(in the setton A History of the crusades) Vol, 1, PP 347-348 .

6- باركر: الحروب الصليبية، ص 42، 43.

7- مجهول: اعمال الفرنجة، ص19، 38، ثم انظر تعليق الدكتور حسن حبشي على الموضوع في الصفحتين 10،11، في تقديمه للمصدر نفسه.

8- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص42.

9- اشار ابن الاثير الى هدف تلك الحملة بتخليص بوهمند من اسره بقوله:- وصل من البحر سبعة قمامصة من الفرنج وارادوا تخليص بوهمند ..)). انظر: الكامل مج10 ص300.

Stevenson(M.A) The crusaders in the east, P. 75.

10- عاشور: تاريخ العلاقات، ص288.

11- James Leacate: The crusade of 1101(in setton A History of the crusades) Vol, 1, PP 345-355 ;Cahen: OP. Cit. P. 232.

12- عن هاتين الحملتين انظر:

Albert D, Aix. P.P. 575-578 ; Mattiea d, Edsse(Hist Arm 1) P. 59;
عاشور: تاريخ العلاقات ص286- 287؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص48- 49.

13- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص79، 86.

14- فشر: تاريخ اوربا، ق1، ص188.

15- Zoe': The crusades , P. 324 ;

16- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص397- 399.

17- باركر: الحروب الصليبية ص 23.

18- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج2 ص405.

19- باركر: الحروب الصليبية، ص 75، 76.

20- عاشور: اوربا العصور الوسطى، ج1، ص465.

21- Zoe'. OP. Cit, P. 348. i

22- Zoe': The crusades, PP. 327-329 ; James, (A). Brundage: The crusades, P. 114.

23- Mayer(H.): The crusades, P. 105; James(A.): The crusades, P. 114.

24- ابن كثير: البداية والنهاية ج12، ص240.

25- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص327.

26- Stevenson, (W.B), OP. Cit, P. 164.

27- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص463.

28- انظر: ص187، 190 من هذا البحث.

29- انظر: ص251 من هذا البحث.

30- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص19.

31- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص144.

32- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص22.

33- ابن الاثير: الكامل مج12، ص63- 68؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج3، ص110- 113.

34- Fenwick(K.): The third crusades, printed in great Britain, PP. 72– 73;
عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص844- 845.

35- باركر: الحروب الصليبية، ص 92.

36- ابن شداد: النوادر، ص174.

37- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص87؛ ابن شداد: النوادر، ص240.

38- المقريزي: السلوك، ج1، ص230.

39- لوبون: حضارة العرب، ص409.

40- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص153.

41- جوزيف نسيم يوسف (دكتور): العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص122- 128.

42- باركر: الحروب الصليبية، ص 147.

43- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص24.

44- باركر: الحروب الصليبية، ص 147.

45- هارولد لامب: شعلة الاسلام، ص392.

46- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص441.

47- باركر: الحروب الصليبية، ص 87.

48- رضا بك: وثائق عن الحروب الصليبية، ص96.

49- لوبون: حضارة العرب، ص414.

50- انظر: على سبيل المثال، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص267- 270.

51- النوادر: ص127.

52- العماد الاصفهاني: الفتح القسي، ص460.

53- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ج2، ص218.

54- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1051.

55- باركر: الحروب الصليبية، ص 134- 135.

56- رضا بك: وثائق عن الحروب الصليبية، ص94.

57- مكسيم رودنسون: العصور الوسطى، تراث الاسلام، شاخت، ص51.

58- Masson, (G.): Mediaeval france, from the reigon of Hugues capet to the beginning of the 16th century(London, 1888) PP. 96– 97.

59- انظر ص86 من هذا البحث.

60- Chalandon: Essai sur Regne d, Alexici comnena PP. 70, 71.

61- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص117.

62- C. M. H. Vol, 4, P. 270.
63- Grousset: Histoire des croisades et du Royaume de Jerusalem, Vol, 1, P.41.
64- Yewdal: Bohemond, I, prince of Antioch, P. 87.
65- Albert D.Aix P. 500, 501.
66- Chalandon, Alexis comnena PP. 218, 219.
67- Anna comnene, OPcit, P. 353.
68- Grousset, Hist, des, croisades, Vol, 1, P. 311.
69- Matthiea, d, Edesse, P. 51.
70- Ibid, P.50 .
71- Ibid, P.51 .

72- انظر ص 126 من هذا البحث.

73- Chacaudon, OP. Cit, P. 232.
74- Albert, D,Aix. OP, Cit , P. 502 – 504.
75- Chalandon, OP, Cit, P. 223.
76- Anna comnena, OP, Cit, P. 356.
77- Raoul De Cane OP. Cit P. 705; William of Tyre, OP. Cit, Vol 1 , P. 449.

78- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص360.

79- باركر: الحروب الصليبية، ص 51.

80- Anna, comnena, OP, Cit , PP, 357, 358.
81- Ibid, PP. 357, 358.
82- Ibid, P. 358.
83- Chalandon, Alexis comnena P. 234.

84- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص46.

85- Anna comnena, OP, Cit, P. 364.
86- Ibid, P. 365.
87- Yewdale, OP. Cit, P. 102.
88- Stevenson, The crusadesin the east, P. 78.
89- Cahen: La surie du Nord, P. 246.
90- Anna comnena ,OP. Cit, P. 368.
91- Yew dale, OP. Cit, P. 197, 108.
92- Anna comnena, OP. Cit, PP. 392 – 405.

93- اوردت (انه) ابنة الامبراطور الشروط المطلوبة لهذه الاتفاقية، انظر: الملحق رقم (2) ص 299 – 300، ولو ان الاتفاقية بقيت حبرا على ورق.

94- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج2 ص68.

95- انظر: ص 298 من هذا البحث.

96- Anna comnena ,OP.Cit ,PP. 438 , 440.

97- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص751، ابن الاثير: الكامل ج10 ص430.

98- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص158.

99- Anna comnena OP. Cit, P. 443– 444.

100- Ibid , PP. 443, 444.

101- ابن الاثير: الكامل، ج1، ص483.

102- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص173.

103- المصدر السابق، ص177.

104- Harold(S. E0 foundation of the latin states, 1099-1118(in setton: A History of the crusades) Vol , 1, PP. 400 – 401.

105- Anna comnena, OP. Cit, P.480 – 481.

106- وذكر ابن الاثير ذلك الزلزال فقال انه كان شديدا في ديار الجزيرة والشام: وانه ضرب الكثير من المدن: انظر الكامل مج10، ص508.

107- ابن الاثير: الكامل ج10، ص501 – 503.

108- Cahen, OP. Cit, P. 280.

109- Ibid, PP. 280, 281.

110- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص293.

111- زابورف: الصليبيون، ص170.

112- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص341.

113- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص277.

114- اليوسف، الامبراطورية البيزنطية ص149.

115- Stevenson(W.B) , The crusades, P. 180;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص568، 569 ك؛

116- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص570– 571.

117- المصدر السابق، ج2، ص573. قال ابن القلانسي(وقد وصل من ملك الروم رسول من معسكره ومعه هدية اتحف الملك العادل من اثواب وديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وبغال وقوبل بمثل ذلك)انظر ذيل تاريخ دمشق ص356.

118- انظر ما سبق، ص 173.

119- انظر: ص 211 - 212 من هذا البحث.

120- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص190؛ ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص 396.

121- اليوسف: الامبراطورية البيزنطية، ص154.

122- انظر: ص 101 من هذا البحث.

123- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص143. سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج8، ق1، ص9.

124- Albert, D, Aix. OP. Cit, P.616 ; Grousset, Hist, des, crois, Vol , 1, P. 405.

125- علية الجنزوري (دكتورة) امارة الرها الصليبية، ص217- 218.

126- Mottieu, d, Edesse, OP. Cit, P. 79.

127- Albert of Aix PP.619 – 620.

نقلا عن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ج2، ص 76، 77.

128- Zoe' , OP. Cit, P. 215.

129- Mattieu, OP. Cit, P. 86.

130- Ibid, OP. Cit, P. 85.

131- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص 153؛

Cahen, OP. Cit, P. 249. i

132- Grousset OP.Cit , VOl ,1, P.651.

133- William of Tyre, OP. Cit, Vol,2 , P.34 .

134- Grousset, OP. Cit, Vol,1 , P. 651.

135- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص238.

136- Grousset, OP. Cit, Vol,1, P. 651.

137- William of Tyre, OP. Cit, Vol,20 , P.34 .

138- Michel, Lesyrien, chronique, demichel, Lesurien, P. 244.

139- Ibid, OP. Cit, P.233 .

144- William of Tyre. OP. Cit, Vol,1 , P.94 .

141- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص234- 235.

142- Anna comnena, OP. Cit, P.330 .

143- Albert, D, Aix، OP. Cit, P.502–504 . chalandon, Premiere crois, PP. 222–223.

144- Chalandon, OP. Cit, P. 223.

145- Anna comnena, OP. Cit, P.354 , 355.

146- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص55.

147- Alhert, D, Aix. OP. Cit, P. 582.

148- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص60.

149- Grousset, Hist, des, crois, Vol,1 , P. 337.

150- Archer, The crusades, P. 165.

151- William of Tyre. OP. Cit, Vol,1 , P.449 .

152- Ibid, Vol,1 , P.449 .

153- Ibid, Vol,1 , P.475.

154- Albert, D, Aix. OP. Cit. PP. 665– 667.

155- Anna, OP. Cit, PP. 440– 441.

156- Grousset, Hist, des, crois, Vol,1 , P. 378.

157- Matthieu, d, Edesse, OP. Cit, PP.50 ,51 . Stevenson(M.A) The crusades in the east, P. 73.

158- Anna comnena, OP. Cit, P.43 1.

159- William of Tyre,Vol 1, PP.449– 450.

160- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج2 ص200- 201.

161- ابن الاثير: الكامل، ج01، ص93.

162- المصدر نفسه ج10، ص502.

163- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج2، ص183.

164- المصدر نفسه، ج2، ص219.

165- اشار ابن الاثير الى ذلك دون ذكر للتفاصيل، انظر الكامل مج10، ص7666.

166- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص534.

167- رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ج2، ص319.

168- Mayer(H. E0: The crusades, P. 117.

169- ابن الاثير: الكامل مج11 ص387، 388؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2 ص337.

170- William of Tyre. OP. Cit, Vol,

171- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج2، ص632.

172- المصدر نفسه، ج3، ص162.

173- العماد الاصفهاني: الفتح القسي ص255.

174- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص163.

175- William of Tyre, Vol, 1, P.260 .

176- Ibid. P.274 .

177- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص166.

178- عاشور: الحركة الصليبية ج2، ص987؛ رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص181.

179- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص182- 183.

180- Cahen, OP. Cit, PP. 590– 595.

❖ الملك الظاهر هو: غياث الدين ابو الفتح غازي الاول الايوبي صاحب حلب، ينظر: الحنبلي، احمد بن ابراهيم (ت: 876هـ): شفاء القلوب في مناقب بني ايوب تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة (بغداد 1978) ص252.

181- انظر ص 180 من هذا البحث.

182- المصدر نفسه: ج3 ص55؛ ابو الفداء: المختصر، ج3، ص105.

183- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص988.

184- Norman(P.Z):The children's crusades(insetton A History of the crusades, Vol , 2. P. 535).

185- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص990.

186- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص991.

187- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص306.

188- المصدر نفسه: ج3، ص307؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1025.

189- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1025.

190- المصدر نفسه: ج2، ص1096- 1097.

❖ المماليك: ينتمي المماليك الى جماعات الرقيق الذين كانوا يجلبون من بلاد الترك من آسيا ومن أماكن عديدة في أوربا، وقد تمكن عددٌ منهم من الوصول الى مناصب مهمة نتيجة لاستخدامهم في الجيوش

والأعمال الادارية لاسيما وأن عدداً منهم تميز بالنبوغ والنباهة. للمزيد انظر: احمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام (بيروت 1969) ص11– 15؛ جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الاسلامية (القاهرة 1967، 2/145).

191- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1138.

192- قاسم عبدة: ماهية الحروب الصليبية، ص190– 191.

193- انظر ص 183، من هذا البحث.

194- ابو الفداء: المختصر، حوادث سنة 658هـ.

195- المصدر نفسه: حوادث سنة 659هـ.

196- ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7، ص108.

197- المقريزي: السلوك، ج1، ص483.

198- السيوطي، الحافظ جلال الدين(ت:911هـ): تاريخ الخلفاء، دار الفكر (بيروت 1394هـ/ 1974م)، ص439.

199- السلوك: ج1 ص465.

200- Grousset: OP. Cit, Vol, PP. 529– 530.

201- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1103.

202- Archer, T, The crusades, PP. 440– 441.

203- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص1108.

204- المقريزي: السلوك، ج1، ص464، 485– 486؛ العيني: عقد الجمان، حوادث سنة 661 هـ، 662 هـ.

205- Grousset: Hist, des, croisdes, Vol, 3, P. 625.

206- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص548، 550.

207- ابو الفداء: المختصر، حوادث سنة 664هـ؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7، ص138.

208- المقريزي: السلوك، ج1، ص550.

❖ لم نهتد الى مكانها.

❖❖ كذلك.

❖❖❖ بلدة في شرقي طرابلس بينهما اربعة فراسخ تقع في سفح جبل وهي اخر عمل دمشق. ياقوت: معجم البلدان مج4، ص109.

209- المقريزي: السلوك، ج1، ص545.

210- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص498.

211- ابن العبري: ص498؛ ابو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج7، ص140.

212- ابن ابي الفضائل، مفضل (ت: هـ): كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس 1932) ص152.

213- حسن عبد الوهاب: الفرسان التيتون، في الارض المقدسة(الاسكندرية 1989) ص303.

214- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص557.

215- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص500.

216- المقريزي: السلوك، ج1، ص566- 567.

217- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص559.

218- انظر تلك الرسالة الموجهة الى بوهمند في الملحق رقم (5).

219- المقريزي: السلوك، ص566- 567.

220- ابراهيم طرخان: النضم الاقطاعية في الشرق الاوسط (القاهرة 1968)، ص47؛ فيليب حتي: تاريخ سورية ج2، ص262.

221- Maye (H.E): The crusades, P. 162;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص492.

222- Setton, OP. Cit, Vol ,1, P.388 .

223- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص86.

224- انظر: ص 131 من هذا البحث.

225- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج2، ص240.

226- Stevenson: OP. Cit, P. 104.

227- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص215.

228- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص490.

229- المصدر نفسه، ج2، ص280.

230- Mayer(H.E): The crusades , P. 84;

وقال ابن العديم (وملكت انطاكية زوجة البيمند بنت بغدوين)

انظر: زبدة الحلب ج2، ص246.

231- Mayer (H.E): The crusades , P. 84; Zoe: The crusades, P. 268.

232- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص239.

233- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص247.

234- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص533.

235- Robert (L.n): The Growth of the latin states 1118- 1144 (In setton A History of the crusades) Vol , 1, P.431.

236- Mager(H.E): The crusades ,P.87 .

237- Stevenson: OP. Cit , P. 131.

اشار ابن العديم الى ذلك بقوله: وقع بين الفرنج في هذه السنة فتن وقتل بعضهم بعضا وقتل صاحب زردنا، انظر: زبدة الحلب، ج2، ص251.

238- ذيل تاريخ دمشق، ص236.

239- ذكر ابن العديم ذلك بقوله ((وقع بين الفرنج في هذه السنة[527هـ] فتن وقتل بعضهم بعضا .. ونزل التركمان على بلدة المعرة وكفر طاب وقسموا الغلات)) انظر: زبدة الحلب ج2، ص251.

240- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص537.

241- Stevenson: OP. Cit, P. 13 ;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص315.

242- William of Tyre, OP. Cit, Vol,2, P. 78 ;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص316.

243- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص543.

244- Zeo' ,(O): The crusades, P. 306. Mayer. (H.e): The srusades, P.90.

245- Mayer. (H.E: the crusades, p.90.

246- Zeo' , (O): The crusades, P. 306. Mayer. (H.e): The srusades, P.96.

247- Stevenson: OP.Cit , P. 184.

248- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص525.

249- Setton: OP. Cit, Vol 1 P. 536.

250- Sir Hamlton(A.R) GIBB: The latin states under baldwin3 and Amalric, I, 1143– 1174 (in setton, A History of crusades) Vol,1, P.536.

251- William of Tyre, OP. Cit, Vol, 2, P. 224.

252- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص578– 579.

253- Chaladon: Comenes, 11. P. 523.

254- انظر: ص 170 من هذا البحث.

255- انظر: ص 215 – 218 من هذا البحث.

256- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص181.

257- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج3، ص183.

258- المصدر نفسه، ج3، ص183– 184.

259- المصدر نفسه، ج3، ص184.

260- Stevenson: OP. Cit, P. 299.

ابن واصل: مفرج الكروب ج3، ص155.

261- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص242– 243.

262- المصدر نفسه، ج3، ص306.

263- المصدر نفسه، ج3، ص362.

264- عاشور: تاريخ الحركة الصليبية، ج2، ص1050؛ رنسيمان: المرجع السابق، ج3، ص362.

265- Cahen, OP. Cit, PP. 65 – 652, 664– 666.

266- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص401.

267- جوانفيل:القديس لويس: حملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشي، ط1(القاهرة 1968، ص231)

268- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص479.

269- William of Tyre, OP. Cit, Vol,2, P. 296, 297.

270- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج1، ص359.

271- Dunacalf. F: The pope's plan for the First crusades(New York 1968) P.53.

272- Ibid, P.53 – 54.

273- Setton: OP. Cit, Vol,1 , P.374 .
274- Gronsset: Hist, de, croisades , Vol, 1 , P.114 .
275- William of Tyre, OP. Cit, Vol 1, P.273.

276- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص453.

277- Radulph of Cane: OP. Cit, P. 767.
278- Albert D, Aix, OP. Cit, P.433 .
279- Mattieu, Edesse, OP. Cit, P.77. Grousset, Hist des, Crois, Vol,1 , P.437 .
280- Raoul, de cane, OP. Cit, P.712 .
281- Albert D, Aixn, OP. Cit, P.43 2.
282- Mattieu, de edesse ,OP.Cit , P79..

283- عاشور: تاريخ الحركة الصليبية، ج، ص485.

284- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص420.

285- المصدر نفسه، ج2، ص315.

286- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص173.

287- William of Tyre, OP. Cit, Vol,2 , P.122 .

288- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص533

289- William of Tyre, OP. Cit, Vol, 2, P. 235

290- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص569.

291- المصدر نفسه: ج2، ص569.

292- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص599– 600.

293- ذكر ابو الفداء ان تلك الهزة(كانت زلزلة عظيمة خربت الشام.. وكذلك خربت بلاد الفرنج) انظر: المختصر، ج3، ص49.

294- Michael: The Syrian, Vol 3. P.339 .

295- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية: ج2، ص629.

296- William of Tyre, OP. Cit, Vol,2 , P.451 – 455.

297- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص694.

298- انظر ما جاء في نص الوثيقة في الملحق رقم (4) ص324.

299- Eracles P.257.
300- Cahen: La syrie du Nord, P. 612– 613.
301- William of Tyre, Vol, 2, P. 402.
302- Mauer: The crusades, P. 200.
303- Cahen: OP. Cit, PP. 684– 685.

304- جوزيف نسيم: العدوان الصليبي ص304.

305- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص403.

306- جوزيف نسيم: العدوان الصليبي ص305.

307- المصدر نفسه، ص306.

308- Grousset: History des croisades, Vol 3, P.513 .

الفصل السادس:

المعطيات الحضارية لإمارة أنطاكية

أولاً: نظم الحكم والادارة

أ- النظام السياسي

استغرق وجود إمارة أنطاكية الصليبية زهاء (170) سنة، كانت التقاليد الإقطاعية الأوربية تشكل الأرضية التي قام عليها نظامها؛ وذلك لأن مؤسسي الإمارة هم من رجالات الإقطاع في أوربا، فكان من الطبيعي أن يطبقوا أسس النظام الذي عرفوه ونشأوا فيه[1].

واذا ما طبق الصليبيون القوالب الجاهزة لنظام الاقطاع الأوربي في المشرق العربي على غير أساس، وفي تربة غريبة عليه، فما ذلك إلا لأنهم قصدوا أن يحكموا البلاد على مقتضى ذلك النظام الذي لم يفقهوا غيره[2].

وقد ظل أمراء أنطاكية يتوارثوان عرش إمارتهم بموجب القانون الإقطاعي المعمول به في الغرب[3]، ولو من الناحية النظرية على الأقل.

وقد أضافوا إلى قواعد نظمهم الاقطاعية ما تستدعيه ضرورات اليقظة الحربية في محيطهم الجديد من الصرامة والشدة، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً أمام عمق معطيات حياة المجتمع الشرقي ومغرياته الكثيرة[4].

يتربع الأمير الأنطاكي على قمة الهرم السياسي في عرش الإمارة، ويساعده في إدارة دفة الحكم مجموعة من المؤسسات السياسية والقضائية والإدارية، يقوم على توليها العديد من الاشخاص، تحدد مناصبهم وهويتهم حسب مواقعهم من تلك المؤسسات، وكان النظام السياسي عبارة عن تسلسل مرتبي اقطاعي من الأسياد على اختلاف مراتبهم ومركزهم، يشبه الى حد بعيد التسلسل القائم في الغرب آنذاك[5].

فمنذ البداية وعقب الانتصار الذي أحرزه الصليبيون على كربوقا، أطلق الجند على

بوهمند لقب (أمير أنطاكية) [6]، وأصبح بوهمند منذ ذلك الوقت يحكم أنطاكية اعترافاً بفضله، وكان حكمه، في ظاهر الأمر- بوصفه أميراً أقطاعياً- خاضعاً للامبراطور البيزنطي، ولكنه في واقع الحال، كان حاكماً مستقلاً [7].

ويبدو أن لإمارة أنطاكية وضعاً مختلفاً من ناحية علاقتها بالإمارتين الصليبيتين: الرها وطرابلس، ثم مملكة بيت المقدس، فلم يقر بوهمند لأحد بالسيادة عليه، وحذا حذوه تنكرد وروجر في عدم إقرار سيادة بيت المقدس على إمارة أنطاكية [8].

غير أن ذلك لم يكن حالة عامة، فقد خضعت الإمارة في حقب لاحقة لإدارة الإمبراطور البيزنطية، ولأكثر من مرة، وقبلت بنوع من السيادة الشكلية لملوك بيت المقدس، حسبما أملته الضرورة، كما مر معنا.

وبالنظر لتكرار حالة شغور العرش في الإمارة، نتيجةً لوقوع الأمير في الأسر، أو أن يلقى مصرعه في إحدى المعارك، فقد خضعت الإمارة لنظام الوصاية ولمرات عديدة، فعند أسر بوهمند، ثم ذهابه الى الغرب فيما بعد ظل تنكرد يحكم أنطاكية بموجب العرف الإقطاعي، بوصفه نائباً أو وصياً عن بوهمند في حكم البلاد، ولم يصبح أميراً بصورة رسمية إلا بعد وفاة أميرها الشرعي بوهمند سنة 505هـ/ 1111م [9].

وفي مدة الوصاية كان تنكرد يطلق على نفسه لقب خادم الله، وأحياناً الأمير الكبير، وذلك فقط تمييزاً له عن سائر أمراء الإمارة، ولم يلقب نفسه بأمير أنطاكية [10].

ويظهر أن أمراء أنطاكية قد احترموا نواميس الوصاية بالتخلي عن العرش حال عودة أقرانهم الشرعيين أو ظهورهم، ومن ذلك أن تنكرد تنازل عن العرش لخاله بوهمند حال عودة الأخير من الأسر، ثم أن (تنكرد) عندما أحس بقرب نهايته عهد بالعرش الى روجر سالرنو- ابن اخته- ولكنه (أجبر روجر على أن يحلف بأن يسلم الحكم الى الابن الأصغر لبوهمند متى قدم الى الشرق) [11]، ولم يحدث أن امتنع أحد الأوصياء عن تسليم العرش إلى صاحبه الشرعي عند ظهوره.

ومهما قيل عن الوصاية فلا ريب أنها تمثل إحدى المشاكل التي جلبت المتاعب لإمارة أنطاكية، لاسيما في الأوقات التي لايوجد فيها قيم على الحكم داخل الإمارة، وتناط الوصاية بملوك بيت المقدس، مما يفسح المجال واسعاً أمام النساء للتسلط في تصريف الأمور بطريقة مختلفة [12].

ومع أن الأمراء النورمان في أنطاكية قد عدوا أنفسهم مستقلين وذوي سيادة، ولكن كثرة صغار السن من ورثة العرش ألزم ملوك بيت المقدس بالتدخل، وذلك بوصفهم أقارب لاسادة [13].

ولاشك أن حق الوصاية يخول الملك أن يفعل ما في وسعه من أجل الإمارة، وتدعيم بنائها، والذود عنها، فبعد مقتل روجر على يد ايلغازي سنة 513هـ/1119م بادر بلدوين ملك بيت المقدس (فدخل أنطاكية وسلمت إليه أخته زوجة سرجال [روجر] خزائنه وأمواله، وقبض على أموال القتلى ودورهم، وأخذهم وزوج نساء القتلى بمن بقي) [14].

ثم قام الملك بإعادة توزيع الإقطاعات التي قتل أصحابها، وتشير عددٌ من النصوص الى أن الأمير، القيم على عرش الإمارة، ليس له أن يفرّط بشيء من أملاك الإمارة على سبيل المثال الهبات أو ما شاكل ذلك، فعندما وعد روجر، أثناء حكمه للإمارة، شقيقته- زوجة جوسلين صاحب الرها- بأن تكون لها منطقة عزاز بائنة لها، لم يوافق بوهمند الثاني على تلك الهبة حينما تسلم مقاليد الإمارة، إذ عَدّ بوهمند أن روجر ليس إلا قيماً على العرش، يحكم الإمارة باسمه، وليس له أن يتنازل عن أي جزء من أجزائها وبذلك نقض الاتفاق [15].

ويبدو أن المرأة، بموجب قوانين الإقطاع، قد حظيت بنصيب وافر من الحقوق، وهذا مما زاد في تسلط الأميرات وتحكمهن بمصير عرش أنطاكية، فبموجب قوانين المحكمة العليا، صار للأرملة أن تحوز نصف الضيعة، وأن تحظى بالنصف الآخر باعتبارها قيّمة على أطفالها القاصرين، وطبقاً لذلك نقل أولئك الأرامل الميراث والألقاب إلى أزواجهن الجدد، مثلما حاولت (إليس) زوجة بوهمند الثاني نقل ميراث الإمارة إلى امبراطور القسطنطينية، ثم زواج ابنتها، كونتسانس من ريموند دي بواتيه [16].

وقد نجم عن تلك الحقوق العديد من المشاكل الدستورية في عرش أنطاكية، مثال ذلك الأميرة كونستانس التي ادعت أن السلطة قد عادت إليها بعد أسر زوجها رينالد شاتيون صاحب أنطاكية، إذ كان يحكم بوصفه زوجاً للأميرة الوارثة، غير أن الرأي العام، ساند ولدها (الوريث) الذي لم يبلغ الخامسة عشر من العمر [17].

وإذا كانت السمة التقليدية لحكومة أنطاكية كغيرها من الحكومات الإقطاعية هو أن يتولى شؤونها الأمير وكبار أقرانه من الإقطاعيين، فإن ما حدث في نظام الحكم في أنطاكية من تطور، يعد على جانب من الأهمية، إذ تشكلت في أنطاكية، حكومة قومون (Conmune) إثر المشكلة التي نجمت بين بوهمند وليو الثاني الأرمني [18].

وإذا كانت الدماء الأرمنية التي تجرى في عروق عدد من بارونات أنطاكية، وكره عدد منهم لبوهمند الثالث، جعلهم لايرفضون الخضوع لتسلط الأرمن على إمارتهم، فإن الطبقات الأخرى من سكان المدينة (الطبقة البرجوازية) من رجال الدين، والجاليات الإيطالية، والطوائف اليونانية واللاتين، قد التفوا حول البطريرك لتشكيل حكومة وطنية من بينهم، للدفاع عن المدينة، ويبدو أن المسيحيين الشرقيين قد أسهموا بدورٍ فعالٍ من خلال تلك

الحكومة[19] والتي يمكن أن نصفها بأنها حكومة شعبية، إذا صح التعبير، ثم إن تلك الحكومة لم ينته دورها في إدارة البلاد بإطلاق سراح بوهمند الثالث، بل استمر نشاطها في الحقب اللاحقة، لاسيما عندما آثر عددٌ من الأمراء أن يجعل طرابلس محلاً لإقامته[20].

ب- النظام القضائي:

لقد عرف عن الغزاء الصليبيين في الشرق اهتمامهم الكبير بالنواحي القضائية، لذلك أعطوا مؤسسات القضاء المزيد من الاهتمام[21].

وفي إمارة أنطاكية تمت مزاولة المهام القضائية من خلال مجموعة من المؤسسات السياسية والقضائية والإدارية، وفي مقدمة تلك المؤسسات، مجموعة من المحاكم، التي من أبرزها المحكمة العليا، وهذا النظام شبيه بما هو موجود في مملكة بيت المقدس والإمارات الأخرى، إلاّ أنه من الصعوبة بمكان إعطاء عرضٍ دقيقٍ لدستور إمارات الفرنج؛ لأنه لم يكن لها في أي وقت من الأوقات دساتير ثابتة[22].

تعد المحكمة العليا في أساسها هيئة قضائية، ثم اتسع اختصاصها مع الوقت، فأصبحت بمثابة هيئة تشريعية، يجب استحصال موافقتها للمصادقة على أي قانون أو تشريع جديد، فضلاً عن قيامها بالفصل فيما ينشأ بين الأمراء من خلافاتٍ أو ما يرتكبون من مخالفات وجرائم[23].

وللمحكمة العليا رأي مسموع في تأشير الخطوط السياسية العامة لنهج الحكم؛ لأن هذه المحكمة تضم بالأساس أقران الأمير من كبار أمراء الاقطاع، فضلاً عن رجال الدين وممثلي الجاليات الأجنبية التي امتلكت أراضيٍ في الإمارة، كالبنادقة، والجنوية والبيازنة، وممثلي هيئات الفرسان الداوية والاسبتارية، ولاشك أن الأمير يركن إلى رأي تلك الطوائف عند اتخاذ القرارات المهمة[24]. فالمحكمة العليا تعد المنبع الأكبر للقضاء عند الطبقة الحربية، وإذا قطعت المحكمة العليا في رأي معين، فليس أمام الأمير إلاّ الامتثال لإرادتها، ومثال ذلك ما حصل مع أرناط الذي ألزمته المحكمة العليا في أنطاكية بالامتثال لإرادة ملك بيت المقدس بوجوب الدخول في اطار الوفاق الصليبي[25].

وهذا ما أشار إليه أسامة بن منقذ من أن الفرسان إذا عقدوا حكماً في شيء (مايقدر الملك ولا أحد من مقدمي الفرنج يغيره و لاينقضه)[26].

وتعتمد هذه المحكمة على نظام المحلفين، وهم مجموعة من الأشخاص الذين يعينهم الأمير ليتخذوا مركزهم في هذه المحكمة، وبذلك تمكن أمراء أنطاكية من بسط نفوذهم على هذه المؤسسة من خلال لجوؤا إليه من تعيين المحلفين[27] وبما أن هذه المحكمة كانت

مخصصة لطبقة الفرسان النبلاء دون غيرهم، فقد وجد إلى جانبها محكمة أخرى أُطلق عليها اسم المحكمة الوطنية، أو المحكمة البرجوازية، مثلما تطلق عليها عدد من المراجع الغربية[28].

وإذا كانت المحكمة العليا تخص النبلاء، فإن هذه المحكمة تنظر في أُمور سائر الصليبيين من غير النبلاء، شريطة أن يكونوا من الأحرار[29].

وتنظر هذه المحكمة فيما يجري بين أبناء طبقتها من المعاملات المالية والمدينة، يضاف الى ما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية، فقد قامت هذه المحكمة في كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى، وتولى رئاستها مسؤول يدعى بالفيكونت، يساعده اثنا عشر محلفاً، يختارهم الأمير الذي تتبع له المدينة من رعاياه الذين ولدوا أحراراً[30].

ويؤدي هؤلاء المحلفون أعمال القضاة، ويجوز لأحد الخصوم أن يتخذ عدداً منهم مدافعاً عنه، وفي مثل تلك الحال لايجوز للمحلف الذي تولى الدفاع عن الخصم أن يشترك في إصدار قرار الحكم[31].

ويختلف هذا النمط من المحاكم عن المحاكم العليا في حرصها على إثبات أعمالها في سجلات، ويكون انعقادها بانتظام، ومن طريف إجراءاتها أنها أقرت المحاكمة عن طريق المبارزة أو الغوص في الماء[32].

يضاف إلى ما تقدم أن هناك نوعين من المحاكم، تكون ذات صلة بما تتمتع به الأحياء الايطالية في المدن من امتيازات قضائية، أي إن ذلك النمط من المحاكم يغلب عليه الطابع التجاري، إذ يعرف النوع الأول بـ (محكمة المدن)، وتختصُ محاكم ذلك النوع بالمدن التي تنشط بها التجارة[33].

ويبدو أن هذه المحاكم قد تطورت لتعالج كل القضايا حتى الجنائية منها التي تخص السكان المحليين، ويرأس هذه المحكمة نائب يعينه السيد المحلي، يساعده ستة من المحلفين، أربعة منهم من السكان المحليين، واثنان من الصليبيين، ويحلف كل من المتخاصمين الوطنيين اليمين على كتابه المقدس، وذكر أن المسلمين يقسمون على القرآن الكريم[34].

وهناك محاكم الموانيء، أو ما يُسَمَّى بـ (محكمة السلسلة) نسبةً الى السلسلة التي تقفل بها الموانيء[35]، وقامت هذا المحاكم على الموانيء البحرية، ويتولى رئاستها القناصل أو وكلاؤهم[36].

وتعد تلك المحاكم سجلاً لما يتحصل من الديوان (الجمرك)، وما يتم تقاضيه من رسوم عن رسو السفن، ويُخْتَارُ محلفو تلك المحاكم من بين التجار والبحارة[37].

ويذكر أن الفضل في إنشاء هذه المحكمة يعود إلى املريك الأول ملك بيت المقدس (558هـ/1162م- 570هـ/1174م)[38].

ومع أن المصادر الغربية قد أشارت الى تضاؤل دور المحاكم المحلية التي تنظر في الأمور التي تخص السكان الوطنيين، التي أخذت تندمج بالتدريج في المحاكم االصليبية في المدن عدا القرى النائية[39]، إلا أنَّ ذلك الحال لم يكن عاماً في جميع الإمارات الصليبية، إذ كان للقضاة المسلمين دور مميز خصوصاً في إمارة أنطاكية، فقد بقيت وظيفة القاضي المسلم الذي يقضي في الدعاوي بين المسلمين[40]، ففي سنة 584هـ/1188م حين توجه صلاح الدين لتحرير شمال الشام، بعد افتتاح بيت المقدس، أقام تحت حصن الأكراد عندما (أتاه قاضي جبلة، وهو منصور بن ثيبل يستدعيه إليه ليسلمها إليه، وكان هذا القاضي عند بيمند صاحب أنطاكية وجبلة مسموع الكلمة، له الحرمة) [41].

وقد أكدت مصادرنا أن القضاة المسلمين في إمارة أنطاكية كانوا يقطنون المدن الكبرى المهمة، وليس القرى البعيدة، حسبما تشير إليه عدد من المصادر الغربية، وكان هؤلاء القضاة يتولون الفصل في أمور المسلمين، فضلاً عن تمتعهم بالمنزلة الرفيعة لدى أمراء الصليبيين بإسناد الأمور المهمة إليهم، كما هو حال منصور بن ثيبل قاضي جبلة الذي تكفل لصلاح الدين بفتح جبلة واللاذقية، (وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية وعول عليه فيها) [42]، وكان منصور عند صاحب أنطاكية وجبلة (مسموع القول، مقبول الكلمة، له الحرمة الوافرة، والمنزلة العالية) [43].

ج- النظام الإداري

وفي موضوع النظام الإداري، يظهر نوع من الترابط الوثيق بينه وبين النظام السياسي، إذ إن عدداً من الوظائف والمؤسسات تؤدي عملاً مشتركاً يحمل الصفتين معاً (السياسية والإدارية) فلا غرابة في ذلك طالما أن النظام الإداري هو من النهج السياسي في إدارة الدولة.

قسمت إمارة أنطاكية ومنذ البداية على مجموعة من المدن (الاقطاعات) المهمة، وكان من أبرزها: أنطاكية، واللاذقية، وجبلة، ولكل من هذه المدن المهمة (دوق) خاص له مطلق السلطة في إدارة مدينته، إلاّ أن الأمير (أمير أنطاكية) هو الذي يعينه أو يعزله متى شاء، ويكون الدوق خلال وجوده في منصبه أحد أعضاء المحكمة العليا، ويجري اختياره من بين السكان (المحليين) عدا دوق أنطاكية، فيجب أن يكون من نبلاء الصليبيين[44].

وأجاز الأمير أن يكون نائب الدوق، الفيكونت (Viscount) * من الأهالي المحليين، إذْ أجادت هذه الطبقة من رجال الإدارة شؤون ادارة المدن، خصوصا ما يتعلق بجمع الضرائب، وهي المهمة التي سبق وأن تمرس عليها ذلك النفر منذ أيام السيادة البيزنطية[45].

وكانت الإقطاعات الكبيرة تُقسم على وحدات أصغر من الحيازات الإقطاعية

(البارونات) وتقسم البارونات بدورها على وحدات أصغر هي فيودات الفرسان من مختلف المقاييس، ويمكن أن يشمل الفيود (Feod) بضع قرى أو قرية واحدة[46].

ويتضح من خلال توزيع الإقطاعات أن أمير أنطاكية كان ميالاً إلى تعزيز سلطته المركزية، فقد احتفظ في يده ومنذ البداية بالمدن الرئيسة، وبقدرٍ كبيرٍ من أراضي الإمارة، وكان حذراً عند بذل المنح من الأراضي، إلاّ في المناطق الحدودية، فكان يفضل بذل إقطاع المال (النقود) بدلاً عن الأرض[47].

ويشرف على إدارة الإمارة ابتداءً من مركزها ووصولاً إلى القرية، سلسلة من الموظفين تحدد درجاتهم بحسب ما يشغلونه من الوظائف، فقد عهد النورمان بإدارة المدن الكبرى في إمارتهم إلى رؤساء من أهالي تلك المدن، جرياً على النمط البيزنطي، وأطلقوا على اسم كل منهم لقب (دوق) ، أمّا مدينة أنطاكية (العاصمة) فقد استلزم وضعها أن يكون الدوق من النورمان، غير أن مساعده المباشر (الفيكونت) كان من الأهالي المحليين[48].

ويلي الفيكونت في المكانة المحتسب، وقد ظل صاحب هذه الوظيفة محتفظا باسمه العربي[49].

ويبدو أن أمراء أنطاكية عمدوا -مثلما فعل أبناء عمومتهم في صقلية- إلى زيادة قوتهم ازاء طبقة النبلاء بأن أفادوا من المواطنين الذين ينتمون الى أصول محلية، وكان بإمكان الأمير إقصاؤهم عن مركزهم متى شاء ذلك[50].

ومن الوظائف الأخرى المهمة (الصنجيل) الذي يُعد رئيسا لإدارة المدينة، ويكون واجبه الأساسي في إطار بيت المال، وهو الديوان الذي تجمع فيه مستحقات الإدارة من الأموال، ويقوم بالصرف على الوجوه الأساسية مثل: الرواتب، ويوثق عمله ضمن سجلات مالية مرتبطة بالحكومة، فضلاً عن قيامه بالإشراف على حفلات تنصيب الأمير، وعليه أن يتقدمه في المواكب[51].

ويلي الصنجيل في المكانة (الكند سطبل) ويبدو أنه يتمتع بمكانة خطيرة في الإمارة، إذ يحتل مكانة فعلية تفوق مكانة الصنجيل، فهو يلي الأمير في قيادة الجيش، ويحتل المركز الأول في الإشراف التام على نظام الجيش وإدارته من كل الوجوه، بما في ذلك ممارسة القضاء لكل العساكر المرتزقة، وربما تسند إليه إدارة الإمارة إذا ما حدث حادث بأميرها، مثلما حدث لرينالد مازوار أمير المرقب الذي حمّله الملك فولك ملك بيت المقدس مسؤولية إدارة الإمارة، عندما حاولت الأميرة (أليس) التخلص من وصاية بيت المقدس للانفراد بالسلطة في أنطاكية[52].

ومن الوظائف الإدارية الأخرى وظيفتا : الحاجب، والساقي، ويشغل الحاجب وظيفة

الشخص المسؤول عن حاشية البلاط، وفي أوقات الموكب يؤدي دور الأمين الخاص، أمّا الساقي فيرجح أن وظيفته ارتبطت أساساً بالاحتفالات[53].

ومن الوظائف المهمة أيضاً، رئيس ديوان الإنشاء، (كانسيلور (Chancelor الذي يقع ضمن اختصاصه تحرير الوثائق وتسجيلها ثم ختمها بخاتم الأمير[54].

هذا من المدن، أمّا الريف فتعد القرية أصغر الخلايا الإدارية، إذ يتولى رئيس القرية – حسبما تطلق عليه المصادر اللاتينية أحياناً اسم (الوسيط Regulus) – شؤون إدارتها، ويكون مسؤولاً أمام السيد الإقطاعي، ويستخدم السيد من جانبه أحد مواطنيه ليكون مرشداً له وكاتباً، ويكون ذلك الشخص ملماً باللغة العربية ليتولى أمور سجلاته[55].

وذكر ابن جبير[56] في رحلته، وظيفة صاحب الديوان (الجمرك) ، وقال: إن صاحب الديوان وموظفيه (يكتبون بالعربية ويتكلمون بها).

د – النظم العسكرية

إن الحركة الصليبية التي قامت أساساً على مبدأ الغزو والاغتصاب وجب أن يكون لها من العساكر المدججة بالسلاح ما يمكن الاعتماد عليه في المحافظة على موقعها في الشرق العربي؛ لذا كانت الجيوش المعدة إعداداً جيداً والقلاع تعد ركناً أساسياً للوجود الصليبي[57].

تكونت الجيوش الأساسية من الفرسان الذين ينتمون إلى الطبقة العليا، فقد اكتسبوا النبل عن طريق الوراثة[58]، ثم السرجندارية، وهم الجنود المشاة بكامل عدتهم، وكانت تلك الطائفة كثيرة العدد وتنتمي في أصولها إلى الفرنج، وتنزل في إقطاعات أسيادها[59] الذين التزموا بموجب التقاليد الإقطاعية أن يقدموا أعداداً منهم للخدمة، كل حسب مقدار إقطاعه[60].

وإذا كانت مدة الخدمة في أوربا محددة بأربعين يوماً حسب العرف الإقطاعي فإنها في الإمارات الصليبية لم تكن محددة بأجل، بل طوال السنة، نظراً لاستمرار التحدي الإسلامي للوجود الصليبي[61].

وإلى جانب تلك الفصائل الاقطاعية كانت هناك تشكيلات عسكرية أُخرى تدعى بالمرتزقة (Sodeers) ، والراجح أن أولئك المرتزقة كانوا يدعون لأنفسهم أنهم ينحدرون من أصل الفرنج[62].

وكان لتجنيد المرتزقة أهميته في حياة إمارة أنطاكية، وذلك لأن الإمارة كانت تعاني من نقص العنصر البشري، لا سيما بعد هزيمة حران، وتزايد الضغط الإسلامي على حدودها، الأمر الذي ألجأ اميرها بوهمند إلى الذهاب إلى الغرب، تاركاً ابن اخته تنكرد وصياً على عرش الإمارة، فسارع الأخير إلى استئجار الجنود المرتزقة[63].

وكان هؤلاء المرتزقة والمأجورون يتقاضون أجوراً أو رواتب إزاء خدماتهم[64]، وليس لدينا فكرة واضحة عن مقدار مرتبات المرتزقة في إمارة أنطاكية، ولكن هناك قرينة بخصوص ذلك، إذ إن ملك بيت المقدس كان يدفع للفارس مبلغاً يتراوح بين 400- 500 بيزانت في السنة، أي اكثر ما تعود به إقطاعية متوسطة من قريتين على صاحبها[65].

علما أن قوانين إمارة أنطاكية تتفق في اتجاهها العام مع قوانين مملكة بيت المقدس[66].

ويبدو من خلال عدد من النصوص أن ما يتقاضاه المحاربون الصليبيون من عطاء كان شيئاً كثيراً، ففي ذات مرة كان تنكرد صاحب أنطاكية يوبخ فرسانه الذين عجزوا عن اختراق صفوف المسلمين أمام مدينة شيزر، فخاطبهم قائلا: (انتم فرساني وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم)، فضلاً عن أن الفارس الذي ينفق جواده يعوض عنه[67].

هذا عن الفرسان، أمّا المحاربون الراجلة (السرجندارية) فيبدو أن ما يتقاضونه قليل جداً قياساً إلى أُعطيات الفرسان، فقد ذكر أحد السرجندارية الصليبيين الذي أسر عند استرداد كفرطاب من الصليبيين في حملة برسق بن برسق سنة 509هـ/1115م أنه ليس باستطاعته أن يفتدي نفسه، وقال: (أنا سرجندي ديواني كل شهر ديناران، من أين لي ستمائة دينار؟)، والستمائة هو المبلغ الذي طولب بدفعه لغرض افتدائه[68].

ومن التشكيلات العسكرية المحدثة، طائفة التركبولية* ((Turcopole)) وهم عبارة عن الخيالة الخفيفة من الفرسان[69].

وقد وصفهم أسامة بن منقذ بأنهم رماة الفرنج[70]. وذكرهم أيضا العماد الكاتب[71]، وقد جرى تجنيدهم محلياً على نمط الخيالة الشرقيين المتخففين، الذين قلدوهم في نوع السلاح الذي يستخدمونه، ونمط التدريب الذي يتلقونه، وكانوا يحسنون لغة آبائهم وأمهاتهم[72].

ويضاف إلى كل ما تقدم من الصنوف والتشكيلات العسكرية، فرسان الطوائف الدينية، وجيوشهم المؤلفة من السكان المحليين، ويعد مقدمو هذه الطوائف من الأُمراء، ولهم من الاستقلال والمكانة ما يوازي مكانة أميري أنطاكية وطرابلس[73].

وتمثل أتباع هذه الطوائف في ثلاثة مجاميع من الفرسان هم: الداوية* والاسبتارية** والفرسن التيتون***.

وكان الفرسان الذين ينتمون إلى تلك الطوائف يقدمون العهود الرهبانية الثلاثة وهي: العفة، والفقر، والطاعة، وهذا يعني تعهدهم بعدم تأسيس عائلات، وعدم السعي الى جمع المال، والخضوع التام لمن هو أكبر وأقدم في المرتبة[74].

ولم تخضع هذه الطوائف لسلطة الملك أو أحد الأمراء، وإنما تدين بالولاء والطاعة للبابا فقط[75].

وكانت حاميات هذه الجماعات وثكناتها موزعة في مدن مملكة بيت المقدس وإمارتي طرابلس وأنطاكية[76].

وتعد هيئتا الداوية والاسبتارية من المصادر المهمة لتزويد الصليبيين في بلاد الشام بالمقاتلين الذين جعلوا في مقدمة أهدافهم حرب المسلمين[77]، علما أن هذه الهيئات لم تكلف الصليبيين شيئاً من ناحية الانفاق عليها، لأنها تمول نفسها ذاتياً من خلال مواردها الخاصة[78].

ثانيا: الحياة الاجتماعية وأهم الطبقات

من الناحية السكانية يمكن عد مجيء الصليبيين إلى الشرق ضرباً من ضروب الهجرة الاستيطانية، بغض النظر عن الدوافع والأهداف، وهذا يعني أن العناصر الجديدة زادت من تنوع التركيبة السكانية في بلاد الشام، وجعلتها في حالة من عدم الاستقرار، إذ إن المذابح الصليبية، وعمليات التهجير الجماعي والاستيطان، فضلاً عن تبادل السيادة على عدد من مناطق الحضر والريف بين المسلمين والصليبيين خلال مدة الصراع الطويل، خلقت ضروباً من التعقيدات السكانية غير المألوفة، إذ تحولت الأقليات إلى أغلبيات في عدد من المناطق، وشهدت مناطق أخرى العكس من ذلك[79].

وفي أنطاكية يمكن عد البناء السكاني للمجتمع انموذجاً لالتقاء الحضارتين الإسلامية والرومانية، فقد امضى هذا المجتمع في كنف كل منهما قروناً عديدة حتى خضع أخيراً لسيادة الصليبيين النورمان.

فلا غرابة أن يواجه النورمان في هذه الإمارة مجتمعاً حيوياً صقلته أزمان التمايش الطويلة مع تلك الحضارات الراقية، إذ كان مجتمعاً مميزاً بخبراته الرفيعة في الميادين الاقتصادية من زراعة، وصناعة، وتجارة، فضلاً عن مهارات في مجال الإدارة وشؤون تصريف الحياة[80].

ومهما حاول النورمان— ولو في البداية على الأقل— إظهار المودة للمجتمع الأنطاكي، لأنهم الأقلية وسط ذلك المجتمع المتعدد الطوائف[81]، غير أن بوادر الشقاق ما برحت أن ظهرت جلية وحادة مع الأيام، فقد أدرك المسيحيون الشرقيون النهج الطائفي في سياسة النورمان، وخطورة أبعاد تلك السياسة على معتقداتهم[82].

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار تناسب حجم الطوائف المكونة للمجتمع الأنطاكي قياساً على عموم الهيكل السكاني للإمارة، تجلى لنا بوضوح نمط الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من ذلك، إذ تألف ذلك المجتمع- عند قيام الإمارة سنة 491هـ/1098م من اليونانيين (البيزنطيين) ، وقد شكلت نسبتهم نحو ثلاثة أرباع السكان، أي إنهم يشكلون

الأغلبية، وهناك السريان، الارثوذكس واليعاقبة، فضلا عن فئة محددة من النساطرة، يضاف إلى أولئك جميعاً الجماعات الإسلامية العديدة المنتشرة في مدن الإمارة وقراها.

وإزاء تلك الأغلبية حاول النورمان تأليب بقية الطوائف على المسيحيين اليونانيين مستغلين أواصر العداء القديم بين تلك الأطراف[83].

كانت الأقلية الصليبية من النبلاء والفرسان قد استطاعت أن تحتفظ لنفسها بالنفوذ السياسي والهيمنة على الحكم، غير أنها لم تستطع مطلقاً الحفاظ على عاداتها وتقاليدها بصورة نقية، وإنما اضطرت نتيجةً لقلة عددها وسط محيط شرقي واسع أن تفقد كثيراً من موروثها الاجتماعي، وتكتسب ما يحيط بها من الأعراف[84].

ولسنا بصدد المضي في سرد تفاصيل الصراع بين تلك الأطراف، بقدر ما نريد الإشارة إلى أن تلك البداية من العلاقات القلقة وغير المتوازية في المجتمع الأنطاكي ظلت أبرز السمات المميزة له على الدوام.

ومن ناحية المراتب الاجتماعية يمكن تحديد أهم الطبقات الاجتماعية في المجتمع الأنطاكي خلال عصر الإمارة بما يلي:

أ- طبقة النبلاء والفرسان (الطبقة الارستقراطية)

وقد تألفت هذه الطبقة من الأشراف أو العناصر التي اكتسبت صفات النبل عن طريق الوراثة، وتمتع أبناؤها بشأن رفيع في النظام الاقطاعي[85].

وقد أشار أسامة بن منقذ إلى مكانة هذه الشريحة الاجتماعية بقوله: (ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلاّ للفرسان، ولا عندهم أناس إلاّ الفرسان، فهم أصحاب الرأي، وهم أصحاب القضاء والحكم.. فالفارس أمر عظيم عندهم)[86].

وتعد طبقة الفرسان والنبلاء الطبقة الحاكمة العليا، وكان المفروض أن تظل بمثابة العمود الفقري للمجتمع الأنطاكي، غير أنها ظلت تعاني من نقص كبير نتيجةً لكثرة ما تقدمه من ضحايا في الحرب من جهة، وقلة الأعداد الواردة إليها من الغرب من جهة أخرى[87].

ومع أننا لا نستطيع إعطاء إحصائية دقيقة عن أعداد تلك الطبقة في مدة من المدد، ولكن يرجح عددٌ من الباحثين أن عدد الأسر من النبلاء والفرسان في إمارة أنطاكية كان في حدود مئة أسرة[88].

ويبدو أن ازدياد أعداد أفراد تلك الطبقة عن طريق التناسل كان أمراً محدداً رغم كثرة الانجاب إلاّ أن غالبية الأطفال لم تعش بسبب الظروف المناخية والصحية التي لم يألفها الصليبيون[89].

وبالنظر لأهمية هذه الطبقة في إدارة دفة الحكم، والسيطرة على مقاليد السلطة في الإمارة، فقد حرص الصليبيون على إدامة التوازن بين صفوفها لضمان استمرارها، ففي معركة (دانيث) التي فنى فيها معظم فرسان أنطاكية، وقتل أميرها روجر، بادر الملك بلدوين- الوصي على عرش الإمارة – إلى ترميم أوضاع تلك الطبقة، فتسلم الأموال، (وزوج نساء القتلى بمن بقى، وأثبت الخيل) [90].

وكان عدم الاستقرار إحدى السمات المميزة لهذه الطبقة [91]، وظلت تمثل أقلية غريبة عن المجتمع، فظلت بعيدة عن المجتمع، وظل المجتمع بعيداً عنها) [92]، وكانوا دوماً أقلية من الناحية العددية [93].

ولكن إحجام تلك الطبقة عن المشاركة في الحياة الاجتماعية العامة لا يعني أنها لم تقتبس شيئاً من سمات الترف الشرقي، فقد أسرف أبناء تلك الطبقة في هذا الجانب، فضلاً عن ما اشتهرت به حياة الفروسية في الغرب من الإسراف والبذخ، إذ اتخذوا لأنفسهم المساكن الفارهة التي زينت جدرانها بالنقوش، وسقوفها بالفسيفساء، وجرى فرشها بالسجاجيد الفارسية وأُسدلت على نوافذها الستائر المصنوعة من الحرير المزركرش، وامتازت اسرّتها وموائدها بالمفروشات البيض الناصعة، إلى جانب الصحون والأطباق المصنوعة من الذهب والفضة، هذا فضلاً عما يجلب من الشرق الأقصى من أدوات المائدة والأواني الخزفية الرائعة، فكانت هذه السمات الباذخة صفة مميزة لقصور الأمراء، حتى في الحصون البعيدة، حيث شيدوا الحجرات الجميلة، والحمامات المريحة، وكل ما تحتاج إليه سيدات البلاط، فضلاً عن قاعات الاستقبال الرحيبة الرائعة [94].

ويبدو أن الصليبيين أخذوا بتكييف حياتهم العامة والخاصة وفق مقتضيات الحال والمناخ، فاعتمدوا الطراز العربي في البناء الملائم لظروف البلاد، فجعلوا بناءهم ذا أفنية فسيحة، تحيط بها الغرف والقاعات، وتتوسطها (البحرة) تتوسطها نافورة تقذف بينابيع المياه عالياً في الهواء، فتنشر ذراته رذاذاً يخفف من شدة الحرارة، ويبعث في النفوس البهجة والارتياح [95].

وقد نقل لنا الشاعر العكاوي، أبو عبد الله بن نصر القيسراني- الذي كان يتردد على أنطاكية زمن الصليبيين – صورةً جميلةً عن تلك القصور وساكنيها، ومن مثل ذلك قوله: –

تــرى قـصوراً كأنها بيـعٌ	ناطقـةٌ في خلالها الصور
هـالات طاقـاتها أهلـةٌ	يبسم في كـل هـالـةٍ قمـرُ
سـوافر كلمـا شـعرن بنـا	بـرقعهن الحـياءُ والخـفرُ [96]

وصفوة القول إن هذه الطبقة كانت تحاكي قرينتها من علية القوم في المجتمع الشرقي[97].

وبذلك كانت قصور أبناء تلك الطبقة من الأمراء الغربيين في مقاطعاتهم تبدو غريبة المظهر بما حوته من الفرسان والمشاة المتأهبين بعددهم العسكرية المختلفة، فضلاً عن أعداد كبيرة من الحشم والخول، مع ما يحتاج الأمراء إليه من الحجّاب والكتّاب والأطباء[98].

ولم تكن نساء القوم أقل ميلاً من الرجال في امتلاك الخدم، من الرقيق الأبيض والأسود، ذكوراً وإناثاً، لإنجاز الخدمات الخاصة بهن[99].

واذا كانت الموسيقى، والغناء، والقمار من ضروب التسلية التي تمارسها جميع الطبقات، فإن الصيد كان الرياضة المفضلة عند الفرسان اللاتين[100].

أمّا عن الملابس فقد اتخذ الرجال الأثواب الحريرية السابلة، وارتدوا الفراء في موسم الشتاء[101]، (فاذا لم يكن الفارس في عدته وسلاحه، ارتدى برنساً من الحرير، واتخذ عمامة العرب، وعند الخروج للقتال ارتدى فوق درعه سترة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس، كما جعل فوق خوذته كوفية على نحو ما يفعل العرب) [102].

وذكر أُسامة[103] أنه طعن ذات مرة أحد الفرسان الفرنج، (وكان عليه تشهير حرير أخضر وأصفر... وكان عليه زردية تحت التشهير).

واتخذت نساء هذه الطبقة الأثواب الشرقية الرقيقة المحلاة برقائق الذهب، وأحيانا بالجواهر، وفي الشتاء يرتدين الفراء، ويتخذن الحجاب إذا ما غادرن البيوت ليس احتشاماً، بل للمحافظة على الطلاء الذي يخفي وجوههن[104].

ولكن مع اتصاف نسائهم بالرقة والوداعة، إلاّ انهن كثيراً ما يضارعن الرجال في الشجاعة، إذ تولت أعداد من النساء النبيلات الدفاع عن عدد من القلاع أثناء غياب السادة[105].

وفي ذلك يقول مجير الدين الحنبلي[106]: (وفي الفرنج نساء يلبسن هيئة الرجال ويقاتلن.. أسر جماعة منهن فلم يعرفن حتى سلبن وعرين، وأمّا العجائز فحضر منهن جماعة، وهن ينشدن تارة، ويحرضن، وينخين الرجال).

ومهما حاول أبناء هذه الطبقة الحفاظ على أصولهم وتقاليد الطبقات التي ينتمون اليها فقد اضطروا إلى مجاراة المحيط الذي يعيشون فيه، فبادر عددٌ من الأمراء اللاتين إلى الزواج من النساء الشرقيات[107].

وقد أشار أحد مؤرخيهم المعاصرين (فولشر فوشيه) [108]، إلى هذه الحقيقة بقوله: واتخذ البعض زوجات ليس فقط من مواطنيهم بل من السوريات والأرمنيات.. كما استخدم الجميع لهجات اللغات المختلفة..).

وهذا يعني أن تلك الطبقة مهما حاولت أن تلف نفسها بجدران سميكة تجاه المجتمع لتحافظ على أصولها التقليدية فلن يكون بوسعها ذلك أمام نواميس الحياة التي تعتمد على الأخذ والعطاء، رغم كثرة التحفظات التي فرضها بعضهم لترسيخ جدران العزلة بين الصليبيين وجيرانهم.

ب- الصليبيون من غير النبلاء والفرسان

تمثل هذه الطبقة عموم الصليبيين-عدا الطبقة الارستقراطية- وتنحدر غالبيتها من فرق المشاة في الجيش الصليبي[109]، إذ إن السادة الإقطاعيين ملزمون بتقديم أعداد من رجال المشاة إلى جانب الفرسان، حسب قواعد العلاقات الإقطاعية[110].

ومن الواضح أن أبناء هذه الطبقة أكثر عدداً من أفراد سابقتها (طبقة النبلاء)، وأوسع انتشاراً وأكثر تفاعلاً مع الحياة الجديدة التي عاشها الصليبيون في الشرق، وبما أن الصليبيين لم يأتوا إلاّ بعدد قليلٍ من زوجاتهم[111]، فضلاً عن أن أبناء هذه الطبقة لم يكن لديهم ما يعتزون به من شرف المولد، حسب المنظور الإقطاعي، لذا تزوجوا من المسيحيات الوطنيات[112]، لاسيما الأرمنيات[113].

ونتج عن ذلك الزواج طبقة جديدة أكثر صلة بحياة المجتمع الشرقي، فهي طبقة مركبة، وقد أُطلق على أبناء ذلك الجيل الجيل البولاني (poulains)، والذين أخذوا فعلاً بالاندماج في المجتمع المسيحي الشرقي[114].

ويبدو أن ماحدث من مصاهرات بين الصليبيين والمسيحيين الشرقيين، قد زاد في أنطاكية عن سائر الإمارات الصليبية، إذ لم يكن الفرنج بها من الكثرة كما كانوا في سواها[115].

وبذلك حلت هذه الطبقة الجديدة بالتدريج محل سابقتها، وأصبحت العامل الاجتماعي المهم في بناء المجتمع الصليبي[116].

وكلما تقادمت الأيام أصبحت هذه الطبقة أكثر التصاقاً بحضارة الشرق وتراثه، ونسيت كثيراً من مورثها، وتعلمت كثيراً من المحيط الذي تعيش فيه، فنشأ عن ذلك مجتمع جديد في ملتقى الطريق بين المجتمعين الشرقي والغربي، فأخذ عن هذا وذاك[117].

وازداد تأثر الصليبيين بحياة الشرق، حتى إن المؤرخين أخذوا يلمسون فروق الطباع بين الصليبيين القادمين حديثاً والمقيمين، وقد أطلقوا على الأخيرين في الغرب (الأمهار) أي الشرقيين، واتضح أن الحجاج الجدد لا يحبذون الاختلاط مع المقيمين، لأنهم في نظرهم أنصاف مسلمين[118].

ومما يسر عملية الاندماج، وجود وسيلة التفاهم المشتركة، إذ صارت اللغة العربية لغة التخاطب إلى جانب لغة القوم، والراجح أن أكثر من أجادها من الصليبيين هم أبناء الشرقيات[119].

وظهر تقليد الشرقيين في ملابسهم، فقد اتخذوا شيئاً فشيئاً الزي الشرقي فلبسوا العمامة، والقفطان وغيرهما مما يناسب مناخ الشرق، حيث حرارة الشمس اللاهبة والرمال[120].

ولبست نساء المولدين النقاب في الطُرقات، إذ كُنَّ يبدين في حجاب سابغ مثل المسلمات، بل إن هذه التقاليد المكتسبة قد سرت إلى عدد من نساء علية القوم[121].

ويحفظ لنا ابن جبير لوحة فنية لطيفة من خلال وصفه لعرس أفرنجي شاهده أثناء رحلته إلى بلاد الشام أيام وجود الصليبيين، ويبدو أن وقع تلك الصورة الفنية قد أثر فيه لجمالها الأخّاذ إلى الحد الذي جعله يعجب بمصادفتها بقوله[122]: (فأدانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة فيه).

وما يمكن أن نستشفه من خلال هذه الصورة أن اللحمة الجديدة للمجتمع داخل الإمارات اللاتينية أصبحت أكثر هدوءاً وأكثراً تآلفاً، وقد يعزى ذلك إلى أن عقلاء الفرنج أدركوا أنه إذا قدرلهم البقاء في الشرق فيجب أن لا يعيشوا فيه أقلية أجنبية، وهذا ما أشار إليه قسيس الملك بلدويين الأول (فولشر شارتر) الذي عد تحول الغربيين إلى شرقيين من المعجزات الربانية، فتراءى له اندماج وتعايش هذه العناصر عملاً رائعاً وخطوةً نحو اتحاد الأمم[123].

جـ - النصارى الشرقيون

كانت الطوائف المسيحية الشرقية عند قيام الإمارة تتألف من المسيحيين اليونانيين (البيزنطيين) الذين يمثلون غالبية الطوائف الأخرى في الإمارة– إذ هم يشكلون نحو ثلاثة أرباع السكان– ومن السريان الأرثوذكس واليعاقبة، وأقلية من النساطرة، وكانت الكراهية إحدى السمات التي ميزت ذلك المجتمع، مما يسر على النورمان ضبطه، والتحكم فيه، وأكثر من ذلك فقد استطاع الصليبيون تأليب الأرمن والمسيحيين اليعاقبة والسريان ضد العنصر اليوناني، مستغلين العداء المزمن بين الطرفين[124].

وفي بداية الغزو أظهر معظم أفراد الطوائف المسيحية في المجتمع الأنطاكي– عدا البيزنطيين– الرضا والمودة تجاه الصليبيين[125]، إذ اعتقدوا أن قيام الإمارة الصليبية سيثأر لهم من مضطهديهم البيزنطيين، فما زالت الذكريات الاليمة ماثلة في أذهانهم، قبل ما يقارب عقد ونصف من الزمان من قيام الإمارة الصليبية[126].

ولكن كثيراً من هؤلاء الشرقيين، لاسيما السريان، ساورهم الشك حول أفضلية الحكم البيزنطي أو الصليبي على حكم المسلمين، لذا فإن ذلك القسم أبدى الاستعداد أثناء حصار أنطاكية لتقديم الخدمة للمسلمين بنقل ما يجري في المعسكر الصليبي إلى حكومة أنطاكية قبل سقوطها [127].

وقد صدقت ظنون هذا القسم، فإذا كان المسيحيون الشرقيون يمارسون شعائرهم بحرية تامة في ظل الحكم الإسلامي، فلم يطق رجال الدين الكاثوليك صبراً إزاء النصارى الشرقيين، فهم يعدون المسيحيين من غير الكاثوليك أنصاف هراطقة[128].

ومع ذلك لم يقم الصليبيون بطرد أو إبادة هذه الفئات، وانما استبقوهم للاستفادة من مهارتهم، وتكليفهم بالأعمال الوظيفية التي أنف الصليبيون من القيام بها [129].

ويبدو أنه لم يمض وقت طويل حتى أدرك الصليبيون الدور المهم والخطير الذي يمكن أن تلعبه هذه الفئات السكانية في حياة الإمارة، إذ اتقن العديد من أفرادها نظم الاقتصاد والإدارة البيزنطية، التي اضطر الصليبيون للإبقاء عليها في إدارة الإمارة[130]، لذلك كان الاستغناء عن الخبرات والجهود التي تملكها تلك الطبقات أمر ينطوي على كثير من المشاكل.

وقد لاحظنا في الصفحات السابقة، كيف أثرت المواقف السلبية التي وقفها الصليبيون إزاء السكان المحليين، وما نجم عن ذلك من شروخ عميقة في صرح البناء الاجتماعي للإمارة سارع في زوالها، وهنا يمكن الإشارة إلى طائفة أخرى من سكان أنطاكية— ليست كثيرة— وهم أبناء الجالية اليهودية، فرغم كره الصليبيين لهم، ومحاولة ابادتهم، إلا أنهم احتفظوا بوجودهم في مدينة أنطاكية، وإلى ذلك أشار ويلبراند (wilbrand of oldenurg) سنة 609هـ/1212م إذ قال إنّ مدينة أنطاكية (.. بها سكان كثيرون، أغنياء الفرنج، والسريان، واليونان، واليهود، والإرمن، والمسلمون) [131].

د- المسلمون

شكل المسلمون إبان الغزو الصليبيّ النسبة العالية في عموم بلاد الشام، وهم سكان البلاد الأصليين[132]، وقد سكنوا الريف مثلما سكنوا المدن، وفي مدينة أنطاكية وأعمالها عاش المسلمون، وكان لهم السلطان منذ استرداد أنطاكية من يد الروم477هـ/1085م[133].

ورغم المجازر الجماعية التي ارتكبها الصليبيون في أنطاكية وأعمالها وتشريد السكان، فإن المسلمين ما زالوا يتواجدون في العديد من المدن والحصون[134].

ثم إن المسلمين الذين هجروا المدن التي احتلها الصليبيون أخذوا بالعودة إليها بصورة تدريجية، وقد يكون ذلك نتيجة الاستقرار وتحسن الأحوال الاقتصادية في مدن الساحل على

نحو خاص، غير أن المصادر التاريخية لا تمدنا بعلومات واضحة عن أعداد المسلمين العائدين، ومما يلفت النظر أن نسبة أعداد المسلمين في المدن الكبيرة كانت قليلة قياساً على بقية طوائف السكان، وقد تعود أسباب قلة وجودهم في المدن الكبيرة الى نمط المعاملة القاسية التي كانوا يلقونها من الصليبيين، فضلاً عن الضرائب الاضافية التي تفرض عليهم[135].

وقد أشار ابن جبير إلى المسلمين العائدين إلى ديارهم بقوله: (ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه الى الرجوع والسكن بينهم بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها)[136].

ويبدو أن الصليبيين قد أدركوا أهمية استقرار السكان المسلمين ودورهم الفاعل في الحياة الاقتصادية؛ لذلك حينما استولى تنكرد على الأثارب سنة (504هـ) ونزل بها (فطيب قلوب الفلاحين من المسلمين وأمنهم) و((طلب[أي تنكرد] حُرم الفلاحين المسلمين من الاثارب وكانوا وقت نزول تنكريد على الأثارب، حصلوا بحرمهم في حلب، فأخرجهن[يعني رضوان] اليه)[137].

ويفهم من بعض ما ذكره ابن جبير أن المسلمين قد انتشروا في أماكن عديدة بضمنها المناطق الساحلية، وفي ذلك يقول (وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل رساتيقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع)[138].

غير أنه كثيراً ما كانت قراهم وحقولهم الزراعية مسرحاً للمعارك الطاحنة بين الجيوش الإسلامية والصليبيين، وقد زادت المعارك بين الطرفين من تعاسة الفلاحين بحكم طبيعة الريف المكشوفة أمام أي هجوم عسكري، ذلك على عكس حالة سكان المدن الآمنين خلف الأسوار والحصون[139].

وإلى جانب الفلاحين، ومن سكن المدن من السكان المسلمين هناك شريحة أخرى، هم البدو الذين ينتقلون وراء الماء والكلأ مع قطعانهم من المواشي والإبل، والذين كثيراً ما تعرضوا الى الإغارة من قبل الصليبيين[140].

إنَّ العلاقة بين المسلمين والصليبيين قامت أساساً على التحدي، أي إن الغزاة الصليبيين حاولوا استباحة أرض المسلمين بالقوة، تحت حجج وذرائع مختلفة، وبذلك ظل الصراع واللجوء الى القوة، الإطار العام الذي يحكم تلك العلاقة، غير أن هذا المظهر العدائي الواضح بين الطرفين كان يخفي تحته حقباً من الهدوء والسلام بينهما، بحكم ما يلجؤون إليه من معاهدات بهذا الصدد، أو توازن القوى ردحاً من الزمن.

وفي إطار ذلك تقوم بعض العلاقات والصلات بينهما، وقد أشارت مصادرنا الى عدد من تلك العلاقات[141].

ثم إن المدد التي تعقب معاهدات السلم بين الطرفين، لا سيما الشاملة منها، تصبح

الحركة وانسياب السكان فيها بين الطرفين أمراً طبيعياً، ومن ذلك، أن معاهدة الرملة 588هـ/1192م أعقبها منادٍ ينادي في الطرقات والأسواق (ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل) [142]

وربما تجاوزت العلاقات حدود معاهدات الصلح لتصبح أكثر أهمية، ومن ذلك حصول نوع من الأحلاف المؤقتة، التي تمليها المصالح المشتركة، مثلما حصل بين رضوان صاحب حلب وتنكرد صاحب أنطاكية، والظاهر صاحب حلب، فيما بعد، وبوهمند الرابع صاحب أنطاكية[143].

ومن الواضح أن مثل تلك العلاقات تنعكس على أوضاع المسلمين داخل حدود الإمارة الصليبية، يضاف إلى ذلك أن تبادل السيادة على عددٍ من المدن والأرياف بين المسلمين والصليبيين، خلال حقب الصراع الطويل، قد أدت إلى عدم استقرار حياة السكان المسلمين في تلك الأنحاء[144].

ومع ذلك فقد حظي المسلمون من قبل اللاتين بنوعٍ من الحكم الذاتي المحلي في المناطق الريفية غالباً، فشيخ القرية الإسلامية ظل مسلماً، وكانوا يؤدون لحكامهم من اللاتين طائفة من الضرائب مقابل استقرارهم وتركهم وشأنهم[145].

يضاف الى ذلك أن المسلمين شغلوا عدداً من الوظائف الحكومية الصغيرة شأنهم شأن النصارى الوطنيين، فعملوا في عددٍ من الدواوين، وفي جباية الضرائب[146].

هـ - الطبقة الدنيا (الرقيق والأقنان)*

لقد أثرت الحروب الصليبية من الناحية الاجتماعية بصورةٍ واضحةٍ في بلاد الشام، إذ ان استيطان الصليبيين قد ترك أثراً واضحاً في اختلال البنية السكانية، والعلاقات الاجتماعية، وما ترتب على ذلك من اهتزاز في النظام القيمي والأخلاقي[147]، ومن سمات المجتمع الجديد في اطار الكيانات الصليبية الانتشار المتزايد لأعداد الأرقاء والأقنان، الذي يعد ركناً اساسياً من أركان التقاليد الاقطاعية التي درج عليها الصليبيون في أوطانهم بغرب أوروبا، فوجود هذة الطبقة يعد ضرورياً للقيام بفلاحة الأرض وتأدية الأعمال الشاقة[148].

ويمكن تحديد أهم القنوات لمصادر هذة الطبقة، عن طريق السبي والأسر، ثم الشراء، فعندما سقطت مدينة أنطاكية بيد الصليبيين، ووضع السيف في رقاب أهلها، (فقتل فيها، وأُسر وسبي من الرجال والنسوان والأطفال ما لا يدركة حصر) [149]

ومع استمرار المعارك بين الطرفين، وتبادل النصر والهزيمة كانت هناك على الدوام

أعداد متزايدة من الأسرى بين الغالب والمغلوب، وكان عددٌ منهم يتحول إلى رقيق يباع في أسواق النخاسة، ويستخدم عددُ آخر منهم الرجال والنساء لتأدية الأعمال الحقيرة[150].

وعندما احتل ريموند الصنجيلي البارة سنة 491هـ/1098م غدر بأهلها، (وسبى بعضاً وقتل بعضاً) [151].

ثم ساق سباياه وباعهم رقيقاً في أسواق أنطاكية[152]، وهكذا استمرت عملية الأسر والسبي بين الطرفين، فأصبحت مصدراً مهماً للعبيد والأرقاء، وقد أبدى ابن جبير أسفه، وأظهر تألمه لأحوال أسرى المسلمين وما هي حالهم عند الصليبيين بقوله: (ومن الفجائع التي يعاينها من حل بلادهم أسرى المسلمين يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الإشفاق عنهم شيئاً) [153]

ومن غير المؤكد أن ظروف حياة الفلاحين هي أفضل بكثير من حياة الرقيق، إذ إنهم كانوا يتعرضون إلى الابتزاز القاسي من قبل الأسياد والسلطة المركزية، وكانت أرضهم تعد ملكاً للصليبيين، وكانوا يربطون مصالح الفلاحين بقطع الأراضي التي يعملون فيها والتي ربما يبيعونها أو يشترونها معهم أو بمعزل عنهم[154].

أمّا المصدر الآخر للرقيق فهو عن طريق الشراء، فقد ضمت قصور أُمراء الإقطاع الشيء الكثير من الخدم الغربيين والعبيد الأرقاء من الشرقيين، ذكوراً وإناثاً من الجنسين الأسود والأبيض، فكانت سوق النخاسة قائمة، ومصادرها متنوعة من الشرق والغرب، ويبدو أن أرمينيا كانت إحدى أماكن تلك الأسواق التي يشتري منها الصليبيون[155].

ثم انتشرت تلك الأسواق داخل الممالك الصليبية. وربما كانت فيها أثمان العبيد متدنية نتيجة لكثرة ما يعرض منهم في عدد من الأحيان، فقد ذكر أحد المؤرخين أن التجار البنادقة يشترون العبد ببيزانط واحد، بينما ثمن الحصان ثلاثة بيزنطات[156].

ويبدو أن غالبية الأرقاء في هذة المدة كانوا من الأقنان (الفلاحين) [157]، لأن الأسياد الجدد الذين استقروا في الأراضي المغتصبة حولوا الفلاحين المنتشرين في القرى والضياع من مسلمين ومسيحيين إلى أقنان[158].

وكان من المعتاد أن يُسَخَّرَ الرقيق للعمل في دار السيد الإقطاعي، وفي عدد من الحالات استخدم الأسرى للعمل في ضياع كبار رجال الإقطاع[159]، فضلاً عن استخدامهم للعمل في المناجم أو تشييد المباني العامة[160]، ومن واجباتهم أيضا إدارة الطواحين[161]

وكانت معاملة الأرقاء سيئة للغاية، وقد انتشرت ظاهرة ضرب العبيد وشتى أعمال التخريب، وربما أدرك عددٌ من الصليبيين خطورة تلك الطريقة في معاملة ما عندهم من الرقيق؛

لذا تم عقد اجتماع كنسي في نابلس سنة 514هـ/1120م إذ أُمر فيه بتوجيه العقوبات للمذنبين ممن عذبوا أرقاءهم، وقد يكون ذلك القرار بدافع الخوف من حالة التمرد التي قد يقوم بها الأرقاء، وإذا قتل العبد شخصاً مسيحياً فعقوبة الذكر الشنق، وعقوبة الأنثى الحرق[162].

ثالثاً: النشــاط الاقتصــادي

يتضح عند البحث في دوافع الحركة الصليبية، أن العامل الاقتصادي كان من الأسباب المهمة وراء الغزو الصليبي للشرق العربي، ولكن سرعان ما أدرك الغربيون حين وطأت أقدامهم أرض الشرق أن الأحلام التي راودت تفكيرهم في الحصول على ثروات الشرق وكنوزه، كانت ضرباً من الخيال والأوهام؛ لأنهم نشروا الخراب والدمار أينما حلوا مما ألحق ضرراً كبيراً في الحياة الاقتصادية للبلاد التي كانت مسرحاً للصراع طوال مدة وجودهم، ويبدو أن الصليبيين قد أدركوا آثار الدمار الذي ألحقوه بالحياة الاقتصادية للسكان من نهبٍ وسلبٍ وقتلٍ وتهجيرٍ[163]، وأيقنوا أن الاستقرار ومزاولة السكان لنشاطهم الاقتصادي أمر في غاية الأهمية لضمان ما هم بأمس الحاجة إليه من الموارد والخدمات التي يحتاجونها، فبدؤوا بتطويع ظروف الحياة لخدمتهم، واشتمل ذلك على الكثير من التحولات الاجتماعية، والاقتصادية، لذلك لا زال التاريخ الاقتصادي للدويلات الصليبية بالغ الغموض، وليس بالإمكان إيجاد التفاسير المناسبة كثير من التفاصيل[164].

ويمكننا أن نتناول الحياة الاقتصادية لإمارة أنطاكية الصليبية في ثلاثة مجالات أساسية هي: الزراعة، والتجارة، والصناعة.

أ - الزراعــة

تمثل الزراعة عصب الحياة لأي مجتمع من المجتمعات، ولا شك أن تلبية حاجات الصليبيين المنشغلين بالحرب من الموارد الزراعية والغلال الزراعية أمر في غاية الأهمية، لا سيما وأن الصليبيين قد شعروا ومنذ وقت مبكر بخطورة تأمين الطعام لجموعهم التي كانت تعاني من الجوع أمام أسوار أنطاكية، أثناء مدة الحصار الطويل[165].

وقد عبر الصليبيون عن شعورهم بأهمية الزراعة لسد حاجاتهم المتزايدة الى الغذاء بأن أخذوا بحراثة الأرض وزراعتها في جوار مدينة أنطاكية أثناء مدة الحصار الطويل وقبل سقوط المدينة بأيديهم، وقد أرادوا أن يظهروا من خلال ذلك للمسلمين قدرتهم على المطاولة، وعدم نفاد صبرهم، فإن المحصلة النهائية هي سعيهم للحصول على المواد الغذائية، اذ أصبح من الصعب الحصول عليها[166].

ورغم أن أراضي الفلاحين- في أحيان كثيرة- كانت مسرحاً للمعارك، وكان سكان القرى هم الفريسة السهلة لأي هجوم صليبي، فإن حاجة الطرفين التقت في نقطة محددة، هي الأرض وما عليها من الموارد، فمثلما كان الصليبيون بحاجة الى الموارد لمواصلة حربهم، كذلك كان الفلاحون بحاجة الى الالتصاق بأرضهم لكسب معاشهم، فحدث نوع من التعايش الإجباري بين الطرفين(167).

ثم أصبح الصليبيون حريصين على استقرار الفلاحين المسلمين وزراعة أراضيهم، فحين نزل تنكرد على الأثارب سنة 504هـ/ 1111م أظهر المودة للسكان، (وطَيَّبَ قلوب الفلاحين من المسلمين وأمنهم) كما سلف ذكره.

ومن خلال إلقاء نظرة على خارطة إمارة أنطاكية في العقدين الأول والثاني من القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، عندما بلغت أوج اتساعها، يتضح أنها ضمت أغنى أراضي الشام بسهوله وجباله وأنهاره وبحيراته(168).

ولا شك أن تنوع التضاريس الأرضية، من سهولٍ وجبالٍ، ووفرة الموارد المائية سيؤدي حتماً الى تنوع المحاصيل والغلال الزراعية، فالأرض الممتدة (بين حلب وأنطاكية أرض ما فيها خراب أصلاً..) (169).

ومن المناطق الزراعية المهمة سهل العمق الذي يحوي بحيرة مهمة هي بحيرة أنطاكية، أو كما تدعى بحيرة العمق، ويبدو أن كثافة الزراعة والحياة النباتية في هذا السهل بلغت حداً كبيراً، لذا وصف ياقوت أهمية هذه البحيرات والمسطحات المائية وما تحويه من الأسماك وأنواع الطيور (170).

وذكر ابن الشحنة أن (معرة النعمان، وجبل السماق بلد التين والزيتون، والزبيب، والفستق، والسماق، والحبة الخضراء.. وبلد الأثارب وارتاح الى نحو جبل السماق مثل بلد فلسطين في كثرة الزيتون، ولها ارتفاع جليل من الزيت) (171).

وفي الأطراف الجنوبية والشرقية من الإمارة، شرقي نهر العاصي، تمتد أراضي معرة النعمان، وكفر طاب، وافامية، التي كانت جميعها ضمن سيطرة إمارة أنطاكية، وقد وصفت هذه المناطق بأنها بالغة الخصوبة وذات مزارع واشجار وارفة، فهذا ابن جبير يصف أرض المعرة بقوله: (وهي سوداء كلها بشجر الزيتون، والتين، والفستق، وأنواع الفواكه، ويصل التفاف بساتينها، وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا)(172)، يضاف إلى ذلك ما عرفت به من غزارة انتاج القمح(173).

وفي الجهات الشرقية من الإمارة كانت منطقة عزاز الغزيرة بإنتاجها الزراعي، ومحاصيلها النباتية؛ لذا حاول الصليبيون النورمان فرض هيمنتهم عليها بأي ثمن، وتمكنوا

من الاستيلاء عليها سنة 513هـ/1119م مما جعل حلب تعيش ضائقة كبيرة، لذلك راسلوا الفرنج في طلب الصلح على أن يسلموا للفرنج تل هراق، ويستمروا في دفع القطيعة المقررة على حلب لمدة أربعة أشهر، فوافق الفرنج، (وزرعوا أعمال عزاز، وقووا فلاحها، وعادوا إلى أنطاكية، وصار يدخل الى حلب ما يتبلغون به القوت) [174].

وحول مدينة أنطاكية امتد سهلها الخصيب[175]، أمَّا المنطقة الساحلية فتتمثل في سهول قيليقية الرسوبية التي تتخللها أنهار البردان، وسيحان وجيحان، ثم تواصل هذه السهول امتدادها بمحاذاة البحر جنوباً حتى أقصى امتداد لإمارة أنطاكية.

ويبدو أن النمط الغالب على الزراعة في الشطر الأعظم من البلاد كان يتمثل في الزراعة البسيطة التي كان غرضها الأساسي سد احتياجات السادة الإقطاعيين في إعالة حاشيتهم ومحاربيهم التركبولية والبولانية، الذين ينزلون حول قلاعهم، ولم تشتهر الزراعة الواسعة ذات الطابع التجاري إلاَّ في السهول الخصبة، حيث احتكر السيد لنفسه الحدائق والبساتين والكروم فضلاً عن زراعة قصب السكر[176].

وبالنظر لكثرة الأنهار التي تجري في إمارة أنطاكية لاسيما بعد أن توحدت مع إمارة طرابلس، وضمت مساحات جديدة من الأرض والمياه؛ لذلك اتسعت الأراضي التي تعتمد في اروائها على السقي من الأنهار اتساعاً كبيراً، ومما يسقى سيحاً سهل عكار، ومناطق البقعية، وحول اللاذقية، وعدد من مناطق سهل العمق، وما يجاور أنطاكية[177]، وبما أن غالبية الفلاحين هم من سكان البلاد الأصليين من المسلمين والمسيحيين الشرقيين[178]؛ لذا دأبوا على استعمال وسائلهم المألوفة في الارواء والتي من أشهرها النواعير والدواليب، وقد ذكر أسامة بن منقذ استعمالهم لهذه الآلة كأحدى وسائط الإرواء في إمارة شيزر التي تتوسد نهر العاصي[179]، وذكر ابن جبير أثناء مروره بنهر العاصي استعمال الناس لتلك الدواليب[180].

ومما يشير إلى أهمية تلك الوسيلة في الإسقاء أن الصليبيين بعد رحيلهم الى الغرب قد اقتبسوا طرازاً جديداً من النواعير التي عرفوها على ضفاف نهر العاصي[181].

ب- التجارة والموارد المالية

إن سقوط مدينة أنطاكية بيد الصليبيين يعني سيطرتهم على منطقة لها ماضٍ تجاري عريق، فهي تهيمن على شبكة واسعة من طرق التجارة العالمية[182]، فقد كانت أنطاكية ومنذ أقدم العصور ملتقى لبضائع الجزيرة العربية والهند وأواسط آسيا، سواء كان ذلك للاستهلاك المحلي أو لتجارة المرور[183].

ومما يزيد من مكانة الموقع الجغرافي لمدينة انطاكية، قربه من مدينة حلب، التي تمثل مركزاً رئيساً لتجارة الشرق الإسلامية بما ضمته من البضائع الثمينة من الحرير، والأنواع النفيسة والنادرة من القماش، فضلاً عن الفرو من السمور، والسنجاب، والثعلب، وسائر البضائع الهندية، وأجناس الرقيق، فضلاً عن أنواع الصابون المشهور الذي يصدر الى ممالك الروم والعراق، وغيرها من البلاد [184].

غير أن سقوط أنطاكية بيد الصليبيين، وضع حركة التجارة فيها على أعتاب مرحلة جديدة ومختلفة بحكم الأوضاع الطارئة التي فرضها الغزو على العلاقات السياسية والتجارية السائدة في المنطقة قبل ظهور الصليبيين على مسرح الشرق العربي، إذ كان الروم البيزنطيون قد درجوا على ترتيب علاقاتهم التجارية مع المسلمين بمجموعة من المعاهدات التي تم ابرامها منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بعد أن تم استيلاء الرومان على أنطاكية [185].

فغدت انطاكية مركزاً لنشاط الإمبراطورية البيزنطية التجاري وملتقى لمتاجر الشرق الورادة إليها مع متاجر الغرب عن طريق القسطنطينية، إذ قامت الإمبراطورية بدور الوسيط بين الشرق والغرب، فنقلت إلى غرب أوربا ما تحتاج إليه من منتجات الشرق النفيسة، كالحرير، والتوابل، والعطور، والمنسوجات، وحملت الى الشرق الإسلامي ما كان يفتقر اليه من منتجات غرب، أوربا من الأخشاب، والحديد، والمعادن الأخرى، وفرض الرومان سياسة احتكارية صارمة على واردات الشرق التي تولت نقلها غرب أوربا [186].

وبذلك أصبحت أنطاكية ملتقى التجارات الإسلامية والبيزنطية واحتلت أهم المراكز التجارية في شمال الشام [187].

ومع أن أنطاكية خرجت من قبضة البيزنطيين، وعادت الى سلطان المسلمين قبيل الغزو الصليبي بنحو عقد ونصف من الزمان، إلا أن استعادتها من قبل المسلمين لم يكن مؤثراً على الروم البيزنطيين الى الحد الذي اهتزت له دعائم سياستهم الاقتصادية، عندما وقعت أنطاكية تحت سيطرة الصليبيين اللاتين، وذلك لأن تجارة الامبراطورية البيزنطية كانت تمثل المصدر الاساسي في تمويل أجهزتها المدنية والعسكرية، وأصبحت السياسة التجارية تمثل العمود الفقري لسياسة الإمبراطورية المالية [188].

لقد أدرك أمراء أنطاكية النورمان ومنذ وقت مبكر، أن استقلال إمارتهم السياسي لن يتحقق إلاّ بتعزيز الاستقلال الاقتصادي لها، والإفلات من قيود التعبية التقليدية للاقتصاد البيزنطي، لذا اتخذوا في تحقيق ذلك الهدف اتباع سياسة الانفتاح الاقتصادي على القوى المحيطة بهم من صليبيين ومسلمين، فضلاً عن توثيق التعاون مع المدن الإيطالية التي تمثل

قوة بحرية متنامية في غرب أوربا بما أغدقوه عليه من الامتيازات الكثيرة، فقد منح بوهمند الجنوية سنة 492هـ/1098م عهداً منحهم به سوقاً خاصاً بهم وكنيسة، فضلاً عن ثلاثين بيتاً من بيوت أنطاكية [189].

وقد عرف عن الإيطاليين أنهم يضعون في أول اعتباراتهم تحقيق الأرباح الوفيرة عن طريق نشر تجارتهم في الشرق [190].

ويبدو أن إمارة أنطاكية قد اعتمدت في سياسة الانفتاح الاقتصادي على برنامج يقوم على ركنين أساسيين، أولهما: أن تأخذ الإمارة دور بيزنطة في اجتذاب مراكز نشاط التجارة الشرقية، وذلك بتدعيم الروابط مع تلك المراكز وتأمين الطرق المؤدية إليها، وثانيهما: الاستمرار في تشجيع المدن الايطالية وزيادة التعاون معها.

ولا شك أن موقع الإمارة على ساحل البحر ومجاورتها لإمارة حلب ذات النشاط التجاري، ثم امتداد إمارة الرها الى الشرق منها، كلها أمور ساعدت على تدعيم السيادة التجارية للإمارة، وقد كان بوهمند سباقاً في وضع حجر الأساس للتعاون الاقتصادي بين إمارته وبين إمارة الرها، والإفادة من موقع ذلك الجار الصليبي [191]، الذي يتربع على الطريق التجاري المهم المؤدي من الخليج العربي الى شمال الشام [192].

فالطريق البري بعد وصوله الى منطقة الجزيرة بشمال العراق يمر بمدينة الرقة قرب الرها، وينفذ منها الى الشام ماراً بمنبج، وحلب، والأثارب، وإقليم العمق، ثم أنطاكية، وينتهي على ساحل البحر المتوسط عند اللاذقية [193]، (فإنه كان بلد التجار) [194].

ويمكن القول إنَّ سيادة إمارة أنطاكية على طريق الرها التجاري قد ازدادت الى حد بعيد بعد معركة حران سنة 497هـ/1104، م وذلك عند أسر صاحبها وقيام تنكرد بالوصاية عليها، ومن دواعي استمرار تلك السيادة أن تنكرد قد رفض إعادة الرها الى صاحبها الشرعي بعد اطلاق سراحه 502هـ/1108م ويظهر أن أهم الدوافع وراء ذلك هو رغبة تنكرد في استمرار سيادته على طريق الرها التجاري [195].

كما أن تنكرد قد حذا حذو خاله بوهمند في اكتساب المدن الايطالية بمنحها المزيد من الامتيازات في مدينة أنطاكية وميناء اللاذقية [196].

وقد اعتاد التجار الحلبيون على استخدام مينائي السويدية واللاذقية التابعين لإمارة أنطاكية، وكان لا بد من اجتياز مدينة أنطاكية للوصول الى ميناء السويدية [197].

ومن الواضح أن لسيطرة الصليبيين على الشريط الساحلي بموانئه المهمة من شمال الشام وحتى فلسطين في الجنوب، وسيطرة المسلمين على داخلية بلاد الشام وامتدادها نحو العراق والجزيرة العربية، والهيمنة على طرق التجارة البرية قد فرض التعامل الاجباري في

ميدان التجارة بين الطرفين، رغم أن مصر ظلت طوال القرنين الثاني والثالث عشر تسيطر على تجارة العبور ما بين أوربا والهند والمنطقة العربية[198].

وبذلك نجد أن الضرورات الاقتصادية قد حجبت في أحيان كثيرة طابع الصراع الصريح بين الطرفين، وأخرجته من مجراه، لمد جسور التعامل وتبادل المنافع بين الطرفين[199].

وفي ضوء هذه السياسة وجب على أنطاكية أن تحافظ على تأمين طرق القوافل التجارية وضمان سلامتها، وكان لابد أن تسري التجارة بين هذه الإمارة الصليبية وجيرانها المسلمين بحكم الضرورات لتبادل المنافع رغم الصراع الدائم الذي يعد اساس العلاقة بين الطرفين، وقد تجلى ذلك التفاهم المشترك لضرورة صيانة الروابط التجارية بين الطرفين في العديد من الاتفاقيات، ومن مثل ذلك اتفاق بني شيزر مع روجر الأنطاكي بعد الاعتداء على القوافل الصليبية، بين أنطاكية وبيت المقدس[200].

وفي سنة 511هـ/1117م اضطر صاحب حلب إلى مهادنة (صاحب أنطاكية روجر وحمل إليه مالاً، وسلم إليه حصن القبة، ورتب مسير القوافل من حلب الى القبلة عليه، وأن يأخذ المكس منهم له)[201].

ورغم أن السيادة الظاهرة للأعراف التجارية بين المسلمين والصليبيين وتنامي أسس التبادل التجاري بينهما، إلاّ أن ذلك الاستقرار كثيراً ما كان يشوبه الارتباك نتيجة للانتهاكات التي قد تحصل، وتحت طائلة أسباب عديدة، لا سيما في المدة المبكرة من قيام التعامل التجاري بين الطرفين، فكثيراً ما استغل الصليبيون ضعف جيرانهم المسلمين أو ارتباك أحوالهم السياسية، فسارعوا إلى خرق المواثيق، ومارسوا الاعتداء على القوافل التجارية، ففي سنة 511هـ/1117م (خرجت قافلة من حلب الى دمشق فيها تجار وغيرهم.. فلما وصلوا الى القبة نزل الفرنج إليهم وأخذوا منهم المكس ثم عادوا وقبضوهم وما معهم بأسرهم ورفعوهم الى القبة وحملوا الرجال والنساء بعد ذلك الى أفامية ومعرة النعمان، وحبسوهم ليقرروا عليهم مالاً ...)[202].

وقد تكون وراء الحظر التجاري واحتجاز التجار أسباب أمنية تتعلق بسرية التدابير العسكرية، مثلما فعل الامبراطور البيزنطي سنة 532هـ/1138م عندما أوعز إلى حكومة أنطاكية باعتقال كل التجار المسافرين القادمين من حلب والبلاد الإسلامية حتى لا ينقلوا إلى أوطانهم ما شاهدوه من تدابير عسكرية ضد المسلمين[203].

وأوضح ابن القلانسي[204] أن ذلك حدث رغم الهدنة السارية بين الطرفين إذ يقول (وفي هذه السنة [532هـ/1138م] نقض الفرنج الهدنة المستقرة بين عماد الدين أتابك وبينهم، وأظهروا الشقاق والعناد، وشرعوا في العبث والفساد، بعد اصطناعه لمقدميهم، والكف عنهم

حين أظهره الله عليهم، وقبضوا بأنطاكية وثغور الساحل جماعة من تجار المسلمين وأهل حلب والسفار تقدير خمسماية).

وهنا يجب الأشارة إلى أن تلك التدابير لم تصدر عن أمير أنطاكية الذي أذعن للامبراطور نفسه الذي أراد أن يوجّه ضربة قوية ومفاجئة لزنكي عدوه اللدود [205].

غير أن تجاوزات الصليبيين وانتهاكاتهم الكثيرة لأمن وسلامتها القوافل التجارية ربما قوبلت بردود فعل مماثلة من قبل المسلمين، ومثال ذلك ما رواه ابن القلانسي [206] سنة 539هـ/1144م (بأن عسكر حلب ظفر بفرقة كبيرة من التجار والأجناد وغيرهم خرجت من أنطاكية تريد بلاد الافرنج ومعها مال كثير ودواب ومتاع وأثاث، فأوقعوا بها واشتملوا على ما كان فيها، وقتلوا من كان معها من خيالة الافرنج، لحمايتها والذب عنها، وعادوا إلى حلب بالمال، والسبي، والأسرى والدواب)

ويبدو أن العلاقات التجارية بين المسلمين وجيرانهم الصليبيين أخذت بالتحسن على مدى الأيام وتقادم الاجيال، وهذا ما أشار إليه الباحث الفرنسي بيجونو في كتابه (تاريخ فرنسا التجاري) إذ يقول [207]: بقدر ما يدرك الغربيون قيمة المصالح الاقتصادية تنقلب الحروب الصليبية الى ارساليات سياسية تجارية)

وقد انتبه الرحالة ابن جبير لحال تلك العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين فأشار الى ذلك قائلاً: (والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشغولون بحربهم، والناس في عافية. والدنيا لمن غلب.. ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً او حرباً) [208].

ومما تجدر الأشارة إليه أن النشاط التجاري لإمارة أنطاكية خضع لمؤثرات عديدة من أبرزها حالة العداء المرير والصراع الدائم بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية الصليبية منذ نشوئها، ولا شك أن البيزنطيين حاولوا ما في وسعهم الحط من شأن قدرات أنطاكية ومحاصرتها من جميع الوجوه [209].

ويبدو أن الهجومات البيزنطية المتكررة على منطقة قيليقية هددت طرق التجارة القادمة من أرض الجزيرة نحو شمال الشام، ثم إن سياسة الأحلاف التي عقدها الامبراطور الكسيوس مع القوى الأسلامية، وما صاحب ذلك من تكرار الهجمات الإسلامية على إمارتي الرها وأنطاكية من قبل الجيوش القادمة من الشرق (الموصل) أسهم في شل طرق المواصلات في هذه المنطقة.

يضاف إلى ذلك أن المدن الإيطالية أخذت تخشى على أساطيلها من الهجمات البيزنطية المتكررة على الموانئ الأنطاكية من جهة، ومحاولة البيزنطيين اغراء هذه المدن

لجذبها إلى جانبها من جهة أخرى، لاسيما وأن الإيطاليين قد وضعوا الاعتبارات الاقتصادية فوق كل شيء وقبل الاعتبارات الدينية التي اتخذها الصليبيون ستاراً لهم[210].

لذلك أخذت طرق التجارة تتحول عن أنطاكية، وفضل التجار سلوك الطرق البرية المؤدية الى وسط الشام، مروراً بدمشق، فقد كان ذلك الطريق أكثر بعداً عن دائرة الصراع بين البيزنطيين وإمارة أنطاكية، يضاف إلى ذلك إن سياسة المهادنة التي اتبعها حكام دمشق آنذاك مع جيرانهم الصليبيين في مملكة بيت المقدس قد جعلت المنطقة أكثر أمناً[211]، ولم تعد لطرق أنطاكية الستراتيجية أهميتها إلاّ بعد مدة طويلة، عندما توحدت بلاد الشام ومصر أيام نور الدين محمود، ثم صلاح الدين فأصبح من المستطاع أن تمر السلع الواردة من العراق وبلاد الشرق الى موانئ أنطاكية عبر حلب أو حمص[212].

يضاف الى ذلك أن فتوحات صلاح الدين الواسعة قد شملت الشريط الساحلي لإمارة أنطاكية[213]، وبذلك خسرت أهم موانئها، لا سيما اللاذقية التي تعد أهم موانئ شمال سوريا، نظراً لملائمتها لكل الظروف المناخية[214].

ويتضح مما تقدم أن تجارة أنطاكية لم تتح لها الظروف المستقرة لكي تنمو وتزدهر وانما كانت تعاني على الدوام من فقدان الأمن والاستقرار، وهذه نتيجة طبيعية لحالة الصراع المستمر بين المسلمين والغزاة من جهة، وبين البيزنطيين والأنطاكيين من جهة أخرى.

ويمكن عد المدة الممتدة من بداية الغزو الصليبي وحتى وحدة بلاد الشام ومصر على عهدي نور الدين وصلاح الدين، تمثل فترة الركود للنشاط التجاري على الساحل الشامي، فقد كانت تجارة المحيط الهندي تذهب الى مصر عن طريق البحر الأحمر[215]، أمّا الموانيء السورية فلم تستخدم إلاّ في تصدير السلع ذات الصبغة المحلية، مثل النيلة الواردة من العراق، وما تنتجه دمشق من الصناعات المعدنية، يضاف إلى ذلك ما يصل من جنوب بلاد العرب من السلع[216].

وبالرغم من ذلك لايمكن التقليل من أهمية التجارة الداخلية والخارجية على الساحل الشامي خلال هذه المدة، بسبب حرص كل من المسلمين والصليبيين على ديمومة الموارد التي يحصلون عليها من العوائد التجارية[217].

ومن الموارد المالية الأخرى التي كانت تحصل عليها الامارة في ظل التجارة ما يفرض على القوافل التجارية التي تدخل أرض الإمارة أو تذهب إلى موانئها من ضريبة المكس التي تفرض على التبادل التجاري[218].

وهذه الضريبة يدفعها المسلمون للنصارى، مثلما يدفعها النصارى للمسلمين أثناء تبادل تجاراتهم، وفي ذلك يقول ابن جبير[219]: (وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم.. وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلد المسلمين على سلعهم).

يضاف الى ذلك ما يجبيه الصليبيون من سكان الإمارة من المسلمين، (وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط.. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً..) [220].

وهناك ضريبة أخرى يدفعها المسيحيون لرجال الدين [221].

وتجدر الإشارة إلى ما ذكرناه آنفاً، في اعتماد الإمارة على النمط البيزنطي في جباية الضرائب، ولم تترك مهمة جبايتها على المحاكم المحلية، كما هو في مملكة بيت المقدس [222]. ويمكن الوقوف على مصادر أخرى للضرائب فيما فرضته الحكومة على كل مايرد الى الموانئ والصادرات، والبيوع، والمشتريات، ومقابل مايؤخذ عن رسو السفن، واستخدام الأوزان والأكيال، هذا الى جانب ضريبة أخرى معروفة باسم الفوائد (Terraticum) وهي مقررة على أملاك التجار، رغم ندرة ما عرف بصددها من معلومات [223].

ومن بين الموارد المهمة ما حصلت عليه الإمارة في المرحلة الاولى من نشوئها عندما أخذ الصليبيون باكتساح المدن والأقاليم الإسلامية في ظل فرقة المسلمين، وعدم قدرتهم على درء مخاطر الغزو، فتمكن الصليبيون من أخذ ما في أيدي سكان تلك المدن من خيرات، فضلاً عن فرض الاتاوة الباهضة، ولمدة طويلة في عدد من الأحيان [224].

ومما يشير إلى غزارة الثروة في هذه الإمارة وغناها، أنه عند تحريرها سنة 666هـ/1268م، اقتسم المسلمون الذهب بالطاسات، كما مر معنا.

جـ- النقود

لم تعرف أوربا إبان الغزو الصليبي النقود الذهبية- عدا صقلية وإسبانيا الإسلامية- وإنما كانت الفضة أكثر المعادن الثمينة تداولاً [225].

وكان الصليبيون يجلبون معهم العملة الغربية الى الشرق، ثم تتواصل عملية امدادهم بالنقود من وراء البحار للانفاق منها على وسائل دفاعاتهم، وما يحتاجونه لمعيشتهم، غير أن كثيرا من النقود التي كانت ترسل بهذه الطريقة كانت عرضة للضياع نتيجة لكثرة مخاطر الطريق وبعد الشقة [226].

ويبدو أن الصليبيين في الشرق قد أدركوا ومنذ وقت مبكر عدم جدوى اعتمادهم على مصادر نقودهم في الغرب، إذا ما أرادوا التعامل مع المحيط الجديد الذي هم فيه، وحرص أمراء أنطاكية النورمان على مراعاة التقاليد البيزنطية الموروثة في المجتمع الأنطاكي، فتجنبوا إثارة المشاعر العدائية ضدهم، فقد تجلى ذلك في نمط العملة التي ضربوها في إمارة أنطاكية الصليبية، إذ سكت الفئات المختلفة، منها الصغيرة والكبيرة حسب الأنماط المعروفة منها في

المجتمع الأنطاكي، ومثال ذلك أن العملة البرونزية الصغيرة التي سكها بوهمند كانت ذات طابع بيزنطي بحت، وكانت تلك العملة تحمل على وجهها صورة القديس بطرس باعتباره حامي مدينة أنطاكية، وعلى ظهرها صليب تحف به من أركانه أربعة حروف مختصرة لاسم بوهمند هي D. M. H. B على التوالي [227].

وقد سار تنكرد على نهج بوهمند في سياسة سك العملة على النمط البيزنطي- رغم عدائه الصريح للامبراطورية البيزنطية- بل انه زاد من تظاهره باحترام مشاعر المسيحيين الشرقيين وتقاليدهم البيزنطية، باحترامه كذلك لمشاعر المسلمين من أبناء المجتمع الأنطاكي[228].

ويمكن أن نلمس تلك السياسة في العملة الذهبية التي أصدرها تنكرد، إذ نقش على واجهة بعضها صورة القديس بطرس، ونقش على ظهرها بلغة يونانية مختصرة (احفظ اللهم عبدك تنكرد) في حين حملت بعض العملات صورة تنكرد، إذ بدا ذا رأس كبير، ولحية مدببة، مرتدياً ثوباً فضفاضاً ويقبض في يده على سيف، وتعلو رأسه عمامة مدببة أشبه بالكوفية، يعلوها صليب، وهذا النمط متبع في العملات البيزنطية[229].

ويبدو أن هيئة الرجل الشرقي وزيه قد استهوت قبله بلدوين ملك بيت المقدس الذي أطلق لحيته، وحُيي بالانحنائة الشرقية[230].

وقال اشلمبوجر الذي درس نقود تنكرد أنه ظهر على تلك النقود وهو يرتدي أردية امبرطورية، ووضع كوفية على رأسه، وورد في كتابة يونانية أن تنكرد خادم الله[231].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن حق سك النقود الذهبية كان حكراً على حكام الإمارات، ولايجوز لغيرهم من الجاليات الايطالية أو الطوائف الدينية أن تمارس ذلك الحق، وإذا كان للمقطعين أن يضربوا نوعاً من النقود فيجب أن تكون من البرونز، ولسد الحاجات المحلية فقط[232].

ويبدو أن هذا النهج السياسي في سك العملة ظل سائداً حتى نهاية عهد روجر الأنطاكي، ثم حاول بعضهم على نحو ما ادخال شيء من التقاليد اللاتينية، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى استخدام الطابع البيزنطي[233]، ويمكن تفسير ذلك بعدم الرغبة في اثارة الحساسيات والمتاعب بينهم وبين رعاياهم من الأنطاكيين بكل فئاتهم.

وبعد مدة ليست بالقصيرة من الوجود اللاتيني في الشرق، عمد الصليبيون الى سك وتداول عملة جديدة من الذهب كانت تعرف بالدنانير الإسلامية (Sarcenate Besants)، وتعد تلك النقود تقليداً للنقود الفاطمية، وقد اشتهرت عند المسلمين بالدنانير الصورية*[234].

وقد أشار ابن جبير الى أن تمكيس القوافل التجارية الذي كان يجري في حصن (تبنين) الذي كان آنذاك في يد الأفرنج، كان يتم بالدنانير الصورية، وقال: إن الدينار يساوي أربعة وعشرين قيراطا [235].

ومما يدل على قبول النقود الصورية لدى المسلمين هو طول مدة تداولها، فيذكر ابن الاثير[236] سنة 573هـ/1187م عندما أجدب الشرق وغلت الأسعار (في سائر البلاد فبيعت غرارة الحنطة بدمشق، وهي أربعة عشر مكوكاً بالموصلي بعشرين ديناراً صورية عتقاً)، وفي سنة 583هـ/1187م عند افتتاح بيت المقدس، أخذ صلاح الدين ما فرضه من غرامة على الصليبيين بالدنانير الصورية، (وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل صغير ذكر وأنثى ديناراً واحداً)[237].

وعلى أية حال فيمكن القول إنّ النقود اللاتينية كثيرة ومتنوعة، وهي تحاكي في غالبيتها النقود الإسلامية، مما جعل مهمة تداولها سهلة وميسورة، وقد دامت هذه الحال على وجه التقريب حتى سنة 648هـ/1250م عندما بعث القاصد الرسولي المرافق لحملة لويس التاسع في الشرق برسالة الى البابا يلفت انتباهه إلى خطورة تداول ذلك النوع من النقود، وما يبنى على ذلك من تخفيف الحدة الدينية بين الطرفين[238].

وكان رد البابا أن طلب من رسوله استخدام الوسائل اللازمة لمنع استخدام تلك العملة في الإمارات اللاتينية، ومنحه السلطة التامة في اصدار قرارات الحرمان الكنسي ضد المخالفين لسك العملة على النمط الإسلامي[239].

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أخذوا بسك عملة ذهبية عليها التاريخ الميلادي دون الهجري، وتنقش عليها عبارات دينية مسيحية تدل على مذهب التثليث والوهية المسيح رغم أن نقوشها لا زالت تصاغ بكلمات عربية، وكانت تضرب في عكا، وصور، وطرابلس، وأنطاكية[240].

وإلى جانب النقود كانت هناك صناعة الأختام، وقد اتسمت أختام القرن الثاني عشر ببساطتها، أمّا أختام القرن الثالث عشر فقد كانت أكثر جمالاً ودقةً[241].

د- الصناعة

امتازت أنطاكية بخيراتها الوفيرة، في ميدان الزراعة والتجارة والصناعة، فقد إشتهرت بصناعتها الشهيرة التي امتازت بها، كالمنسوجات الحريرية، والبسط، والفخار، وأنواع الصابون[242]، الذي تميزت به أنطاكية[243]، إذ كان للصليبيين اهتمام كبير بهذه الصناعة[244].

وهناك صناعة صنوف الأدوية، والجلود المطرزة، والسروج المذهبة[245].

ومما اشتهرت به من الصناعات المهمة، صناعة الزجاج[246]، وقد أشار الرحالة بنيامين التطيلي، الذي زار المنطقة في مطلع القرن السابع الهجري الى احتكار اليهود لصناعة الزجاج هناك[247].

وكان لازماً على منتجي الزجاج في هذه الإمارة أن يواجهوا منافسة الزجاج المستورد من مصر [248].

رابعا: الحياة العلميـــة

تبدو الحياة العلمية في ضوء ما توفر لنا من المصادر مجدبة، ليس في أنطاكية فحسب، وانما في عموم المواطن التي شغلها اللاتين في الشرق طوال مدة وجودهم، بل أن عدداً من المؤرخين عدوها مخيبةً للآمال إذا ما قورنت بما حدث في أسبانيا وصقلية [249].

ويرى عددٌ من الباحثين أن أسباب ذلك تكمن في طبيعة الأسس التي قام عليها المجتمع الصليبي، وفي مقدمة تلك الأسباب حقيقة أساسية هي أن الصليبيين جاءوا إلى الشرق محاربين لا طلاب علم، وأن طبيعة استقرارهم في الشرق في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت على درجة كبيرة من الصعوبة؛ لأنهم محاطون بالأعداء، فلم ينعموا بالاستقرار الذي هو أحد الشروط المهمة لأسس الحياة العقلية [250]، إذ إن ذلك الصراع الطويل لم يترك على شواطىء المتوسط سوى الخراب، والحقد، والدمار [251].

وفيما يخص الحياة العلمية في إمارة أنطاكية الصليبية لا بد من تمثل حقيقة أساسية هي أن المجتمع الأنطاكي بطوائفه الاجتماعية من مسيحيين شرقيين ومن مسلمين من بقي في أرضه أو عاد إليها فيما بعد، يمثلون القاعدة الأساسية والعريضة لذلك المجتمع.

أمَّا اللاتين - فرغم تسلطهم - فقد ظلوا أقلية منهمكة بشؤون السياسة والحروب، ويمكن أن نخلص من ذلك الى نتيجة شبه أكيدة مؤداها أن الحياة العقلية الممتدة جذورها في أسس المجتمع الذي ما زال ماثلاً، ظلت معالمها قائمة، وكل ما فعله الصليبيون هو السيطرة على الأرض، وتسييس المجتمع لخدمة الأهداف الصليبية، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة على عقول رعاياهم وماشعرهم وثقافاتهم ذات الجذور البعيدة.

وبما أن اللغة تعد الوسيلة الأهم التي يحتاجها الصليبيون للتعامل مع محيطهم الجديد لذا أولوا هذا الجانب مزيداً من العناية، وقد برزت حاجتهم الجدية الى معرفة لغة أندادهم منذ وقت مبكر، فقد احتاج الصليبيون الى مترجم للتفاوض مع كربوقا الذي كان يحاصر الصليبيين في مدينة أنطاكية، وأوكلت هذه المهمة الى أحد فرسانهم المدعو (Herluin)، ولعله كان من أصل نورماني، وتعلم اللغة العربية في جنوب ايطاليا [252]، كما لجأ كثير من الصليبيين فيما بعد، لا سيما التجار إلى اتخاذ الكتاب والمترجمين ممن يجيدون اللغة العربية [253]، وقد يكون ذلك من بين الدوافع التي دعت الصليبيين الى التهافت على تعلم العربية لاستخدامها في المجالات الحيوية، وهذا ما لاحظه ابن جبير

عند زيارته للشام، ودخوله المدن الصليبية، فقد ذكر ان (كُتاب الديوان من النصارى.. وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها) [254].

ومما يشير الى اهتمام الصليبيين باللغة العربية أن منصب المترجم صار في غاية الرفعة، وكان منصباً محتكراً كما يحتكر الاقطاعي ضيعته، وينال صاحبه من الامتيازات ما لا يحصل عليها سواه[255].

ولكن من المؤسف حقا أن ما بين أيدينا من المصادر لا تسعفنا في معرفة كيفية الطريقة التي كان الصليبيون يتعلمون بها، ويعلمون أبناءهم ولو أن عدداً من الباحثين يقول بوجود مدارس ملحقة بالكاتدرائيات الكبيرة لتدريس العلوم[256]

ومع أن المسلمين - عدا القليل منهم - لم يبدو اهتماماً بتعلم لغة الصليبيين (الفرنسية) فإن الكثير من الأفرنج من النبلاء والتجار كانوا يتحدثون العربية، بل إن بعضهم شغف بدراسة لغة العرب وآدابها [257].

وقد عرف عن رينالد شايتون (ارناط) صاحب أنطاكية أنه كان يتكلم اللغة العربية، وربما حصلت له هذه المقدرة بعد السنوات الطوال التي قضاها في أسر المسلمين[258].

ويعتقد عدد من المؤرخين أن من بين أسباب إقبال الصليبيين على تعلم اللغة العربية هو انها لغة الأمة الأكثر تمدنا، والتي أثرت في غيرها من الامم[259]، فلا غرابة أن يتعلم فنونها وآدابها علية القوم، لا سيما كبار رجال الفكر والسياسة، فقد كان ابن الهنفري (وهو من إفرنج الساحل من كبارهم) يترجم بين الملك العادل أخو صلاح الدين وبين ريتشارد الأول ملك الانكليز أثناء الاجتماع بينهما لعقد الصلح[260].

ومع أن الصليبيين كانوا ينتمون إلى أجناس ومشارب مختلفة، غير أن غالبيتهم العظمى كانت من فرنسا، لذا سادت لغة شمال فرنسا (anque do c-) على التخاطب في مملكة بيت المقدس وإمارة أنطاكية، وقد كانت تلك اللغة شائعة بين سكان شمال فرنسا والنورمانديين[261].

ولا شك أن انتشار اللغة يزداد بين الصليبيين كلما أصبحت العلاقات التي تربطهم بمحيطهم الجديد أكثر صلة وأكثر متانة، فعملية التزاوج بين الصليبيين والمسيحيات الشرقيات، تمثل بصورة أكيدة اقتراب هؤلاء الوافدين من روح المجتمع الشرقي، وتقاليده، ولغته، وآدابه، أمَّا الجيل الذي نتج عن هذا التزاوج والذي يطلق عليه المؤرخون طبقة الأفراخ (Pullani) [262] فهو أقرب بكثير من آبائه الى واقع اهل الشرق وحياتهم.

وهكذا نجد أن حياة الشرق المثيرة كانت مصدر الهام للكثير من أدباء الافرنج، سواء من عاش منهم في الغرب وكَوّنَ أفكاره من خلال سماع الروايات المثيرة والأخبار المنقولة، أو ممن

عاش وسط الأحداث ونسج ملاحمه عن قرب من مواقع الأحداث، مثال على الانموذج الأول، القصيدتان المنظومتان حول الحملة الصليبية الاولى، وهما: انشودة أنطاكية وانشودة بيت المقدس اذ جرى تأليفهما في الغرب على أساس ما نقله الصليبيون العائدون الى هناك.

وهناك انشودة الحقراء (chanson des chetifs) التي تدور أحداثها العجيبة حول الصليبيين الذين وقعوا في أسر كربوقا، وقد نظمها مؤلف مجهول بناءً على طلب ريموند أمير أنطاكية[263].

ويبدو أن الترجمة هي الأخرى قد حظيت باهتمام الصليبيين في الشرق، فبرز من الأنطاكيين من اشتغل في ميدان هذا الفن، ومنهم (ثاثري) وهو نصراني يعقوبي المذهب برع في العربية والسريانية واللاتينية[264]. وقام بترجمة رسالة عربية عن تربية البزاة، وقد أصبحت تلك الترجمة إلى جانب ترجمة أُخرى عن الفارسية الأساس الذي وضع بموجبه فردريك الثاني (ملك قبرص) كتابه في ترويض البزاة، ويعد أوّل مصنف في التاريخ الطبيعي لديهم[265].

وتمكن اسطيفان الأنطاكي من ترجمة كتاب (كامل الصناعة الطبية) لصاحبها علي بن العباس المتوفى سنة 333هـ/994م، إذ تمكن من نقل هذا الكتاب من العربية الى اللاتينية في مدينة أنطاكية[266]، ثم أُعيدت ترجمة هذا الكتاب الى اللاتينية أكثر من مرة[267].

وفي سنة 645هـ/1247م عثر فليب الطرابلسي في أنطاكية على مخطوطة عربية هي (سر الأسرار) التي نسبت خطأً الى ارسطو، وأنه أنشأها لارشاد تلميذه الاسكندر، فتمكن من نقل هذه المخطوطة الى اللاتينية، فأصبح ذلك الكتاب من أكثر كتب العصور الوسطى انتشاراً[268].

وفي ميدان كتابة الحوليات والتواريخ في إمارة أنطاكية الصليبية ترك لنا عددٌ من المؤرخين آثاراً مميزةً في هذا الجانب، وفي مقدمة هذه الأعمال كتاب (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس Jesta francom et ALiorum Hierosol Ymitanorum)

لمؤلفه المجهول، ويتناول الكتاب تاريخ الحملة الصليبية الأولى في المدة (488هـ/1095م – 493هـ/1099م) وبذلك يعد مؤلفه شاهد عيان لميلاد إمارة أنطاكية[269].

ويعد هذا الكتاب من أهم المصادر التي عالجت المدة المبكرة للغزو الصليبي لا سيما ما يتعلق بموضوع حصار المدينة، ويرجح عدد من الباحثين أن فصولاً أُخرى قد أُضيفت إلى هذا الكتاب في حقب لاحقة[270].

ومهما قيل عن هوية مؤلف هذا الكتاب، وتضاربت الآراء حول شخصيته فالذي لا غبار عليه أنه كان أحد المحاربين من أتباع بوهمند، وقد أبدى دوماً الانحياز إلى جانب سيده[271].

ومن المؤلفات الأخرى كتاب (أعمال تنكرد Jesta Tancredi) لمؤلفه رادولف كاين

(Radulph of caen)، ويبدو أن مؤلف هذا الكتاب قد انضم الى جانب بوهمند في صراعه ضد الامبراطورية البيزنطية حين عودته الى الغرب، وعند خسارة بوهمند توجه رادولف الى الشرق ليعيش في كنف تانكرد ويكتب له، وكان كتابه سجلاً عن سيرة تانكرد الذي خلف خاله في إمارة أنطاكية (272).

والكتاب الآخر هو (الحروب الأنطاكية) وهو كتاب مختصر لمؤلفه واتر المستشار (Walter the chancellor) ويشمل تاريخ أنطاكية في المدة ما بين 1115- 1122للميلاد، وكان صاحب هذا الكتاب قد تولى ديوان الرسائل للأمير روجر الانطاكي (273).

ومن المؤلفات الأخرى حوليات ميخائيل السرياني الذي كان يشغل منصب البطريرك اليعقوبي لأنطاكية في المدة (510هـ/1116م- 513هـ/1119م)، وقد أورد معلومات ذات قيمة عن تدخل بطريرك أنطاكية اللاتيني في شؤون المسيحيين الشرقيين، ومشاكل الكنيسة، ورجال الأمير في عهد الأمير روجر الأنطاكي (274).

أمّا في الحقل الجغرافي، فبرغم الأسفار الطويلة، والطرق العديدة البرية والبحرية التي سلكها الصليبيون وصولاً الى الشرق، ثم انتشارهم على شواطىء المتوسط في الوطن العربي وهيمنتهم على عددٍ من المدن العربية في الداخل، أقول: رغم هذا كله لم تمدنا المصادر المتوافرة لدينا بمعلومات ذات بال عن الواقع الجغرافي في الحياة العلمية للصليبيين في الشرق، ومع ذلك فهناك عددٌ من الشذرات البسيطة في عددٍ من المصادر التي تشير إلى أن عدداً من الرحالة قد زاروا إمارة أنطاكية الصليبية، ومنهم على سبيل المثال (Willbrand de oldomberg) الذي زار انطاكية في مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وترك لنا وصفاً مفيداً لعددٍ من المناطق التي شاهدها (275)

ولكن قلة المعلومات في هذا الجانب، التي لا نعرف سبباً اكيداً لشحتها في المصادر المتوافرة حالياً، لا يعني بأية حال فقر المعطيات الجغرافية في تلك الإمارة الصليبية، لا سيما أن قيامها وزوالها كان على أساس منطق القوة، مما يعيد الى الأذهان ما يصاحب العنف من ضياع لكثير من مفردات التراث تحت طائلة الدمار.

وفي مجال القوانين والحياة الدستورية، فإن الصليبيين في الشرق قد أبدوا اهتماماً كبيراً في هذا الجانب، إذ اشتد اهتمامهم بالأمور القانونية والدستورية، واهتموا كثيراً بتدوين آرائهم وأحكامهم القضائية، وقد اشتملت كثير من المفردات الصليبية في مجال القانون على ما في مثيلاتها في الغرب مع عددٍ من التطويعات الضرورية (276).

ومع أن الاتجاه العام لقوانين إمارة أنطاكية الصليبية يتفق مع قوانين بيت المقدس، إلاّ أن أوجه الاختلاف تبرز في عددٍ من الوجوه، كالجانب الوراثي في تولي منصب الإمارة في

أنطاكية، وطرق جباية الضرائب، إذ أبقى أمراء أنطاكية على النظام البيزنطي في كثير من المجالات القانونية والإدارية[277].

وقد أشارت مجموعة من المراجع الغربية إلى مجموعة القوانين التي تخص إمارة أنطاكية الصليبية، وذكرت هذه المراجع أن ما بقي من تلك القوانين هو عبارة عن ترجمة أرمينية قام بها حوالي سنة 659هـ/1260م الأمير سمباد شقيق الملك الأرمني هيثوم الأول، وقد نشر هذه القوانين* مع ترجمة فرنسية الآباء اليسوعيون في البندقية سنة 572هـ/1176م[278].

ويبدو أن علم الحساب هو الآخر كان من العلوم التي تتمتع بأهمية في إمارة أنطاكية، ولكن ليس لدينا فكرة عن تطور هذا العلم هل انه يمثل استمراراً لما عند سكان انطاكية الشرقيين، من المسلمين، أم أضاف اليه الصليبيون بعض الشيء، إذا كان لديهم ما يضيفونه، فهذا الرحالة التجاني يحدثنا عن سبب تغلب النصارى على المهدية، وانفراط دولة صنهاجة بقوله[279]: (إنّ نصرانياً اسمه جرير ابن فلان الأنطاكي كان قد هاجر من المشرق الى تميم [صاحب المهديه] وكان قد عرف[أي جرير] لسان العرب وبرع بالحساب، وتهذب بالشام بأنطاكية وغيرها).

ويستفاد من النص أن جريراً هذا هاجر من أنطاكية في مطلع القرن السادس الهجري، بعد ان اتقن تعلمه في هذا الجانب.

وفي ميدان العلوم الطبية، يمكن القول إنّ الطب لدى الصليبيين اتسم بالتخلف، والسذاجة، وهذا ما رواه أسامة بن منقذ عن كيفية تطببهم[280].

والذي لا جدال فيه أن الطب والتداوي في الشرق يرجح كثيراً على ما لدى الغربيين، بدليل أن الصليبيين كانوا يفضلون الأطباء الشرقيين على أطبائهم الصليبيين[281]، وقد أخذ الأطباء الصليبيون كثيراً من علومهم من المسلمين وغير المسلمين[282]، وترجموا كثير من المعارف الطبية إلى اللاتينية[283] وقد عرفت أنطاكية ومنذ القدم بمدارسها الطبية الشهيرة[284].

ويبدو أن الأطباء الأنطاكيين حتى الحقبة الصليبية، كانوا يزاولون هذه الحرفة حتى خارج حدود إمارة أنطاكية، فقد (قال ابو الصلت أمية المغربي: لما دخلت الى مصر في حدود سنة عشر وخمسمائة، أدركت بها طبيباً أنطاكياً يسمى جرجيس ويلقب بالفيلسوف)[285].

وفي الختام لا بد من القول إن هناك ألواناً أخرى من المعرفة لم تسعفنا المصادر المتوافرة لدينا بذكر شيء حولها، ومن ذلك الفلسفة، وعددٌ من العلوم الأخرى، إذ ليس معروفاً أن الصليبيين - باستثناء عددٍ من النبلاء-، قد طمحوا الى دراسة ما في الشرق من فلسفة، ومعارف راقية أخرى[286].

هوامش الفصل السادس

1- ابراهيم طرخان: النظم الاقطاعية، ص74.

2- كونلابد: الاقطاع والعصور الوسطى، ص17.

3- عاشور: تاريخ العلاقات، ص318.

4- فشر: تاريخ اوربا، ق1، ص186.

5- زابورف: الصليبيون، ص140.

6- Grousset: Hist, des criosades, Vol,1, P.109.

7- ول ديو رانت: قصة الحضارة، ج4، مج4، ص24.

8- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص490.

9- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص424.

10- عامرة: العلاقات، ص152.

11- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص203.

12- Setton: A History of the crusades, Vol, P.431 ; Stevenson: The crasades, P.131.

13- انظر ص 228 من هذا البحث.

14- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص191.

15- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص489.

16- المصدر نفسه، ج2، ص242.

17- المصدر نفسه، ج2، ص578.

18- Setton: A History of the crusades, Vol, 2, P.527 .

19- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص362.

20- انظر ما سلف، ص.

21- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص819.

22- المصدر نفسه، ج2، ص479، 492.

23- عاشور العلاقات، ص319.

24- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص483.

25- المصدر نفسه، ج2، ص188.

26- الاعتبار، ص65.

27- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص493.

28- باركر: الحروب الصليبية، ص59؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص483.

29- باركر: الحروب الصليبية، ص59.

30- عاشور: العلاقات، ص320.

31- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص483.

32- وصف اسامة بن منقذ بعض ممارسة هذه المحكمة عن طريق الاختبار بالماء فعندما ارادوا الحكم على رجل متهم بالقتل (جلسوا بتّية عظيمة وملؤها ماء وعرضوا عليها دف خشب، وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه حبلا ورموه في البتّية- فاذا كان بريئا غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبل لا يموت في الماء، وان كان له الذنب ما يغوص في الماء فحرص ذلك لما رموه في الماء ان يغوص، فما قدر فوجب عليه حكمهم لعنهم الله فكحلوه)

انظر: الاعتبار، ص139 – 140.

33- باركر: الحروب الصليبية، ص36.

34- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص483.

35- النقاش، زكي: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، (بيروت، 1958) ص158.

36- عاشور: العلاقات، ص320.

37- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص485.

38- باركر: الحروب الصليبية، ص64.

39- La mont: Feudel Monarchy in the latin kingdom of jersulam. P.108 .
نقلا عن باركر: الحروب الصليبية، ض64.

40- زابورف: الصليبيون، ص132.

41- ابن الاثير: الكامل، مج9، ص190.

42- ابو شامة: عيون الروضتين، ق2، 188.

43- ابن الاثير: الكامل، مج12، ص7.

44- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص492.

❖ ذكره اسامة وقال: البسكند وهو شحنة البلد؛ انظر الاعتبار، ص139.

45- Cahen, OP. Cit, P. 457.

46- زابورف: الصليبيون، ص140.

47- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص492.

48- Cahen, OP. Cit, P. 465.

49- زكي النقاش: العلاقات ص157– 158.

50- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص493.

51- عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص482.

52- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص102، 489.

53- المصدر نفسه، ج2، ص487.

54- عامرة: العلاقات ص14.

55- هامرتن: تاريخ العالم، مج5، ص189، 187: رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص474-476.

56- انظر: الرحلة، ص248.

57- Cahen, OP. Cit, P.465 .

58- العدوى: المجتمع الاوربي، ص119.

59- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص469.

60- Baldwin(N.W) – Ramond III of Trioli and the Fall of Jersalem(Princton 1963). P.529 .

61- ابراهيم طوقان: النظم الاقطاعية، ص48؛ باركر: الحركة الصليبية، ص57.

62- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص470.

63- المصدر نفسه ج2 ص86.

64- باركر: الحركة الصليبية، ص57.

65- زابورف: الصليبيون، ص156.

66- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص492.

67- اسامة بن منقذ: الاعتبار ص67.

68- المصدر نفسه، ص75.

❖التركبولية: يتحدر التركبولية من اصول مركبة، وقد كان اباؤهم من الاتراك اوالعرب الذين تزوجو من المسيحيات الشرقيات. انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، هامش 2/149؛ العماد الكاتب: الفتح القسي، هامش، ص62؛ ابن منقذ: الاعتبار، ص15؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص470؛ هامرتن: تاريخ العالم مج5، ص163؛

Cahen. OP. Cit, P328 .

69- هامرتن: تاريخ العالم مج5، ص193.

70- الاعتبار ص51.

71- الفتح القسي، 62.

72- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص470.

73- باركر: الحركة الصليبية، ص58.

❖ الداوية (فرسان المعبد (Templars) تشكلت هذه الطائفة سنة 512هـ/ 1118م من قبل فارس برغندي يدعى، هيوباجيس (Hughepagains) الذي نذر نفسه مع مجموعة من الفرسان لتوفير الحماية للحجاج المسيحيين الذاهبين الى الاماكن المقدسة، وقد حصلت هذه الطائفة من بلدوين الاول، ملك بيت المقدس على مسكن بالقرب من معبد سليمان، لذا سموا بفرسان المعبد، وكانت هذه الطائفة تتألف من ثلاث طبقات: الفرسان، وينحدرون من الاصول النبيلة، الاجناد وينتمون الى طبقة البرجوازية، ثم رجال الدين الذين شغلوا الوظائف الدينية، ولم يرتبطوا بكل ما له صلة بالناحية العسكرية، ارتدى الهيكليون معطفا

ابيضا عليه صليب احمر. بينما ارتدى الاجناد منهم السترات السوداء. للمزيد انظر عن الهيئات الثلاث العماد الكاتب: الفتح القسي، ص62؛ ابن شداد النوادر، ص77؛ زابورف الصليبيون، ص159؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص249– 250؛ باركر: الحروب الصليبية، ص58؛ حسن عبد الوهاب: الفرسان التيتون؛ بحث مكرس للجماعة الالمانية؛

Grouasset: OP. Cit, Vol, 1, 542. Stevens on: OP. Cit, P.113.

❖❖ الاستبارية (Hospitallr) ينتمي جماعة هذه الطائفة الى هيئة دينية قامت في بيت المقدس، سنة 463هـ/1070م، وتمكنوا من الحصول على نزل يأوي إليه الحجاج الفقراء وكان مقدم هذه الدار عند وصول الصليبين الى الارض المقدس، هو جيرار. ويمكن اعتبار سنة 1118م تاريخا مهما في حياة هذه الطائفة، عندما تحولت الى مؤسسة عسكرية لها نظامها، ومواردها المالية، فاخذت تمارس دورها في اطار تدعيم الوجود الصليبيين، ومن شاراتها الصليب الابيض وكان لباسهم في البدء معطفا اسودا، ثم اتخذوا اللون الاحمر فيما بعد. للمزيد: انظر الهامش اعلاه.

❖❖❖ التيتون (الجامعة الالمانية) ويعود انشاء هذه الطائفة الى الحملة الصليبية الثالثة ثم تحولت هذه الجماعة الى مجموعة عسكرية حوالي سنة 198 1م وحصلت على مجموعة بالانتشار وممارسة نشاطاتها العسكرية لتدعيم الوجود الصليبيين في الشرق. انظر الهامش السابق.

74- زابورف: الصليبيون، ص159.

75- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص250.

76- زابورف: الصليبيون، ص167.

77- Stevenson: OP. Cit, P.136, note, 4.

78- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص501.

79- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص201.

80- Cahen: OP. Cit, P. 465.

81- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص472.

82- Mattieu d. Edesse. OP. Cit. P. 79.

83- Ibid. p. 79.

84- عاشور: العلاقات، ص329.

85- العدوي: المجتمع الاوربي ص63 – 64.

86- الاعتبار، ص64، 65.

87- عاشور: العلاقات، ص330.

88- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص468.

89- عاشور: العلاقات، ص330.

90- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص191.

91- زابورف: الصليبيون، ص156.

92- فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص355.

93- كلود كاهين: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ص218.

94- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص508.

95- النقاش: العلاقات، ص146.

96- حبيب زيات: النساء الفرنجيات في عهد الصليبيين، مجلة المقتطف 43[1949] ص2.

97- باركر: الحروب الصليبية، ص69.

98- النقاش: العلاقات، ص164.

99- المصدر نفسه، ص165.

100- هامرتن: تاريخ العالم، مج5، ص193.

101- باركر: الحروب الصليبية، ص69.

102- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص509.

103- انظر: الاعتبار، ص61.

104- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص509؛ باركر: الحروب الصليبية، ص96.

105- المصدر نفسه، ج2، ص509.

106- الانس الجليل. ج1، ص362.

107- العقيقي، نجيب: المستشرقون، ط4،(القاهرة، 1980)، ج1 ص125.

108- Krey(A.C) The first crusades. PP.180 – 181.

109- عاشور: العلاقات، ص330.

110- Baldwin: OP. Cit, P. 529.

111- ول ديورانت: قمة الحضارة، ج4، مج4، ص34.

112- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2 ص469.

113- Krey(A.C) The first crusades. PP.180 – 181.

114- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص469.

115- المصدر نفسه، ج2، ص616.

116- عاشور: العلاقات، ص331.

Grousset: L, Empire du leveint. PP. 315 – 316.

117- النقاش: العلاقات، 139.

118- المصدر نفسه، ص139.

119- ول ديورانت: قمة الحضارة، ج4، مج4، ص34.

120- المصدر نفسه، ج4، مج4، ص34.

121- هامرتن: تاريخ العالم، مج5، 186.

122- وصف ابن جبير ذلك العرس بقوله(ومن مشاهد الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه.. وقد احتفل بذلك جميع النصارى، رجالا ونساء، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال، وكأنهما من ذوي ارحامها، وهي في ابهى زي، وافخر لباس، تسحب اذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم، على راسها عصابة ذهب حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبتها مثل منتظم، وهي داخلة في

حليها وحللها تمشي فترا على فتر.. وامامها رجالها من النصارى في افخر ملابسهم البهية، تسحب اذيالهم خلفهم ووراثهم اكفائها ونظرائها من النصرانيات يتهادين في انفس الملابس ويرفلن في ارفل الحلي والالات اللهوية قد تقدمتهم، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك فساروا بها حتى ادخلوها دار بعلها واقاموا يومهم ذلك في وليمة) انظر الرحلة، ص251.

123- Krey: The first crusades. PP.280 – 281.
124- Mattieu D. Edesse. OP. Cit, P.46 , 48.
125- Albert D, Aix. OP.Cit , P. 684. i
126- Grousset: L, Empire du leveint. PP. 76, 78.

127- مجهول: اعمال الفرنجة، ص50؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص310.

128- زابورف: الصليبيون، ص133.

129- عاشور: العلاقات، ص331.

130- Cahen: OP, Cit. P465 .

131- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص200.

132- المصدر نفسه، ص200.

133- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص117؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2 ص86.

134- ابن شداد: النوادر، ص89.

135- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص203.

136- الرحلة، ص252.

137- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص155، 157.

138- الرحلة، ص248.

139- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص203.

140- ابن العديم: زبدة الحلب، ج3 ص156.

141- انظر على سبيل المثال: اسامة بن منقذ: الاعتبار، ص132، 140؛ ابن جبير: الرحلة، ص؛ فشر: تاريخ اوربا، ق1، ص186، 187.

142- ابن شداد: النوادر، ص235؛ المقريزي: السلوك، ج1، ق1، 110.

143- انظر: ما سبق، ص141، 206– 207.

144- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص210.

145- هامرتن: تاريخ العالم، مج5، ص186، 188.

146- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص479.

❖ الاقنان: في الاصل هم الملاك الصغار من الاحرار الذين اضطروا امام اضطراب الاحوال الى التنازل عن ممتلكاتهم للسادة الاقطاعيين الاقوياء من طبقة الفرسان واخذت احوالهم بالانحطاط نتيجة لارتباطهم بالارض والانقطاع الى اعمال الفلاحة مقابل تمتعهم بالحماية والطمأنينة من قبل الفرسان. وكانوا في الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي، ولكن دون ان يصلوا الى درجة العبيد. انظر: العدوي، ابراهيم احمد (دكتور): المجتمع الاوربي في العصور الوسطى، ص123.

147- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص199.

148- عاشور: العلاقات، ص332.

149- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص135؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2 ص135.

150- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص204.

151- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص135.

152- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص366.

153- الرحلة، ص252- 253.

154- زابوروف: الصليبيون، ص134.

155- النقاش: العلاقات، ص165.

156- زابوروف: الصليبيون، ص134.

157- عاشور: العلاقات، ص332.

158- زابوروف: الصليبيون، ص133.

159- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص474.

160- المصدر نفسه، ج3، ص617.

161- زابوروف: الصليبيون، ص134.

162- المصدر نفسه، ص134.

163- زابوروف: الصليبيون، ص133.

164- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص460- 461.

165- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ج2، ص137؛ ابن الاثير: الكامل، مج10، ص276.

166- Robson(W.) History of the crusade, Vol, 1, P.138.

167- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص202- 203؛ ذكر ابن جبير ان المسلمين كانوا يؤدون للصليبيين (نصف الغلة عند ضمنها وجزية على كل راس دينار وخمسة قراريط.. ولهم عن ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا) ص247.

168- انظر خارطة رقم (6) من هذا البحث.

169- ابن القفطي تاريخ الحكماء، ص296.

170- انظر ص 265 من هذا البحث.

171- الدر المنتخب، ص149.

172- الرحلة ص205.

173- ناصر خسرو: رحلة الى لبنان وفلسطين والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقله الى العربية د. يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط2 (بيروت 1970) ص45.

174- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص186.

175- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص601.

176- المصدر نفسه، ج2، ص474.

177- محمد كرد علي: خطط الشام، ج4 و ص194.

178- زابوروف: الصليبيون، ص333.

179- ذكر اسامة في الاعتبار عن النواعير قوله: (وقد خرجت من شيزر ومعي بغال كثيرة وبهائم اريد احمل عليها من الجبل خشبا قد قطعته هناك لناعورة لي)، ص142.

180- الرحلة، ص206.

181- العقيقي: المستشرقون، ج، ص126.

182- اشار ابن خرداذبه الى اهمية موقع انطاكية من الطرق العالمية، في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي إذ اشتهر التجار اليهود الذين في غرب اوربا بأسم (الرذاذية) فقال ان هؤلاء التجار كانوا يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والجلود الخز والفراء والسمور والسيوف (وان شاؤوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلاث مراحل الى الجابية ثم يركبون من الفرات الى بغداد، ثم يركبون الى الايلة والابله): انظر: المسالك والممالك، ص153- 154.

ول ديورانت: قصة الحضارة، ج4، مج4، ص34.

183- Heyd: Historire du commerce du levant(Ieipzig 1936) Vol,1, P.43.

184- ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص254.

185- انظر تفاصيل ذلك في ابن العديم: زبدة الحلب، ج1، ص163 – 168.

186- Heyd. OP. Cit. Vol,1 , P.52 .

187- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص303.

188- Runciman, op. cit. p. 130.

189- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص357.

190- فشر: تاريخ اوربا، ق1، ص185- 186؛ هامرتن: تاريخ الحضارة، مج5، ص173.

191- Brehier: OP. Cit. P. 315.

192- Le strang, OP. Cit. P.108.

193- Heyd. OP. Cit.1, p.43 ; Dussaud. OP. Cit. PP.477- 478.

194- ابن شداد: النوادر ص89.

195- Grousset. OP. Cit, 1, P. 409; Zoe'. OP. Cit. P. 215.

196- Heyd. OP. Cit. 1, P. 146.

197- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص605.

198- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص217.

199- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص299.

200- اسامة: الاعتبار، ص87؛

Grousset. OP. Cit, P.31 0.

201- ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص179.

202- المصدر نفسه، ج2، ص181.

203- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص344.

204- ذيل تاريخ دمشق، ص263- 264؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص264.

205- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص344.

206- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص278، وذكر ابن العديم ذلك ضمن احداث سنة 538هـ. انظر زبدة الحلب، ج2، ص277- 278.

207- رضا بك: وثائق الحروب الصليبية، ص

208- الرحلة، ص235.

209- انظر ما سلف، ص222 وما بعدها .

210- رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز سالم، توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة 1961) ص44- 45.

211- Cahen, OP, Cit. P. 320.

212- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص605.

213- انظر ما سلف، ص198.

214- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص217.

215- المصدر نفسه، ص217.

216- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص506.

217- قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص218.

218- ابن جبير: الرحلة، ص247؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، ص181.

219- الرحلة، ص235.

220- المصدر نفسه، ص247.

221- هامرتن: تاريخ العالم، مج5، ص186- 187.

222- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص493.

223- المصدر نفسه، ج2، ص378.

224- انظر على سبيل المثال، ص138، 139- 140، 156.

225- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص618.

226- جوزيف: العدوان الصليبي. ص327.

227- Bouchier: OP. Cit, P.283.

228- Ibid. PP. 283, 284.

229- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص618.

230- نيقولا زيادة: سوريا زمن الصليبيين. مجلة المقتطف 78(القاهرة 1935) ص198.

231- Schlunberger: lesprincipaute's franques du levant, PP.14- 15.
نقلا من رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص58.

232- المصدر نفسه، ج3، ص618- 619.

233- Bouchier: OP. Cit, P.284 .

❖ النقود الصورية، وهي التي ضربت بصور في ايام الدولة الفاطمية. انظر: مفرج الكروب، ج2، ص76، هامش (6)؛ الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، ص203 هامش (691).

234- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص618.

235- انظر: الرحلة، ص437.

236- ابن الاثير: الكامل، مج11، ص451.

237- ابن شداد: النوادر، ص82؛ ابن الاثير: الكامل، مج9، ص9.

238- جوزيف نسيم: العدوان الصليبي، ص329.

239- المصدر نفسه، ص329.

240- هامرتن: تاريخ الحضارة، مج5، ص191.

241- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص653.

242- المصدر نفسه، ج2، ص23.

243- محمد كرد علي: خطط الشام، ج4، ص176.

244- ص، ي: الصناعة السورية مجلة المقتطف 33[1908] ص، 204.

245- قلعي: صلاح الدين، ص87.

246- ص، ي: الصناعة السورية مجلة المقتطف 33[1908] ص، 204.

247- التطيلي: الرحلة، ص78.

248- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص601.

249- المصدر نفسه، ج3، ص817.

250- عاشور: الحركة الصليبية 2/1269- 1270.

251- فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص378.

252- Archer(T.A):The crusades, P.290.

253- نيقولا زيادة: سوريا زمن الصليبين ص199.

254- الرحلة، ص248.

255- Archer(T.A): The crusades, P.290 .

256- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص818.

257- رضا بك: وثائق عن الحروب الصليبية، ص196.

258- Archer(T.A): The crusades, P.290 .

259- محمد كرد علي: خطط الشام، ج4، ص

260- ابن شداد: النوادر السلطانية، ص182.

261- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص467.

262- عاشور: العلاقات، ص331.

263- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص820- 828.

264- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص477.

265- فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول) ج2، ص723.

266- Leclerrc, lame' dicing arab, Vol 2. P.38 .

فيليب حتي: تاريخ لبنان، ص381.

267- حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (جامعة الموصل- 1977) ط1، ص55.

268- فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول) ج2، ص785.

269- انظر تحليل مصادر البحث ص11.

270- Krey: Ange lected passage PP.67 – 70.

271- مجهول: اعمال الفرنجة (مقدمة الدكتور حسن حبشي).

272- انظر تحليل مصادر البحث، ص 278.

273- انظر تحليل مصادر البحث، ص 278.

274- انظر تحليل مصادر البحث، ص 278.

275- قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص200.

276- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص819.

277- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص493.

❖ لقد حاولنا قدر المستطاع الحصول على هذه القوانين عن طريق ارسال الرسائل او بتكليف بعض الاشخاص هناك للحصول عليها دون جدوى، ومما لاشك فيه ان الحصول على هذه القوانين يمثل إضافة مهمة لهذا البحث، وهذا ما نأمل الحصول عليه مستقبلا ان شاء الله.

278- انظر: باركر: الحروب الصليبية، ص210؛ رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص809.

279- التجاني: ابو محمد بن عبد الله بن محمد بن احمد (ت:717هـ). رحلة التجاني، تقديم حسن حبشي عبد الوهاب، المطبعة الرسمية (تونس، 1958)، ص333.

280- الاعتبار، ص132، 133.

281- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص818.

282- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج4، مج4، ص67.

283- انظر ما سلف، ص.

284- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج4، مج4، ص109- 110.

285- القفطي: تاريخ الحكماء، ص234؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص200.

286- رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص819.

الخاتمة

يمثل تحدي سلاجقة الروم للغزاة الصليبيين أثناء محاولتهم المرور عبر آسيا الصغرى صوب الشام بواكير الفعل الجهادي لمنع الصليبيين من التغلغل والانتشار في الوطن العربي، غير أن ردة الفعل باتت أكثر وضوحاً عندما حطت الجيوش الغازية أمام أسوار أنطاكية وبدأت طلائعها العسكرية تجوب المنطقة وتزرع الدمار أينما حلت فسارعت رسل صاحب أنطاكية إلى كافة الأطراف لاستنهاض همم المسلمين، ودعوتهم إلى الجهاد، وقد توجه عددٌ من تلك الوفود الى مقر الخلافة العباسية في بغداد، وإلى سلطان السلاجقة، لاخطارهما بواقع الحال، وبعبارة أخرى يمكن القول إن دفع الصليبيين عن أسوار أنطاكية أصبح مسؤولية جماعية لمعظم المسلمين إذ جاء كربوقا بعساكره من العراق مع من انضم إليه من عساكر الجزيرة والشام، وبذلك صارت الخلافة العباسية وجهاً لوجه أمام الصليبيين المحيطين بأنطاكية الأمر الذي ترتب عليه استمرار الخلافة بما تمتلكه من سلطات أسمية في تبني مشاريع الجهاد لإرسال الجيوش حيناً، وبمباركة وتاييد الجهود التي يبذلها قادة المسلمين في بلاد الشام، وإرسال التشاريف والمنشورات إليهم أحياناً أخرى، وقد ظلت هذه الوشيجة ولو من الناحية الشكلية حتى زوال الخلافة العباسية سنة 656هـ/1258م، أمّا الخلافة الفاطمية فلم تأخذ الأمر على محمل الجد إلا بعد أن تساق الصليبيون جدار مدينة القدس التابعة لهم وقد فات الاوان، وفي اطار الكيانات السياسية في بلاد الشام نجد أن التباغض والتحاسد بين ولدي تتش في حلب ودمشق وبقية الأمراء الصغار في مواضع أخرى من بلاد الشام كان له الأثر الكبير في نجاح الصليبيين على بسط سلطانهم على أنطاكية ثم الامتداد جنوباً نحو بيت المقدس والساحل الشامي.

ولا شك أن طابع العلاقات التي كانت تسود بلاد الشام، كان له الأثر الكبير في مستقبل العلاقات بين مسلمي الشام وإمارة أنطاكية، فلا نستغرب في بعض الاحيان من واقع التجزئة أن نجد من هؤلاء الأمراء المسلمين من يتعاون مع صليبي أنطاكية ضد أبناء جلدته جرياً وراء المصالح الآنية الزائلة دون الاكتراث بما يترتب على ذلك من استخفاف بمستقبل الامة وسلامة وحدة كيانها.

وفي اطار العلاقات المباشرة بين إمارتي حلب ودمشق من جهة وإمارة أنطاكية من جهة أخرى تميزت بالمواقف المتذبذبة حتى قيام الدولة الزنكية ووحدة بلاد الشام فلم يكن لرضوان بن تتش صاحب حلب، وأقرب جيران إمارة أنطاكية الصليبية من القوة والجدية ما يؤهله لإزاحة جارته الصليبية، والتخلص من نفوذها بل العكس من ذلك كان خضوع رضوان لإمارة أنطاكية أمراً مثيراً لغضب المسلمين وحنقهم ضده مما دفعهم إلى ارسال الوفد الى مقر الخلافة العباسية في بغداد لاطلاعها على زيغ وتقاعس رضوان عن مجاهدة الفرنج، أمّا صاحب دمشق (دقاق) بن تتش فلم يكن أحسن حالاً من أخيه، وقد هيمن الأتابك طغتكين على مقاليد الأمور بعد موت دقاق، وكان طغتكين رجلاً عرف بمناوراته السياسية، وجعل مصلحة امارته فوق الصالح العام لعموم المسلمين وقضيتهم الأساسية في مجاهدة الفرنج وليس أدل على ذلك من لجوء طغتكين إلى مهادنة الفرنج للإفلات من الانضواء تحت وحدة بلاد الشام للوقوف بوجه الغزاة.

ويصح القول إن الفترة التي كانت فيها مقاليد الأمور في بلاد الشام تخضع لإرادة هؤلاء الحكام تمثل المدة الذهبية لهيمنة الصليبيين وسيطرتهم على الكثير من المواقع ثم اخذوا يفكرون في غزو مصر وبذلك أصبحت الركائز الصليبية متينة في شمال الشام وجنوبه فضلا عن منطقة الجزيرة لذا كان على الدولة الزنكية الناشئة أن تبذل المزيد من الجهد لاستئصال الجذور الصليبية التي امتدت بعيداً في تراب الوطن العربي الاسلامي بفضل أنانية أولئك الحكام، وترجيحهم للمصالح الذاتية على الصالح العام.

وبعد زوال إمارة الرها سنة 539هـ/1144م على يد عماد الدين زنكي أصبحت إمارة أنطاكية الهدف المنشود للضربة اللاحقة في مضمار سياسة ولده نور الدين محمود الذي بدأ باجتثاث أجزائها بالتتابع، وما كان يمنعه من الاجهاز عليها إلاّ ما كان يقدره هو من مردود سياسي بعيد المدى، بل ان انطاكية أصبحت العضو الهش الذي يضغط نور الدين من خلاله على الجسد الصليبي المتعب.

ومثال على ذلك الغارات التي شنها نورالدين محمود على اقليم الإمارة عندما توجه ملك بيت المقدس إلى مصر لاحتلالها، مما دفع الغزاة الصليبيين في مصر إلى ترك ذلك المشروع، والاسراع بالعودة الى شمال الشام لإنجاد إمارة أنطاكية.

ولم تكد إمارة أنطاكية تلتقط أنفاسها بعد موت خصمها العنيد نور الدين لتجد نفسها أمام زعامة إسلامية جديدة لا تقل عن نور الدين طموحاً واخلاصاً لقضية المسلمين في جهادهم ضد الغزو الصليبي، فما هي إلاّ سنوات قليلة حتى وحد صلاح الدين بلاد المسلمين تحت لوائه ليوجه ضربته القوية إلى الصليبيين في حطين، ثم انتزاع بيت المقدس من أيديهم

وبعد ذلك شرع في سلسلة من العمليات الجهادية لتحرير الساحل الشمالي متجهاً صوب أنطاكية ثم انتزع أهم حصونها إذ بقيت مقطعة الأوصال مشلولة الحركة، ولو لم يكن صلاح الدين ينظر إلى الوجود الصليبي نظرة شاملة، ويرى ضرورة قلع جذوره من نهايتها لأمكنه أن يجتاح إمارة أنطاكية التي لم يكن في مقدورها الصمود أمام هجماته العنيفة ضدها .

ومع أن الحقبة الايوبية اللاحقة لم تكن على قدر من الأهمية لتحمل مسؤولية الجهاد إلاّ أن إمارة أنطاكية كان قد تم تحجيمها منذ وقت مضى وليس بإمكانها أن تفعل شيئاً لذا انجّرت الى الدخول في مشروع التحالف المغولي/ الأرمني، وهذا الأمر عاد عليها ببالغ الضرر، اذ كانت مع حلفائها الأرمن هدفاً أساسياً لانتقام المسلمين بعد انتصارهم على قوات المغول في معركة عين جالوت الشهيرة، لذا كان على أمراء أنطاكية أن يجنوا ثمار ما غرسوه من تعاونهم مع المغول والأرمن ضد المسلمين حين توجهت الجيوش الاسلامية بقيادة الظاهر بيبرس لدك قلاع أنطاكية/ ومسحها من الوجود لتعود الى حوزة المسلمين بعد زهاء (171) سنة .

وفي ميدان الأسباب التي أدت إلى زوال الإمارة توصلت الدراسة إلى استنباط أهم ما يتصل بالجانب الاوربي من تلك الأسباب، وذلك أن التطور الذي أصاب الغرب الأوربي خلال الأزمان التي تلت بدايات الغزو قد غيرت كثيرا من المفاهيم في أوربا، ووضع الناس على أعتاب نهضة جديدة، مما جعلهم ينظرون إلى دوافع الغزو وملابساته نظرة جديدة مختلفة فقد خمد الحماس، والاندفاع الاهوج لتأييد القضية الصليبية في الشرق مما فت في عضد المتحمسين لاستمرار امداد الغزو ودفعه إلى التوسع، فضلاً عن ذلك فإن الصراع المرير بين السلطتين الزمنية والروحية في أوربا، ووضع أسباب ذلك النزاع فوق كل اعتبار، كان على حساب القضية الصليبية التي باتت واجهة للرهان والخداع بين رجال الدين وأصحاب القرار في أوربا .

قد توصلت الدراسة إلى أن سياسة الأباطرة البيزنطيين تجاه أنطاكية كانت من بين أكثر الأسباب خطورة في زوال إمارة أنطاكية، إذ بدأ الصراع بين الطرفين منذ قيام الإمارة ولمدد طويلة من تاريخها، كانت فيها الامبراطورية البيزنطية تفعل كل ما في وسعها لتدمير الإمارة النورمانية وإعادتها الى هيمنتها واعتبارها جزءاً تابعاً لها منذ القدم.

ولاشك أن ذلك الصراع قد استنفد قوة الإمارة، وبدد مواردها وجعلها تقاتل على جبهتين في آن واحد، المسلمين والبيزنطيين مما كان له الأثر الكبير في الاسراع بزوالها .

وفي ميدان العلاقات بين إمارة أنطاكية وجيرانها الصليبيين توصلت الدراسة إلى أن جولسين الثاني حاول أن يبسط نفوذه على إمارة أنطاكية بعد مقتل صاحبها بوهمند الثاني، ولكن زواج ريموند دي بواتيه قد أغلق الأبواب بوجه تلك الأطماع.

وتوصلت الدراسة إلى أن الصراع الطائفي والمذهبي كان له الأثر الكبير في اضعاف كيانها لضعف الرابط الذي يجمع بين أبنائها، وتبرز في هذا الجانب السياسة الدينية التي انتهجها اللاتين في استبعاد رجال الدين الارثوذكس واحلال اللاتين محلهم، مما أثار مشاعر وحنق سكان الإمارة وهم الأكثرية الغالبة ضد اللاتين وجعلهم لا يأبهون مستقبل امارتهم.

وفي ميدان المعطيات الحضارية، تمكنت الدراسة من استجلاء أهم تلك المظاهر من نظم الحكم والادارة ونظم الحياة الاجتماعية مع دراسة لأهم شرائح التركيبة السكانية، فضلا عن أهم مظاهر النشاط الاقتصادي في ميدان الزراعة والتجارة والصناعة وأهم ما امتازت به الإمارة في تلك الميادين الثلاثة، ثم وقفت الدراسة بتأن أمام أهم مظاهر الحياة العلمية في إمارة أنطاكية رغم الجدب الواضح في هذا الجانب، ومع هذا فإن الدراسة تمكنت من التقاط ما توافر لها من نصوص من بين السطور، والشذرات المتوافرة لرفد هذا الجانب الصعب من حلقات البحث.

الملاحق

ملحق رقم (1)(*)

الرواية الوحيدة المحفوظة لشاهد عيان محلي على استيلاء الصليبيين على أنطاكية (مترجم عن اللاتينية عن ترجمة الأب بيترز عن النص الارمني).

رواية الراهب هوفاينس (يوحنا) موجودة في نهاية مخطوطة قام هو بنسخها بدير سان بار لام في أعالي مدينة أنطاكية أثناء العمليات العسكرية لعام 1098م.

هذه السنة (افتقد الله شعبه) كما هو مكتوب: (لا أهملكم ولا أترككم) وصارت يد الله القوية هادياً لهم. حملوا الطبيب ويحملهم له في البحر قتلوا عديداً من الكفار وجعلوا الآخرين يفرون على الأرض، استولوا على مدينة نيقية التي حاصروها خمسة أشهر، ثم وصلوا الى بلدنا في أقاليم قيليقية وسورية وعمروا حاضرة أنطاكية من خلال انتشارهم حواليها، وزهاء تسعة أشهر عرضوا أنفسهم والمناطق المجاورة الى محن قاسية. وأخيراً لم يكن في مقدور البشر الاستيلاء على مكان محصن مثل هذا أمدكم الله بالخلاص بواسطة تعاليمه، وفتح لهم باب الرحمة. فاستولوا على المدينة، وبحد السيف قتلوا التنين المتكبر مع جنوده. وبعده بيوم أو اثنين تجمع حشد غفير حاملا النجدة لأمثاله. ومن جراء ضخامة عددهم واحتقار قلة عدد غيرهم كانوا متغطرسين على غرار قول فرعون: (سأقتلهم بسيفي وستتغلب عليهم يدي).

وخلال خمسة عشر يوماً حل بهم القلق الأكبر، وسحقهم الحزن إذ افتقر رجالهم ودوابهم لضرورات العيش، ونظراً لضعفهم الشديد وذعرهم من كثرة الكفار تجمعوا في

(*) نقلا عن: كلود كاهين: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص 283-284.

وتظهر هذه الوثيقة أن كاتبها كان متحاملاً على المسلمين، متوهماًأن الصليبيين جاءوا لإسعاد النصارى الشرقيين، ولكن ما جرى من مواقف الصليبيين تجاه المسيحيين الشرقيين على كان العكس تماماًكما يظهر من خلال مجريات الأحداث.

البازيليك الكبرى للرسول القديس بطرس، ومع اشتداد الصخب وانهمار سيل من الدموع الغزيرة صدر صوت جماعي مدو، وكانوا يطلبون على وجه التقريب ما يلي: (ربنا ويا مخلص المسيح ويل من تأمل وباسمه (دعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية الاولاء واقتدتنا إلى هذا المكان فإذا كنا قد أخطانا في حقك فإن لديك كثيراً من الوسائل لمعاقبتنا، فلا تسلمنا الى الكفار حتى لا يقولوا في زهو وتكبر: أين ألهكم؟). لقد شجع بعضهم بعضاً بعد أن أسبغت عليهم الصلاة نعمها فقالوا: (الرب يعطي عزاً لشعبه وسيبارك الله شعبه بالسلام).

وبعد أن انطلق كل واحد منهم على فرسه، وهجموا على الأعداء الذين كانوا يتهددونهم فشتتوا شملهم وألجاؤهم الى الفرار، فما زالوا يقتلونهم حتى غروب الشمس. فكان فرحا غامرا للمسيحين وزاد نمو القمح والشعير بوفرة كما في أيام التنزه على أبواب السامرة. لهذا تماهوا مع النشيد النبوي: (سأمجدك يا ألهي لأنك تكفلت بي ولم تمنح بسببي الفرح الى أعدائي).

ملحق رقم (2)

بعض شروط اتفاقية ديفول(*)

1- أن يعترف الأمير بوهمند بارتكابه للخطأ إزاء الإمبراطورية البيزنطية، ويظهر ندمه على نقضه للعهد الذي قطعه على نفسه للإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية بتسليم ما يسيطر عليه الصليبيون من الأراضي التي كانت تتبع للإمبراطورية في الشرق الإسلامي.

2- أن يوثق بوهمند أقواله بقسم الإيمان المغلظة أن يكون أحد أتباع الإمبراطور وولي عهده، وأن ينهج نهجه جميع رجاله.

3- تقرر كذلك أن يحتفظ بوهمند بعرش أنطاكية على أن يحكمها كتابع للإمبراطور مطبقا ما يتوجب على التابع أن يقوم به إزاء سيده من: -

أ- أن يكون شخصياً على رأس قواته لمحاربة أعداء الإمبراطور

ب- ويتعهد بعدم الدخول في أي حلف معادٍ لمصالح الإمبراطور، وأن لا يرتبط بسيد أخر إلا بأذن الإمبراطور

ج- أن يتعهد بوهمند بعدم إقامة الروابط مع أية جهة أخرى عدا أتباع الإمبراطور

د- ويجب كذلك أن يؤدي رجال بوهمند المصاحبين له قسم الولاء قبل عودتهم الى ايطاليا، ويتم كذلك أخذ قسم الولاء من رجال بوهمند في الشرق عن طريق موظف يرسله الإمبراطور لهذا الشأن.

هـ- أن يأخذ بوهمند يمين الولاء للإمبراطورية من جميع سكان النواحي التابعة له، ويتوجب على هولاء عن يشوروا ضد بوهمند إذ ما أظهر خيانة لسلطان الإمبراطور.

4- تجديد حدود إمارة أنطاكية في ضوء التبعية الجديدة، فتضم أنطاكية، وميناء

(*) ومن الواضح أن هذه الشروط المهينة قد حطت من مكانة بوهمند الذي انهارت منزلته ولم يعد الى الشرق إذ توارى عن الانظار في ايطاليا حتى وفاته سنة 1111م.

السويدية وامتدادها في جهة الشمال الشرقي حتى مدينة مرعش، وبإمكان بوهمند أن يضيف الى هذه المساحة ما يمكنه انتزاعه من أراضي المسلمين التي تليه، وتضمن الملحق المرفق بالمعاهدة، أن يتم تعويض بوهمند عن تلك الأراضي التي يتم اقتطاعها من أنطاكية بجهات أخرى من أراضي حلب والرها، وأن يقدم الإمبراطور الى بوهمند منحة سنوية من النقود البيزنطينية، ويستمر بوهمند في حكم ما بقي بيده من أراضي أنطاكية طوال حياته، غير أن هذه الأراضي يجب أن تعود الى حوزة الإمبراطورية بعد موته، عدا ما يستولي عليه من أراضي المسلمين فله الحق في نقلها الى ملكية ورثته.

5- عدم المساس بالأراضي والأملاك التابعة لأسرة روبين الأرمنية.

6- أن يعيد بوهمند مدن قيليقية وما يقرب من اللاذقية الى السيادة المباشرة للامبراطورية البيزنطية.

7- على بوهمند أن يعزل البطريرك اللاتيني في أنطاكية، ويستبدله ببطريرك بيزنطي، يكون تعيينه من قبل الامبراطور.

8- أن يتعهد بوهمند بإرغام تنكرد حتى ولو بالقوة على الانصياع لشروط هذه المعاهدة، إن هو رفض ذلك بوجوب التخلي عن الاراضي التي نصت عليها الاتفاقية للامبراطورية البيزنطيه.

ملحق رقم (3)(*)

نص الرسالة
التي وجهها السلطان الظاهر بيبرس
إلى صاحب أنطاكية بوهمند السادس
الذي كان في طرابلس عند سقوط إمارته بيد المسلمين.

((وقد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الأسد الضرغام، بيمند فخر الأمة المسيحية، رئيس الطائفة الصليبية، كبير الأمة العيسوية، المنتقلة مخاطبته، بأخذ انطاكية منه، من البرنسيه الى القومصية، الهمه لله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوضة عليه. ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الأعمار. وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض ودارت الدوائر على كل دار؛ وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر، وكيف قتلت الرجال، واستخدمت الأولاد، وتملكت الحرائر؛ وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلاَّ ما يصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر؛ وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والمواشي وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب، واستخدم الخديم وركب الماشي.

هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت، وإذا سمعت صوتاً قلت فزعاً؛ ((على هذا الصوت!)). وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود، واخرناك وما كان تأخيرك إلاَّ لأجل معدود؛ وكيف فارقنا بلادك وما بقيت ماشية إلاَّ وهي لدينا ماشية، ولا جارية إلاَّ وهي في ملكنا جارية، ولا سارية إلاَّ وهي من أيدي المعاول سارية، ولا زرع إلاَّ وهو محصود، ولا موجود لك إلاَّ وهو منك مفقود، ولا منعتك تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم مخترقة وللعقول خارقة؛ وكيف سقنا عنك، ولم يسبقنا إلى

(*) اقتبست هذه الرسالة من المقريزي، من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص 153؛ كما أوردها ايضا القلقشندي في صبح الاعشى، ج8، ص299.

مدينتك أنطاكية خبر، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق اننا قد نبعد عنك، وان بعدنا فسنعود على الاثر.

وها نحن نعلمك بما تم، ونفهمك بالبلاء الذي عم: كان رحيلنا عن طرابلس يوم الأربعاء رابع عشر من شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان. وفي حالة النزول خرجت عساكرك المبارزة فكسروا، وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كند اسطبل، فسأل مراجعة اصحابك، فدخل الى المدينة، فخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك، فتحدثوا معنا فرأيناهم على رأيك من اتلاف النفوس بالغرض الفاسد، وان رأيهم في الخير مختلف، وقولهم في الشر واحد. فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت، وانهم قد قدر الله عليهم الموت، رددناهم وقلنا ((نحن الساعة لكم نحاصر، وهذا هو الاول في الانذار والاخر))، فرجعوا متشبهين بفعلك، ومعتقدين انك تدركهم بخيلك ورجالك، ففي بعض ساعة مر شأن المرشان، وداخل الرهب الرهبان ولان للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان.

وفتحنا بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان [18 مايو]، وقتلنا كل ما اخترته لحفظها والمحاماة عنها. وما كان احد منهم الا وعنده شيء من الدنيا، فما بقي احد منا الا وعنده شيء منهم ومنها.

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت ارجل الخيول، وديارك والنهابة فيها تصول، والكسابة، فيها تجول، وأموالك وهي توزن بالقنطار، ودامتك[1]، وكل اربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قد كسرت ونشرت، وصحفها من الاناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة قد بعثرت، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس، والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وابناء المملكة قد دخلوا في المملكة، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الاخرة تحترق وقصورك واحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القسان، وقد زلت وزالت لكنت تقول ((ياليتني كنت ترابا؟ وياليتني لم أوت بهذا الحبر كتابا! ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفيء تلك النيران بماء عبرتك، ولو رأيت مغانيك وقد اقفرت من معانيك، ومراكبك وقد اخذت في السويدية بمراكبك، فصارت شوانيك من شوانيك، لتيقنت ان الاله الذي اعطاك انطاكية منك استرجعها، والرب الذي اعطاك قلعتها منك قلعها، ومن الارض اقتلعها.

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام: وهو دير كوش

---

[1] دامتك: تعريب للكلمة الفرنسية (Danes) التي تعني السيدة، ومنها المصطلح الشائع (مدام).

وشقيف تلميس وشقيف كفر دنين، وجميع ما كان في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أصحابك من الصياصي، وفرقناهم في الداني والقاصي، ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان الا النهر، فلو استطاع لما سمى بالعاص، وقد أجرى دموعه ندما، وكان يذرفها عبرة صافية، فما هو احرها بما سفكناه فيه دما ((وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر بكونك لم يكن لك في انطاكية في هذه المدة اقامة، وكونك ما كنت بها فتكون اما قتيلا واما اسيرا واما جريحا واما كسيرا. وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي اذا شاهد الاموات. ولعل الله ما اخرك الا لان تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم احد يخبرك بما جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك ما سواها، باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك لتحقق الامر على ما جرى.

وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك ان تكذب لنا خبرا، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب آن لا تسأل غيرها مخبرا)).

ولما وصل اليه هذا اشتد غضبه ولم يبلغه خبر أنطاكية إلاّ من هذا الكتاب.

ملحق رقم (4)

قائمة بأسماء أمراء أنطاكية وتواريخ حكمهم بالتقويمين الهجري والميلادي خلال المدة الزمنية موضوع البحث(*)

1- بوهمند الاول (492-494هـ/1098-1100م)
2- تنكرد (وصي) (494-497هـ/1100-1103م)
3- بوهمند الأول (497-498هـ/1103- 1104م)
4- تنكرد (498-506هـ/1104-1112م)
5- روجر دي سالرنو (506- 512هـ/ 1112- 1119م)
6- بوهمند الثاني (520-525هـ/ 1126-1130م)
7- ريموند بواتيه (531- 544هـ/ 1136- 1149م)
8- رينودي شاتيون (548- 555هـ/ 1135-1160م)
9- بوهمند الثالث (558- 597هـ/1163-1201م)
10- بوهمندالرابع + كونتية طرابلس (597-613هـ/ 1201-1216م)
11- ريموند روبين (613- 616هـ/ 1216-1219م)
12- بوهمندالرابع + كونتية طرابلس (616- 630هـ/ 1219-1233م)
13- بوهمند الخامس + كونتية طرابلس (630- 649هـ/ 1233- 1251م)
14- بوهمند السادس + كونتية طرابلس (649-666هـ/ 1252-1268م)

(*) علما أن هذه المدة تخللتها مدد وصاية من قبل ملوك بيت المقدس على إمارة أنطاكية الصليبية حسبما هو مفصل في أثناء البحث.

المصادر والمراجع

المصادر الأصلية

❖ القرآن الكريم.

❖ ابن الاثير، ابو الحسن بن أبي الكرم (ت: 630هـ/ 1233م).

– التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق، عبد القادر احمد طليمات (القاهرة، 1963).

– الكامل في التاريخ 12مج (بيروت 1386هـ/1966م).

❖ الاصطخري، ابو إسحق ابراهيم بن محمد (عاش في القرن الرابع الهجري).

– مسالك الممالك، طبعة ليدن، 1927م.

❖ الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت: 597هـ/ 1201م).

– البرق الشامي، تحقيق الدكتور فالح صالح حسين، ط(1)، الاردن (عمان، 1987).

– الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة (د : ت)

❖ امرؤ القيس

– ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط3 (القاهرة، 1969).

❖ الأنصاري، شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن ابي طالب المعروف بشيخ الربوة (ت: 727هـ).

– نخبة الدهر في عجائب البر والبحر طبعة، لايبزك 1923.

❖ الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت: 458هـ/ 1066م).

– التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت 1909).

❖ الأيوبي، محمد تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت: 617هـ).

– مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق د . حسن حبشي، عالم الكتب (القاهرة، 1968).

❖ ابن بطوطة، ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت: 779هـ/ 1377م).

– رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار، المكتبة التجارية الكبرى (القاهرة، 1357هـ/ 1938م).

❖ البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الخالق (ت: 739هـ).
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق، علي محمد البجاوي، البابي الحلبي، ط(1)، (القاهرة، 1373هـ/ 1954م).
❖ البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت: 279هـ/ 892م).
- فتوح البلدان، تحقيق عبد الله انيس الطباع، مؤسسة المعارف (بيروت، 1407هـ/ 1987).
❖ البنداري، الفتح بن علي (ت: 643هـ).
- سنا البرق الشامي، اختصار البنداري من كتاب (البرق الشامي)، للعماد الكاتب الاصفهاني، تحقيق د. فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي (القاهرة، 1979م).
❖ التجاني، أبو محمد عبد الله بن أحمد (ت: حوالي الربع الاول من القرن الثامن الهجري). تقديم حسن حسين عبد الوهاب.
- رحلة التجاني، المطبعة الرسمية (تونس، 1958م).
❖ التطيلي، الربي بن يونه (ت:569هـ).
- رحلة بنيامين، ترجمه عن العبرية عزرا حداد (بغداد 1945).
❖ ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين يوسف (ت:874هـ/ 1469م).
- النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة 1935).
❖ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت: 614هـ/ 1217م).
- رحلة ابن جبير، مكتبة الهلال (بيروت 1981).
❖ جوانفيل
- القديس لويس حياته، حملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي ط(1)، دار المعارف في مصر (القاهرة، 1968).
❖ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن محمد بن علي (ت:597هـ/ 1201م).
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الدار الوطنية (بغداد1990).
❖ الحنبلي، أحمد بن ابراهيم (ت:876هـ).
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق، ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، سلسلة كتب التراث، (بغداد 1978).
❖ الحنبلي، قاضي القضاة مجير الدين عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن(ت:926هـ).
- الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، قدمه بحر العلوم. منشورات المطبعة الحيدرية، ط(2) النجف الاشرف، 1968.
❖ الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت: في حدود 900هـ).
- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط(2)، (بيروت 1980).

❖ ابن حوقل، أبو القاسم محمد (عاش في القرن الرابع الهجري).
- المسالك والممالك (لايدن 1873م)
❖ ابن خردا ذبة، ابو القاسم بن عبد الله(ت: في حدود 300 هـ).
- المسالك والممالك، تحقيق دي غوبا (لايدن 1889م) ومعه نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لابي الفرج قدامة بن جعفر المتوفي سنة 320هـ.
❖ خسرو، ناصر (ت:453هـ/ 1061م).
- سفر نامه، رحلة ناصر خسرو الى لبنان، وفلسطين، ومصر، والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقله الى العربية، د . يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط(2)، (بيروت 1970).
❖ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: 808هـ/ 1406م).
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات (بيروت،1391 هـ/ 1971م).
❖ الدواد اري، ابي بكر بن عبد الله بن ايبك، (ت: حوالي سنة 735هـ).
- كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، (القاهرة، 1972).
❖ الدينوري، ابو حنيفة احمد ابن داؤد (ت: 282هـ).
- الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، البابي الحلبي، ط(1)، (القاهرة،1960).
❖ الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت: 748هـ/ 1348م).
- العبر في خبر غبر تحقيق فؤاد رشيد، (الكويت1961).
❖ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت:290هـ)
- كتاب الأعلاق النفيسة، ومعه كتاب البلدان لليعقوبي، مطابع بريل (ليدن 1891م).
❖ زهير بن أبي سلمى
- (الديوان) صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني (ثعلب) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، 1944.
❖ سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر (654هـ/ 1262م).
- مرآة الزمان في تاريخ الاعيان، ط(1)، (حيدر اباد ، 1951م).
❖السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن أبي الحسن (ت:771هـ/1370م).
- طبقات الشافعية الكبرى، المطبعة الحسينية (القاهرة، 1324هـ).
❖ السيوطي، عبد الرحمن بن ابي بكر، جلال الدين (ت: 911هـ/1505م).
- تاريخ الخلفاء، أمراء المؤمنين، دار الفكر بيروت، (1394هـ/1974م).
❖ ابو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان، (ت: 665هـ/ 1267م).
- عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق احمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة (دمشق 1992).

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد (القاهرة، 1956).

❖ ابن شاهين، غرس الدين بن خليل القاهري (ت:872هـ/1467م).

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راوس، طبع في باريس، مطبعة الجمهورية 1894.

❖ ابن الشحنة، ابو الفضل محمد (ت:890هـ/ 1485م).

- الدر المنتخب، في تاريخ مملكة حلب، مطبعة الآباء اليسوعيين، (بيروت 1909).

❖ ابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت: 632هـ/1234م).

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي) تحقيق، الدكتور جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والنشر، ط(1)، (القاهرة 1964).

❖ ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم (ت:684هـ).

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الاول والثاني ج1، تحقيق يحيى طبارة (دمشق 1978)، القسم الاول والثاني ج2، تحقيق سامي الدهان(دمشق 1956، 1962).

❖ الطبري، محمد بن جرير (310هـ/ 922م).

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة 1960– 1969).

❖ ابن ظافر، جمال الدين علي.

- أخبار الدول المنقطعة، تحقيق الفردية فرية(القاهرة 1972).

❖ ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي(ت:685هـ/ 1268م).

- تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية(بيروت 1958).

❖ ابن العديم، أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله(ت:660هـ/1262م).

- بغية الطلب في تاريخ حلب، عني بنشره وعلق عليه الدكتور علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية– انقرة 1976.

- زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان(بيروت 1968).

❖ ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله(ت:571هـ/1176م).

- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين منجد، مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق 1945.

❖ ابن العماد، عبد الحي بن علي بن محمد (ت:1089هـ/ 1679م).

- شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت، د : ت).

❖ العمري، شهاب الدين أبو العباس، المعروف بابن فضل الله (748هـ/ 1348م).

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، الأستاذ أحمد زكي باشا، مطبعة الكتب المصرية، (القاهرة 1342هـ/ 1924م).

❖العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى(ت: 855هـ/ 1451م).
- منتخبات من عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية، ج1، مج3.
❖ الغساني، أبو العباس، إسماعيل بن العباس (ت:803هـ).
- العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق، شاكر محمد عبد المنعم، دار التراث، بيروت- دار البيان، بغداد (1975م).
❖ابو الفداء، عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر صاحب حماة (ت:732 هـ/ 1331م).
- كتاب تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينو والبارون مالك كوكين، طبع مدينة باريس، بدار الطباعة السلطانية (1840م).
- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، ط(1).
❖ ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت: 807هـ/ 1405م).
- تاريخ ابن الفرات، تحقيق الدكتور قسطنطين زريق، المطبعة الاميركانية (بيروت 1942م).
❖ ابن أبي الفضائل مفضــــل (ت: منتصف ق8 هـ تقريبا).
- كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، (باريس، 1932م).
❖ ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت: اواخر ق 3 هـ).
- مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، لايدن 1302هـ.
❖ القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود (ت: 682هـ/ 1283م).
- آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت /1960م).
❖ القفطي، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف (ت: 646هـ).
- تاريخ الحكماء، من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، برلين (لايبزج، 1903)
❖ ابن القلانسي، أبو يعلى بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد (ت: 555هـ/ 1160م).
- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، (بيروت 1908م).
❖ القلقشندي، أحمد بن علي بن عبد الله (ت:821هـ/ 1418م).
- صبح الأعشى في صناعة الانشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، (القاهرة 1963).
❖ الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت: 764هـ/ 1363م).
- عيون التواريخ، تحقيق الدكتور فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، وزارة الاعلام، (بغداد، 1397هـ/1977م).
❖ ابن كثير ابو الفداء، الحافظ الدمشقي(ت: 774هـ).
- البداية والنهاية، تحقيق، د.أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتاب العلمية(بيروت 1987).

❖ مجهول.
- أعمال الفرنجة، وحجاج بيت المقدس، ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور حسن حبشي، دار الفكر العربي، (القاهرة، 1958).
❖ المقريزي، تقي الدين ابو العباس، احمد (ت:845هـ/ 1442م).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة 1939).
❖ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: 346هـ/ 957م).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تدقيق يوسف أسعد داغر، دار الأندلس ط(2)، (بيروت 1393هـ/ 1973م).
❖ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت:711 / 1311)
- لسان العرب المحيط (4) مجلدات (بيروت 1970).
❖ ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر اسامة بن مرشد (ت:584 هـ/ 1188م).
- كتاب الاعتبار، حرره، فيليب حتي (برنستون 1930م).
❖ ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف (ت:677هـ/ 1278م).
- تاريخ مصر، تحقيق هنري ماسيه، (القاهرة 1919م).
❖ النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت:733هـ/ 1332م).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (القاهرة، د.ت)
❖ الهمذاني، رشيد الدين فضل الله (ت: 817هـ)
- تاريخ المغول، نقله عن الفارسية الى العربية/ محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، (القاهرة 1960).
❖ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت:697هـ/ 1298م).
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج1، 2، 3، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، نشر دار القلم، ج4، تحقيق الدكتور حسن محمد ربيع، مطبعة دار الكتب (القاهرة 1972م).
❖ ابن الوردي، ابن حفص بن زيد الدين عمر بن مظفر بن عمر (ت:749 هـ/ 1349م).
- تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، ط(2) (1389هـ/ 1969م).
❖ ياقوت الحموي، ابو عبد الله(ت:626هـ/ 1228م).
- معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت (بيروت 1955).
❖ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت: بعد سنة 292هـ).
- كتاب البلدان معه كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته.
❖ اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد بن احمد (ت: 726هـ)
- ذيل مرآة الزمان، دار المعارف، حيدر اباد ط1(الدكن 1954)

المراجع العربية والمعربة

❖ أحمد بدوي

- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (القاهرة، د :ت).

❖ أحمد، خليل ابراهيم (الدكتور) وآخرون.

- تركيا المعاصرة، جامعة الموصل، ط(1)، 1986.

❖ أحمد كمال الدين حلمي.

- السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية ط1(الكويت 1975).

❖ ارشيبالد، لويس.

_ القوة البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة محمد عيسى(القاهرة، 1860).

❖ انتوني ويست.

- الحروب الصليبية، ترجمة شكري محمود نديم (بغداد 1967).

❖ باركر، ارنست.

- الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني- دار النهضة ط(2) بيروت (1967).

❖ بدري محمد فهد (الدكتور).

- تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الارشاد، (بغداد 1973).

❖ بروكلمان، كارل

- تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين (بيروت، 1954).

❖ البستاني، فؤاد افرام

- دائرة المعارف، قاموس لكل فن ومطلب مج 8 (بيروت 1969).

❖ بول اميل

- تاريخ أرمينيا، ترجمة شكري علاوي، منشورات مكتبة الحياة، (بيروت، د :ت).

❖ تارن، السيروليم وودثورب.

- الحضارة الهلينستية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد مراجعة زكي علي، مكتبة الانجلو المصرية(القاهرة 1966).

❖ التكريتي، محمود ياسين أحمد (الدكتور).

- الايوبيون في شمال الشام والجزيرة،

وزارة الثقافة والاعلام- دار الرشيد للنشر- (بغداد 1981).

❖ توينبي، انولد.

- مختصر دراسات التاريخ. ترجمة فؤاد شبل

❖ جب، هاملتون، ا . ر.
- صلاح الدين الايوبي، تحرير، يوسف ايبش (بيروت 1973).
❖ الجميلي، رشيد (الدكتور).
- دولة الأتابكة في الموصل، بعد عماد الدين زنكي (541- 631هـ) دار النهضة العربية ط(2)، (بيروت 1975).
❖ الجنزوري، علية (الدكتورة).
- إمارة الرها الصليبية (القاهرة 1975).
❖ جودة حسين جودة
- جغرافية آسيا الاقليمية، منشاة المعارف بالاسكندرية ط (1)، 1985.
❖ جوزيف نسيم يوسف (الدكتور).
- العدوان الصليبي على بلاد الشام، دار النهضة، (بيروت،1981).
❖ جونز، ا.هـ.م
- مدن بلاد الشام، حين كانت ولاية رومانية، ترجمة الدكتور إحسان عباس، دار الشرق للنشر والتوزيع، ط(1) الاردن (عمان 1987).
❖ حبشي، حسن (الدكتور)
- الحروب الصليبية الاولى، (القاهرة 1958).
- نور الدين الصليبيون، دار الفكر (القاهرة 1948).
❖ حتي، فيليب (الدكتور).
- تاريخ العرب (مطول)، مطابع الغندور ط (4) (بيروت 1958).
- تاريخ لبنان، دار الثقافة ط(3) (بيروت، 1972).
❖ حسنين، حسن عبد الوهاب (الدكتور)
- تاريخ جماعة الفرسان التيتون في الأراضي المقدسة(الاسكندرية 1989)
❖ حسين مؤنس (الدكتور)
- نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، ط (1) (القاهرة،1959).
❖ حكمت مجيد عبد الرحمن
- دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، وزارة التعليم العالي، جامعة الموصل 1397هـ/ 1977م.
❖ الحميدة، محمد سالم.
- الحروب الصليبية، 3 أجزاء، دار الشؤون الثقافية (بغداد،1990- 1993).
❖ خليل، عماد الدين (الدكتور).
- عماد الدين زنكي، مطبعة الزهراء الحديثة (الموصل، 1406هـ/ 1985م).

❖ خورشيد، إبراهيم زكي وآخرون.
- دائرة المعارف الاسلامية أصدرها كبار المستشرقين.
❖ داوني، جلانفيل
- أنطاكية القديمة ترجمة ابارهيم نصحي، دار النهضة (القاهرة 1967)
- أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة الدكتور البرت بطرس، مكتبة لبنان (بيروت 1968).
❖ رضا بك، أحمد.
- وثائق عن الحروب الصليبية، ترجمة محمد بو رقيبة ومحمد الصادق الزمرلي، دار ابو سلامة للطباعة ط(3) (تونس، 1977).
❖ رنسيمان، ستيفن.
- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني، دار الثقافة، ط (1) (بيروت، 1968- 1969).
- الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1961).
❖ الرويشدي، سوادي عبد محمد.
- إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ(مطبعة الارشاد بغداد 1972).
❖ زامباور.
- معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ. ترجمة الدكتور محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرون(القاهرة،1951- 1952).
❖ سعداوي، نضير حسان(الدكتور).
- الحرب السلام زمن العدوان الصليبي، (القاهرة، 1961).
❖ ابو سعيد حامد غنيم (الدكتور)
- الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ط2، دار الثقافة(القاهرة 1984).
❖ شارل ديل.
- بيزنطة عظمتها واضمحلالها، ملحق كتاب الامبراطورية البيزنطية، لنورمان بينز، ترجمة د.حسين مؤنس ومحمود زايد، (القاهرة، 1957).
❖ الشيال، جمال الدين
- تاريخ مصر الاسلامية (القاهرة 1967).
❖ الصياد، محمد محمود (الدكتور)
- سالم جغرافية الوطن العربي، مج1 (بيروت، 1972).
❖ طرخان، أبراهيم طرخان.

- النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط، دار الكتب (القاهرة 1968).
❖ طيباوي، عبد اللطيف (الدكتور).
- محاضرات في تاريخ العرب والاسلام، دار الاندلس للطباعة والنشر ط(1) 1979
❖ عاشور، سعيد عبد الفتاح (الدكتور).
- أوربا العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، ط (3) (القاهرة 1964).
- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية (بيروت 1972).
- الحركة الصليبية صفحة مشرقة عن تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية ط (1)، 1963.
❖ العبادي، أحمد مختار.
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام (بيروت، 1969م).
❖ العبادي، أحمد مختار والدكتور عبد العزيز سالم.
- تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، ط(1) (بيروت، 1972).
❖ العدوي، إبراهيم أحمد (الدكتور).
- المجتمع الاوربي في العصور الوسطى، دار المعرفة ط1(القاهرة 1961).
❖ العروسي، محمد المطوي.
- الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، نشر دار الكتابة الشرقية (تونس 1954).
❖ العريني، السيد الباز (الدكتور).
- الشرق الأدنى في العصور الوسطى، دار النهضة العربية (بيروت،1963م).
❖ العقيقي، نجيب.
- المستشرقون، دار المعارف، ط (4) (القاهرة 1980).
❖ عمر كمال توفيق (الدكتور).
- مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي (الاسكندرية، 1967).
❖ غربال، محمد شفيق.
- الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة لبنان (بيروت 1980).
❖ الغزي، كامل بن حسين بن محمد البالي.
- نهر الذهب في تاريخ حلب، (حلب 1926).
❖ فشر، هـ. أ. ل.
- تاريخ أوربا (العصور الوسطى) القسم الأول، ترجمة محمد مصطفى زيادة وزميليه، (القاهرة 1966).
❖ فهمي توفيق مقبل

- الفاطميون والصليبيون (بيروت 1980).
❖ قاسم عبده قاسم.
- ماهية الحروب الصليبية، سلسلة كتاب عالم المعرفة (الكويت 1990).
❖ القزاز، محمد صالح داود (الدكتور)
- الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير 512- 656هـ. (النجف الاشرف 1971).
❖ قلعي، قدري.
- صلاح الدين الايوبي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، دار الكتاب العربي (بيروت 1966).
❖ كرامب وجاكوب.
- تراث العصور الوسطى، راجع الترجمة محمد بدران، ومحمد مصطفى زيادة، مؤسسة سجل العرب 1965.
❖ كلاري، رويرت
- فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمها عن الفرنسية وقدّم لها، الدكتور حسن حبشي (القاهرة 1964).
❖ كلود، كاهن.
- الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ (القاهرة، 1995).
❖ كوبلند، ج. ر.
- الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا، ترجمة محمد مصطفى زيادة (القاهرة 1946).
❖ لامب، هارولد.
- شعلة الإسلام، قصة الحروب الصليبية، ترجمة عبد الله يعقوب، مكتبة المثنى (بغداد، 1967).
❖ لانجر، وليم.
- موسوعة تاريخ الإسلام، أشرف على ترجمتها محمد مصطفى زيادة (القاهرة 1959).
❖ لسترنج (ج).
- بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، (بغداد 1945).
❖ لوبون، غوستاف.
- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء العربي (بيروت 1979).
❖ لويس، برنارد.
- الغرب والشرق الأوسط، تعريب نبيل صبحي، (لاغوس 1965).
❖ متز، آدم.

- الحضارة الأسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة الدكتور عبد الهادي ابو ريدة (القاهرة 1940- 1941).
❖ محمد عمارة (الدكتور).
- معارك العرب ضد الغزاة، (بيروت 1975).
❖ محمد كرد علي.
- كتاب خطط الشام، مطبعة الترقي (دمشق 1926م).
❖ المعاضيدي، خاشع (الدكتور).
- الحياة السياسية في بلاد الشام في العصر الفاطمي، ط(1)، دار الحرية(بغداد 1975).
❖ مقبل، فهمي توفيق
- الفاطميون والصليبيون، (بيروت 1980).
❖ ناجي، عبد الجبار (الدكتور).
- الإمارة المزيدية، دراسة في وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي (397هـ/ 558هـ) دار الطباعة الحديثة (بغداد 1970).
❖ نخلة ورد.
- حضارة أنطاكية عبر العصور، مطبعة صفدي التجارية 1956.
❖ النقاش، زكي (الدكتور).
- العلاقات الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية بين العرب والفرنج، خلال الحروب الصليبية(بيروت 1958).
❖ نوري، دريد عبد القادر (الدكتور).
- سياسة صلاح الدين الأيوبي، في مصر والشام والجزيرة، مطبعة الارشاد (بغداد، 1976).
❖ نيقولا زيادة.
- دمشق في عصر المماليك، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (بيروت، نيويورك 1966).
❖ هامرتون، جون.
- تاريخ العالم، ترجمة طائفة من الكتاب، وزارة التربية والتعليم، بأذن شركة الطباعة المتحدة في لندن، مكتبة النهضة المصرية.
❖ ول ديور انت.
- قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، منشورات جامعة الدول العربية. (القاهرة 1965).
❖ اليوسف، عبد القادر (الدكتور).
- الامبراطورية البيزنطية (بيروت 1966).

المصادر والمراجع الاجنبية

* Albert D, Aix

-Liber christianae Expeditions Pro Ereption Emundatione Et Restitutione sonctae Hierosolymitanae Ecc- Lesiae.

* Americana Encyclopadia (U.S.A 1962)

* Anna Comena

-The Alexiad of Anna Comena (Tarnsleted from the greek by sewter, E. R. A- Penguin classics– 1969)

* Archer(T.A) & Kings ford(C.L)

- The Crasades, The store of the Latin Kingdom of Jerusalem, second impression, London 1894.

* Baldwin(M.W)

- Raymond III of Tripoli and the fall of Jerusalem (Princton 1963).

* Block(M.)

–Feudal society Trans from French by L.A Moyon(Londm1961).

❖ Britannica Encyclpedia, William Benton, Publisher, (London 1768)

* Bouchier(E.S)

- A short history of Antioch(Oxford 1921)
- Syria as a Roman province(Oxford 1915).

* Bury(J.B)

- History of the later Roman Empire(London 1923)

* Cahen(C.)

- La Greceet L, Hellenisation dumond Antique(Paris 1948).
- La Syrie du nord al, epoque des croisades et al principaute franque D, Antioch(Paris 1940)

* CAMPRIDGE ANCIENT HISTORY(1928).

* CAMPRIDGE MEDIEVAL HISTORY(1957).

*chapter(V.)

- La frontier de L,euphrate(Paris 1908).

* Cary(M.)

- The Geographic background of Greek and Roman history(Oxford 1949).

* Chalandon(F.)

- History de la premiere croisade(Paris 1925).

* DIEHL(C.) & MARCAIS(G.)

- History de L,Empire Byzantin(Paris 1969).

* DOUNEY(G.)

- A History of Antioch in Syria- from seleucus to the Arab conquest(Priceton 1961).

* DUNCALF(F.)

- The Pobe's Planfor the first crusade (the erusades & other historical essays presented to dana muner) New York 1968.

*DUSSAUD(R.)

- Topographic historique D la syrie Antique et medivale (Paris 1927).

* ELISSEEFE (N.)

- Nur AD- Din, Un Grand prince Musulman de syrie au temps Des croisades(5H- 569/ 1118-1174) Damas 1967.

* EMMANUEL SIVAN

- L Islam et la croisade(Paris 1968).

* E.M. BOXTON

- The story of the crusades (London 1933).

* FENWICK(K.)

- The third crusade, Printed in Greart Britain.

* FULCHER OF CHARTRES.

- A History of the expeditions to Jerusalem (trans. By Frances Rita Ryan 1969).

* GIBB

- The Caliphate and state (in setton: history of the crusades).

* GRUSSET(R.)

- Histoire Des Croisades et du Royaume franc de Jerusalem (Paris 1934).

- Histoire De L, ARMENIE (Paris 1947).

* HAGENMAYER (H.)

- Chonologie de la permiere croisade(Paris 1922)

* HAROLD (S.F)

- Foundation of the states 1099- 1118 (in setton: A History of the crusades).

* HARRAR(A.)

- Studies in the history of Roman Provice of Syria (Princeton 1915).

* Heyd

- Histoire du commerce du Levant(Leipzig 1936).

* KERR, ANTHONY J.C.

- The crusades, first published 1966 Greet Britain.

* KERY(A.)

- Aneglected Passage in the Gaesta(The crusades & other historical essays Presented to dona munro (New York 1968).

* KURGER

- The Italian cities (in setton: A history of the crusades)

* LAMB(H.)

- The crusades: ironmen and saltns (London 1930).

* LA MONTE(J.L.)

- Fuedul monarchy in the latin kingdome of Jersulam (New York 1970)

* LOT(F.)

- The end of the ancient world (trans. by Lean London 1953).

* MASSON.G

- Mediaevel France from the reigon of hugues capet to the beginning of the 16th century (London, 1888).

* MATHIVE D, EDESSE

- Extrait De La Chronique De Matthieu D' Edesse.

* MAYER(H. E)
- The crusades(Trans. by jone gilling hom oxford, 1972).
* MCNALL, RAND
- The international Atlas(New York 1977).
* MERIT, STUDENTS Encyclopedia (U.S.A 1979)
* MICHEL. LE SYRIEN
- Chrongue De Michel Le Syrien(Paris 1906).
* NORMAN (P.Z.)
- The children's crusades(in setton A history of the crusades).
* OSTROGORSKY (G.)
- History of the Byzantine state (Oxford 1956).
* PAINTER
- Western Europe(in setton A history of the crusades).
* PERNOVD(R.)
- The crusades (London, 1963).
* PIRENNE(H.)
- A history of Aurope.
* RAYMOND D, AGILES
- Histoire Francorum qui ceperunt jherusalem.
- Olymitana in R. H. C. H. Occc, Vol III.
* Radulph of caen
-Gesta Tancredi Siciliac Rehes in Expedition Hierosolymitana in R. H. C. H. occ, Vol III.
* ROPNSON (J.H.)
-An introduction to the history of western Europe(Boston, 1907).
* Rostovetzeff(m.)
- A history of the Ancient world(Oxford 1933).
* ROBERT (L.N.)
- The growth of latin states, 118-1144 (in setton: A history of the crusades).
* RUNCIMAN(S.)
- The first crusades Antioch to Ascalon(in setton: A history of the crusades).
* SETTON (K.M.)
- A history of the crusades (London 1969).
* SMAIL (R.C.)
- Crusading warfar (Campirdge 1950)
* SOUTHREN (R.W.)
- The Making of the middle ages.
* Stevenson (W.B.)
-The crusades in the East, Cambridge university(London 1958).
* THOMPSON (J.W.)
- Econmic and social history of the middle ages (New York 1969).
* VIRGINIA, G, BERRY
-The second crusades (in setton: A history of the crusades).

* WARREN O. AULT
- Europe in the middle ages (Poston 1946).
* WILLIAM OF TYRE
- A history of deeds done beyond the sea, (traus. by Babcock & Kery New York 1943).
* W. ROBSON. MICHAVDS
- History of the crusades (London 1852).
* WYCHELEY
- How the Greek built cities (London 1962).
* YEWDALE (R.B.)
- Bohemond (I) Prince of Antioch (Princeton 1924).
* ZOE OLDEN BOURG
- The crusades (New York 1965).

البحوث والدراسات في الدوريات

❖ أحمد، إبراهيم خليل (الدكتور)

– خطط أنابيب السلام والأمن المائي العربي، بحث مطبوع مقدم إلى ندوة المياه والسدود في مركز الدراسات التركية بجامعة الموصل في 10/1/1988 ص19.

❖ أنور حاتم (الدكتور)

– شهود العيان على فتح الصليبيين أنطاكية، مجلة المشرق مج32(بيروت 1934) ص179–200.

❖ حبيب الزيات

– النساء الفرنجيات في عهد الصليبين، مجلة المشرق 43[1949] ص1–6.

❖ دريد عبد القادر نوري (الدكتور)

– الفكر العسكري للقائد صلاح الدين الايوبي، بحث منشور في مجلة آفاق عربية، مج16، العدد الرابع لسنة 1987، ص69– 84.

❖ سوادي عبد محمد (الدكتور)

– أضواء على التحالف الصليبي المغولي ضد العراق والمشرق العربي، مجلة المورد وزارة الاعلام بغداد، مج16، العدد الرابع، 1408هـ/ 1987م (عدد خاص) ص175.

❖ الصناعة السورية زمن الحروب الصليبية. بحث منشور في مجلة المقتطف بتوقيع، ص، ي، 33 [1908] ص202– 206.

❖ العابد، صالح (الدكتور)

– الحروب الصليبية بواعثها ودوافعها الممهدة، بحث منشور في مجلة المورد وزارة الثقافة والاعلام العراقية، مج16، العدد (4) لسنة 1408هـ/ 1987 ص5–15.

❖ مرتضى الشيخ حسن

- الحروب الصليبية وعبرها في كفاحنا ضد الصهيونية، بحث منشور في مجلة آفاق عربية، السنة الخامسة العدد (1) [1979] ص80- 93.

❖ نيقولا زيادة (الدكتور)

- سوريا زمن الصليبين، بحث منشور في مجلة المقتطف، 87 [القاهرة، 1953] ص16-22، 193-200.

الرسائل الجامعية

❖ راغب حامد عبد الله

- الحروب الصليبية بدايات الاستعمار الاوربي. رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عبد المنعم رشاد، مطبوعة على الآلة الكاتبة، جامعة الموصل 1983.

❖ الشمري، صالح حسن عبد عيسى

- العلاقات العراقية البيزنطية في العصر الاموي من 41- 132 هـ/ 661-750م، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور عبد الأمير حسين دكسن، مطبوعة على الآلة الكاتبة، جامعة بغداد 1988.

❖ عامرة علي الحمد

- العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية الصليبية في عهد الامبراطور الكسيوس كومونين (1098- 1118م)، رسالة ماجستير بإشراف الدكتور إبراهيم أحمد العدوي، مطبوعة على الآلة الكاتبة، جامعة الكويت 1976.

فهرس

تصدير بقلم الدكتور خاشع المعاضيدي	5
مقدمة	7
أ- نطاق البحث	7
ب- تحليل مصادر البحث	10
أولاً: المصادر العربية	10
ثانياً: المصادر الاجنبية	14
تمهيد	21
الفصل الاول: جغرافية إمارة أنطاكية	29
أولاً: الموقع	30
ثانياً: الحدود	34
ثالثاً: المدن المهمة	37
أ- مدينة انطاكية	38
ب- مدن قيليقية	40
1- اذنة	40
2- المصيصة	41
3- طرسوس	42
ج- مدن متفرقة	43
1- بغراس	43
2- دريساك	43
3-البستان (الابليستين)	44
4- عزاز	45

5-ارتاح 46
6- حارم 46
7- الأثارب 47
8- البارة 47
9- كفر طاب 48
10- أفامية 48
د- مدن الموانيء 49
1- اللاذقية 49
2-السويدية 50
3- الاسكندرونة 51
رابعا- النواحي الطبيعية 52
أ- السطح 52
1- السهول 52
أ- السهول الساحلية 52
ب- السهول الداخلية 53
2- الجبال 54
أ- جبال اللكام (الامانوس) 54
ب- الجبل الأقرع (كاسيوس) 56
ج-جبال العلويين (النصيرية) 56
ب- الأنهار المهمة والبحيرات 57
1- الانهار 57
أ- نهر العاصي 57
ب- نهر جيحان 58
جـ- نهر سيحان 59
د- نهر البردان 60
هـ- أنهار عفرين والأسود ويغرا 60
2- البحيرات 61
أ- بحيرة انطاكية 61
ب- بحيرة افامية 61

اهم المزايا المناخية 62

الفصل الثاني: مقدمات الغزو وقيام الإمارة 79
اولاً: الشرق العربي الاسلامي قبيل الغزو الصليبي 80
ثانيا :- الغرب الاوربي قبيل الغزو الصليبي 85
أ- الحالة العامة ودوافع الغزو 85
ب- تكوين الحشود الصليبية والزحف الصليبي نحو الشرق 90
ج-الأمراء الصليبيون والامبراطور البيزنطي 95
د-الصليبييون في آسيا الصغرى 98
هـ- حصار انطاكية، ثم سقوطها 102
و- قيام إمارة أنطاكية الصليبية 109

الفصل الثالث: علاقة امارة انطاكية بسلاجقة الشام وعدد من القوى المحلية الأخرى 125
أهم القوى المحيطة بإمارة أنطاكية 125
اولا : العلاقة مع حلب 127
ثانيا : العلاقة مع دمشق 135
ثالثا : العلاقة مع عددٍ من الامارات المحلية الاخرى 140
أ- العلاقة مع شيزر 140
ب- العلاقة مع حمص 144
ج- العلاقة مع بني عمار في طرابلس 146

الفصل الرابع: علاقة امارة انطاكية بالخلافتين العباسية والفاطمية ثم الزنكيين والأيوبيين 157
أولاً: العلاقات الخارجية 157
أ- علاقة الإمارة بالخلافة العباسية 157
ب- علاقة الامارة بالخلافة الفاطمية 164

ثانيا : العلاقات المحلية 168
أ- علاقة الإمارة بالزنكيين 168
ب- علاقة الإمارة بالأيوبيين 174

الفصل الخامس: سقوط إمارة أنطاكية الصليبية 197
أولاً : الأسباب الخارجية 197
أ- ما يتعلق بالغرب الاوربي 197
ب- الصراع البيزنطي الأنطاكي 204
ثانيا – الأسباب المحلية 212
أ- مشاكل الإمارة مع جيرانها الصليبيين 212
1- إمارة الرها 212
2- إمارة طرابلس 214
ب- مشاكل الإمارة مع الارمن 216
ج- ظهور المماليك 221
ثالثا : الأسباب الذاتية (الداخلية) 225
أ- مشاكل العرش 225
ب- الصراع المذهبي ودور الكنيسة 231

الفصل السادس: المعطيات الحضارية لإمارة أنطاكية 247
اولاً : نظم الحكم والادارة 247
أ- النظام السياسي 247
ب- النظام القضائي 250
ج- النظام الإداري 252
د – النظم العسكرية 254
ثانيا : الحياة الاجتماعية وأهم الطبقات 256
أ- طبقة النبلاء والفرسان (الطبقة الارستقراطية) 257
ب- الصليبيون من غير النبلاء والفرسان 260
جـ – النصارى الشرقيون 261

د- المسلمون 262
هـ - الطبقة الدنيا (الرقيق والأقنان) 264
ثالثا : النشاط الاقتصادي 266
أ - الزراعة 266
ب- التجارة والموارد المالية 268
ج- النقود 274
د- الصناعة 276
رابعا : الحياة العلمية 277

الخاتمة 293
الملاحق 297
المصادر والمراجع 305

إمارة إنطاكية

إمارة انطاكية هي واحدة من أربع إمارات أنشأها الصليبيون في بلاد الشام، إبان الغزو الصليبي على المشرق الإسلامي،.

عالج الباحث موضوعه في حقبة تاريخية معقدة، تشابكت فيها المصالح، وتصادمت الأفكار والديانات والحضارات على أرض مقدسة لدى جميع الأطراف المتنازعة، كونها موطن الأنبياء والرسل ومهبط الديانات السماوية كلها، والتي كانت وما تزال وستبقى مركز اهتمام جميع حكومات ودول وشعوب العالم .

يتكون الكتاب من ستة فصول مهد لها الباحث بالحديث عن الظروف الداخلية والخارجية التي سبقت إقامة هذه الإمارة مع تحليل للمصادر التي اعتمدها في بحثه ومقدمة موجزة وفي الفصل الثاني تحدث عن مقدمات الغزو الصليبي الأوربي للمشرق الإسلامي موضحاً الواقع العربي الإسلامي المجزأ قبل الغزو ودوافع الغزو الأوربي الصليبي والحشد الشعبي والعسكري لهذا الغزو تحت شعار الصليب لتحرير القدس

وتحدث في الفصل الثالث عن علاقة هذه الإمارة بالقوة الإسلامية في بلاد الشام منها : إمارة حلب، وإمارة دمشق، وإمارة حمص، وشيزر، وبني عمار في طرابلس .

وفي الفصل الرابع تحدث عن علاقة إمارة إنطاكية مع الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في مصر وكذلك مع الزنكيين والأيوبيين في بلاد الشام ومصر.

وعالج الباحث في الفصل الخامس سقوط إمارة إنطاكية الصليبية ، موضحاً الأسباب الخارجية المتعلقة بالغرب الأوربي المسيحي وما شابه من تفكك، فضلاً عن الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة إنطاكية على النفوذ في المنطقة، والصراعات المذهبية ودور الكنيسة في ذلك .

أما في الفصل السادس، فقد خصص لدراسة الجانب الحضاري لهذه الإمارة، فقد تحدث عن نظام الحكم والإدارة في جوانبها السياسية والقضائية والعسكرية،

وتضمن الكتاب عدداً من الخرائط الجغرافية والصور المناسبة لموضوع البحث

وقام الباحث بهذه الدراسة وفق منهج علمي سليم واستقصاء دقيق للمعلومات من الأصلية، عربية وأجنبية ورسائل الماجستير وأطاريح دكتوراه عديدة ودوريات كثيرة معلوماتها بأسلوب امتاز بالدقة والوضوح .

أملي أن يأخذ هذا الكتاب المتميز مكانه في صدارة المكتبة العربية والإسلامية والأ




9 789933 509286

